٤ ...

جورج انطونيوس

يقظة العرب

تعريب

علي حيدر الركابي

دمشق — مطبعة الترقي

١٣٦٥ — ١٩٤٦

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب

من قصيدة لابراهيم اليازجي

الاهداء العرب

إلى روح جورج انطونيوس ، الرجل الذي تمثل في شخصه الجيل العربي الجديد :

الجيل المتحرر من التقاليد البالية والافكار الوهمية المستقرة ،

الجيل العامل على تحطيم الاصنام ليضمن لأمته حياة حرة صادقة — حياة مبنية على تفكير مستقل ودراسة عميقة للحوادث والاحداث والاشخاص —

الجيل الذي لايحدد بالسن بل بالفكر الواضح والحجة السليمة والمثالية العربية الواعية :

المثالية التي ولدها البحث العلمي الهادي، فنبذت الخيال الجامح المراهق.

جامعة الدول العربية
الامانة العامة

سمعت من كثير من قراء الانجليزية في كل مكان بانجلترا وامريكا ان كتاب « يقظة العرب » هو من أنفس الكتب في الدفاع عن قضية العرب . والكتاب حقاً من أعظم الوثائق التي بيد العرب وأحقها بالقراءة والاذاعة . وكنت أعرف مؤلفه الاستاذ جورج أنطونيوس رحمه الله رجلاً عربياً فاضلاً خبيراً بالمسائل العربية والانجليزية ، وكان زميلاً لي في مؤتمر فلسطين بلندن سنة ١٩٣٩ اذ عمل كسكرتير عام لهذا المؤتمر ، وأظهر طول مدة انعقاده في قصر « سنت جيمس » كفاية وروحاً قومياً أعجب بها الجميع .

وقد حدثتني أرملته الفاضلة السيدة كيتي أنطونيوس ، بنت الدكتور فارس نمر باشا ، بشأن ترجمة الكتاب ، فلجأت الى الحكومة السورية التي تمثل بلاداً انبعث منها أول صوت في الدعوة الى الوحدة العربية ، أستعين بها على ترجمة هذا الكتاب ونشره بالعربية : وذلك قبل أن توجد جامعة الدول العربية ، فأخبرت وقتئذ بعنايتها بهذا الاقتراح . والآن علمت أنها عهدت الى السيدعلي حيدر بن رضا الركابي بترجمته .

ومن دواعي السرور ان تخرج الترجمة العربية في زمان رأى العرب فيه أملاً من آمالهم يتحقق بانشاء جامعة الدول العربية التي ابتدأ بها عهد انشائي ايجابي لخدمة القضية التي وضع المؤلف كتابه لخدمتها ، ولا شك ان روحه يسر بابتداء هذا العهد .

واني اذ اكرر الشكر للحكومة السورية على هذا العمل العظيم والفضل الكبير ادعو للمترجم الفاضل ان يجازيه الله كل خير على جهده المحمود في تعريب الكتاب واخراجه ، وان يديم توفيقه في خدمة بلده والبلاد العربية جميعها .

عبد الرحمن عزام

القاهرة في ربيع الثاني سنة ١٣٦٥ (مارس سنة ١٩٤٦)

اهداء المؤلف

إلى تشارلز . ر . كراين

الذي لقب عن جدارة بهارون الرشيد : رمزاً للمودة .

كلمة المؤلف

يستهدف هذا الكتاب بالدرجة الاولى سرد حكاية وتوضيح مغزاها وهو لا يرمي الى تدوين التاريخ النهائي والمفصل للحركة العربية بل الى رسم الخطوط الكبرى لأصول تلك الحركة ونموها والمشاكل الرئيسية التي جابهتها وذلك بعرض متصل للوقائع يتخلله شيء من التحليل حين تقتضيه الضرورة لايضاح المشاكل .

ولم تسرد هذه الحكاية سرداً كاملاً قبل الآن . فقد نشر وصف لبعض مراحل القضية العربية هنا وهناك إلا انني لم أعثر في جميع اللغات التي اعرفها على بحث يتناول تلك القضية من أولها أي منذ أن حركت العرب عوامل اليقظة قبل مائة سنة حتى يومنا هذا . كما انني لا أعلم بوجود كتاب يعتمد في سرد وقائعه المصادر العربية والاجنبية على سواء . في الوقت الذي نرى كتب المؤرخين العرب تكاد

نكتفي بالمصادر العربية نجد ان الكتب التي ظهرت في اللغات الاوربية تعتمد في الغالب المصادر الغربية . ولهذا رأيت ان المجال واسع لتأليف كتاب يستند الى المصدرين معاً وان مزيجاً مركباً يجمع بين المصادر والتفاسير العربية وبين الاسناد الغربية لا بد من ان يؤدي الى اظهار الحركة العربية وما رافقها من مسائل في بحث جلي وقوي .

إن مهمة دراسة جميع المصادر المتعلقة بالموضوع قدقضت بأن امضي اعواماً كثيرة بالبحث والتدقيق في المكاتب الاوربية والامريكية كما قضت بان انتقل كثيراً في العالم العربي لأقوم ببحوث شخصية . وقد عملت ما في وسعي للحصول على رأي الاشخاص الذين ساهموا في تكوين الحركة العربية نفسها أو في بعض الاعمال البارزة المتصلة بها . ولم تكن هذه المهمة سهلة إلا انها سهلت بفضل المساعدات القيمة التي بذلها لي عدد كبير من الناس بنية صادقة ومنهم العربي وغير العربي من ذوي الشهرة البالغة الذين اعترف لهم بالفضل .

وكان دأبي لدى اضطلاعي بمهمتي ان أنظر الى الامور بمنظار عادل وموضوعي (Objective) وان اتوصل إلى استنباط النتائج دون ميل او تحيز مع شروعي في تناول المواضيع من الجانب العربي . واذا كنت لم انجح في تحقيق ماتوخيت فلا يمكن أن يعزى ذلك الى نقص في الجهد الذي بذلته أو الى عدم تقديري اهمية التبعة الملقاة على عاتقي تجاه قرائي .

ولولا صلتي بمعهد الشئون العالمية المعاصرة (Institute of Current World Affairs) في نيويورك لما استطعت القيام بأي بحث أو تنقيب . على ان هذا المعهد لم يكن له أي تأثير البتة في الآراء التي استنبطتها في كتابي ولم يشترك بأي

شكل من الاشكال في تكوينها بل كنت أنا وحدي المسئول عنها . واني لأقدم خالص شكري الى امناء المعهد ورئيسه الذين لم يقصروا عطفهم على تقديم المساعدات الاستثنائية والقيمة التي لولاها لما تم هذا الكتاب بل جاوزوا ذلك فحرروني تماماً من جميع الحدود المحتملة فيما يتعلق بالزمن أو الاسلوب أو حرية الراي .

واني لأرجو من جميع الذين آزروني بتقديم المعلومات أو الارشاد أو تسهيل البحث أن يتقبلوا صادق شكري . إني لم ادرك صعوبة العمل إلا بعد البدء به ولما اعدت قراءة المسودات المطبوعة أحسست ان ميزة الكتاب الوحيدة هي في انه حوى بعض المعلومات التي لم تكن معروفة لدى الجمهور والتي قد يكون لها نفع في تسوية المشاكل التي تجابه العالم العربي في علاقته مع دول الغرب الكبرى . والفضل في ذلك يعود الى اولئك الذين ساعدوني في تحقيق تلك المعلومات وفهم معانيها .

وانا مدين بالشكر أيضاً الى ادلين (بيكس) نيونز لقيامها بطبع القسم الأعظم من المسودات النهائية على الآلة الكاتبة ثم للمساعدة القيمة التي قدمتها عند تصحيح الطبع .

تشرين الاول ١٩٣٨ — جورج انطونيوس

كلمة المعرب

ظهر كتاب « يقظة العرب » باللغة الانكليزية عام ١٩٣٨ فسد فراغاً كبيراً إذ عرّف قراء الانكليزية بالعرب وبقضيتهم . وكان جورج أنطونيوس خير من يكتب في هذا الموضوع لأنه رجل عربي نشأ في أحضان القضية العربية وهي تجتاز أدق مراحلها ثم رافقها واحتك بقادتها المعروفين والمجهولين ودرس أحوالها من أمام الستار ومن ورائه ، وكان الى جانب ذلك مثقفاً ثقافة انكليزية ممتازة إذ تلقى علومه الابتدائية والثانوية في كلية فكتورية بالاسكندرية وعلومه العالية في أرقى جامعات انكلترة نفسها . فاستطاع بما يتحلى به من ذكاء وقاد وفكر علمي صحيح وروح قومي ملتهب أن يعرب عن أماني العرب وآمالهم بلغة انكليزية صحيحة وأسلوب علمي متزن . لقد أخرج الكتاب في بلاد الانكليزية فكان له أثر عميق في أذهان قرائه ونفوسهم مما حمل الصهيونيين على أن يحسبوا له ألف حساب فامتدت أطراف الأخطبوط الصهيوني هنا وهناك محاولة حجبه عن الجمهور .

قرأت هذا الكتاب حال ظهوره فصممت على أن أضطلع بتعريبه ولكن الظروف لم تسمح بإخراج المشروع من حيز الخيال الى حيز الواقع الا في أواسط عام ١٩٤٤ إذ كلفتني الحكومة السورية رسمياً بتعريبه بناء على اشارة

حضرة صاحب المعالي عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام للجامعة العربية الذي أضاف فضلاً الى فضل اذ صدر الكتاب الآن بكلمة كريمة منه فأنجزت آنئذٍ ما كنت بدأت به قبلاً . ولكن الحكومة لم تشأ أن تأخذ على عاتقها مهمة طبعه وإصداره ولم تستطع المساهمة بذلك في قليل أو كثير كما أن الورق اللازم كان مفقوداً في سورية خارج مستودعات مديرية التموين وأزمة الورق كانت عنيفة إلى حد لم تجد معه تلك المديرية سبيلاً إلى مساعدة الكتاب بأكثر من كميات محدودة وبأسعار قريبة من سعر السوق السوداء وهذا ما أخر صدوره حتى الآن . وكان من نتائج شح الورق وغلائه الفاحش عدم امكان طبع ملاحق الكتاب الكثيرة التي أرجو أن أوفق إلى درجها في الطبعة الثانية ، ومما يخفف أثر هذا النقص ان الكتاب في صلبه يحوي تحليلاً وافياً للنصوص المنشورة في ملحقه كما ان غالب تلك النصوص معروف عند قراء العربية .

إن كتاب « يقظة العرب » لا يخلو من بعض الهفوات في الوقائع وهي هفوات يغفرها القارىء لأنها ثانوية ولأن لا مندوحة للمؤلف من ارتكابها بالنظر إلى صعوبة البحث وتشعبه وفقدان المصادر الموثوقة أو تشوشها . وبالاضافة الى ذلك فقد يجد القارىء في بعض استنتاجات المؤلف وارائه مايختلف ، كثيراً او قليلاً ، عن افكاره هو ولا سيما عند بحثه لمقدمات الحركة العربية ، ولكن القاريء يغفر هذا ايضاً بالنظر لما يحويه الكتاب من تحليل قيم واراء محكمة في المواضيع الرئيسية التي تهم العرب ولا سيما في موضوع فلسطين .

لقد اعترض البعض على تعريب الكتاب بحجة أن العرب عالمون بقضيتهم وليسوا بحاجة الى من يشرحها لهم وانه إن نفع قراء الانكليزية فهو لن ينفع قراء العربية . على انني لم التفت الى هـذا الاعتراض ليقيني بأن العرب غير عالمين بقضيتهم فهم اذن محتاجون الى من يشرحها لهم ولا سيما على يد استاذ كجورج انطونيوس الذي لا يكتفي بان يضع امامهم صورة كاملة عن حركتهم لم يروها قبلاً بل انه يعلمهم كذلك الفرق بين الاسلوب الخطابي في الدفاع عن قضيتهم وبين الاسلوب العلمي الهادئ : فلئن نجح الاول في تهييج الجماهير في حالات خاصة ولمدة محدودة فأن الثاني ذو اثر نافذ وباق على الدهر ؛ لهذه الاسباب سرت في تعريب الكتاب ثم في طبعه وانا موقن بانه سيسد فراغاً كبيراً في المكتبة العربية كما سد فراغاً في المكتبة الانكليزية ، ولعل الايام تثبت صحة تقديري .

لقد وقعت بعض الاخطاء المطبعية التي لا تخفى على القارئ النبيه والتي لا تحتاج الى توضيح الا حيث سقط رقم الفصل (وهو الرقم ٤) سهواً بين المقطعين الاول والثاني في الصحيفة ١٢٢ وبين المقطعين الثاني والثالث في الصحيفة ٣٩٨ .

ولا يسعني في الختام الا ان اتوجه بالشكر الى جميع السادة الافاضل الذين ساعدوني في اخراج الكتاب ولا سيما السيدة المحترمة كيتي انطونيوس ، ارملة المؤلف ، التي كان لعنايتها وارشاداتها ومؤازرتها ابلغ الاثر .

علي حيدر الركابي

دمشق في ١٦ جمادي الاولى ١٣٦٥ و ١٧ ابريل ١٩٤٦

يقظة العرب

الباب الأول

البذور الأولى

— ١ —

انبثق فجر حركة العرب القومية في ديار الشام ، وكان ذلك عام ١٨٤٧ بتأسيس جمعية أدبية متواضعة في بيروت يرعاها الأمريكان .

أما الثورات والاضطرابات الكثيرة ، التي كانت تخرج العرب أحياناً من حالة الفتور وعدم المبالاة المستولية عليهم وهم تحت السيطرة العثمانية خلال القرون الثلاثة السابقة ، فانها لا تشكل في الواقع جزءاً من تلك القصة . فقد ظهرت في البلاد العربيـــة حركات كثيرة : مثل قيام فخر الدين في الشام ، واستقرار سلطة الوهابيين في جزيرة العرب ، وحروب محمد علي التي شنها على مولاه التركي ؛ ولكنها كانت جميعاً حركات متفرقة ناشئة عن دوافع خاصة ولم تكن خطوات منتظمة في سير القومية العربية المتوثبة إلى الأمام ، ولهذا وجب وضعها في المقام الثاني من الأهمية . وبالرغم من الخطورة التي بلغتها تلك الحركات في حينها وما تركته في النهاية من الأثر في مصير الشعوب العربية ، فلا يمكن اعتبارها جهاداً ناجماً عن الآلام التي يقاسيها المثاليون في سبيل عزتهم القومية

لأنها كانت نتيجة لمساعي عبقريات فردية مدفوعة بقوة طموحها العظيم أو إيمانها الصادق .

ومع ذلك فلفهم القضية فهماً صحيحاً يجب وصف التربة الأصلية التي أنبتت تلك الاضطرابات لأنها تحوي في جوفها البذور الأولى للحركة العربية .

— ٢ —

يتحتم في البداية تعريف الوضع الجغرافي للبلاد العربية والوصول إلى تحديد دقيق لعبارة « العالم العربي » .

لقد توسع مفهوم كلمة « عربي » بالتدريج خلال القرون التي أعقبت ظهور الاسلام . أما في الأزمنة الوثنية القديمة أي في عهود أقدم النقوش المكتشفة فقد كان يقطن الجزيرة قومان : الأول ، وكثرته من البدو يتنقل بين الفرات وقلب الجزيرة حتى الحدود الجنوبية لنجد والحجاز . والثاني ، وكثرته من الحضر ، يقيم في المرتفعات الجنوبية في مناطق هي على وجه التقريب اليمن وحضرموت . وكانت كلمة « عربي » بمعناها الاتنوغرافي « Elhnographical » الضيق تطلق على القوم الأول فقط ، ولكن هذا التعريف بطل استعماله في الوقت الحاضر إلا في علم أصول الاقوام وبات لكلمة « عربي » وعبارة « العالم العربي » مفهوم أوسع سيتضح لنا في الفقرات التالية .

لقد رافق الدعوة إلى الاسلام طريقة في التوسع كتب لها أن تؤدي إلى فتح كان من أروع المشاهد في تاريخ الفتوحات العالمية . فان قوى الاسلام التي خرجت من قلب الجزيرة إثر وفاة النبي محمد اندفعت في كل جهة تستطيع الوصول إليها بطريق البر . في الشمال اكتسحت الشام وتقدمت إلى الأناضول حيث هددت القسطنطينية ، وفي الشرق فتحت العراق وفارس والقسم الأكبر من

بلاد الأفغان وعبرت نهر جيحون فدخلت البلاد المعروفة اليوم باسم تركستان وفي الغرب استولت على مصر وسواحل شمالي أفريقية بكاملها حتى وصلت إلى شاطئ الأطلنطي ثم انطلقت شمالا عند جبل طارق فاكتسحت إسبانية ثم اجتازت البرينس ودخلت فرانسة فاستولت على آفينيون وكاركازون وناربون وبوردو . وفي برهة من الزمن لم تعد المائة سنة بعد وفاة محمد قامت أمبراطورية عربية تمتد دون انقطاع من شبه جزيرة ايبرية في الغرب إلى سواحل البحر المتوسط الجنوبية فشواطئ نهر السند وبحر الخزر في الشرق . وفي القرون التي أعقبت ذلك كان الطرفان الشرقي والغربي لهذه الأمبراطورية يتراوحان بين مدّ وجزر ، ولكن الزمن الذي سلخه العرب ضمن هذه الحدود المترامية كان كافياً لطبع تلك البلاد بطابع عربي دائم . لقد سطر العرب في حكمهم صفحة باهرة في تاريخ البشرية ، ولم تكن عظمتهم قائمة على أنهم فتحوا تلك الأجزاء الواسعة من العالم المعروف بل على أنهم وهبوها حضارة جديدة .

— ٣ —

كانت النهضة الفكرية التي بعثها العرب نتيجة لدافعين أحدهما ديني وثانيهما اجتماعي بالضرورة . وبالرغم من أن هذين الدافعين سارا جنباً إلى جنب إلا أنهما كانا منفصلين انفصالا تاماً ويختلف أحدهما عن الآخر كثيراً في الأثر الذي تركه والمدى الذي وصل إليه .

أما الدافع الأول — وهو الدعوة إلى الاسلام — فقد أحدث انقلاباً في الحياة الروحية لملايين من البشر سمعوا نداءَ النبي محمد وهو يبشر بالدين الجديد فلبوه طائعين متأثرين بعوامل عديدة . وأما الدافع الثاني — وهو الدعوة إلى العروبة — فقد كانت له وجهتان . فهو من جهة نشر للغة العربية وقد تمّ ذلك بأن حلت هذه اللغة بالتدريج محل اللغة الأصلية عند سكان البلاد المفتوحة ،

وهو من جهة ثانية نشر للعنصر العربي وقد تمّ ذلك بأن هاجر إلى تلك البلاد عدد كبير من العرب الخلص فاستوطنوها واندمجوا بسكانها بالتزاوج حتى اختلط دمهم بدم الشعوب المغلوبة وطغى عليه في بعض الأحيان .

وكانت الدعوة إلى العروبة أقدم الدافعين ، إذ كانت القبائل العربية تتدفق إلى بلاد الشام[1] والعراق أو تتسرب إليهما خلال عصور عديدة سبقت ظهور الاسلام ، وكانت هذه الحركة تشتد أو تضعف تبعاً للحاجة الاقتصادية ومبلغ ضغطها على تلك القبائل . وفي القرنين اللذين سبقا ميلاد المسيح شكلت هذه القبائل أسراً حاكمة في حمص والرهاء[2] وفي المناطق المتاخمة لساحل البحر الأبيض المتوسط وفي القرن الثالث للميلاد ظهرت مملكتان عربيتان مزدهرتان في تدمر والحيرة . وقد هاجر في أثر هذه الموجات الكبيرة جماعات كثيرة من العرب استوطنت بلاد الشام والعراق وامتزجت بسكانهما . وقد تركت اللغة العربية بعض الأثر ولكنه لم يكن عميقاً إذ لم يطرأ على الهيكل الأصلي لحضارة تلك البلاد تبديل أساسي . على أن العرب حين أتوا في القرن السابع للميلاد مدفوعين بقوة الاسلام كانوا مجهزين بسلاح روحي لم يكونوا يملكونه في أي من اندفاعاتهم السابقة ، وفي هذه المرة لم يقف في طريقهم شيء وتداعى النظام القديم، نظام المدنيات المختلطة (Hybrid) الضعيفة ـ اليونانية والآرامية في الشام والسامانية في العراق واليونانية والقبطية في مصر — أمام وثبة الدين الجديد .

وهنا عمل الدافعان — الدعوة إلى الاسلام والدعوة إلى العروبة — معاً

(١) إننا سنستعمل هذا التعبير « بلاد الشام » للدلالة على جميع البلاد التي تحمل اسم سورية والتي هي الآن منقسمة إلى منطقتي سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن . هذا ما لم نشر صراحة إلى خلاف ذلك .

(٢) واسمها الاغريقي أديسة (Edessa) والتركي أورفة — المترجم

ولكنهما لم يكونا متشابهين على ما بينهما من صلة وثيقة . كما أنهما لم يقفا عند الحدود ذاتها . فقد تقدم الاسلام ، وهو بطبيعته قوة روحية ، مسافات بعيدة إلى الأمام واستطاع أن يتخطى الحواجز التي وقفت دونها العروبة في كثير من الأحيان لأنها كانت بطبيعتها تستوجب انتقالا مادياً . ومجمل القول إن كل بلد استقرت فيه العروبة استقر فيه الاسلام والعكس لا يستقيم . فهناك بلاد مثل فارس والأفغان اعتنقت الاسلام اعتناقاً كاملاً ودائماً ولكنهما لم تستعرب إلا في حدود ضيقة لا تثير الاهتمام .

وبالشكل ذاته ولكن على مقياس أضيق كانت وجهتا الدعوة إلى العروبة ، أي نشر اللغة العربية وانتشار العنصر العربي ، تختلفان في الأثر الذي خلفته كل منهما والمدى الذي وصلت إليه : فان لقدرة كل بلد على الاستيعاب حدوداً طبيعية واقتصادية تقف عندها الهجرات من الخارج مهما عظمت قوتها كما في موجات الاستيطان العربي .

أما انتشار اللغة فلم تقف في وجهه هذه الحدود ففي الوقت الذي نرى فيه اللغة العربية تتقدم حتى تتبوأ عرشها دون منازع نجد تيار الاندفاع العنصري يقف دونها بمراحل . وإذا نظرنا إلى البلدان الواقعة في طرف شبه جزيرة العرب رأينا أن نصيب[1] المناطق المعروفة اليوم باسم فلسطين وشرق الأردن من العنصر العربي كان أوفى نصيب بينما كانت حصة مصر أقل حصة ووقفت سورية والعراق في مكان وسط بين الجهتين .

---

(١) يقدر البرفسور لويس ماسينيون في مقال باهر نشرته مجلة العالم الاسلامي (Revue du Monde Musulman) إن ما يقرب من ثلثي سكان فلسطين الحضر المسلمين هم من دم عربي صاف . والنسبة أكثر من ذلك في شرق الأردن .

وفي برهة وجيزة لم تعد الجيل الثالث طرأ على الحياة في تلك البلاد تغيير كلي ، وفي الوقت الذي أخذ السكان كلهم أو جلهم لغة الفاتحين الجديدة واقتبسوا معها عاداتهم وأساليب تفكيرهم وقف انتشار الدين الجديد الذي بشر به العرب دون ذلك بكثير . أما الحضارة الجديدة التي حلت محل الحضارات القديمة فلم يحملها الغزاة معهم حين أتوا حملاً بل كانت نتاجاً مركباً لانفعال متقابل غذاؤه النار التي اضرمتها قوة الاسلام الفاتحة فشحذت القرائح والمواهب ونفخت فيها الحياة قوية سريعة بعد أن كانت مهملة ومشرفة على الموت . وقد اختلفت المظاهر الخارجية لهذه الحضارة بين بلد وآخر باختلاف الاستعداد الفكري عند السكان المحليين إلا أنها تساوت جميعاً في ظاهرتين : الدين واللغة وما تبعهما من جديد المقاييس والنظرات . أما الدين الاسلامي فقد سمح لعدد كبير من الجماعات القاطنة في البلاد المفتوحة بالاحتفاظ بدينها القديم كما أنه هو نفسه عانى انقساماً مذهبياً بين اهل السنة والشيعة من اتباعه . وأما اللغة العربية فقد تمثلت فيها الوحدة التامة وأصبحت هي الغالبة في كل مكان بالتساوي فلم ينته القرن السابع الا وهي تتبوأ مكانها كلغة رسمية للدولة وللكثرة من السكان ، في بلاد الشام والعراق على الأقل .

وقد استمر الدين الاسلامي واللغة العربية في التقدم بخطوات واسعة خلال القرون التالية وذلك بفضل ما ينطويان عليه من قدرة على الانتشار خارقة . وبهذا الانتشار تشكل عالمان أحدهما أوسع من صاحبه بكثير : العالم الاسلامي والعالم العربي ، وقد حوى الأول الثاني . ومع تقدم الزمن ضمّ عالم الاسلام الهند والصين وأقصى الغرب من مجاهل أفريقية بينما بقي العالم العربي منحصراً في البلاد التي بلغت في الاستعراب مبلغاً كبيراً ضمن لها ثلاث نتائج باقية : سيطرة



العالم العربي في القرون الوسطى

تمثل المساحات المخططة المناطق التي استقرت فيها العروبة بصورة دائمة

العربية فيها كلغة قومية ، واكتساب سكانها العادات العربية ، واستقرار نسبة وافرة من أبناء الجنس العربي فيها واندماجهم بأهلها .

يتألف العالم العربي اليوم من البلاد التي بقيت الكثرة الكبرى من سكانها متأثرة بتلك العوامل الفكرية والاجتماعية فلا تدخل في نطاقه اسبانية وجزر البحر الابيض المتوسط حيث ظهرت قوى جديدة بعد زوال السيطرة العربية فمحت أثرها أو طغت عليها . كما أن بلاد الفرس وتركية وأفغانستان وسائر المناطق الواقعة في ما وراء نهري السند وجيحون تخرج من نطاقه لانها لم تتخذ العربية لغة قومية لها في وقت من الاوقات . وعلى هذا فان العالم العربي يتألف من سلسلة غير منقطعة من البلاد تمتـــد من سواحل الاطلنطي في الغرب وتمر بالشواطيء الجنوبية للبحر الابيض المتوسط حتى تصل حدود فارس في الشرق ، أي ساحل أفريقية الشمالي من مراكش إلى مصر وبلاد الشام والعراق والجزيرة العربية . وقد طرأ تطور مماثل على مفهوم كلمة « عربي » فلم يعد معناها منحصراً في تعريف أفراد القبائل البدوية التي كانت تقطن الجزيرة أو في تعريف فرد بعينه من سكان العالم العربي بل أصبحت بالتدريج تطلق على سكان هذا العالم المترامي الاطراف بصورة عامة . وبعبارة أخرى فان العرب هم الاكثرية الساحقة من سكان البلاد العربية ، من تحدر منهم من أصل عربي صاف ومن لم يتحدر ، الذين غمرتهم الموجة العربية جميعاً فاستعربوا تماماً ؛ والذين باتت عاداتهم وتقاليدهم مسكوبة في قالب عربي ؛ والذين يتكلمون العربية كلغة أصلية ، وهذا أهم العوامل . وتضم كلمة العرب النصارى والمسلمين ومن تفرع عن كل منهم فليست العبرة في ذلك للاسلام بل لدرجة الاستعراب .

هذه – إذا أهملنا بعض الجماعات المبعثرة – هي الحدود العامة لدنيا العرب في زماننا هذا وهي نفسها ، مع اختلاف بسيط ، الحدود التي كانت تحيط بها في

مستهل القرن السادس عشر حين هاجمها الغازي التركي من معقله في الاناضول ثم دخل القاهرة فاتحاً فأسس الامبراطورية العثمانية الحديثة .

— ٥ —

إن فتح مصر الذي تم على يد السلطان سليم الاول سنة ١٥١٧ يشكل مرحلة حاسمة في تاريخ سيطرة العثمانيين على العالم العربي وتوسعها . فان انتصارات السلطان سليم الباهرة على شاه الفرس عام ١٥١٥ وعلى سلطان مصر في العام التالي جعلته سيد العراق والشام ومكنته من دخول القاهرة وتوطيد حكمه في مصر بعد أشهر قليلة . وفي أثناء وجوده في مصر أتاه رسل من شريف مكة وأعلنوا له خضوعهم وسلموه مفاتيح البلد المقدس كما قلدوه لقب خادم الحرمين الشريفين[١] لكي يعلوا شأنه في العالم الاسلامي . وهناك شك في ما إذا كان قد استطاع الحصول على لقب الخلافة[٢] أيضاً ، ومهما يكن من الامر فانه عاد إلى القسطنطينية مظفراً وهو السيد المطلق للعالم العربي والحاكم الذي يذكر اسمه في صلاة جميع المسلمين في أمبراطوريته .

---

(١) اصبح هذا من ألقاب الخليفة فيما بعد .

(٢) هناك رواية منتشرة كثيراً تشير إلى ان السلطان سليما استحصل من المتوكل آخر الخلفاء العباسيين على تنازله الرسمي . ويظن ان هـــذه الرواية عرفت لاول مرة في القرن الثامن عشر واعتمدها المؤرخون الشرقيون والغربيون إلا السر توماس ارنولد في كتابه « الخلافة » (طبعة جامعة اكسفورد عام ١٩٢٤) الذي اوضح ان هذه الرواية ليست ذات سند قوي وإنها لم تصدر عن واحد من معاصري السلطان سليم . وعلى كل حال فهناك حقيقة ثابتة لا تقبل النقاش وهي ان سلاطين الاتراك اتخذوا لانفسهم منذ القرن الثامن عشر لقب خليفة الرسول واعترف الناس لهم به .

وفي عهد سليمان القانوني وهو خلف السلطان سليم امتدت سيطرة العثمانيين في البلاد العربية إلى الساحل الشمالي لافريقية في الغرب وإلى اليمن وعدن في الجنوب . ولما ختم عهد سليمان بوفاته عام ١٥٦٦ وهو أمجد عهد في تاريخ تركية كان الحكم العثماني في العالم العربي يمتد دون انقطاع من الجزائر إلى خليج فارس ومن حلب الى المحيط الهندي ويحوي قلب الاسلام كما يحوي رأسه : فقد ضم مكة والمدينة وبيت المقدس وهي الأماكن المقدسة كما ضم دمشق ، أول عاصمة للأمبراطورية العربية ، وبغداد التي أضاءت العالم بنور المعرفة .

وقد دامت السيطرة في تلك الحدود حتى نهاية القرن الثامن عشر وإن كانت تتسع أحياناً وتضيق حسب إقبال الأيام على الدولة وإدبارها عنها وكثيراً ما كانت الحروب والثورات والمجازر تصاحب هذه التقلبات . وكانت السلطة العثمانية في الغالب متفككة وغير مستقرة وكثيراً ما كانت عرضة لاستخفاف عامل متمرد موفق في حركته . وقد احتال على مسرح تلك القرون الثلاثة أشخاص من خوارق الممثلين كانوا يتحلون أحياناً بصفات العظمة والبطولة مثل فخر الدين وظاهر العمر وأحياناً يتصفون بحب القسوة وسفك الدماء مثل أحمد الجزار ومماليك القاهرة . ومهما يكن من أمرهم فقد كانوا دوماً منفردين وغايتهم لا تتجاوز طمعهم الشخصي . وكان هؤلاء الأفراد يظهرون ويختفون باستمرار رتيب تحيط بهم جعجعة كجعجعة الطغاة المسرحيين وهم ينفخون في أبواق ظفرهم المحلي دون أن يتمكنوا في وقت من الأوقات من رفع النير الذي وضعه سليمان القانوني في عنق الامة العربية أو زعزعته . وواقع الأمر أن محاولاتهم لم تترك أثراً ظاهراً في نشوء الحركة القومية ؛ هذا إذا استثنينا محمد بن عبد الوهاب ومحمد علي باشا . أما الاول فكان مصلحاً صادقاً اثارت تعاليمه بعثاً دينياً ، وأما الثاني فكاد ينتزع السلطنة والخلافة من يد مولاه في القسطنطينية ليؤسس أمبراطورية عربية لو لم تحل الدول الاوربية الكبرى دون ذلك .

الباب الثاني

بداية خاطئة

– ١ –

جاء محمد علي مصر من مسقط رأسه في قوله كضابط في القوة الالبانية التي بعث بها سلطان تركية عام ١٧٩٩ للقضاء على حملة بونابارت وكان آنئذ شاباً في الثلاثين من العمر ولم تظهر بعد للعيان مواهبه الخارقة . وقد تغلب نابليون بسهولة على هؤلاء الالبانيين إلا أن الهزيمة نفسها فسحت المجال أمام محمد علي للظهور فتولى قيادة القوة حتى إذا ما جلا الفرنسيون عن مصر بعد سنتين وجد نفسه على رأس جيش صغير وفي مركز ذي نفوذ وسلطة فسخر ذلك لنفعه الذاتي بأساليب ماهرة وماكرة دلت على ما يتحلى به من مواهب سياسية وعسكرية فلم يأت عام ١٨٠٥ إلا وهو من الناحية العسكرية السيد المطلق في مصر وقد اعترف به حاكماً عليها .

ثم وافاه الحظ في الجزيرة العربية إلا أنه قضى الاعوام الستة التي سبقت ذلك في تثبيت مركزه في مصر بتحطيم قوة المماليك والقضاء على الفوضى السائدة فلما كان عام ١٨١١ شعر ان الامر قد استقر له تماماً فوجه اهتمامه نحو جزيرة العرب حيث قام رجل عظيم مثله بحركة بعث ديني أدت الى توسع عسكري كبير راح يهدد سلطة الخليفة في بلاد الاسلام المقدسة .

إن هذه الحركة السلفية التي قامت في القرن الثامن عشر والتي أصبحت تعرف باسم الحركة الوهابية نبتت أصولها من تعاليم محمد بن عبد الوهاب وهو

رجل من سكان نجد تنقل كثيراً في البلاد الاسلامية ودرس الفقه حتى تملكته رغبة جامحة في الاصلاح . فكان يرى أن الزندقة قد طغت على الاسلام وان الزمان قد أدخل عليه أموراً محدثة لا اصل لها في دين محمد او في سنته حتى عمت البدع وانتشرت الخرافات الى حد صعب معه تمييزها عن الوثنية . وقد قام بحملة مطهرة لان رغبته في الاصلاح لم تستهدف تعديل العقائد التي أتى بها الاسلام أو إعطاء التعاليم الاسلامية تفسيراً جديداً بل كانت تستند الى اعتقاده بأن رسالته تدعوه الى محاربة السنن الجديدة والبدع والمناداة باعادة الاسلام الى أصله الصافي .

وقد حالف محمد بن عبد الوهاب أمير من سلالة آل سعود قبل بتعاليمه واعلن مناصرته وبهذا التحالف الذي تم عام ١٧٤٧ بدأت الحركة الوهابية فنمت بسرعة في قلب الجزيرة حيث نشأت ولكنها لم تسمع صوتها في الخارج إلا بعد زهاء اربعين سنة . ففي عام ١٧٩٢ توفي محمد بن عبد الوهاب وكان حليفه قد توفي قبل ذلك بثلاث وثلاثين عاماً فخلفه ابنه عبد العزيز بن سعود الجد الاعظم للملك الوهابي الحالي وسميه . وفي عهد عبد العزيز وعهد ابنه سعود استطاعت القوى التي حركتها التعاليم الجديدة ان تخرج من نجد لتنازع الخليفة سلطته وتهددها . وكانت غزوات الوهابيين موجهة ضد العراق حيث وصلوا الى أبواب بغداد وحملوا واليها التركي على عقد معاهدة معهم عام ١٧٩٩ ثم جددوا الغزو بعد سنتين فاستباحوا كربلاء وهي من المدن المقدسة عند الشيعة وبعد ذلك وجهوا هجماتهم شطر الغرب والشمال فاحتلوا المدينة ومكة وغزوا بلاد الشام حيث هددوا دمشق وحلب . كانت هذه حدود التوسع الوهابي عام ١٨١١ حين لبى محمد علي اخيراً رغبة السلطان الملحة وجهز حملة بقيادة احد ابنائه لاسترجاع البلاد المقدسة .

بقيت الحملة المصرية في الجزيرة سبع سنين وانتهت حروبها بظفر محمد علي

فزرت الاماكن المقدسة ووصل جيش يقوده ابراهيم وهو ولد ثان من اولاد محمد علي الى قلب نجد عام ١٨١٨ حيث استولى على الدارعية (١) وأرغم الامير الوهابي على التسليم . إن تغلغل ابراهيم في داخل نجد بعد سير طويل اجتاز فيه بلاداً معادية له يعد من الناحية العسكرية نجاحاً باهراً تبوأ بنتيجته مكانة في فن قيادة الجيوش تفوق مكانة ابيه وهو وان لم يقض نهائياً على الحركة الوهابية إلا انه سحقها وبذلك نجى السلطان من خطر عظيم واعاد له سيطرته على بلاد الاسلام المقدسة . فلمع اسم محمد علي في العالم العربي وعظمت مكانته بسبب هذه الانتصارات . وكان لهذه الحملة في الوقت ذاته نتيجة خطيرة تسترعي الانتباه وهي انها أتاحت لمحمد علي وولده ابراهيم فرصة الاتصال المباشر بالعالم العربي وإدراك القابلية الكامنة فيه وهذا ما جعلهما ، وهما من عنصر غريب تماماً عن العرب ، يحلمان بانشاء أمبراطورية عربية ويطمحان أن يتم تشييدها على يديهما .

— ٢ —

إن مشروع محمد علي الذي يرمي الى تشكيل امبراطورية عربية يستقطعها لنفسه من بلاد السلطان لم يتحقق قط لانه اصطدم بمعارضة اللورد بالمرستون فتحطم ولكنه اوشك ان يحققه بفتحه بلاد الشام .

لقد اعقب انتصاره في الجزيرة العربيـــة نجاح آخر إذ استطاع بنشاط وعزيمة يثيران الاعجاب ان يؤلف جيشاً نظامياً من القوات العجمية التي كانت تحت إمرته وان يبني أسطولا . وفي عام ١٨٢٠ وجه حملة على السودان بقـــيادة احد ابنائه فتم له فتحه ولم تحل مساحة تلك البلاد الواسعة ولا الفوضى السائدة فيها

(١) وهي مقر البيت السعودي في نجد وإليها لجأ محمد بن عبد الوهـاب عام ١٧٤٧ مستجيراً بأمير هذا البيت .

دون قيام محمد علي بتشكيل ادارة صالحه لها . ثم جهز حملات بحرية بعث بها الى البحر الاحمر حيث قضت على القرصنة وأخضعت ساحليه العربي والافريقي الى حكمه ولما استنجد به السلطان انجده بمدد بعث به الى القوات التركية التي كانت تعمل على قمع ثورة اليونان ، ففي عام ١٨٢٢ ارسل حملة بحرية الى جزيرة (كريت) فاحتلتها وبعد سنتين أرسل ابنه المقدام ابراهيم على رأس قوة برية وبحرية كبيرة فنزل في (الموره) وفتحشبه الجزيرة حتى وصل الى (أثينا)واحتلها . فكان الجيش المصري الذي يفوق القوات التركية قدرة ونظاماً قد قمع الثورة واحتل القسم الأكبر من بلاد اليونان حين هاجم الأسطولين التركي والمصري أسطول مختلط بريطاني وروسي فأغرقهما في (نافارينو) عام ١٨٢٧ . فكانت هذه الهزيمة ضربة شديدة على محمد علي ولكنها لم تقض على طموحه بل دفعته إلى مطالبة السلطان بضم بلاد الشام إلى ولايته كمكافأة له على المساعدة التي بذلها في اليونان فلما أجابه السلطان بالرفض التام عمد إلى احتلال تلك البلاد معتمداً على ابنه المنصور ابراهيم .

وقد تمّ لابراهيم فتح بلاد الشام بسهولة كبيرة على أثر استسلام حامية عكا في مايس عام ١٨٣٢ فتقدم بعدها في مراحل سريعة فاحتل دمشق وأنزل في الجيش التركي هزيمة كبرى بالقرب من حمص ثم أعقبها بهزيمة ثانية في جوار حلب وفي نهاية شهر يوليه تم له الاستيلاء التام على بلاد الشام بأسرها . وقد ذعر السلطان فأرسل إلى محمد علي الرسل لفتح المفاوضة معه وتوقف إبراهيم عن التقدم بأمر من أبيه انتظاراً لنتيجة المفاوضات فلما انقطعت بعد خمسة أشهر ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام جيش تركي قوي وجهه السلطان لمحاربته استأنف هجومه ونازل ذلك الجيش في معركة حاسمة هزمه فيها هزيمة شنعاء فتحت أمامه إلى القسطنطينية طريقاً غير محمية فتابع تقدمه بنشاط . إلا أنه اضطر الى الوقوف مرة ثانية بناء على

أوامر من أبيه فقد تدخلت الدول العظمى وراحت تضغط على محمد علي حتى عقد اتفاق في ربيع ١٨٣٣ اعترف فيه السلطان بمحمد علي حاكماً على بلاد الشام اعترافاً رسمياً . وخلال السنوات السبع التي أعقبت ذلك حكم ابراهيم تلك البلاد باسم أبيه إلى أن أرغمه ضغط الدول الغربية من جهة وتذمر السكان من جهة ثانية على إخلائها والتنازل عن ولايتها وكان ذلك عام ١٨٤٠ .

— ٣ —

أثارت محاولات محمد علي إنشاء امبراطورية عربية اهتمام عامة الناس خلال الاحتلال المصري لبلاد الشام . فقد كان يحلم بهذا الأمر منذ سنين ولكنه قبل فتح الشام لم يتخذ اجراء ما لحمل الناس على تأييد الفكرة فلما تم له ذلك ونال الاعتراف له بالولاية على بلاد الشام أحب أن يسخر ذلك لمنفعته إذ وجد نفسه قد استولى بالفعل ، وإن فاتته السيطرة بالاسم ، على جزء هام من دنيا العرب يضم مكة والمدينة والقاهرة وبيت المقدس ودمشق فراح خياله الذي كان يتفق وما تنطوي عليه نفسه من طموح يصور له امتداد سلطانه الى الجزء الباقي ثم انتزاع الاعتراف له بالولاية على الكل[١].

ومن الثابت أن محمد علي كان ينوي بالاضافة إلى ذلك السعي للاستيلاء على الخلافة نفسها ولم يخف هذه النية وكان يعلم أن فرنسة تحبذ قيام مملكة مستقلة

(١) كتب قنصل بريطانية في الاسكندرية في تقرير له مؤرخ في يناير عام ١٨٣٢ ما يلي : « إن هدفه المباشر هو تثبيت سلطته تثبيتاً تاماً في ولايتي عكا ودمشق وهو بعد ذلك يرمي إلى بسط سيطرته على حلب فبغداد وجميع المناطق التي تتكلم أهلها اللغة العربية وهو يسمي تلك البلاد الجزء العربي من الامبراطورية » — عن مكتب السجلات العامة ف — و — ٧٨ — ٢١٣

ومستقرة تضم بلاداً كبلاد الشام ومصر والجزيرة العربية واقعة على الطرق الكبرى المؤدية إلى الشرق أو بالحري على طريق بريطانية المؤدي الى الهند . كما أن النمسة شجعته في مساعيه إذ أوفدت الكونت بروكش اوستن في مهمة خاصة وكان يحمل اقتراحات معينة . ففي مذكرة له مؤرخة في السابع عشر من شهر مايس عام ١٨٣٣ رسم الخطوط الكبرى للمشروع الذي يقترحه بشيء من التفصيل . ويتلخص هذا المشروع في أن يتولى محمد علي الخلافة وينشىء دولة عربية تضم مصر والسودان والجزيرة العربية والشام والعراق . وقد فهم من هذا الاقتراح ، أو على الأقل فهم محمد علي منه ، أن الحكومة النمسوية تؤيده . وعلى كل حال ومهما بلغ الاعتقاد بوجود تأييد أجنبي للفكرة فقد كان في الفكرة نفسها ما يغري باعتناقها . فقد كان محمد علي يسيطر على البلاد المقدسة وكان شريف مكة يهابه أكثر من مهابته السلطان وكان السلطان مكروهاً عند رعاياه ، المسلمين منهم والمسيحيين ، وكانت القوات التركية شيئاً حقيراً إذا قورنت بالجيش المصري الحديث ومعنى ذلك أن التربة كانت صالحة في البلاد العربية لغرس الفكرة . إلا ان العقبة الكأداء ظهرت في جهات أخرى : فقد كان اللورد بالمرستون صلباً في معارضته فكرة الدولة العربية . وأدرك محمد علي ذلك ورأى ان يكون حذراً لدى شروعه بالتنفيذ ولهـــذا عمل على دعم فكرته بحمل اهل الشام على المناداة بها جهراً .

كان ابراهيم لأبيه عوناً قوياً في هـــذا الأمر وإن رافق تلك المعونة شيء من الشطط . فقد تسربت إلى بلاد الشام بعض الأخبـار عن نوايا محمد علي قبل وصول ولده فتهيأ الناس لقبوله قبولا حسناً المسلمون منهم في ذلك كالمسيحيين . أما المسلمون فقد حركهم تجرؤ الوهابيين على السلطان فرحبوا بهـــذه المحاولة الجديدة لمناوأة السلطة التركية البغيضة . واما المسيحيون فقد كانوا يغبطون

إخوانهم في مصر على ما كانوا يتمتعون به من العدل والانصاف على يد محمد علي فراحوا يمنون النفس بقرب مقدمه . وقد انتهز الفرصة الأمير بشير امير لبنان القوي الذي كان على صلة ودية بمحمد علي فاستطاع ببراعة مدهشة ان يهيج عواطف المسلمين ويبعث في نفوسهم الأماني الجسام بقيام امبراطورية عربية بعد طرد الترك من الشام . وعلى هذا تولد في النفوس الاعتقاد بأن فتح المصريين بلاد الشام سيؤدي إلى تحرير العرب . وانتشر هذا الاعتقاد بالرغم من انه لم يكن مستنداً إلى حقائق راهنة . ونشأ عن ذلك قيام الثورات في دمشق ومجيء رسل سريين إلى مصر يحملون معهم عهوداً من اهل الشام بتأييد الحركة وذلك قبل شروع ابراهيم بحملته بزمن طويل . وكانت هذه الحالة دليلاً على الترحيب الذي ينتظره فلما قضى اخيراً على المقاومة العنيدة التي جابهه بها والي عكا لم يضع الأهلون أية عقبة في طريق تقدمه بل كانوا على العكس يستقبلونه في سائر انحاء الشام بالتأييد والتهليل والتكبير .

وهنا يجوز لنا أن نقارن بين تقدم ابراهيم عام ١٨٣٢ وتقدم اللنبي عام ١٩١٨ . فقد توجهت الحملتان من مصر وكان هدف كل منهما طرد الترك من الشام كما ان الجيش الغازي في المرتين قطع صحراء سيناء ودخل سورية الجنوبية حيث قصم ظهر العدو بضربة سار بعدها سيراً يكاد يكون دون مقاومة ففتح دمشق وحمص وحماه وحلب يساعده السكان العرب . وفي الحالتين سبقت التقدم العسكري بشائر التحرر السياسي ورافقه تأييد شعب سمع بالوعود المقطوعة لمنحه استقلاله فكان حليفاً صادقاً . وفي الحالتين ايضاً أصيب ذلك الشعب بخيبة في الأمل ناشئة عن التعقيد الذي يمتاز به اسلوب اوربة السياسي .

تولى ابراهيم ولاية الشام عام ١٨٣٣ فكان إثناءها السيد المطلق وراح يعمل بنشاط على نشر افكاره في بعث النهضة العربية . ومع أن مساعيه لم تأت

بثمرات محسوسة إلا أنها كانت على كل حال وليــدة خيال واسع وطموح جامح ويرعاها إخلاص صادق . لقد كان من المحتم ان تظل هذه الأفكار عقيمة في ذلك العصر المجدب ومع ذلك فلا بد لنا من دراسة هذا الفشل دراسة دقيقة .

— ٤ —

كانت جهود محمد علي وابنه لخلق حركة عربية تتطلب تذليل عقبات كأداء . فلم يكونا عربيين ولم يتقنا العربية وإن توصل إبراهيم إلى التكلم بها بشيء من الطلاقة . فقد فقدت دعوتهما مقداراً كبيراً من قوتها الذاتية بسبب فقدان الدافع العنصري فيهما وعجزهما عن الافصاح بتلك اللغة الغنية . لقد كان الطموح الشخصي هو المحرك الأول لهما وكانت رغبتهما في بعث الأمبراطورية العربية ناشئة بالدرجة الأولى عن رغبتهما في الحصول على أمبراطورية ما . ومهما كانت الأسباب الأخرى التي أدت إلى فشلهما فقد كان لهذا الضعف الأساسي المتمكن أثر يذكر فيها .

ولم يكن الوالد وولده متفقين تماماً في تصوير أمبراطورية المستقبل ؛ فلئن اشتركا في الرغبة الرامية إلى تكوين مملكة موحدة تضم المناطق العربية التي تم لهما الاستيلاء عليها وأن يصبحا هما الاثنان ومن يأتي بعدهما من سلالتهما البيت الحاكم فيها ويتخذا أيضاً لقب الخلافة إلا أنهما كانا مختلفين في تقدير أهليــة العرب ومبلغ المؤازرة المنتظرة منهم . أما محمد علي فقد كان هدفه الاستيلاء المجرد فهو حين وطن نفسه على الوصول إلى الخلافة وأن يتولى حكم مملكة مستقلة كان قانعاً بأن لا مفرّ له لتحقيق هذين الغرضين من الاعتماد على نوايا العرب الحسنة نحوه والحصول على شيء من تأييدهم الفعلي ولكنه لم يشعر نحوهم بعطف حقيقي كما أنه لم يتكلم لغتهم ولم ينظر إلى صفاتهم بكبير احترام . إنه كان يتصور دعائم الحكم في أمبراطوريته العتيدة قائمة على سواعد أتباعه من الأتراك والألبانيين

ولم يتصور العرب فيها إلا رعايا طائعين له . وأما إبراهيم فقد كان هدفه أبعد من هدف أبيه إذ كان يعمل على خلق نهضة للعرب بالاضافة إلى سعيه لانشاء مملكته . فقد أتى مصر وهو يافع وكبر في محيط عربي وكان من أول ما تقفه تاريخ العرب وأدبهم ولما توغل في الجزيرة تعرف إلى صفاتهم وهي ما تزال في حال الطبيعة البكر فخبر ما فيها من فضائل ونقائص . لقد حرك العرب خياله وأيقظوا اهتمامه فيهم حتى بات يعتقد أن الأسس التي ترتكز عليها المملكة التي يحلم بها أبوه تزداد قوة وثباتاً إذا قامت في الأصل على بعث العرب بعثاً قومياً . ويعود سبب هذا الخلاف بين الوالد والولد إلى اختلاف بينهما في الفكر وفي المزاج فان عبقرية محمد علي ، على حدّ تعبير أحد معاصريه ، كانت من النوع الذي يخلق الممالك بينما كان إبراهيم يتحلى بالحكمة التي تحتفظ بتلك الممالك .

عندما وصل إبراهيم الشام لم يخف المحبة التي كان يشعر بها نحو أهلها كما أنه لفت نظر من كان يراقب الحالة من الأجانب باخلاصه للفكرة التي كان يعتنقها ، وكان يعد نفسه عربياً ويحب أن يعده الناس كذلك . وقال مرةً : « أتيتُ مصر وأنا طفل ومنذ ذلك الحين صبغت الشمس المصرية دمي بلون عربي[1] » . وكان يتحدث عن أهدافه بصراحة تامة ويعمل على نشر أفكاره بين سكان الشام دون تفريق بين حقيرهم وذي النفوذ منهم . وقد زاره في ذلك الحين مبعوث فرنسي اسمه البارون دوبو الكونت فأعجب بأفكاره الواسعة وما كان يرافقها من بحث حر وقال إن إبراهيم لم يخف ما كان يرمي إليه من العمل على بعث الوعي القومي في العرب وإعادة بناء القومية العربية وإيجاد شعور بالوطنية صحيح

(١) دون في كتابه بعثه البارون دوبو الكونت — طبعة القاهرة عام ١٩٢٧ — وقد أخذتُ عنه حوادث أخرى في حياة إبراهيم .

عند العرب وإشراكهم في حكم أمبراطورية المستقبل إشراكاً تاماً كما أنه كان يصرح بأنه يعد أفكار أبيه ضيقة ولا تعدو أن تكون أفكاراً استعمارية تتفق وما أصاب دنيا العرب آنئذ من استعباد ولكنها لا تتناسب مع ما كان يرغب أن تبلغه الأمة العربية بعد وفاة محمد علي من حرية سياسية . لقد تركت هذه الأفكار أثراً حسناً في نفس ذلك الرجل الفرنسي المتنور فكتب إلى حكومته مشيداً بذكر القائد إبراهيم وتفكيره الصائب . ومما كتبه أن هدف إبراهيم في جعل الامبراطورية عربية بكاملها يحوي في طياته عناصر الاستقرار والاستمرار أكثر من الأهداف الضيقة التي كان يتصورها أبوه . والمشكلة الوحيدة هي : هل العرب أهل ليحكموا أنفسهم ؟ ويجيب محمد علي بالنفي بينما يعتقد إبراهيم العكس .

عمل إبراهيم بنشاط على الدعوة إلى فكرة البعث القومي وحمل الناس على الاعتقاد بأن فجراً جديداً قد انبثق أمامهم بمجيء محمد علي وحكمه وذلك أثناء حملته وخلال العامين الأولين لولايته . لقد كانت منشوراته الموجهة إلى الجيش تشير في كثير من الأحيان إلى العصور المجيدة في التاريخ العربي بعبارات مثيرة كما أنه لقح أفراد جيشه بحماسته في هذا الموضوع وأحاط نفسه بمعاونين يشاركونه آراءه ويعملون على نشرها . ولما تقلد ولاية الشام كان من الأمور التي صرف عنايته الأولى إليها تنظيم آلة إدارية للدولة في معظم النواحي الرئيسية كتوزيع الضرائب والقضاء والتعليم والقانون والأمن وكانت الآلة الجديدة تفوق القديمة فنجح في برهة لا تكاد تتجاوز السنة في تشييد نظام جديد ، قائم على المساواة الدينية والمدنية وحماية الأرواح والأموال ، لم تشاهد مثله بلاد الشام منذ أيام الحكم العربي في دمشق فلم يبق من شك في أن فجر عهد جديد قد انبثق أمام الناس . وهذا ما كان إبراهيم يحمل الناس على الاعتقاد به فقد كان يتخذ من أعماله

الباهرة دليلاً حسياً على أن العرب ، بزوال الحكم التركي ، أصبحوا مطمئنين على مستقبلهم الناهض في ظل محمد علي وسلالته .

على أن هذا العهد الجديد لم يعش طويلاً بالرغم من تلك البداية السعيدة ومحاولاته للبقاء هي نفسها التي عجلت في انهياره . والسبب الأساسي في ذلك يعود إلى مناهضة أوربة للفكرة فقد أثار تقدم إبراهيم في آسية الصغرى مخاوف الدول المعظمة كما ولد الذعر في نفس السلطان فتنبه العالم إلى أن مصر قد تخذل تركية بسهولة فائقة وهذا التنبه أدى إلى تكتل مجموعة الدول الاوربية ضده لأنها على ما كان بينها من خلاف دائم كانت مجمعة على أمر واحد وهو دعم الدولة العثمانية فضغطت على محمد علي وأرغمته على قبول ولاية الشام مدى حياته بدلاً من بقائها وراثية في نسله . ولم يرق هذا الأمر لمحمد علي ألبتة إلا أنه لم يكن في حوزته قوة تكفي للمقاومة فقبل به بعد أن وطن نفسه على إثارة القضية مجدداً حين تسنح الفرصة . كان عليه أن يملأ خزائنه وينمي قواته المحاربة فأوقعه سعيه لتحقيق هذين الأمرين في أخطاء فادحة أدت الى انهيار حكمه في الشام .

إن التدابير التي اتخذها إبراهيم تنفيذاً لأوامر أبيه أدت إلى تذمر الناس تذمراً عاماً . فقد فرض ضرائب جديدة وشرع بالتجنيد الاجباري وهما عملان لا يستسيغهما الناس ولا يجدون أبغض منها على نفوسهم . ومما زاد في التذمر أن إبراهيم قرر تجريد الشعب من السلاح كمقدمة للتجنيد العام وذلك في مجتمع يعتقد أن سلامة الفرد لا يصونها إلا سلاحه فأثار هذا العمل الحفائظ فقامت الثورات في جميع أنحاء البلاد وبدأت في نابلس والخليل ثم امتدت إلى لبنان والمناطق الواقعة إلى شرق نهر الأردن . وقد شغل إبراهيم خلال شهور متعددة في قمع الثورات ومع أنه نجح في إعادة الهدوء بعض الوقت إلا أنه بعمله هذا فقد محبة الشعب له ، تلك المحبة التي ظفر بها لشخصه وأفكاره في السابق ، فلما انسحب من الشام في

عام ١٨٤٠ بنتيجة الضغط الاوربي لم يترك وراءه صديقاً واحداً في شعب كان قبل ثماني سنوات يرحب به كمحرر .

— ٥ —

كان هناك بين العوامل الكثيرة المركبة التي سببت فشل محمد علي في بلاد الشام عاملان رئيسيان أثرا تأثيراً مباشراً في خططه الرامية إلى إقامة الامبراطورية العربية : أحدهما معارضة بالمرستون وثانيهما أن وعي العرب القومي لم يكن قد تنبه في ذلك الحين .

قد يكون الاصطدام بين محمد علي وإنكلترة أمراً لا بد من وقوعه لأن نمو سلطانه في مصر ثم امتداده إلى جزيرة العرب والبحر الأحمر قد أكسبه سيطرة قوية في تلك المناطق الواقعة على طريق من أخطر الطرق التجارية في العالم وله في الوقت نفسه قيمة خاصة للتجارة الانكليزية . فلما هاجم بلاد الشام وراح يهدد القسطنطينية تذرعت روسية بهذا السبب وتدخلت في الموضوع بشكل لم تستطع معه الدول الكبرى الباقية — وعلى الأخص إنكلترة — تحمله . ثم إن مشروع إقامة الأمبراطورية العربية لو تحقق لمكنه من ربط البلاد التي فتحها برابطة وثيقة تتألف بنتيجتها مجموعة قوية فيصبح الحصول على الأذن اللازم لمرور التجارة الأوربية منها منوطاً بإرادته بعد أن كان الحصول عليه من دولة ضعيفة كتركية أمراً سهلاً . وقد تبين أن بالمرستون كان متيقظاً وصلباً في موقفه من محمد علي ولا سيما حين كان يصل النزاع بينه وبين السلطان حداً يخشى بنتيجته أن يؤدي إلى تفوق النفوذ الروسي في القسطنطينية . ولم تكن يقظة بالمرستون لتقل عن ذلك في موقفه من المملكة العربية العتيدة فقد قال في كتاب وجهه إلى الوزير البريطاني في نابولي بتاريخ ٢١ مارس سنة ١٨٣٣ : « إن هدف محمد علي الحقيقي هو إقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التي تتكلم اللغة العربية . وقد لا

يحوي هذا المشروع ضرراً ما في حد ذاته ولكنه سيؤدي إلى تقطيع أوصال تركية وهذا ما لا نرضى عنه . وفضلاً عن ذلك فلا نرى سبباً يبرر إحلال ملك عربي محل تركية في السيطرة على طريق الهند [١] » . فلم يكن الخوف من السيطرة الروسية العامل الوحيد الذي حمل بالمرستون على مقاومة محمد علي والوقوف في وجه سلطته النامية وإرساله أسطولاً عند وقوع أزمة عام ١٨٤٠ يعجل في طرد إبراهيم من بلاد الشام .

كانت هذه هي المرة الأولى التي برزت فيها فكرة الأمبراطورية العربية كمشكلة من مشاكل السياسة العالمية في العصر الحديث ولم يكن من شك ، في تلك المرة على الأقل ، أن إنكلترة كانت تناهض الفكرة .

— ٦ —

أما العامل الثاني الذي أدى إلى فشل محمد علي في بلاد الشام فهو فقدان التضامن القومي في العالم العربي أو ما يشابهه في قليل أو كثير . فان الانحطاط الذي أصاب العرب وسوء الادارة التي منوا بها خلال قرون طويلة أورثت في روح الجماعة عندهم وهناً وأوجدت في انسجامهم القديم خللاً . ثم إن القوة الموحدة التي ولدتها عبقرية النبي محمد بقيت فعالة ما دامت السيطرة العربية قائمة فلما مالت هذه السيطرة إلى زوال ضعف أثرها الموحد وراحت الجماعات المختلفة التي صهرتها تلك القوة في كل فكري متماسك الأجزاء تنفصل بالتدريج لتؤلف وحدات مستقلة إقليمية ومذهبية بحسب المنطقة التي تقطنها أو القبيلة التي تنتمي إليها أو المذهب الذي تعتنقه . وكان رافق هـــذا الانحلال تطور ديني لم يؤد إلى خلق مذاهب جديدة فحسب ، في الاسلام وفي النصرانية ، بل أدى كذلك إلى توسيع الفوارق المذهبية ونشوء العصبية المذهبية التي حلت محل الوحدة الفكرية .

(١) السر هنري بولوار في كتابه (حياة بالمرستون) — الجزء الثاني

وقد سارت عملية الانحلال شوطاً بعيداً في بلاد الشام وهي البلاد المعروفة بكثرة مذاهبها . ففي زمن الفتح المصري كان كيانها الاجتماعي قائماً في الغالب على الفوارق المذهبية وكانت السيادة في يد المسلمين الذين يتجاوز عددهم نصف مجموع السكان بكثير والذين كانوا وحدهم يتمتعون بجميع الحقوق المدنية والميزات دون سواهم من أبناء الأديان الأخرى . أما النصارى الذين كانوا يشكلون ثلث السكان على وجه التقريب فقد كانوا ولا شك في وضع المرؤوس وكانت تسري عليهم قوانين شاذة بغيضة توقع بهم الضرر في أمور كثيرة كالضرائب والقضاء وغيرها من الأمور المتعلقة بحقوق الأفراد المدنية وكانت الفرق الدينية المنشقة عن الاسلام — مثل الدروز والنصيرية والمتاولة — تشكل وحدات مختلفة تتمسك كل منها رغم صغرها بتقاليدها الخاصة الاجتماعية والدينية تمسكاً شديداً . ولم تكن الوطنية بمعناها القومي معروفة آنئذ . لقد كان اتباع جميع الأديان والمذاهب يشتركون في كثير من الأمور كاللغة والعادات والعنصر كما أنهم كانوا متحدين بصورة خاصة في كرههم الحكم التركي ورغبتهم الصادقة في التخلص منه إلا أن أمانيهم في الحرية كانت ناشئة عن دوافع مختلفة كما كان ترحيبهم بمقدم إبراهيم يستند إلى عوامل ذاتية ومتنابذة أما المسلمون فقد رحبوا بقيام أمبراطورية عربية بالدرجة الأولى لاعتقادهم بأن عودة الخلافة إلى العرب ستزيد في سيطرتهم . ورحب النصارى بقيامها لأسباب هي وهذا الاعتبار على طرفي نقيض فقد رأوا أن محمد علي شيد حكمه في مصر على التسامح والمساواة فمنوا النفس بأنهم سينعمون بميزات مماثلة إذا ماتم له فتح الشام . وواقع الأمر أن أملهم في ذلك لم يصب بالخيبة إذا ألغى إبراهيم القوانين الشاذة وغيرها من التدابير التي كانت موجهة ضد النصارى بقصد عزلهم عن مجموع السكان إلا أنه بهذا العمل اكتسب عداء المسلمين الذين اتخذوا منه ذريعة جديدة للثورة عليه . إن هذا التسامح الذي ظهر من إبراهيم في عصر يسوده التعصب ليدعو الى

الاعجاب الكبير وإن كان من نتائجه الأولى إثارة الشعور بالحسد بين الناس بسبب ذلك التعصب نفسه ولأن الفكرة الوطنية كانت منعدمة في ذلك الحين .

— ٧ —

وهكذا فان الفكرة الجريئة — فكرة الأمبراطورية العربية — التي رسمها خيال محمد علي ورعاها إبراهيم لم تلق في بلاد الشام التأييد اللازم . ومما عجل في القضاء عليها مناهضة إنكلترة لها . على أن أكبر عنصر من عناصر ضعفها هو كونها ولدت في غير أوانها تخلقت قبل أن يخلق الوعي القومي عند العرب . وبالاضافة إلى ذلك فانها فكرة حملها رجلان غريبان عجزا عن إذكاء نار القومية بالرغم من الجهود الجبارة التي بذلها كل منهما : الواحد بنشاطه والثاني بحماسه . وقد اختفت الفكرة على أثر الهزيمة التي مني بهما هذان الرجلان ولم تظهر ثانية كمسألة من مسائل السياسة العالمية إلا في حرب سنة ١٩١٤ حيث برزت كحلم من أحلام رجل معين وابنه ، وكان هذان الرجلان في هذه المرة من عنصر عربي وتضافرت لدعم فكرتهما تلك القوى نفسها التي خانت محمد علي : ألا وهي تنبه الشعور القومي عند العرب ومعاضدة إنكلترة القوية .

تتألف قصة الحركة العربية القومية من الحوادث التي أدت في النهاية إلى قيام الشريف حسين وابنه عبد الله بتنظيم ثورة شجعتها بريطانية . وقد بدأت هذه الحركة في الشام بعد انسحاب إبراهيم بقليل وكانت خطوتها الأولى ، كما أسلفنا ، تأسيس جمعية أدبية في بيروت .

الباب الثالث

البداية : ١٨٤٧ — ١٨٦٨

— ١ —

لقد كان للحكم السمح الذي أنشأه ابراهيم في بلاد الشام نتيجة واحدة لم تكن في الحسبان : ذلك انه فتح الباب للجمعيات التبشيرية الاوربية وبهذا فسح المجال أمام قوتين إحداهما فرنسية والثانية امريكية أصبحتا فيما بينهما الراعيتين للبعث العربي .

كان في بلاد الشام مبشرون أجانب حلوا فيها منذ بداية القرن السابع عشر إلا ان نشاطهم كان محدوداً ولم يتعد تأسيس بعض المدارس وأماكن العلم هنا وهناك ونشر بعض الكتب الدينية التي تتعلق بالعبادات . وكانوا جميعاً من الكاثوليك ، وكانوا في الغالب فرنسيين كما كانوا ينتمون الى واحدة من جمعيات اليسوعيين والكبوشيين والكرمليين . وقد صعب عليهم العمل خارج نطاقهم الطائفي بسبب التعصب الشديد الذي كان سائداً في ذلك العصر فصرفوا عنايتهم الجلى نحو الطوائف المرتبطة بكنيسة رومية .

بدأت صلات اليسوعيين ببلاد الشام في عام ١٦٢٥ وكانت جمعيتهم اكثر الجمعيات التبشيرية نشاطاً وقد عانوا مشقات كبيرة من اضطهاد وفقر ولكنهم مع ذلك استطاعوا ان يحتفظوا بكيانهم ويجزوا أعمالهم بشيء من النجاح بفضل تشبثهم ومثابرتهم . إلا أن جمعيتهم ألغيت عام ١٧٧٣ فتفرقوا وأغلقوا اكثر مؤسساتهم وتركوا بعضها للمبشرين العازاريين ليحتلوها بعدهم . ولم يعودوا الا في

عام ١٨٣١ وكان من أسباب هذه العودة ان المبشرين الامريكان جاؤا بلاد الشام وشرعوا يدخلون اناساً كثيرين ممن ينتمون الى الطوائف الكاثوليكية في المذهب البروتستانتي .

كان البريسبيتيريون اول من جاء بلاد الشام من الامريكان وذلك عام ١٨٢٠ فقد كانوا يعملون تحت إشراف مجلس الرقابة الامريكي للجمعيات التبشيرية العاملة في الخارج . وكان هذا المجلس قد اسس مركزاً للتبشير في مالطة ثم شعر بضرورة مد نشاطه نحو الشرق فنزل البريسبيتيريون بيروت حيث أسسوا أول مركز لهم فظلت هذه المدينة تتمتع بالمكانة الاولى عندهم منذ ذلك الحين . وهم إن لاقوا الصعوبات نفسها التي لاقاها من سبقهم من الكاثوليك فقد وجدوا في طريقهم بالاضافة إليها عقبة خاصة لم يجدها اولئك المبشرون في طريقهم : ذلك انه لم تكن في الشام طائفة بروتستانتية اي ان عملهم التبشيري انحصر في السعي الى كسب الأنصار من اتباع المذاهب الأخرى . ومعنى ذلك ان عملهم كان لا بد من ان يثير عداء رجال الدين المحليين وقد وقع ذلك بالفعل . غير ان هذه العقبات لم توهن عزيمتهم فراحوا يبشرون بحماس كبير . وقد تبع المؤسسين الذين اتوا عام ١٨٢٠ آخرون بينهم ايلي سميث (١) وهو شاب في السادسة والعشرين من العمر كان لأعماله في بلاد الشام نتائج بعيدة .

(١) ولد ايلي سميث في نورثفورد (ولاية كونيكتيكات) عام ١٨٠١ وتعلم في يل واندوفر وبعد ان تم قبوله في الكنيسة انتسب الى البعثة البريسبيتيرية وتطوع للعمل في الخارج فأرسل اولاً الى مالطة ليتولى امر مطبعة الارسالية فيها ثم جاء بيروت عام ١٨٢٧ ولكنه غادرها في السنة التالية مع غيره من المبشرين بسبب الخوف من الحرب ثم عاد اليها عام ١٨٣٤ فكرس باقي حياته للعمل في بلاد الشام وكان رجلاً يحمل أفكاراً سامية ويتحلى بنشاط لا يفتر وقد توفي في بيروت عام ١٨٥٧ .

ولئن كانت الصعوبات الشديدة التي واجهتها البعثات الاجنبية قبل الفتح المصري لم تؤد الى شل حركتها تماماً فانها نجحت في تعطيلها بعض الشيء . فقد قبع الامريكان منذ مجيئهم في بيروت وكانت بيروت في ذلك الحين مدينة مسورة لايكاد عدد سكانها يبلغ التسعة آلاف نسمة اما اليسوعيون والعازاريون فقد بدأوا قبلهم بمائتي سنة وأسسوا المدارس في دمشق وحلب ولبنان وكان اثرهم في نشر التعليم كبيراً . على ان عنايتهم الاولى كانت منصرفة الى التبشير الديني والثقافة الدينية فلم يهتموا بتجديد شباب اللغة العربية واخراجها من شيخوختها المتداعية كما انهم لم يلطفوا حدة البغضاء بين الطوائف ولم يساهموا قط في العمل على خلق حركة فكرية بالرغم من انهم مارسوا التعليم خلال قرنين .

إن الاصلاح الذي قام به ابراهيم هو الذي فسح المجال أمام البعثات الاجنبية فهرعت جميعها الى بيروت وانتشرت منها الى سائر انحاء الشام حتى أصبح عام ١٨٣٤ تاريخياً وذا خطورة كبيرة لأنه كان مبدأ لعهد جديد : ففيه عاد اليسوعيون وتوسعت الارسالية الامريكية بقدم أفواج جديدة وفيه كذلك بدأت المنافسة بين الكاثوليك والبريسبيتيريين فوصلت حدتها حيناً إلى درجة تشبه حدة المبارزة ، وكان الطرفان يتسابقان للحصول على النفوذ والسيادة فكان من آثار هذا السباق بعث اللغة العربية وايقاظ الأفكار بشكل ادى في برهة وجيزة الى انتقال هذا التنبه من الأدب إلى السياسة .

— ٢ —

وقعت في تلك السنة أربعة حوادث تستلزم عناية خاصة : الأول عودة الآباء العازاريين إلى فتح كلية عنتورة للذكور ، والثاني نقل مطبعة الارسالية الامريكية من مالطة الى بيروت ، والثالث فتح ايلي سميث وزوجته مدرسة للاناث في بناء خاص

بها في بيروت ، والرابع قيام ابراهيم بتطبيق برنامج واسع للتعليم الابتدائي مستوحى من النظام الذي أوجده ابوه في مصر .

ولا بد ، لفهم هذه الحوادث وادراك ما تنطوي عليه من جدة وخطورة ، من القاء نظرة على الحركة الثقافية في الشام في تلك الأيام .

كان المستوى الفكري منخفضاً جداً بصورة عامة وكانت المدارس الموجودة من النوع الابتدائي وكان التعليم فيها — سواء أكانت اسلامية أم مسيحية — منحصراً في النواحي الضيقة للعلوم الدينية وكان تدريس هذه النواحي نفسها منحطاً في سويته وضيقاً في أفقه . وبذلت الكنيسة المارونية بعض المساعي لايجاد تعليم عالٍ ولاسيما في عنتورة وهي قرية لبنانية انشئت فيها عام ١٧٢٨ مدرسة للاهوت غايتها إعداد رجال الدين وأنيطت ادارتها باليسوعيين . وقد أغلقت هذه المدرسة عندما أوقف جماعة اليسوعيين عن العمل عام ١٧٧٣ . وكانت هناك مؤسستان اخريان لتعليم العالي احداهما في زغرته (١٧٣٥) والثانية في عين وراقة (١٧٨٩) وقد انشأتهما في هاتين القريتين اللبنانيتين الكنيسة المارونية إلا انمؤسسة عين وراقة كانت اكثر أهمية من صاحبتها لأنها أنشئت على غرار الأديرة وبذلت عناية خاصة لتشجيع دراسة الأدب العربي حتى ان معظم الكتاب الذين لمعوا في علم الادب في النصف الأول من القرن التاسع عشر كانوا ممن تلقوا دروسهم فيها .

كانت ندرة الكتب من العوامل التي ساعدت على تأخير التطور الثقافي وكانت آلات الطباعة العربية في حكم المفقودة ولوأن بعض الأديرة كانت تستعمل المطابع اليدوية منذ القرن الثامن عشر ولكن انتاج هذه المطابع كان قليلاً ويكاد يكون منحصراً في كتب العبادات . وقد تحسنت حالة المطابع في بداية القرن التاسع عشر بتأسيس مطبعتين عربيتين الواحدة في القسطنطينية عام ١٨١٦ والثانية في

القاهرة [١] عام ١٨٢٢ وقد صدرت عنها كتب ذات قيمة أدبية وعلمية باللغة العربية فتسرب عدد منها الى الشام ولكنه كان محدوداً جداً حتى أن الدكتور جون باورينغ الذي أوفده اللورد بالمرستون عام ١٨٣٨ لدراسة أحوال الشام قال في تقريره ان رغبة الناس في قراءة الكتب قليلة جداً وأنه لذلك لم يجد بائعاً للكتب في دمشق أو حلب [٢] اما الجرائد والنشرات العربية فلم يكن لوجودها اثر قط .

وكانت اللغة نفسها في حالة منحطة، ففي الأدوار الأولى نفسها لانتشار العروبة ظهر التباين بين اللغة العربية التي يتكلمها الناس في الأرياف وعند البدو وبين اللغة التي كانت تتكلمها الطبقات المتعلمة في المدن وهي الأقرب إلى الفصحى . وقد اشتد هذا التباين مع تقدم الزمان ونشأ معه في كلام الناس عدد من التعابير التي لا تتفق وقواعد الفصحى المعروفة . ولم تكن هذه الحالة خطرة ما دامت الثقافة العربية في

---

(١) كانت مطبعة القاهرة اكثر المطبعتين أهمية من حيث نشر الثقافة العربية وهي معروفة حتى اليوم باسم مطبعة بولاق وقد طبعت ما ينوف عن الخمسين كتاباً بالعربية والتركية والفارسية بين عامي ١٨٢٢ و ١٨٣٠. ووصل انتاجها في هذه اللغات الى الثلاثمائة حتى عام ١٨٥٠ وكان عدد الكتب العربية يشكل نسبة عالية بينها وهي كتب تبحث في الطب والجراحة والرياضيات والأدب .

(٢) وهذا نص ما قاله : « يمكننا أن نتصور درجة انعدام التعليم بصورة عامة إذا علمنا أن الاقبال على طلب الكتب في الشام قليل إلى حد لم أستطع معه أن أجد بائعاً للكتب في دمشق او حلب . إن بعض الكتب التي تطبعها الحكومة المصرية في مطبعة بولاق تأتي إلى الشام وتباع فيها ولكن الرغبة في مطالعتها قليلة جداً ومع ذلك فقد نفذت هذه الكتب إلى بعض المدارس وبعض الأسر » . — جون باورينغ في كتابه (تقرير عن الاحصاء التجاري في الشام) — الوثائق البرلمانية لعام ١٨٤٠ .

دور تنبه وازدهـار وما دامت سنن العصر الذهبي حية . ولكن اضمحلال قوة العرب وحضارتهم ونجاح الفتح العثماني في القضاء عليهما ادى كله الى زوال هذه السنن فأصبحت تلك التعابير الحقيرة الشائعة على السنة الناس تهدد اللغة الفصحى بالطغيان عليها وتشويهها. وفي بداية القرن الثامن عشر، وفي بلاد الشام على الاقل، بلغ هذا التشويه حداً ادى الى انحطاط خطير ولا سيما في اللغة التي يستعملها النصارى(١) وهذا ظاهر جلياً في ما بقي لنا من كتب الفها كتاب ذلك العصر من المتعلمين . ومما زاد في خطورة الحالة ان الناس أهملوا آداب العصر الذهبي فبقيت في طي النسيان وزالت التعابير الأدبية المثلى وضاع الأثر الروحي لتلك الثقافة الرفيعـة ومهما بذل المبشرون من جهود لتعليم الناس فقد ظلت العقول على فراغها كما ظلت الأفـكار على جمودها .

ولما كانت الحالة على هذا الشكل عند مقدم ابراهيم وجب علينا ان ننظر الى الأعمال التي بدأت في عام ١٨٣٤ كخطوة أولى في حركة التقدم التي تمت فيما بعد . وقد لعبت كلية عنتورة التي ما تزال قائمة حتى اليوم دوراً هاماً في تكوين الكتاب والمفكرين كما ان نظام التعليم الذي ادخله ابراهيم استطاع بالرغم من عمره القصير ان يحدث يقظة شديدة في التعليم القومي ولا سيما بين المسلمين وكان لهذا الدافع أثر بعيد المدى لأن ذلك النظام نفسه كان يستهدف ، بصورة لا تقبل الشك، تنبيه الوعي القومي بين الطلاب . وكانت المدرسة التي اسسها المسز ايلي سميث اول مدرسة في الشام تحتل بناء شيد ليكون مدرسة للاناث فكان لهذا العمل أثر عجيب وبليغ في بلاد اهملت تعليم الأنثى اهمالاً يكاد يكون تاماً . وقد اقتفى أثر المسز سميث

(١) كان المسلمون العرب يبزون النصارى العرب في ثقافتهم الأدبية وكذلك في صفاء لغتهم ويعود الفضل في ذلك ، بالدرجة الأولى ، الى أثر القرآن والى أن العلوم الاسلامية كانت ذات قيمة انسانية (humanistic) عميقة .

جماعات كثيرة . واخيراً فان تأسيس مطبعة تستطيع اصدار الكتب باللغه العربية فتح امام المعلمين آفاقاً جديدة واحدث منذ سنينه الأولى انقلاباً في طرق التعليم المطبقة في ذلك العصر بما قدمه للمعلمين والطلاب من الكتب التي تبحث المواضيع العلمية الأصلية .

لا يمكننا في هذا العصر ان نتصور تكوين أمة من الأمم دون ان يتم ذلك التكوين بفعل المدارس والكتب ولهذا كانت الحركة التي بدأت في الشام عام ١٨٣٤ تجربة اساسية بما قدمته من المقاييس الجديدة في المدارس والكتب المدرسية . واذا نظرنا الى تلك الحركة الآن ادركنا ان نتائجها كانت حاسمة لأنها بوضعها الأسس لنظام ثقافي جديد مهدت الطريق امام اللغة العربية لتصبح مرة ثانية أداة لنقل الأفكار ونشرها .

— ٣ —

أخذ التعليم ينتشر ويتقدم بخطوات واسعة منذ تلك الساعة وكانت هناك ثلاث عناصر رئيسية تسعى الى ذلك : الأول الادارة المصرية وبرنامجها القاضي بتأسيس المدارس الأميرية ، والثاني البعثات التبشيرية الفرنسية والأمريكية ، والثالث رجال الدين المحليون الذين تنبهت لديهم غريزتا حفظ الذات وحب الخير بنتيجة اعمال المبشرين الأجانب . ان نتائج ما بذله كل عنصر من هذه العناصر لتسترعي الاهتمام من نواح عديدة ويمكن تلخيصها بما يلي .

أما النظام المصري فكان يقضي بتأسيس المدارس الابتدائية في سائر انحاء البلاد وبتأسيس الكليات الثانوية في المدن الرئيسية . ولم يكن غرض ابراهيم الوحيد من هذا العمل نشر التعليم نفسه بل كان يرمي في الوقت ذاته إلى تسخير المدرسة لتكون آلة ينفذ بواسطتها نواياه السياسية ويسد عن طريقها حاجاته العسكرية . وكان حرصه على غرس بذور الوعي القومي العربي في المدارس أشد

من حرص ابيه في مدارس مصر حتى انه دعا رجلاً فرنسياً (١) بارزاً من رجال التعليم الذين كانوا يعملون في خدمة محمد علي ليشير بالأسلوب الواجب اتباعه في هذا الأمر . واراد ابراهيم ان يؤهل شباب البلاد للخدمة العسكرية عن طريق نظام خاص للتعليم ، وبالاضافة الى المدارس الابتدائية التي انشأها في جميع انحاء الشام فقد أسس كليات كبيرة في دمشق وحلب وأنطاكية وكان طلابها كلهم من المسلمين وكانت الحكومة تنفق على اعاشتهم واسكانهم ولباسهم وتعليمهم كما كانت تزيد فضلاً على فضل بما تمنحه لهؤلاء الطلاب من الرواتب . كان عدد الطلاب في كلية دمشق يقرب من الستمائة وفي كلية حلب كان العدد يربو قليلاً على الاربعمائة وكانوا يرتدون الملابس العسكرية ويتلقون دروساً في العلوم العسكرية . وبالرغم من ان النتائج كانت باهرة في حينها الا ان النظام الجديد لم يدم اكثر من ستة أعوام لأنه انهار على أثر انسحاب الجيش المصري من الشام عام ١٨٤٠ . ومع ذلك فقد ترك هذا النظام أثراً واحداً باقياً : فقد أثار ابراهيم مخاوف آباء الطلاب المسلمين بتجنيده أبناءهم للتدرب على الجندية وحركت هذه المخاوف نشاطهم فأخذوا يفتحون المدارس لمنافسة مدارس ابراهيم ولكي يتيحوا لأولادهم الفرصة للفرار من الانخراط في السلك العسكري الذي كانوا ينظرون اليه بفزع شديد . وقد ولد هذا العامل الفعال اهتماماً حقيقياً بالتعليم العام وبقي هذا الاهتمام حياً بعد ذهاب ابراهيم ولم تزده الأعوام بعد ذلك الا قوة .

---

(١) هو الدكتور ا . كلوت المعروف باسم كلوت بك وهو جراح فرنسي أدى خدمات جلى في حقلي الصحة العامة والتعليم الطبي في مصر في عهد محمد علي . وكان اخلاصه لسيده وللنهضة القومية في مصر حقيقياً وقد بذل جهوداً كبيرة في سبيل بث روح القومية الصحيحة بين طلاب المدارس العالية التي كان يديرها .

— ٤ —

ويحتل المبشرون الأمريكيون المكان الثاني . ومما جعل مساعيهم تقترن بثمرات كبيرة أن التفكير الصحيح كان يرافق حماسهم دوماً . لقد أدركوا أن البلاد في حاجة قصوى إلى نظام للتعليم يتفق وتقاليدها كما أدركوا أن الأمة التي ضاع ميراثها لا تستطيع استرجاعه إلا بدراسة أدبها . ولما كان أول شرط لتحقيق هذا الأمر هو إيجاد الكتب المدرسية على اختلاف أنواعها قرر إيلي سميث وأعوانه النهوض بأعبائه فأخذوا يتعلمون اللغة العربية أثناء نقلهم المطبعة من مالطة إلى بيروت .

لقد استطاعوا في بضع سنين أن يطبعوا عدداً من الكتب يؤمن احتياج المدارس التي أسسوها وغيرها ولما رأوا أن الأدوات التي بين أيديهم لم تعد تفي بالمرام ذهب إيلي سميث إلى مصر والقسطنطينية للبحث عن نماذج جديدة للحروف كما ذهب فيما بعد إلى ليبزيغ حيث تم تحت إشرافه صب حروف جديدة أصبحت تعرف منذ ذلك الحين باسم الحروف العربية الأمريكية (١) . وبهذه الإضافة الجديدة إلى تجهيزاتها تمكنت المطبعة من توسيع أعمالها فأخذت على عاتقها طبع عدد كبير من الكتب العربية وكان من أعمالها التي كلفها عناء كبيراً إصدار طبعة جديدة للانجيل . وقد استخدم المبشرون الأمريكيون عالمين : ناصيف اليازجي وبطرس البستاني ، وكلفوهما بتأليف الكتب في مواضيع مختلفة تصلح للتدريس في المدارس . وحالما تم تأليف هذه الكتب والموافقة عليها طبعوها في مطبعتهم ونشروها في طول البلاد وعرضها وقد أثبت إقبال الناس الشديد على هذه

(١) راجع كتاب (ثلاثة وخمسون سنة في الشام) لمؤلفه هـ . هـ . جيسوب — طبعة نيورك عام ١٩١٠ وقد أخذتُ عنه معلومات أخرى في هذا الباب .

الكتب أنها سدّت فراغاً كبيراً وأن الأفكار أصبحت مستعدة لتلقي العلم بنتيجة اليقظة التي حركتها .

وفي الوقت نفسه كان المبشرون يفتحون المدارس في جهات مختلفة من الشام وكان أول ما أسسوه منها في بيروت وبيت المقدس وجبل لبنان وقد اعترف الدكتور باوريننغ (١) في التقرير الذي رفعه إلى بالمرستون بأن التعليم في تلك المدارس كان جيداً جداً وأنه بالنسبة إلى غيره قد بلغ مستوىً رفيعاً . وقد رأى هؤلاء المبشرون بعد أن سدّوا النقص في الكتب أنهم في حاجة إلى معلمين مدربين فحوّلوا المدرسة العليا التي أنشأوها في قرية عبيّ اللبنانية إلى دار للمعلمين فلما كان عام ١٨٦٠ كان عدد المدارس التي فتحوها ثلاثاً وثلاثين وعدد طلاّبها على وجه التقريب الف طالب وكان ما يعادل خمس هؤلاء الطلاب من الاناث .

وكانت درّة اعمالهم في الحقل التعليمي تأسيس الكلية السورية البروتستانتية في بيروت عام ١٨٦٦ . لقد كان المبشرون منذ سنوات عديدة يشعرون بضرورة التعليم العالي ويفكرون في إيجاد حلّ لهذه المسألة فقرروا

---

(١) وهذا نص ما قاله : (وللأمريكيين في بيروت ايضاً بعض المدارس التي تتمتع بشيء من الشهرة . فان المدرسة الكبيرة المتصلة ببناء الارسالية نفسه تستحق ان تسمى كلية اكثر من اية مؤسسة في الشام . لقد اتيح لي ان ارى شباباً كثيرين ممن يتلقون العلم في المدرسة التبشيرية الأمريكية فوجدت انهم يبزون غيرهم من شباب جيلهم في الشام . إنهم جميعاً يتعلمون اللغة الانكليزية . تتراوح التكاليف السنوية للمؤسسة بين ستة آلاف وسبعة آلاف دولار ويسدد هذا المبلغ كله من التبرعات العامة في الولايات المتحدة . وقد فتحوا بعض المدارس للاناث في أوقات مختلفة . ونتيجة ذلك كله أن نسبة الذين يقرأون ويكتبون من سكان بيروت النصارى تفوق أية مدينة في الشام)

اخيراً في احد اجتماعاتهم عام ١٨٦٢ الموافقة على الاقتراح القاضي بانشاء مركز لائق لهذا النوع من التعليم . ووقع الاختيار على دانيال بليس[١] ليذهب إلى بريطانية والولايات المتحدة للحصول على مساعدات مالية لهذا المشروع فنجح في مهمته بشكل استطاع معه المبشرون ان يشرعوا بالتنفيذ فلما كان شهر اكتوبر عام ١٨٦٦ فتحت المؤسسة التي عرفت باسم الكلية السورية البروتستانتية ابوابها لستة عشر طالباً . وقد انحصر التعليم بادئ الأمر في بعض الفروع المتقدمة للعلوم الثانوية وفي الطب وكانت العربية لغة التدريس في جميع الفروع . وبتقدم الزمان توسع أفق التعليم في تلك المؤسسة وارتفع مستواه فأخذت تمو باستمرار وثبات حتى أصبحت اليوم جامعة بالمعنى الصحيح وبهذا الشكل ظهرت إلى حيز الوجود مؤسسة كتب لها أن تلعب دوراً رئيسياً في حياة البلاد المستقبلة فاذا نظرنا إلى ما قامت به من أعمال في سبيل نشر التعليم وإلى الحركة الفعالة التي أوجدتها في الآداب والعلوم وإلى ما تمّ على يد خريجيها من خدمات ، إذا نظرنا إلى ذلك كله دعانا الانصاف إلى الاعتراف بأن أثرها في النهضة العربية كان أعظم من أثر غيرها من المؤسسات وذلك في الأدوار الأولى لتلك النهضة على الأقل .

لقد نجم عن الأعمال التي قام بها المبشرون الأمريكيون في حقل التعليم خير كثير وكان من مزاياها الكبرى أنهم أعطوا اللغة العربية المقام الأول فلما شرعوا يستعملونها في التعليم أخذوا يبذلون جهوداً جبارةً لايجاد الكتب اللازمة لذلك فكانوا في هذا الأمر المؤسسين الأوَل وكان لهم الفضل الأكبر في

(١) ولد القس دانيال بليس الدكتور في اللاهوت في الولايات المتحدة عام ١٨٢٣ وأتى إلى بيروت عام ١٨٥٦ . ولما أسست الكلية السورية البروتستانتية عام ١٨٦٦ كان أول مدير لها وبقي في منصبه حتى عام ١٩٠٢ حيث اعتزل العمل وخلفه ابنه هوارد بليس .

خلق الغليان الفكري الذي تشكلت بنتيجته الاهتزازات الأولى في حركة البعث العربي .

— ٥ —

لم تكن البعثات التبشيرية الكاثوليكية أقل نشاطاً من البعثات البريسبيتيرية وقد أصبحت مع الأيام تتمتع بنفوذ واسع كنفوذها إلا أن أعمالها كانت بطيئة في البداية ولم تؤتِ أكلها إلا بعد حين .

كان اليسوعيون في حقل تعليم الذكور أكثر إقداماً من غيرهم . لقد رأينا كيف أنهم عادوا إلى الشام عام ١٨٣١ فاستطاعوا خلال سنتين أن يعيدوا فتح مؤسستين من مؤسساتهم في جبل لبنان وقد ألحقت بكل واحدة منهما فيما بعد مدرسة . وقد أسسوا المدارس في بيروت (١٨٣٩) وغزير (١٨٤٣) وزحلة (١٨٤٤) ثم اخذ أفق نشاطهم يتسع بالقدر الذي تسمح به مواردهم وقد انحصر هذا التوسع في البدء بالمناطق المجاورة ولكنه لم يلبث ان تناول مراكز بعيدة مثل دمشق (١٨٧٢) وحلب (١٨٧٣) كانت فيما مضى مسرحاً لنشاطهم . وكان لمدرسة غزير أهمية تاريخية إذ انتقلت إلى بيروت عام ١٨٧٥ واصبحت تعرف باسم جامعة القديس يوسف فكان لها ، كما كان لشقيقتها الأمريكية ، أثر فعال في تكوين النشء الجديد .

وقد بدأ نشاط اليسوعيين في ميدان الطباعة كما في سواه بعد غيرهم فقد أسسوا أول مطبعة لهم عام ١٨٤٧ إلا أن إنتاجها كان محدوداً لأنها كانت تعمل على الحجر ولم يشرعوا في استعمال الحروف المنفصلة إلا في عام ١٨٥٣ . وفي الأعوام التي تلت ذلك توسعت مطبعتهم بالتدريج فلما نقلوا مركز العلوم العالية إلى بيروت كان في حوزتهم آلة للطباعة مجهزة تجهيزاً تاماً وتستحق ان تحتل المكان الأول في عالم الطباعة بفضل ما أصدرته من النصوص القديمة وغيرها

من الكتب العلمية وبفضل ما اتصفت به من جودة حروفها والعناية الفائقة التي كانت تبذل في إخراج جميع منشوراتها .

وفي تلك الفترة اخذ النشاط يدب في غير اليسوعيين من البعثات التبشيرية الكاثوليكية الأجنبية وفضلاً عن العازاريين الذين أعادوا فتح كلية عنتورة ثم أسسوا مدرسة في دمشق قام راهبات المحبة وغيرهن من الجمعيات الدينية بتأسيس المدارس للاناث ولصغار الذكور في بيروت وبعلبك ودمشق ومناطق مختلفة من جبل لبنان .

ويمكننا القول بصورة عامة أن اعمال الجمعيات الكاثوليكية كانت مفيدة بعض الشيء في تلك الظروف وإن كانت آثار نشاطها ، باستثناء اليسوعيين والعازاريين ، لم تجاوز المنطقة التي تعمل فيها كما أن مدى تلك الأعمال نفسها كان محدوداً . وفي اثناء الاضطرابات التي انتابت البلاد بصورة متقطعة ولا سيما في عام ١٨٦٠ هوجمت بعض مؤسساتهم كما أن بعضها الآخر هـــدد وأرغم على الاغلاق ولكن اعمالهم بعد تلك السنة توسعت كثيراً بعد ان أمنت من التعدي . لقد كانت مساهمتهم في النهضة العلمية العامة قيمة ولكن الاثر الذي تركوه في الناحية الأدبية من النهضة العربية كان قليلاً وطارئاً (١) .

---

(١) لقد أمّ الشام بعثات تبشيرية أخرى على أثر مذبحة ١٨٦٠ وكان في طليعتها البعثة السورية البريطانية برئاسة المسز بوين طومبسون والبعثة البروسية المؤلفة من راهبات كايزرورت ، واستطاعت هذه البعثات منذ ذلك الحين أن تؤدي خدمات جلى في ميداني التعليم والاسعاف الطبي . ولئن أصبح لهذه البعثات أثر بين فيما بعد إلا أن هذا الأثر لم يكن ظاهراً كثيراً في العهد الذي نبحثه الآن .

- ٦ -

لقد آن الأوان الآن لأن نتعرف إلى شخصيتين كبيرتين كانتا تسيطران على الحياة الفكرية في ذلك العهد .

كان ناصيف اليازجي اكبر الاثنين سناً وقد ولد في قرية لبنانية صغيرة من أسرة مسيحية ذات ماض يفضل حاضرها . أما التعليم الذي تلقاه فلم يكن ليختلف عن النوع المقرر والجامد الذي كان شائعاً في ذلك الزمان ولكن هذا الجمود لم يفلح في خنق عبقريته . كان حب الاطلاع من صفاته البارزة فلما أيقظته الدروس التي تلقاها من قس القرية دون أن تروي ظمأه انطلق يبحث عن المعرفة في مكان آخر . ولما لم يكن للكتب المطبوعة وجود لجأ إلى المصدر الوحيد الذي يمكن الاغتراف منه وهو المخطوطات المحفوظة في مكاتب الأديرة . وبفضل الشهرة التي اكتسبها باجتهاده ومثابرته على العمل سمحوا له ان يقرأ النصوص الأصلية ويستعيرها إذا شاء فلم يضع هذه الفرصة بل أفاد منها على وجهها الاكمل بنتيجة قدرته الهائلة على العمل وذاكرته العجيبة فكان إذا مرّ بنص اعتقد انه جدير بدراسة دقيقة عمد إلى حفظه عن ظهر قلب او نسخه بصبر وثبات بخط يده المزخرف(١) . لقد هدته رحلاته الاستكشافية في زوايا المكتبات إلى قلب ذلك العالم المفقود عالم الأدب العربي القديم وفتحت عينه إلى الارض الجرداء التي خطتها القرون في ذلك العالم . ومنذ تلك اللحظة أخذ يفكر في الاسلوب الذي يستطيع بواسطته ان يحي الماضي وكانت هذه المسألة تحتل في تفكيره المقام الاول . لقد نبه جمال الادب المدفون روح العروبة فيه فسيطر عليه سيطرة الساحر على اداته حتى اصبح ناصيف اليازجي رسولاً يبشر ببعث ذلك الادب .

(١) ما زالت أسرة اليازجي تحتفظ بنصوص عديدة نسخها بيده في ذلك الحين .

يمكننا ان نذكر فيما يلي الحوادث البارزة في حياته بصورة مجملة . لقد وقع عليه الاختيار حين بلغ عامه السادس عشر ليكون أميناً لسر رجل كبير من رجال الدين ولكنه لم يبق في هذه الوظيفة اكثر من سنتين حيث تركها ليتابع دراساته مستقلاً . وقبل ان يبلغ الثلاثين قبل عملاً في ديوان الأمير بشير الذي كان الحاكم المطلق في لبنان ولم يترك هذا العمل إلا في عام ١٨٤٠ حين أرغم الامير بشير على مغادرة البلاد والاقامة في المنفى بنتيجة انسحاب إبراهيم باشا من الشام . وكان اليازجي في ذلك الحين قد نال شهرةً واسعة كعلم من اعلام اللغة العربية ذي مؤلفات كثيرة وقصائد عديدة نشرت فيما بعد فملأت بضع مجلدات وصفها الناس خطأً بأنها من الشعر ولم تكن شعراً حقيقياً لأنها لم تشتمل إلا على الكلام الموزون المقفى . فان الصفة البارزة في كل ما خطه يراع اليازجي كانت قوة الأسلوب الذي ابتكره وصفاءه وكذلك النماذج اللفظية التي اوجدها لتكون مثالاً يحتذى في التعبير الادبي . فكان طبيعياً ان يلجأ إليه الامريكيون ليساعدهم في إصدار الكتب التي تبحث في علم اللغة العربية لانه كان بين معاصريه أهلاً لهذا النوع من العمل اكثر من سواه . أما الكتب التي ألفها في علوم القواعد والمنطق والخطابة وفن العروض فكانت خاصة بالمدارس وبالدرجة الاولى بمدارس البعثة الامريكية إلا انها انتشرت بين حلقة واسعة من المعلمين وطلاب العلم فظلت حتى بعد وفاته في عام ١٨٧١ هي السائدة في تدريس اللغة العربية .

ومع ذلك كله فلم يكن اثر ناصيف اليازجي منحصراً في ما نشر من كتبه المطبوعة إذ انه بعدما ترك الخدمة في معية حاكم لبنان قطن بيروت حيث اصبحت داره محجاً لعدد متزايد من المعجبين به الذين كانوا يفدون عليه بكثرة ليسمعوا حديثه عن جمال لغتهم كما اعتاد العرب قديماً أن يفعلوه في كل مكان . وكان ناصيف اليازجي بطبعه متحفظاً وقليل الكلام كما انه كان يتصف بالصلابة شأن كل من

يعتنق فكرة سلفية ومع ذلك كان موضوع اللغة العربية ، وهو هواه الوحيد في حياته العقلية ، يحل عقدة لسانه فيكثر من التحدث فيه . وكانت العربية اللغة الوحيدة التي يعرفها حتى انه توفي دون ان يتعلم غيرها فاكتسب بهذا الحصر قوةً كبيرة تشبه قوة المياه التي إذا حُصرت في مجرى واحد تدفقت كالسيل الجارف . وكان يدعو الى بعث الادب القديم بالحاح لا يفتر حتى اوجد عدداً كبيراً من اشياع هذه الفكرة الذين يعتقدون ان خلاصهم لا يتم إلا بهذا البعث وحده . ومما يسترعي الانتباه في هذه الدعوة الجديدة انها كانت موجهة إلى جميع العرب ، النصارى منهم والمسلمين ، وانها كانت تناشدهم جميعاً بأن يذكروا ميراثهم المشترك ليبنوا على اساسه باخاء مستقبلاً مشتركاً كذلك ، وهذا في عصر ما زال يعاني شرور التعصب الديني الشديد . وقد نشأ اولاده ، وكانوا اثني عشر ولداً من الذكور والاناث ، على هذه الافكار ونقل إليهم حماسته هو للموضوع . وسوف نرى فيما بعد كيف ان تعاليم الاب حركت احد ابنائه ليتفوه بأول نداء يدعو إلى تحرر العرب القومي .

— ٧ —

كان بطرس البستاني الذي ولد عام ١٨١٩ الشخصية الثانية الكبرى وكان هو الآخر عربياً مسيحياً من قرية لبنانية ولكنه يختلف عن اليازجي في انه تلقى أحسن تعليم ممكن في ذلك الزمان كما تعلم لغات اخرى بالاضافة إلى اللغة العربية . لقد دخل وهو في سن العاشرة كلية عين وراقة القائمة على نظام الاديرة حيث تعلم السريانية واللاتينية بالاضافة إلى العلوم الكنسية واللغة العربية وفي تلك المدرسة امتاز على اقرانه بخلقه وإحاطته الباهرة بالعلوم والآداب فاختاره الرهبان ليدرس على نفقتهم في الكلية المارونية في رومية . كان بطرس راغباً في الذهاب ولكن والدته الأرملة بكت حين رأت ان ابنها سيرسل بعيداً عنها

وناشدته البقاء إلى جانبها فبقي واتخذ التعليم مهنة له كما استطاع خلال ذلك أن يجد الوقت الكافي لتعلم اللغة الانكليزية . وفي عام ١٨٤٠ استوطن بيروت حيث تعرف إلى إيلي سميث وإلى رجل أمريكي آخر اسمه الدكتور كورنيليوس فاندايك (١) الذي كان وصل بلاد الشام حديثاً كمبشر وطبيب .

لقد نما هذا التعارف حتى توثقت بنتيجته أواصر الصداقة ثم تجاوز هذا الحد فتحول إلى اتصال روحي اعتنق بفضله البستاني المذهب البريسبيتيرتي . ومن تلك اللحظة اندمجت أعماله بأعمال الارسالية نفسها ووجد لنشاطه ميداناً واسعاً لا حدّ له فقبل العمل كأستاذ للغة العربية في دار المعلمين في عبيّ وأخذ يؤلف مايلزم من الكتب المدرسية . ولما طلب إليه أن يساعد إيلي سميث في ترجمة الكتاب المقدس انصرف إلى تعلم العبرية والآرامية واليونانية مع العناية باتقان السريانية واللاتينية إتقاناً تاماً حتى اصبح يجيد جميع اللغات التي كتبت فيها اقدم النصوص

(١) ولد هذا الرجل في كيندرهوك في ولاية نيويورك عام ١٨١٨ ودرس الطب في كلية جيفيرسون في ولاية فيلا دبلفية ثم قدم بيروت عام ١٨٤٠ كطبيب مدني في البعثة البريسبيتيرية حيث كان اول شاغل له تعلم اللغة العربية حتى بلغ فيها حداً مدهشاً من الاتقان جعله يتكلمها ويكتبها بسهولة يحاكي فيها العربي المثقف . وقد ألف في هذه اللغة كتباً مدرسية تبحث في مواضيع علمية مختلفة فاستمر استعمال بعضها خلال جيلين او ثلاثة اجيال . وتوفي عام ١٨٩٥ بعد أن قضى في الشام خمساً وخمسين سنة كان سعيه فيها متصلاً وحثيثاً فاستطاع ، اكثر من غيره من الاجانب الذين أموا ديار الشام في القرن التاسع عشر ، أن ينفذ إلى صميم حياة الناس . لقد كان كورنيليوس فاندايك مثالاً بارزاً للاثر الذي يستطيع فرد واحد أن يتركه في حياة البلاد الفكرية ولعل اثره كان اقوى أثر فردي في قيمته وفعاليته .

الانجليزية . لقد تعلم الطليانية في المدرسة ويظهر انه في فترة من حياته تعلم الفرنسية أيضاً فاستطاع بذلك أن يقوم بما كلف به من عمل في ترجمة الكتاب المقدس وهو مزوّد بكل ما يحتاج إليه من الأدوات .

كانت قدرته على هضم العلوم عجيبة ومع ذلك كان إنتاجه غزيراً بدرجة ما كانت قابليته لتلقي العلوم واسعة غير محدودة ففي الأعوام الاولى التي تعاون فيها مع الامريكان كان يعلم في مدارسهم ويتعلم لغات جديدة كما أخذ يلتهم الكتب الانكليزية الباحثة في العلوم الطبيعية التهاماً ويؤلف الكتب التي يحتاج إليها الطلاب في المدارس . وقد ألف الامريكان جمعية ادبية بدفع منه فكان يعمل لهذه الجمعية بالقاء المحاضرات والتبشير وكتابة النشرات الصغيرة . وكان بعد ذلك ان اشترك مع إيلي سميث في ترجمة الكتاب المقدس فكان هذا العمل شاغله الاول خلال عشر سنين تقريباً وما كاد ينتهي منه حتى شرع في إنجاز الأثر الأول من أثريه الكبيرين وهو إصدار معجم للغة العربية وقد نشر في عام ١٨٧٠ في جزأين بعنوان (محيط المحيط) . وبينما كان يشتغل في معجمه الذي كان يقوم به بمفرده دون ان يحظى بمساعدة تذكر ادرك ان حجم المعجم سيحول دون إفادة أكثر الطلاب منه فشرع في الوقت نفسه باعداد موجز له نشره بعده بقليل بعنوان (قطر المحيط) . أما أثره الكبير الثاني فهو دائرة عربية للمعارف وقد بدأ فيه بعد سنوات قليلة من نشر معجميه وسخر لاتمامه ما وجده امامه من المصادر الاوربية . ولم يقتصر هذا الكتاب على المنقول والمترجم بل كان يحوي معلومات كثيرة مستندة إلى مصادر عربية ادبية وتاريخية وهذه المعلومات دليل واضح على ما كان يرافق استخراجها من فهم وتدقيق فلما توفي عام ١٨٨٣ كان ما اصدره من (دائرة المعارف) يبلغ ستة اجزاء[١]. كان مبلغ الجهد الذي صرف في هذا العمل

---

(١) قام ابناء البستاني وغيرهم من اسرته بانجاز (دائرة المعارف) هذه بعد وفاته فكان مجموع ما صدر احد عشر جزءاً .

كبيراً كما كانت المادة جيدة جداً بالرغم من وجود بعض النواقص الخطيرة وهذا مايجعلنا لا نكاد نصدق ان رجلاً بمفرده تولى الاشراف عليه وراجع كل ما كتب فيه كما قام هو بنفسه بتأليف جزء كبير منه .

كان البستاني خلال ذلك يصرف نشاطه في أعمال اخرى يدفعه إلى القيام بها دافع رئيسي هو حبه لوطنه . فان فورة عام ١٨٦٠ التي رافقها مذابح وحشية للنصارى في دمشق وفي لبنان هيجت عواطف البغضاء الدينية حتى أوصلتها إلى حدّ قتال مما حمل البستاني على السعي إلى تخفيف حدتها باصدار جريدة ذلك العام نفسه في بيروت . وكانت الجريدة صغيرة الحجم وتصدر مرة في الأسبوع وتحمل اسم (نفير سورية) فكانت اول جريدة سياسية تصدر في البلاد وكان هدفها الأول الدعوة إلى الوفاق بين الطوائف المختلفة والى الاتحاد وفي سبيل البحث عن المعرفة فان المعرفة تؤدي الى إنارة الأذهان وهذا التنور يقتل التعصب ويولد المثل العليا المشتركة — على هذا الشكل كان يعالج الموضوع في حقول جريدته الصادقة أسبوعاً تلو أسبوع . لعل هذه الدعوة تحوي في طياتها افكاراً مقررة وبديهية ولكن سورية لم تسمع بمثلها قبل ذلك التاريخ كما أنها كانت تضم في في جنباتها بذرة الفكرة القومية . وبعد مرور ثلاث سنوات على ذلك أنشأ مدرسة أطلق عليها اسم (المدرسة الوطنية) غايتها تحقيق الهدف ذاته عن طريق تربية الطلاب من جميع الطوائف على أساس من التسامح الديني والمثل العليا الوطنية . وكان من حسن طالعه أنه استطاع الاستفادة من خدمات ناصيف اليازجي فكان الاستاذ الرئيسي للغة العربية . وقد نالت المدرسة شهرةً سريعة وجذبت إليها الطلاب من جميع جهات سورية فكان بينهم افراد برزوا فما بعد في ميدان الخدمة الوطنية . وبعد ان نشر معجمه الكبير أنشأ عام ١٨٧٠ مجلة سياسية وادبية اسمها (الجنان) تصدر مرة في الأسبوعين وتسعى الى تحقيق الغاية ذاتها أي مكافحة

التعصب والدعوة إلى التفاهم والاتحاد في سبيل ضمان الخير العام وقد اتخذ لمجلته هذه عبارة « حب الوطن من الايمان » كشعار يثبت في الصفحة الاولى مع العنوان ويرمز إلى ذلك الشعور الوطني الذي كان في ذلك التاريخ مفقوداً في العالم العربي. وقد استمرت المجلة تصدر طول حياته بانتظام لا بأس فيه يساهم في تحريرها عدد من الكتاب من سكان الأقطار العربية المجاورة ومن سورية نفسها. ولكن قيمتها الحقيقة كانت ناشئة في الدرجة الأولى عن انها تعرب عن آراء منشئها وأنها كانت عاملاً فعالاً في توجيه الافكار نحو حرية الرأي والحرية الدينية.

ويشبه البستاني اليازجي في ان نفوذه لم يكن نتيجة لانتشار آثاره المكتوبة فحسب بل كان لما انطوت عليه حياته من مثل حسن أثر واضح فقد كان ينفذ بنفسه كل أمر كان يحث الناس عليه وذلك باستمرار طبيعي وبهدوء ووقار وكل هذه المزايا مما يتفق دوماً والايمان المجرد. ومما يثير الاعجاب أنه احتفظ بهدوئه حين انتابت البلاد نوبة من التعصب الشديد فوقعت مذابح ١٨٦٠. ولم يكن هذا الهدوء ناشئاً عن عدم الاكتراث فان منطقته نفسها كانت من المناطق التي أصابتها الكوارث بل كانت نتيجة لادراكه حقيقة لم يدركها معاصروه وهي ان السبب الأساسي لكل ما وقع هو التعصب الذي ولده الجهل وان الطريق الوحيدة التي تؤدي الى إقامة السلام بين الطوائف هي الطريق المارة بحقول العلم التي ما زالت بكراً وقد عمل من عام ١٨٦٠ حتى وفاته على هداية الناس الى تلك الطريق بجد واجتهاد ينتزعان الاعجاب انتزاعاً. لقد كان يدأب على العمل دون ان يكلّ أو يملّ وكان اجتهاده يتزايد مع تقدم سنه فانه حين بدأ بتأليف (دائرة المعارف) كان في السادسة والخمسين وكان إذ ذاك منهمكاً بأعمال اخرى. لقد أخذ العالم الذي يحيط به يردد صدى صوته كما اخذ الجو الذي حوله تمتلئ جوانبه بنداء يرتفع ثم يرتفع مطالباً بنور المعرفة. بيد ان قوته الجسمانية لم تكن لتحتمل اعباء

الواجبات التي فرضها على نفسه فتوفي ذات ليلة فجأة بالسكتة القلبية بينما كان يعمل على إتمام (دائرة المعارف) فوجدوه ملقى على ارض غرفته وقلمه في يده وحوله ركام من الكتب .

— ٨ —

تقدم البستاني واليازجي إلى الارسالية الامريكية باقتراح يستهدف تأسيس جمعية علمية وذلك في بدء اشتراكهما في العمل مع تلك الارسالية . وإني لم اهتد إلى معرفة آرائهما في الشكل الذي يجب ان يتمّ فيه تأسيس الجمعية أو تحديد الاهداف الحقيقية التي كانا يرميان إلى تحقيقها ويغلب على الظن أنهما كانا يشعران بضرورة العمل على نشر العلوم بين الكبار عن طريق حملهم على الاحتكاك بالثقافة الغربية على ان يساير ذلك انتشار التعليم في المدارس وظهور الاهتمام بالعلوم . ومهما يكن من الأمر فانه من الثابت أنهما قدّما الاقتراح إلى أصدقائهما الجدد مع شيء من الإصرار فنجحا عام ١٨٤٢ في حملهم على تشكيل لجنة (١) لتنفيذ الاقتراح . ولقد استكمل المشروع أسبابه عام ١٨٤٧ حين برزت إلى حيز الوجود في بيروت جمعية تحمل اسم (جمعية الفنون والعلوم) وتضم بين اعضائها اليازجي والبستاني وإيلي سميث وكورنيليوس فانديك وكثير من الامريكان كما انتسب إليها الكولونيل تشرشل الشهير وكان إنكليزياً مقيماً في سورية ، ولم يمض عامان

(١) إن بين محفوظات البعثة الأمريكية في بيروت محضراً لم ينشر وهو مؤرخ في ٢١ إبريل عام ١٨٤٢ ويشير إلى ان اللجنة مؤلفة من الدكتور كورنيليوس فانديك واثنين من المبشرين وأن الأعمال التي كلفت بها هي اتخاذ الوسائل الاولية في سبيل تشكيل جمعية ذات اهداف علمية . وإني لمدين الى القائمين على أمر البعثة في بيروت إذ سمحوا لي أن أدقق وثائقهم غير المنشورة وأراجع مكتبتهم .

على تأسيس هذه الجمعية حتى بلغ عدد اعضائها الخمسين واكثرهم من النصارى القاطنين في بيروت ولم يكن بين الأعضاء واحد من المسلمين او الدروز وكان لها مكتبة متواضعة ولكنها مفيدة وكان اليازجي اميناً عليها بينما كان البستاني أمين السر للجمعية وكانت الجمعية تعقد اجتماعات يقرأ فيها بعض الاعضاء مرة في الأسبوعين شيئاً مما سبق لهم تحضيره ثم اخذت الاجتماعات تقل مع تقدم الزمان. وعاشت الجمعية خمس سنين واصدرت في سنتها الاخيرة نشرة عن أعمالها حررها ذلك الكاتب الذي لا يتعب، البستاني، وضمنها بياناً عن اعمال الجمعية وخلاصة عن المواضيع التي كانت تلقى في اجتماعاتها.

كانت هذه الجمعية اول جمعية من نوعها تؤسس في بلاد الشام وحتى في سائر انحاء العالم العربي فان فكرة نشر العلم عن طريق العمل المنظم المشترك كانت غريبة عن الخلق الفردي الذي يتصف به العربي إذ ان أسلوب العربي في تناول الثقافات العالية يشبه أسلوب اليونان في عهد افلاطون حيث كان المعلم يتربع على عرشه العلمي فيقبل عليه التلامذة ويجلسون عند قدميه وقد اتوا في بعض الاحيان من مسافات بعيدة جداً. ومع ذلك فقد اثمرت هذه المؤسسة الجديدة ثمرات نافعة إذ تشكلت جمعيات اخرى على غرارها كتب لها ان تلعب دوراً هاماً في سير الحركة العربية القومية. وواقع الأمر ان اول نداء لهذه الحركة الفتية ارتفع في إحدى هذه الجمعيات الاولى التي كانت الخلف المباشر للجمعية التي تشكلت بفضل جهود اليازجي والبستاني.

كان اليسوعيون اول من قلد الامريكان في هذا الامر إذ شكلوا جمعية مماثلة عام ١٨٥٠ تحمل اسم (الجمعية الشرقية) وكان وليها الأب النشيط دوبرو نيير[١] ومن المؤسف ان نجد نقصاً في ما بقي لنا من سجل اعمالها ومع ذلك فمن

(١) هو هنري دوبرو نيير وهو يسوعي فرنسي ولد عام ١٨٢١ واتى —

المعروف انها كانت تعقد اجتماعات دورية حيث كان بعض الأعضاء يقرأونه على زملائهم ما حضروه من المواضيع العلمية وانها كانت مثل سابقتها الامريكية تضم اعضاء سوريين واجانب ولكنهم جميعاً من النصارى(١) . والظاهر انها زالت مع جمعية (العلوم والفنون) او بعدها بقليل .

إن آخر جمعية نأتي على ذكرها في هذا الباب هي الجمعية التي تشكلت عام ١٨٥٧ بعد ان انحلت الجمعيتان السابقتان فكانت أكبر منهما كما انها كانت تمتاز عليهما بأمرين : الأول ان جميع اعضائها كانوا من العرب والثاني انها كانت تضم المسلمين والدروز كما كانت تضم النصارى .

يحوي هذان الأمران دلائل التطور القاطعة التي قد لا تبدو للناظر في أول وهلة : كان التعصب الديني سائداً عندما تشكلت الجمعيتان ولهذا امتنع المسلمون والدروز عن الاشتراك ومما زاد في نفور العناصر غير المسيحية من الجمعيتين ان تأسيسهما تمّ برعاية من المبشرين . ثم تقدمت الافكار مع تقدم الايام وأخذ ضباب التعصب المؤذي ينقشع بالتدريج بفضل نور المعرفة المنقذ فلم تضع جهود اليازجي والبستاني ، الأول بندائه الحار الموجه الى العرب من جميع الطوائف مناشداً إياهم بأن يتحدوا لخدمة لغتهم ، والثاني بدعوته الصادقة إلى هدم جميع الحواجز . فتقدم المسلمون باقتراح ابدوا فيه استعدادهم للاشتراك في تشكيل جمعية

— بيروت عام ١٨٤٩ حيث بدأ فوراً بدراسة اللغة العربية وقد اكتسب في بلاد الشام نفوذاً واسعاً بفضل علمه الغزير ونشاطه الكبير وقد برز بصورة خاصة عام ١٨٦٠ إذ اشترك في اعمال الاسعاف اثناء المذابح . وقد اضطر بسبب تأخر صحته ان يعود إلى فرنسة حيث توفي عام ١٨٧٢ .

(١) تحوي مجلة (المشرق) التي تصدر في بيروت وصفاً لأعمال (الجمعية الشرقية) وذلك في الجزء ١٢ عام ١٩٠٩ ص ٣٢ — ٣٨ .

جديدة ينتظم فيها عقد الطوائف كلها في سبيل خدمة العلم شريطة ان لا يكون للمبشرين اي علاقة فيها .

وهكذا ظهرت (الجمعية العلمية السوية) الى عالم الوجود عام ١٨٥٧ فبلغ عدد المنتسبين إليها المائة والخمسين بينهم الشخصيات العربية البارزة من جميع الطوائف من اعضاء هيئتها الادارية العالم الدرزي الامير محمد ارسلان الذي ترأس الجمعية عدة سنوات ، وحسين بيهم وهو زعيم أسرة إسلامية ذات وجاهة ونفوذ كما انضمّ إليها النصارى من جميع المذاهب بينهم واحد من اولاد البستاني . سارت هذه الجمعية على غرار الجمعية التي أسست عام ١٨٤٧ في اهدافها واساليبها وحتى في قوانينها . ومع ان مذابح ١٨٦٠ عطلت نشاطها ، وهو امر طبيعي ، إلا أنها عادت فتشكلت مجدداً بعد المذابح بقليل على اساس اوسع من ذي قبل فاستحصلت على رخصة رسمية عام ١٨٦٨ واخذت تضم إليها الاعضاء من بين الشخصيات البارزة التي كانت تقيم خارج البلاد ولا سيما في القسطنطينية والقاهرة . لقد ألف المثل الأعلى المشترك بين الطوائف المتنابذة كما وحدها الاشتراك في العمل للوصول إلى الهدف المشترك ولئن لم تكن هذه الحالة الاولى من نوعها في تاريخ الشام كله فهي على الاقل وبكل تأكيد الاولى من نوعها في تاريخ الشام خلال الثلاثمائة والخمسين سنة من الحكم العثماني . لقد وجد سكان البلاد دافعاً يدفعهم إلى العمل وهو العناية بنهوض الامة كوحدة قومية كما وجدوا رابطة وثيقة تجمع شتاتهم وهي الاعتزاز بالميراث العربي . كان تأسيس (الجمعية العلمية السورية) اول ظاهرة من ظواهر الوعي القومي المشترك وستحتفظ بمكانتها في التاريخ كمهد للحركة السياسية الجديدة .

نستطيع أن نثبت هنا ان أول صوت أرسلته حركة العرب القومية كان في جلسة سرية عقدها بعض أعضاء (الجمعية العلمية السورية) .

كان ابن ناصيف العظيم ، ابراهيم اليازجي ، من أعضاء هذه الجمعية وكتب له فيما بعد أن ينال شهرة في عالم الادب . وقد نظم قصيدة يمجد فيها الفكرة الوطنية ويدعو العرب إلى التمرد كما يتغنى بمآثر العرب وأمجاد الأدب العربي ويبشر بالمستقبل العظيم الذي ينتظر العرب فيما إذا استوحوا ماضيهم . وتندد القصيدة بشرور الاختلاف المذهبي كما تندد بالادارة السيئة التي اصيبت بها البلاد وتدعو السوريين إلى الاتحاد لرفع نير الحكم التركي عنهم . ومما زاد في شدة تأثيرها انها صيغت بألفاظ حماسية . وقد ألقاها ابراهيم اليازجي بصوت هامس أمام ثمانية من الأعضاء الذين وحدتهم الفكرة المشتركة فاجتمعوا ذات ليلة في بيت خاص .

انتشرت القصيدة انتشاراً واسعاً ولكن ما انطوت عليه من معاني الخيانة جعل الحفظ واسطة نقلها الوحيدة . وبالرغم من ذلك فان قدرة العرب على حفظ الشعر وبراعتهم في تنظيم المؤامرات السرية ضمنت انتشار القصيدة من فم إلى فم في المدينة ثم في جميع أنحاء البلاد دون ما اشارة تفضح مصدرها . وقد لاقت هوى قوياً في نفوس الطلاب فطبعت أفكارهم بطابع العزة القومية وهم ما يزالون في السن التي تتقبل الانطباع .

كان لهذه القصيدة أثر ظاهر وفعال في تأييد الحركة القومية في عهدها الأول . ولئن كان لسهولة وزنها وجمال قافيتها فضل في سرعة انتشارها فان السبب الأول لذلك الانتشار يعود إلى انها رددت صدى الشعور الذي كان كامناً في نفوس من وجهت إليهم الخطاب فأيقظت فيهم صادق العواطف.

وبهذه القصيدة انشدت حركة التحرر السياسي نشيدها الأول فكانت الأثر المباشر الذي نشأ عن تجمع الطوائف كلها واتحادها في سبيل السعي إلى بعث الحضارة الأولى . وقد اثقل هذا السعي كاهل اليازجي حيناً ثم نجح فكان مكافأة للبستاني على جهد قضى فيه حياته .

— ١٠ —

لعله من المفيد قبل أن نختم هذا الباب أن نلتفت إلى الوراء لنلقي نظرة على الاحداث السياسية التي حلت بالشام خلال الأعوام التي اعقبت نهاية الاحتلال المصري عام ١٨٤٠

امتاز ذلك العهد بانتشار القلق والفوضى ووقوع اضطرابات كثيرة . لقد رأينا كيف كان السكان قبل الفتح المصري منقسمين على أنفسهم إلى طوائف ومذاهب يختلف واحدها عن الآخر اختلافاً كلياً في نظرته إلى الأمور وفي الجهة التي يخلص لها الود ويرتبط فيها وهذا بالرغم من ان الهدف المادي المشترك كان يجمع شتات هذه الأجزاء المبعثرة أحياناً . ومع ذلك فقد توصل الناس إلى تنظيم صلاتهم على أساس ثابت وعملي حتى بات من النادر تطور الاختلافات المذهبية وأخذها مظهراً عنيفاً . ثم أتى الاحتلال المصري فكان من نتائجه أن اختل هذا التوازن بين العناصر الثلاثة الرئيسية أي النصارى والدروز والمسلمين (١) . ويمكن القاء جزء من تبعة هذا الاختلال على كتف ابراهيم باشا لأنه حرر النصارى فأثار القلق

(١) لايمكن اعطاء احصاء قطعي عن السكان لأن تقديرات المصادر التي بين أيدينا تقريبية ومتناقضة ولعلنا نلامس الحقيقة إذا قلنا إن مجموع سكان الشام كان يبلغ المليون ونصف المليون وإن هذا العدد كان موزعاً بنسبة ٦٥ ./. للمسلمين و ٣١ ./. للنصارى ٤ ./. للدروز .

في نفوس المسلمين . ويتحمل الموفدون الأجانب الجزء الآخر من التبعة ولا سيما أولئك الذين أتوا من انكلترة فأثاروا روح المنافسة بين الدروز والنصارى . فلما اخلت الجيوش المصرية بلاد الشام وعاد إليها الحكم التركي وقفت تلك العناصر الثلاثة وجهاً لوجه وقد اهتاجت عواطف أفرادها في تباغض جديد دون أن تخفف وطأته أو تزجره سلطة ابراهيم القوية فما كاد يمر عام واحد على انسحاب المصريين حتى وقعت اضطرابات خطيرة في جبل لبنان بين النصاري والدروز .

وفي ذلك الوقت أصدر سلطان تركية مرسوماً يعرف باسم الخط الشريف (كولخانه — ١٨٣٩) ويقضي باحداث اصلاحات كثيرة منها اصلاح الادارة . وبفضل هذا المرسوم وبنتيجة الاضطرابات التي وقعت عام ١٨٤١ أنشيء نظام اداري جديد في لبنان يعدل القاعدة القديمة التي كانت تقضى بتنصيب أحد الزعماء الاقطاعيين حاكماً عليه ويوجد سنة جديدة تقضي بتعيين حاكم تركي وتقسيم لبنان إلى منطقتين مختلفتين يسود النصارى في الواحدة ويسود الدروز في الثانية . ولم ينجح هذا التقسيم في القضاء على الاحتكاك بين الطائفتين لأنه لم يكن تقسيماً طبيعياً ومما زاد في خطورة الموقف ان كلا من انكلترة وفرنسة كانت تخذ من المنافسة القائمة بينها ذريعة للتدخل في امور لبنان بصورة متزايدة حتى تجلت هذه المنافسة في انحياز الفرنسيين نحو الموارنة وهم اكثرية السكان النصارى في لبنان وانحياز الانكليز نحو الدروز فوقعت الاضطرابات مجدداً عام ١٨٤٥ ووقعت معها حوادث قتل ونهب كان نصيب الاديرة الكاثوليكية منها وافراً جداً فأرسل السلطان وزير خارجيته شكيب افندي مزوداً بتعليمات تعطيه حرية واسعة في التصرف . وقد غادر شكيب افندي لبنان وهو مايزال منقسما الى منطقتين تخضعان الى اسلوب في الادارة لم يرض عنه احد

وهذا بالرغم من التعديل البسيط الذي ادخله على نظام الادارة والذي من شأنه اضعاف سلطة زعماء الاقطاع بعض الشيء .

ومهما يكن من الامر فقد اعقب الحلول التي وضعها شكيب افندي موضع التنفيذ فترة من الهدوء النسبي امتدت اعواماً عديدة ، ولئن لم تختف الخلافات الطائفية خلال ذلك فقد اختفت مظاهرها العنيفة على الاقل . ثم تحول اهتمام الباب العالي والدول الاوربية الكبرى الى بيت المقدس حيث ظهر بين الطوائف المسيحية نزاع على الامتيازات الناشئة عن حق سدانة الاماكن المقدسة وقد الهب هذا النزاع العواطف في بعض الدوائر الدبلوماسية حتى أدى في النهاية الى حرب القرم . وعلى اثر انعقاد الصلح اصدر السلطان عام ١٨٥٦ مرسوماً جديداً عرف باسم الخط الهمايوني له قيمة خاصة لأنه نص على الاعتراف القاطع بالمساواة التامة بين جميع طوائف الامبراطورية العثمانية في طرح الضرائب وفي القضاء وحقوق الافراد وواجباتهم وبهذا النص تبنى المرسوم المبادىء التي ادخلها ابراهيم باشا الى بلاد الشام وأيدها ومنح النصارى حقهم المشروع والمطلق في مساواة المسلمين . وقد رأينا كيف كانت (الجمعية العلمية السورية) اول من ضم اعضاء من الطائفتين وهي الجمعية التي اسست في السنة التالية لنشر المرسوم ولم يكن تشكيلها ممكناً قبل ذلك .

ولم يدم هذا الهدوء الا فترة قصيرة كانت بعض القوى تحتك خلالها فتنذر بقرب وقوع الفتنة وكان العاملان الرئيسيان في هذا الامر تذمر الفلاحين ونمو سلطة رجال الدين . أما الفلاحون فكانوا يحاولون التخلص مما تبقى من آثار النظام الاقطاعي واما رجال الدين ، ولا سيما كهنة الموارنة ، فلم ترضهم السلطات التي حصلوا عليها بفضل التسوية التي أجراها شكيب افندي وراحوا يعملون على بسط نفوذهم بشكل يضمن لهم سيطرة سياسية فعلية .

وقد تحالف الفلاحون ورجال الدين ووجهوا هجومهم المشترك على الاسياد مالكي الأراضي الذين إن فرقهم التنازع فيما بينهم فلم يفتهم التظاهر بشيء من الاتحاد حين تهدد حقوقهم وامتيازاتهم . وعلى هذا ثار الفلاحون الموارنة بتحريض من رجال دينهم على سادتهم الاقطاعيين من الطائفة نفسها وذلك في لبنان الشمالي عام ١٨٥٧ ، ثم امتدت الثورة إلى الجنوب حيث ارتدت طابعاً طائفياً بسبب وجود عدد كبير من الفلاحين النصارى في خدمة سادة اقطاعيين من الدروز . ومما زاد في الطين بلة ان الحاكم الذي كان يمثل الباب العالي واسمه خورشيد باشا رأى في هذا التنافر المتزايد والمهلك بين الطوائف مايبعث الأمل في حدوث فتنة عنيفة عامة يمكن التذرع بها لدعم السيطرة التركية في البلاد وتقويتها . وفي الوقت نفسه كانت المنافسة على النفوذ بين انكلترة وفرنسة على أشدها كما كانت تحمل طابعاً حزبياً ضيقاً مما زاد في قوة الهيجان العام .

وأخيراً بدأت الاضطرابات في ربيع عام ١٨٦٠ بهجمات قام بها الدروز على جماعات من النصارى في لبنان الجنوبي ثم مالبثت أن توسعت حتى أصبحت فتنة شاملة . وبعد ذلك أخذ الفلاحون الدروز بالاتفاق مع زعمائهم الاقطاعيين يقتلون جميع النصارى ، فلاحيهم وسادتهم وكهنتهم ؛ ومع ان المعتدين كانوا أقل عدداً من خصومهم إلا أنهم كانوا أكثر منهم استعداداً للقتال بطبيعتهم وعدتهم . وقد دافع النصارى دفاع الأبطال في بعض الأماكن كما انهم في أماكن أخرى قابلوا العدوان بعدوان لايقل عنه عنفاً ومع ذلك فقد غلبوا على أمرهم وذهب آلاف منهم بين قتيل ولاجيء إلى المدن وذلك بنتيجة قسوة العدوان الدرزي وخيانة الجند الأتراك الذين اشتركوا في العدوان اشتراكاً فعلياً اوكانوا على الأقل يقفون وقفة المتفرج وقد تركوا

الفريسة في يد الأقدار . ثم سرت موجة البغضاء إلى جهات أخرى من البلاد ففي أوائل شهر يولية هب مسلمو دمشق هبة واحدة وهاجموا حي النصارى حيث قاموا بمذبحة تضاهي في وحشيتها أشد مذابح التاريخ . وبلغ عدد القتلى في لبنان ودمشق مجموعاً مروعاً هو احد عشر ألفاً وقد رافق هذا التقتيل في النفوس مقدار يتناسب معه من التخريب في الأملاك . وكانت البعثات التبشيرية الكاثوليكية ولا سيما اليسوعية منها بين الجماعات التي تحملت أشد الاصابات وأكثرها فظاعة من القتل والنهب .

ولدت هذه الحوادث المشينة استياء مالبث ان حمل الباب العالي والدول المعظمة على التدخل في الأمر فأرسلت البوارج الحربية الأجنبية إلى المياه السورية فوراً وفي أواخر اغسطس نزلت حملة فرنسية إلى البر في بيروت ومع ان الاضطرابات في ذلك الوقت كانت وشيكة الانتهاء الا ان وجود الجند الفرنسيين ساعد على توطيد السلام نهائياً . وبعث السلطان بفؤاد باشا وهو من أقدر وزرائه ومنحه سلطات واسعة كما زوده بتعليمات تقضي بأن يعاقب كل معتد دون ما مراعاة أو محاباة فلما انجز فؤاد باشا مهمته بحماس شديد وظاهر أمره سيده بأن يتعاون مع ممثلي الدول المعظمة المجتمعين في بيروت لايجاد الأسلوب الملائم لتحسين الادارة في لبنان فتباحثوا واعدوا في ختام مباحثاتهم اتفاقاً مبدئياً توسع فيما بعد، عام ١٨٦٤ ، فأصبح الوثيقة المعروفة باسم (النظام الاساسي) (١) وفي السنة نفسها صدر قانون يقضي بتعديل نظام الادارة في المملكة العثمانية وقد قسمت سورية بموجبه إلى ولايتين على رأس كل منها حاكم عام يخضع في ادارته إلى نظام مركزي ضيق فهو موظف رسمي يعينه السلطان ويرتبط ارتباطاً مباشراً بالادارة المركزية في

(١) Reglement organique

القسطنطينية التي هي مرجعه ، فلم يعد الحاكم كما كان في السابق زعيماً اقطاعياً أو والياً من الباشاوات المتمتعين بشيء من الاستقلال . اما لبنان فقد فصل عن سائر أجزاء البلاد ومنح نظاماً ممتازاً قائماً على أساس واسع من الاستقلال الذاتي يتمتع بفضله بنظام محلي للادارة على رأسه حاكم مسيحي يعاونه مجلس اداري يمثل السكان .

كان للاضطرابات التي وقعت عام ١٨٦٠ والتسوية التي اعقبتها نتائج بعيدة جداً فانها عملت على الحد من سلطة الكهنة السياسية فكانت لذلك وبالاً عليهم كما انها ساهمت إلى حد بعيد في القضاء على النظام الاقطاعي . أما في الميدان الدولي فقد أعطت الدول الاوربية فرصة تذرعت بها للتدخل في امور سورية الداخلية تدخلاً مكشوفاً فشكل هذا التدخل سابقة عمدت تلك الدول إلى السير عليها باستمرار خلال الاعوام الخمسين القادمة . وكان من النتائج السياسية البارزة لهذه الحوادث انها أعطت لبنان مالم يكن يتمتع به في السابق : نظاماً للحكم اعد ليتلاءم مع كيانه الخاص وضرورات مجتمعه ويحوي عناصر الاستقرار بفضل الضمانة الدولية التي يرتكز عليها .

إننا إذا نظرنا إلى تاريخ التطور الفكري في الشام وجدنا ان اضطرابات عام ١٨٦٠ تستحق ان تعتبر الحدث الحاسم في القرن التاسع عشر وهذا إلى جانب نتائجها السياسية والدولية . فقد نبهت افكار الناس إلى الشرور التي تنشأ عن ركودهم الروحي كما بعثت الحماس مجدداً في اولئك الذين كانوا يعلمون بأن كل ماتعانيه بلادهم من ويلات انما هو وليد التعصب الطائفي الذي يغذيه الجهل فأدى هذا الاعتقاد إلى تجديد النشاط لفتح المدارس كما ادى إلى بذل الجهود المجتمعة في سبيل تحطيم الحواجز التي سببها انتشار الجهل . وكان من اكثر نتائج تلك الحوادث خطورة انها دفعت جماعة

من المفكرين الشباب للشروع في الدعوة إلى تحرير وطنهم من الحكم التركي. كان هؤلاء من تلامذة اليازجي والبستاني وكانوا من ابناء الجيل الأول الذي نشأ على دراسة الثقافة العربية القديمة بعد بعثها من مرقدها فراحوا يتأملون جمالها فلا يشعرون إلا وقد جذبت الروح العربية افكارهم وانعشتهم الحرارة المنبعثة من تعلق تلك الروح بالحرية . وهكذا بذرت بذور الفكرة الوطنية فكانت ثمرتها حركة عربية في وحيها وقومية ، لا طائفية ، في أهدافها السامية. في ذلك العهد ولدت حركة العرب القومية ، وقد حوت الاعوام الأربعون القادمة تاريخ طفولتها حين كانت هزيلة وضعيفة ولكنها كانت في الوقت نفسه حية آخذة في النمو سائرة بتؤدة نحو غايتها المقررة تحملها أجنحة البعث الأدبي.

الباب الرابع

الاستبداد الحميدي : ١٨٧٦ — ١٩٠٨

— ١ —

يقع القسم الأكبر من تاريخ الاعوام الاربعين القادمة في ظل مظالم عبد الحميد الثاني الذي منح شعبه حكماً دستورياً مرتين : بدأ عهده بالاولى وختمه بالثانية .

كان السلطان عبد العزيز على اريكة الملك في أول ذلك العهد وكان ملكاً متهوراً ومبذراً ارتقى العرش عام ١٨٦١ وخلع بعد خمسة عشر عاماً وكان عهده كعهد سلفه حافلاً بالحوادث الجسام كما كان حكمه شديد الوطأة بسبب تصرفاته الشاذة وانعدام الامانة والكفاءة عند كبار وزرائه وموظفيه فقامت حركة تمرد خطيرة في الولايات الاوربية وان لم تتحرك الولايات العربية وكان آخر هذه الحركات في بلغارية حيث قمعت الثورة بقسوة وحشية أثارت شعور اوربة فاحتجت دولها بشدة . وكان من نتائج هذه التدابير الزجرية التي عمدت إليها الحكومة العثمانية ان شرع غلادستون بحملته العنيفة على الادارة العثمانية ومساوئها . أما الولايات العربية فلم تقم بحركة ثورية مدبرة وان كان الشعور بالقلق والتذمر آخذاً بالازدياد كلما ازداد الناس تبرماً بغموض الادارة وفسادها . بيد ان الحركة التي كانت توجه الافكار نحو التحرر القومي ، تلك الحركة التي شاهدنا ولادتها في الباب السابق ، كانت في مهدها ولما يتسع لها الوقت للتأثير في أكثر من أفراد معدودين ومبعثرين

هنا وهناك . اما في الجزيرة العربية نفسها فان احتلال الحساء عام ١٨٧١ ثم احتلال اليمن في السنة التي تلتها ساعد على بسط سلطان الترك في الجزيرة وان لم يعمل على دعمه بسبب نمو الشعور بالتذمر بين السكان .

خلع عبد العزيز في ٣٠ مايس عام ١٨٧٦ وارغم على التنازل لأحد أبناء أخيه الذي خلفه واتخذ اسم مراد الخامس وكان مصاباً بمرض الصرع فخلع بعد ثلاثة أشهر لعدم امكان شفائه ونصب أخوه الأصغر عبد الحميد الثاني في ٣١ اغسطس من تلك السنة .

دام حكم عبد الحميد ثلاثة وثلاثين سنة وانتهى بخلعه هو أيضاً عام ١٩٠٩ وخلال هذه المدة أصابت الحركة الفكرية التي وصفنا نشوءها في الباب السابق تقدماً أكيداً وأخذت بذرة الوعي القومي العربي التي استقرت في أرض الشام ترسل جذورها في مايجاورها من بلاد العربية حتى اينعت في النهاية حين ظهرت ثمراتها إلى الوجود بعد خلع عبد الحميد في حركة إيجابية واسعة النطاق .

— ٢ —

اعتلى عبد الحميد العرش في وقت كانت فيه الامبراطورية العثمانية تتوقع على مايظهر مستقبلاً مظلماً فقد كانت روح التمرد منتشرة داخل المملكة بينما كانت روسية تهدد بالحرب وأوربة تتخذ موقفاً معادياً وصارماً ولا سيما بعد الفظائع التي ارتكبت في بلغارية . أما من الناحية المالية فقد كانت الخزانة العامة فارغة والعجز المالي واقعاً . وكان المعروف عن عبد الحميد حين ارتقى عرش السلطنة انه أمير تقي ذو أفكار حرة وتقدمية وقد اتيحت الفرصة للدول المعظمة ولرعاياه أن يستوثقوا من صحة هذه السمعة في السنة الأولى لحكمه .

طالبت الدول المعظمة باصلاح ادارة المقاطعات وكانت مطالبها ملحة وفي الوقت نفسه قامت فئة من رعاياه تتمتع بشيء من النفوذ وطالبت بالحكم الدستوري وكان مدحة باشا (١) زعيم هذه الفئة فأخذ عبد الحميد يتظاهر بأنه أهل للسمعة التي يتمتع بها كما أقام البرهان في الوقت ذاته على انه يحاكي الثعلب في قدرته على المراوغة فنصب مدحة باشا صدراً أعظم ومنح البلاد دستوراً تعمد أن يحيط نشره بمظاهر الفخفخة الرائعة في اليوم عينه ، ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦ ، الذي عقد فيه ممثلو الدول الكبرى مؤتمراً لاعداد المقترحات اللازمة لاصلاح الحكم في امبراطوريته . كان عبد الحميد حاذقاً في تصرفه هذا كما اثبتت النتائج المباشرة لعمله فقد حسب رعاياه انه برهان صادق على نواياه الحسنة كما انه اختلس من المؤتمر الأوربي قوته الدافعة .

كان الدستور في الأصل من صنع مدحة نفسه وهو مطبوع بطابع أفكاره الحرة . فقد كان من عقائده الراسخة ان الحد من السلطة الفردية التي يتمتع بها السلطان أمر ضروري لصلاح الامبراطورية وحتى لبقائها ، ومن هذه العقائد ان ضمان المساواة بين الملل المختلفة التابعة أمر لابد منه

(١) كان مدحة باشا من أعظم رجال الدولة الأتراك في العصر الحديث وقد ولد في القسطنطينية عام ١٨٢٢ وتقلد مناصب مختلفة في الادارة حتى أصبح حين بلغ الاربعين والياً على بلغارية ثم على ولاية الدانوب وفي عام ١٨٦٨ عين والياً على بغداد . وفي هذه المناصب اثبت انه اداري نابغ ورجل دولة محب لوطنه ومتنور . وفي عام ١٨٧٣ اسند إليه منصب الصدر الأعظم ولكنه أدرك انه يصعب عليه خدمة السلطان عبد العزيز مع المحافظة على كرامته فاعتزل العمل العام واشترك وهو في عزلته مع جماعة السياسيين الذين توصلوا إلى خلع عبد العزيز .

للحصول على تأييد الرأي العام للحكم الدستوري . أما العقيدة الأولى فلا غبار عليها وأما الثانية فيخيل لنا الآن انها كانت تستند إلى تقدير خاطيء للقوى المتفاعلة فان التذمر السائد بين الملل التابعة لم يكن وليد الظلم والحكم الفاسد فحسب بل كان كذلك دليلاً على بداية تنبه تلك الملل واحساسها بالوعي القومي . لقد ادرك مدحة العامل الأول ولكنه لم يتبين الثاني وهو ان تبينه فالظاهر انه أخطأ في تفسيره . ومهما يكن من الأمر فان العلاج الذي سعى إلى تطبيقه وهو دمج الملل المختلفة في وحدة ديمقراطية منسجمة يدعو إلى الاعجاب بروح العدالة التي تنطوي عليها نفسه أكثر مما يدعو إلى تقدير ماتتصف به من قوة التمييز . ثم ان الشكل الذي اتخذه الدستور حين نشر بعد ماعدله السلطان لم يضمن المساواة الحقة بل اشاد بذكرها كمبدأ صالح من مبادىء الحكم . على ان الميزة الحقيقية لهذا الدستور تتضح في انه وضع بعض العقبات أمام أهواء السلطان غير المحدودة وان لم يوفق مدحة إلى فرض جميع القيود التي كان يريدها .

كان هذا الانتصار قصير الأجل على كل حال فلئن كان في نفس عبد الحميد ميل للحكم الديمقراطي فقد أخذت مظاهر هذا الميل تضعف بعد توليه الملك ثم مالبث أن ظهر للعيان انه لم ينشر الدستور رغبة منه في الحكم الدستوري أو لاعتقاده بصلاحه بل لأن الظروف جعلت هذه البادرة أمراً ضرورياً فكان هدفه من وراء نشره أن يشغل شعبه بما يلهيه عنه وأن يقذف المؤتمر الأوروبي بقنبلة تنسفه ، فلما تحقق هذا الهدف بأن أصبح السلطان معبود شعبه وارفض المؤتمر بعد الذي أصابه من خيبة عمد عبد الحميد إلى تحطيم الدستور ولم يبق في طريقه حاجز يذكر إلا مدحة فعزله فجأة في أوائل فبراير ونفاه إلى أوربة ثم تذرع باعلان روسية الحرب

لكي يعلق الدستور بعد ما كان من أمر افتتاحه البرلمان الجديد في أوائل مارس بخطاب للعرش ينطوي على جانب كبير من الفصاحة والتنميق في الالفظ ، وقد بقي الدستور معلقاً احدى وثلاثين سنة .

انتهت حرب ١٨٧٧ بين روسية وتركية بوصول الجيوش الروسية إلى ضواحي القسطنطينية وفرض معاهدة سان استفانو على السلطان بقيودها الثقيلة ، ولكن تدخل بريطانية العظمى حمل روسية على اعادة النظر في تلك المعاهدة ثم استبدالها بمعاهدة برلين المعقودة في يولية عام ١٨٧٨ . وقد تناولت هذه المعاهدة الولايات الأوربية للمملكة العثمانية بشيء كثير من التعديل ولكنها لم تمس حدود الولايات العربية التي تركت تلك الحرب في نفوس سكانها أثراً بليغاً من ناحية اخرى وهي شعورهم بأنهم جندوا ثم حشدوا في مراكب حربية أجنبية وفي ظروف قاسية جداً ليقاتلوا عدواً بعيداً لايكادون يعرفونه إلا بالاسم ، وهذا مما زاد التذمر العام والشكوى قوة على قوة .

أصبح عبد الحميد منذ ذلك التاريخ محرراً من كل قيد وباستطاعته أن يحكم كما يشاء بفضل الدستور المعلق ومعاهدة برلين وبهذا بدأ عهد لانكاد نجد له مثيلاً في التاريخ من حيث الظلم الذي ساد فيه وسوء استعمال السلطة وفسادها . ولا حاجة بنا إلى سرد الحوادث الرئيسية التي وقعت في عهده بل نكتفي باستعراض الامور البارزة التي أثرت في مصير العالم العربي .

– ٣ –

يجدر بنا أن نقف هنا لنصف ممتلكات السلطان العربية والاسلوب الاداري الذي كانت تحكم بمقتضاه .

صدرت في عهدي عبد المجيد وعبد العزيز سلسلة من الاحكام كان

من شأنها أن تسير بالادارة التي اعيد تنظيمها في أوائل الثلث الثاني من القرن التاسع عشر خطوات كبيرة إلى الأمام . فكان من نتيجة ذلك أن منح وزراء السلطان اشرافاً أوسع ، وكان النظام الجديد يرمي إلى إيجاد نسق واحد في الادارة فقد قسمت المملكة إلى مقاطعات سميت بالولايات ويدير كل ولاية حاكم عام يسمى بالوالي وهو مرتبط مباشرة بالحكومة المركزية في القسطنطينية وكانت الولايات مقسمة إلى عدد من المناطق يطلق على كل منها اسم السنجق ويديرها حاكم اداري يعرف باسم المتصرف ويتبع الوالي وكان السنجق نفسه مقسماً إلى عدد من الأقضية على رأس كل منها موظف تابع للمتصرف اسمه القائمقام . وكانت هناك مقاطعات قليلة العدد يطلق عليها اسم السنجق المستقل وذلك بسبب وضعها الاستثنائي الذي كان يحول دون ادخالها ضمن النظام الاداري للولايات فكان السنجق المستقل يشكل وحدة ادارية خاصة يديرها متصرف يتمتع بسلطات الوالي من حيث القوة التنفيذية والارتباط المباشر بالقسطنطينية ، وكان لبنان على ماورد في نظامه الاساسي من الامثلة على هذا النوع من المقاطعات .

كانت بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية هي ممتلكات السلطان العربية في آسية عند تولية عبدالحميد وكان النظام الاداري المطبق في بلاد الشام يقضي بتقسيم هذه الوحدة الجغرافية جميعها إلى ولايتين وسنجق واحد ولكن تبين فيما بعد ان ادارة تلك البلاد على هذا الأساس أمر متعذر فأدخل تعديل عام ١٨٨٧ قسمت بموجبه إلى ثلاث ولايات وسنجقين وهي ولاية حلب في الشمال، وولاية بيروت في الغرب ، وولاية الشام في الشرق ، وسنجق لبنان الذي فصل عن ولاية بيروت ليشكل وحدة ادارية خاصة ، وسنجق القدس في الجنوب الذي كان له كذلك وضع اداري خاص . أما في العراق فبعد

اجراء تجربة مماثلة شكلت ثلاث ولايات وهي ولاية الموصل في الشمال وولاية بغداد في الوسط وولاية البصرة في الجنوب .

اما في الجزيرة فلم تكن الاوضاع لتساعد على اقامة نظام اداري مركزي ضيق وموحد ويرجع تاريخ تعيين الولاة فيها الى عام ١٨٤١ حيث عين وال على الحجاز بقصد اخضاع البلاد المقدسة الى نظام مباشر للحكم يستند الى ادارة مزدوجة يستمد فيها الوالي سلطته من تأييد الاشراف وهم السادة اصحاب السلطة التقليدية في مكة والمدينة . وقد بعث السلطان الى اليمن حملتين عسكريتين بقصد اقامة حكم تركي فعال الاولى عام ١٨٤٩ والثانية عام ١٨٧٢ وكانت على نطاق أوسع بفضل التسهيلات التي نشأت من جراء فتح قناة السويس . وكان الحكم التركي في الجزء الواقع على خليج فارس من جزيرة العرب منحصراً في منطقة الحساء الساحلية التي تم احتلالها عسكرياً عام ١٨٧١ . اما في الداخل فكان البيت السعودي وبيت ابن رشيد في امارتي نجد وشمر يتنازعان على السلطة وعلى الأرض ويدبران شؤونهما وحروبهما بحرية واستقلال دون الالتفات الى ما كان يدعيه الترك من حق السيادة وكانت الصعوبات التي تجابه تركية في محاولتها فرض سلطتها على داخل الجزيرة غير قابلة التذليل بسبب بعد المسافة وفقدان وسائط النقل وصلابة عرب الداخل في دفاعهم عن حريتهم .

كانت مهمة تركية في المناطق الساحلية اسهل ولكنها وجدت نفسها هناك امام منافس . فأن احتياجات امبراطورية الهند كانت تحمل بريطانية العظمى على البحث عن حلفاء ومراكز لتموين الفحم على سواحل جزيرة العرب وقد دفعتها محاولة نابليون الاستيلاء على مصر الى احتلال جزيرة بريم الواقعة في مدخل البحر الاحمر وفي الوقت نفسه تقريباً عقدت اتفاقاً مع أمارة مسقط ، الواقعة في مدخل الخليج الفارسي ، لاسباب تتعلق بمقتضيات التجارة في بومباي . وهكذا قضت

الضرورات الحربية والتجارية بأن تؤمن حماية هذا الطريق حماية تامة فأصبحت صيانة حرية البحار التي تحيط بشبه جزيرة العرب من القواعد الثابتة في سياسة بريطانية الخارجية . واحتلت بريطانية عدن عام ١٨٣٩ ثم جعلتها من ممتلكات التاج البريطاني وبعد ذلك عادت فاحتلت جزيرة بريم عام ١٨٥٧ واستولت عليها نهائياً . واخذ ظل النفوذ البريطاني خلال القرن التاسع عشر يمتد شمالا خطوة تلو خطوة نحو قلب الخليج الفارسي وقد ازعجت هذه الحالة الترك الذين كانوا يحاولون بسط سيطرتهم على اطراف الجزيرة متجهين جنوباً من البصرة ولكن محاولاتهم باءت بالفشل لأنهم لم يستطيعوا السيطرة على الداخل .

وكانت الامبراطورية العثمانية التي ورثها عبد الحميد في افريقية تتألف من تونس وطرابلس الغرب ومصر والسودان اذ ان فرنسة كانت قد استولت على الجزائر عام ١٨٣٠ وكان امل السلطان في الاحتفاظ بهذه الممتلكات العربية في افريقية ضئيلا ففي عام ١٨٨١ استقطعت فرنسة تونس وفي السنة التي تلتها احتلت انكلترة مصر فالسودان . وقد اعترفت بريطانية العظمى للسلطان بالسيادة الاسمية على مصر والسودان ولكن فرنسة لم تفعل ذلك في تونس على انه في الحالتين فقد سلطة الادارة الفعلية ومعنى ذلك ان مجموع ساحل افريقية الشمالية قد خرج من يد تركية وهذا باستثناء طرابلس الغرب التي استولت ايطالية فيما بعد اي في عام ١٩١٢ على جزء كبير منها، على انها بقيت في ذلك الحين المنطقة الوحيدة التابعة لحكم السلطان في افريقية وكانت من الناحية الادارية منقسمة الى منطقتين هما ولاية طرابلس وولاية بني غازي .

— ٤ —

كانت الاسس التي شيد عبد الحميد حكمه عليها قائمة على الجاسوسية والارهاب مما ادى الى نشوء نظام تبوأ فيه الجواسيس الذين كان عبدالحميد يستعملهم لتحقيق

غاياته السياسة مكانا ممتازاً اذ شكلوا فئة متنفذة مؤلفة من صعاليك فاسدين لايأمن جانبهم انسان مهما علت مكانته أو تحققت براءته الا أحياناً بتقديم الرشوة لهم في الوقت المناسب . وقد فرضت رقابة شديدة وخانقة أخذ مفعولها يزداد ويتوسع حتى نجحت في قتل النشاط الادبي بصورة عامة ولاسيما العمل الصحفي ، وبالاضافة إلى ذلك أصبحت المحاكم أدوات طيعة في يد الفئة المختارة في الباب العالي فكانت في الغالب لاتتورع عن إيجاد الحل القانوني المطلوب لفرض عقوبة مقررة سلفاً حتى غدت العقوبات الشديدة مثل الاعتقال والنفي ضمن المملكة وخارجها تفرض بصورة اعتيادية لمجرد الشبهة والاتهام .

وبعد أن اقام عبد الحميد سلطته الداخلية على هذه الأسس أخذ يشيد فوقها بناء سياسته الامبراطورية والخارجية . لم يكن عبد الحميد ليجهل مركز تركية الضعيف بين الدول وقد أدرك بما يتصف به من مكر ان لاضمان لبقائها إلا ببقاء التنافس والتحاسد فيما بين الدول المعظمة نفسها ، وقد فهم حقيقة قوته العسكرية حين شاهد الروس يصلون إلى أبواب القسطنطينية كما ان معاهدة برلين حوت في طياتها من عناصر الاذلال مالم يبق معه مجال للشك في ان استمرار امبراطوريته متوقف على قبول الدول ، وهذا بالرغم من نتيجتها المرضية في الحد من توثب روسية بفضل ضغط انكلترة ؛ أما مركزه المالي فقد وصل إلى درجة الافلاس . وقد أوجد عبد الحميد لمشاكله حلولاً تدل على أنه ينظر للأمور نظرة واقعية وان فكره غير نير ، فكان أول ماعمله للحصول على المال ان رهن الموارد الرئيسية في الامبراطورية لدى جماعات من الممولين الأجانب وبعد ذلك خصص قسماً كبيراً من هذا المال لاعادة تنظيم الجيش فأخذ يبذل بسخاء على تأسيس المعاهد العسكرية وتدريب الجند بينما ابقى التعليم الصحيح على عوزه القديم ، وأخيراً عمل على

دعم مركزه الدولي عن طريق تسخير قوة الدين لغاياته السياسية ولا شك ان هذا الحل الأخير كان أكثر الحلول الثلاثة أهمية .

- ٥ -

كانت آذان العالم الاسلامي لسنوات سبقت اعتلاء عبد الحميد العرش مرهفة لسماع صوت جديد ارتفع في وسطه يدعوه إلى حياة جديدة وكان صاحب هذا الصوت السيد جمال الدين الأفغاني من أشد الدعاة الذين عرفهم الاسلام تحمساً وفصاحة وكان هدفه الأسمى أن يرتفع بالشعوب الاسلامية إلى مستوى الامم الحرة الناهضة وذلك بنشر التعليم على مقياس واسع وتكييف الدين الاسلامي ليتلاءم مع مقتضيات العصر ولكنه كان يعتقد بأن لامفر لتحقيق هذه الغاية من القيام بحركة ثورية . كان بوده أن يرى بلاد الاسلام محررة من السيطرة الأجنبية على أن يكون هذا التحرر مقدمة لبعث روحي يعقبه توحيد هذه البلاد كلها وتنصيب خليفة عليها يرضى به الجميع على غرار ماحدث في عصر الاسلام الذهبي ، وقد قضى جمال الدين الأفغاني ثماني سنوات في مصر بين عامي ١٨٧١ و ١٨٧٩ استطاع خلالها أن يشكل له جماعة من الاتباع عددهم ضئيل ولكن نشاطهم كبير وقد بلغ أثره في توجيه الامور في مصر حداً حمل ولاة الأمر على دعوته لمغادرتها وكان في ذلك الحين قد أصبح بنفسه قوة لايستهان بها في العالم الاسلامي حتى أخذت دول الغرب تحسب له حساباً ، وتوفى عام ١٨٩٦ بعد أن قضى أعوامه الاخيرة متنقلاً بين أوربة وتركية وفارس داعياً الناس إلى تحقيق أهدافه بقوة واصرار عجيبين . وعلى هذا فان الحركة التي هزت العالم الاسلامي في أواخر القرن التاسع عشر واستهدفت بعث الاسلام وتحقيق الوحدة الاسلامية كانت مدينة بالدرجة الأولى إلى تفكيره . وقد شرع عبد الحميد بانشاء سياسته الاسلامية

عندما كان جمال الدين الأفغاني في أوج قوته ونشاطه .

لم تكن سياسة عبد الحميد قائمة على تبني أفكار جمال الدين الأفغاني البتة بل كانت في جوهرها محاولة من جانب الخليفة السلطان لتأييد سلطته الزمنية في الدولة العثمانية باعلان حقوقه وامتيازاته كخليفة للمسلمين على مقياس أوسع . كان أسلافه يتمتعون بهذه الصفة المزدوجة بدون انقطاع منذ قرنين على الأقل وكانت أوربة تعترف بأنهم أصحاب هذه الصفة الشرعيون ولكنهم لم يستطيعوا الحيلولة دون طغيان السلطة الزمنية على السلطة الدينية تدريجياً حتى فقدت صفة الخليفة معناها الأصلي واقتصرت على المعنى الديني المجرد فأصبحت من صفات السلطان التي لايستعملها إلا في الشؤون ذات الصبغة الدينية المحضة . ان هذه النظرة إلى الخلافة التي كانت مستمدة إلى حد مامن تفسير غير صحيح لفكرة البابوية كانت نظرة خاطئة للغاية لأنها لم تلتفت إلى كون الدين والحكومة في الاسلام متداخلين تداخلاً شديداً وان كلمة الخليفة هي في الواقع مرادفة لكلمة الحاكم . كانت خطة عبد الحميد ترمي إلى إعادة الخلافة إلى مكانتها اللائقة بها واقناع الرأي العام بأنها والسلطنة شيء واحد فاذا ما استعادت الخلافة اعتبارها بهذا الشكل عمد إلى تسخيرها لتكون دعامة ثم قوة دافعة لتحقيق أغراضه السياسية . من هذا يبدو لأول وهلة ان هناك صلة بين سياسة عبد الحميد ودعوة جمال الدين الأفغاني ولكنها في حقيقة الأمر صلة سطحية وغير حقيقية وإن عمل عبد الحميد بمهارة على استغلالها لمصلحته .

رسم عبد الحميد لنفسه سياستين جليتين الواحدة داخلية والثانية خارجية : فقد سعى في داخل المملكة إلى تمتين مركز السلطان في اذهان رعاياه المسلمين بضربه على وتر الحساس إذ أصر على ان سلطته الزمنية تستند

إلى سلطته الدينية التي تسبغ عليه رداءً قدسياً : فهو ظل الله على الأرض وأمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين ، وهكذا عمل على اكتساب ولاء الملايين من المؤمنين لعرشه عن طريق اثارة نخوتهم الدينية كما أوجد قوة كبيرة مدخرة يمكن الاعتماد عليها في وقت الحرب لأنها تستند الى الحماس الديني ؛ أما في الخارج فكانت سياسته الاسلامية ترمي إلى تحصين مركز تركية بين الدول . ولم يكن من شأن الدور الذي اتخذه لنفسه ، وهو دور الخليفة الورع ، أن يكسب له ولاء الملايين من رعاياه عن رضى منهم فحسب بل كان من شأنه أيضاً الفوز باجلال ملايين كثيرة اخرى من المسلمين المقيمين خارج مملكته والتابعين لبريطانية العظمى وفرنسة وروسية ، وربما كان يستهدف الفوز منهم بأكثر من الاجلال . لقد كان يطمح أن يصبح رأس العالم الاسلامي بالاسم وبالنفوذ ، ومما لاشك فيه ان أي نجاح تصيبه هذه السياسة كان لابد من أن يزيد مركزه قوة في الميدان الدولي .

لقد أظهر عبد الحميد في تنفيذ هذه الخطة مرونة لاينضب معينها وفهماً دقيقاً لفن الاخراج والعرض ، فانه اعتماداً على المبدأ القائل بأن القداسة الصحيحة تبدأ في البيت أخذ يحيط حياته الخاصة باطار من التقى والتقشف فكان يقوم بجميع الطقوس الدينية بمثابرة شديدة مع الاهتمام باعلان ذلك باسلوب معتدل ملائم . أما العادات الفاسدة من سكر وفجور التي غلط أسلافه إذ مارسوها فانه قضى على وجودها في قصوره بحزم أو على الأقل حجبها بمهارة عن علم الناس وأحاط نفسه برهط من الفقهاء ورجال الدين الذين كان بعضهم يتمتع بشهرة واسعة ونفوذ كبير فعمد إلى تسخيرهم لتوزيع الصدقات أو الوعظ والارشاد أو الدعوة له ، وقد أنشأ معهداً دينياً لتخريج الدعاة الذين مالبث أن بعث بجماعات كبيرة منهم إلى أقصى

زوايا العالم الاسلامي لينشروا الأنباء السارة ويتغنوا بتقى الخليفة . واستطاع عبد الحميد أن يظفر بتأييد فعلي من شريف مكة الذي أخذ يحث الحجاج وينشر الدعوة بينهم فراحوا يحملونها معهم لدى عودتهم إلى بلادهم حيث شكلوا في بعض الأحوال زوايا خاصة تذاع منها هذه الدعوة . وشرع عبدالحميد ببذل المساعدات المالية بسخاء كبير للمدارس الدينية في داخل المملكة وخارجها كما سخر الصحافة بدورها فأوجد المجلات التي أخذت على عاتقها السير بالدعوة بتوجيه منه .

كانت الناحية البارزة في سياسة عبدالحميد انها تستهدف بصورة خاصة التأثير في العناصر غير التركية ولا سيما العرب لأن جمهرة الترك المؤلفة أكثريتها من فلاحي الاناضول كانت طيعة بطبعها وموالية للعرش بينما كان العرب ، وحب الحرية متأصل في نفوسهم ، أقل خضوعاً ؛ ومما زاد في خطورة الامر انهم أخذوا يظهرون علائم مقلقة تشير إلى تفتح الوعي القومي في نفوسهم ولهذا بذل عبدالحميد جهوداً خاصة لكسب ودهم فراح يجود على المؤسسات العلمية العربية بمنح سخية ويغدق المناصب والميزات على أمراء العرب وأعيانهم ويبذل المبالغ الطائلة لاصلاح وزخرفة المساجد في مكة والمدينة وبيت المقدس وهي الاماكن المقدسة الرئيسية في الاسلام ويقوم العرب أنفسهم على سدانتها . وشكل فرقة مختارة من الجند العرب ضمها إلى حرسه الخاص كما استخدم العرب في شؤونه الشخصية في القصر الملكي وعهد إليهم أمر تشكيل وتوجيه صنائعه العاملين على مكافحة الاتجاهات الوطنية عند العرب فنال بعض هؤلاء حظوة كبرى لدى السلطان جعلتهم قبلة أنظار رجال القصر والراغبين في الحصول على امتيازات اقتصادية في البلاد ووزراء الدولة وحتى الصدر الأعظم نفسه وكانوا جميعاً يسعون إلى كسب ودهم ويتمسكون

بالقاعدة الذهبية القائلة بلزوم مراجعتهم سلفاً والحصول على تأييدهم لانجاز جميع المسائل الخطيرة . كان الناس على حق حين قالوا : إذا بقي الباب العالي والوزارة صيداً سائغاً للترك فان القصر قد وقع جميعه في قبضة العرب .

كان عبد الحميد يلجأ إلى الوسائل العنيفة كلما وجد أن سياسة التملق والارضاء لم تأت بالثمرة المطلوبة وقد انفذ عدداً من الرسل المختارين ليجوبوا العالم العربي في ثياب الوعاظ بينما كانت مهمتهم الحقيقية بذر بذور الشقاق أو تشجيعه بين رؤساء الاقطاع وكبار امراء العرب فكانوا يستغلون جميع أنواع الخلافات العائلية والمنازعات القبلية والثارات فيعملون على تنميتها تحقيقاً لغايتهم ، وكان يبذل المال لبعض صنائعه ليثيروا فتنة تخل بالأمن فتوجد له العذر الظاهري لمعاقبة أمير أو زعيم انتقاماً منه بسبب الشك في ولائه للسلطان ، وكان يغض الطرف عن حوادث الاغتيال كما كان في بعض الأحوال يأمر به ؛ وأما إذا كان الشخص موضع الشك ذا مركز كبير لايمكن معه تعريضه لوسيلة من وسائل الانتقام العاجل فكان عبد الحميد يرغمه على الاقامة في القسطنطينية حيث لايكتفي بأن يحول دون قتله بل يأمر كذلك بأن تهيأ له جميع الأسباب ليعيش براحة واحترام ترقبه عيون السلطان الساهرة .

وكان بين هذا الصنف من ضيوف السلطان الحسين بن علي سليل البيت الهاشمي وهو انبل بيت من بيوت العرب لأنه ينتسب انتساباً مباشراً ومن جهة الذكور إلى بنت الرسول ، وكان شرفاء مكة لأجيال خلت من أبناء هذا البيت . كانت التقارير التي يتلقاها عبد الحميد عن الحسين تنبىء بأنه شاب عنيد ومعرض وانه لايصرح بما يجول في فكره إلا نادراً فاذا فعل تبين أن أفكاره خطرة لأنها مبتكرة ومستقلة . ولما كان مقام

هذا البيت في العالم العربي رفيعاً جداً كان سلاطين تركية يعاملون أفراده دوماً بحذر واحترام ظاهر ولهذا تلقى الحسين الدعوة الكريمة بأن يحضر ومعه اسرته إلى القسطنطينية فوصلها عام ١٨٩٣ وهو مايزال في أوج شبابه إذ كان على أبواب الاربعين وكانت ترافقه زوجه وأولاده الثلاثة وهم ، عليّ ، الذي أصبح فيما بعد ملكاً على الحجاز وعبدالله ، الذي أصبح أميراً على شرق الاردن وفيصل ، الذي أصبح ملكاً على العراق وكانوا في السن المناسبة لدخول المدرسة . وبقيت الاسرة في معتقلها أكثر من خمس عشرة سنة قضاها الحسين ، وهو رجل شديد التدين ، في صمت وتأمل وسكون ظاهر مما طأن جواسيس السلطان دون أن يطمئن السلطان نفسه فان شعوره المرهف الذي يحس بالقوى غير المرئية حمله على أن يكون قلقاً وأن يزداد هذا القلق مع الايام .

— ٦ —

كان عزة باشا العابد ، وهو عربي شامي ، من المغامرين الذين استطاعوا أن ينالوا حظوة كبرى لدى السلطان عبد الحميد عن طريق الكيد والدس وقد قضى ثلاث عشرة سنة (حتى سقوطه عام ١٩٠٨) في خدمة السلطان بصفة سكرتير ثان فاستطاع خلالها أن يصبح أقوى موظف في المملكة لايبزه في الثروة والخبث والنفوذ الا سيده . ومع ان القسطنطينية كانت في العهد الحميدي تعج بالدهاة فقد كان دهاء عزة باشا خارقاً وطاغياً اذ جمع إلى المكر نشاطاً وحركة ولكنه لم يخل في أعماقه من البلادة التي كثيراً ماتختفي وراء فكر حاد . أما ميزته البارزة فكانت في معرفة الصفات البشرية الدنيئة الكامنة في خلق الناس معرفة صحيحة لاتخطئ وهذا هو سر نجاحه العجيب لأنه بهذه المقدرة استطاع أن يفهم جبن سيده وغروره مع ادراك

حقيقي للحد الفاصل بين هاتين الصفتين واحساس دقيق بمزاج السيد في ظروف مختلفة ؛ ولكنه في سره كان يحتقر عبد الحميد احتقاراً تاماً ولهذا سهل عليه التلاعب بعواطفه . يعود اهتمامنا بسيرة عزة باشا إلى سببين ، الواحد عام والآخر خاص : أما السبب العام فلأنه أصبح المحور الذي تدور حوله سياسة عبد الحميد العربية ، وأما السبب الخاص فهو بناء سكة حديد الحجاز .

يوجد لدينا مايشير إلى ان فكرة مد خط حديدي إلى الحجاز كانت من بنات أفكار عزة باشا وان كان يصعب الجزم بذلك ومهما يكن من الأمر فقد كان هو الاداة الفعالة الرئيسية في تحقيق المشروع الذي يقضي بمد السكة الحديدية من دمشق إلى المدينة فمكة ، وكان الغرض الظاهر تسهيل الحج بينما كان السبب الحقيقي يتعلق بعوامل سياسية وعسكرية . عين السلطان لجنة برئاسة عزة باشا ووجه نداء إلى العالم الاسلامي يوضح الدوافع الدينية الحميدة التي استوحى منها الخليفة فكرة مد الخط ويطلب من المسلمين الاكتتاب لتغطية نفقاته ، وقد لاقى النداء قبولاً حسناً وفي الوقت نفسه فرضت ضريبة جديدة في جميع أنحاء المملكة تجبى بلصق طابع خاص كما طولب الموظفون العاملون في الحجاز بالتبرع بنسبة معينة من رواتبهم . وبدأ تشييد الخط في ربيع عام ١٩٠٠ على يد مهندسين من الالمان ، وفي خريف عام ١٩٠٨ وصل الخط المدينة وهي مسافة تكاد تبلغ التسعمائة من الاميال . وقد غطت تبرعات العالم الاسلاميماينوف عن ثلث النفقات البالغ مجموعها ثلاثة ملايين من الجنيهات .

لقد كان هذا المشروع من نواح عديدة لعبة سياسية رائعة لأنه خلق في جميع أنحاء العالم الاسلامي حماساً كبيراً وعمل أكثر من مشاريع

عبد الحميد الأخرى على اعلاء شأن الخلافة كما انه من الناحية العسكرية أوجد له واسطة للنقل البري تحمل جنده إلى الجزيرة ومنها، وكانت الحاجة إلى هذه الواسطة ملحة فاستطاع تأمينها دون أن يثقل خزانته بعبء كبير، وكان حتى ذلك الوقت مضطراً إلى استعمال طريق البحر المارة بقناة السويس وتحمل بطئها وكثرة تكاليفها أما الآن فقد غدا صاحب خط حديدي يمر كله ضمن مملكته فراح يتطلع إلى اليوم الذي يستطيع فيه تمديد الخط جنوباً إلى مكة وربما إلى أبعد من مكة ليثبت قدمه في بلاد اليمن المضطربة.

ومع ذلك فكان من أكبر النتائج لفتح سكة حديد الحجاز، ولعلها نتيجة لم تخطر على بال عبد الحميد في البداية، انها بتسهيلها أسباب السفر والانتقال بين مكان وآخر ساعدت على سريان الأفكار في الأجزاء الغربية من بلاد العرب. كانت القوافل السريعة قبل تسيير الخط الحجازي تقطع المسافة مابين دمشق والمدينة في أربعين يوماً على الأقل بينما كان السفر بالبحر من بلاد الشام إلى الحجاز يستغرق عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً ويتوقف على وجود المراكب المسافرة أو عدمه لأن سير الخط لم يكن منتظماً فقربت سكة الحديد المسافة بين المدينتين حتى جعلتها لاتتجاوز خمسة أيام فكان لهذا الاختصار في الطريق كما سيتضح لنا فيما بعد أثر كبير جداً في توجيه الحركة العربية ومصيرها عندما أتتها الفرصة للانفجار في ثورة علنية.

وقد كتب سفير بريطانية لدى الباب العالي في تقريره السنوي لعام ١٩٠٧ مايلي:

« يمكننا أن نقرر بأنه بين حوادث السنوات العشر الأخيرة على الأقل يوجد عنصران بارزان في الموقف السياسي العام: الأول هو خطة السلطان الماهرة التي استطاع أن يظهر بها أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين

في ثوب الخليفة الذي هو الرئيس الروحي في الدين الاسلامي وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الديني وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجازالتي ستمهد الطريق في القريب العاجل أمام كل مسلم للقيام بفريضة الحج إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة وبهذا تفتح له أبواب الحياة الأخرىوما تحويه من جنة ونعيم . وقد ترتب على هذه السياسة انه أصبح حائزاً على خضوع رعاياه له خضوعاً أعمى بشكل لم يسبق له مثيل فباتوا بنتيجة هذا الخضوع راضين عن حكمه الاستبدادي الذي قد لانجد في جميع أدوار التـاريخ مايحاكي شدته . وهكذا أصبحت ارادة السلطان قانوناً في البلادفاذا ما كتب لمسلم بائس أن يئن تحت وطأة الاضطهاد والاستعباد القاسي من جانب الحكومة أعلن شكواه من الموظفين دون أن ينسب للخليفة أي عمل سيء (١) » .

أما العنصر الثاني الذي قصده السفير فهو علاقة عبد الحميد بامبراطور ألمانية .

— ٧ —

اعتلى عبد الحميد العرش في وقت قريب لنشوء اتجاه جديد في سياسة ألمانية الخارجية وهو المعروف بالاتجاه نحو الشرق (٢) . فقد أخذ علماء الاقتصاد والمفكرون السياسيون في ألمانية يهتمون اهتماماً كبيراً بآسية الصغرى منذ زمن غير قليل ويبحثون في استعمارها حتى سادت الفكرة القائلة باعتبار ذلك الجزء من العالم منطقة نفوذ لألمانية ، ومع مرور الزمان أصبحت هذه الفكرة أساساً لسياسة جديدة كان من نتيجتها بسط السيطرة الالمانية

(١) الوثائق البريطانية الباحثة في أسباب الحرب . الجزء الخامس ص ٤٣

(٢) Drang nach osten

في القسطنطينية وحمل القيصر على القيام بتظاهرة كانت من أغرب ماقام به في حياته وذلك بقصد تأيد سياسة عبد الحميد الاسلامية .

لقد فتح عهد جديد عام ١٨٨٣ حين هبطت القسطنطينية بعثة عسكرية ألمانية مهمتها اصلاح جيش السلطان ليكون جيشاً حديثاً وكان على رأس هذه البعثة الكولونيل فون ديرغولتز الذي كان ضابطاً قديراً ومخلصاً في عمله فدأب على انجاز مهمته في غير ما كلل أو ملل خلال الأعوام الثلاثة عشر القادمة . على ان سعي هذا الضابط الحثيث وراء إيجاد الكفاءآت لم يرق كثيراً لعبد الحميد لأن خوفه الشديد من حدوث ثورة عسكرية دفعه إلى عدم الرغبة في احداث جيش قوي ولهذا راح يعمل سراً بالاتفاق مع الفئة المختارة التي كانت حوله على مناهضة فون دير غولتز في الوقت الذي انصرف فيه هذا الأخير بنشاط لايني إلى اصلاح كل جزء من أجزاء الآلة العسكرية العاطلة كان صنائع القصر يبذلون الجهد لكي تبقى مساعي فون ديرغولتز ، الرامية إلى جعل الجيش اداة قوية ومعتمدة على نفسها ، ضمن الحدود التي يأمن فيها السلطان خطرها . ومع ذلك فقد أصاب فون ديرغولتز نجاحاً كبيراً وكان لعمله أثر سياسي بالغ في فرع واحد على الأقل هو فرع الثقافة العسكرية فنشأ بفضل جهوده نظام للمعاهد العسكرية يرتفع مستواه عن مستوى معاهد التعليم الاخرى إلى حد أدى إلى جذب أذكى الشباب من أبناء الجيل المقبل سواء كانوا من الترك أو العرب فكان خريجو هذه المعاهد على رأس الجماعات التي لعبت دورها فيما بعد في الثورة التي وضعت حداً لاستبداد عبد الحميد ثم في الثورة العربية التي قامت بعدها بعدة سنوات .

كان من الطبيعي أن تتوسط البعثة العسكرية في شراء الاسلحة والذخائر من مصانع ألمانية ولكن نشاطها لم يقتصر على مهمتها المعروفة

فان بعض أعضائها كانوا يعملون بتعليمات صادرة عن بسمارك نفسه فيهتمون بأنواع مختلفة من المسائل ويبعثون إلى بلادهم بتقارير دورية عن أحوال تركية في الحاضر والمستقبل . وظهر بعد ذلك في الميدان مبعوثون عثلون البيوت المالية الالمانية ثم مالبثت أن لحقت بهم المصارف الكبيرة فأخذت تعمل بجد ونشاط حتى حصلت على امتيازات كثيرة لمد الخطوط الحديدية في الاناضول واستطاعت بين عامي ١٨٨٨ و ١٨٩٦ أن توصل الخط الموجود إلى قونية وهو الخط الذي يبدأ في محطة حيدر باشا على شاطئ البوسفور الآسيوي . وفي الوقت نفسه تبلورت فكرة استغلال الاناضول فأصبحت مبدأ من مبادئ السياسة المطبقة التي تؤيدها الحكومة الالمانية والتي تحوي في طياتها مشاريع تستهدف غزو المملكة العثمانية اقتصادياً ، وكان السعي للحصول على امتياز لمد خط حديدي إلى الخليج الفارسي من جملة هذه المشاريع وحضر القيصر بذاته للفوز به .

في خريف عام ١٨٩٨ وصل غليوم الثاني القسطنطينية في زيارته الرسمية للسلطان بعد أن مهدت لها مفاوضات دبلوماسية دامت أربع سنوات أو خمساً فنجح في الحصول على الامتياز المطلوب ورسمت المخططات اللازمة فكانت تقضي بأن تكون سكة حديد بغداد امتداداً لخط حيدر باشا قونية الذي بناه الالمان وأن تمر بطرف الاناضول الجنوبي متجهة شرقاً إلى الموصل في خط يكاد يكون مطابقاً للحد الفاصل بين الترك والعرب وتتجه السكة الحديدية جنوباً من الموصل إلى بغداد فالبصرة وتبلغ نهايتها في نقطة معينة على شاطئ الخليج الفارسي . ويتضمن المشروع بناء فروع متعددة للخط الرئيسي ، كفرع الاسكندرون ، بقصد إيجاد اتصال مباشر بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسي . كان هذا المشروع ضخماً وينطوي على مبلغ كبير

من الاقدام بما كان يحويه من تهديد لمصالح بريطانية في الشرق وما يثيره من مشاكل عسكرية وسياسية واقتصادية . كانت ألمانية ترى في تحقيق هذا المشروع واسطة لنيل منطقة عظيمة للنفوذ ، غنية بأسواقها وموادها الاولية ، أمينة من أخطار القوى البحرية ، وكانت هذه الفكرة براقة بأماني الاستعمار والسيطرة التي تشع من جنباتها ؛ أما بريطانية فكانت ترى في المشروع اداة لنصب منافس هائل لتجارتها واقامة قوة تهدد سيادتها في الخليج الفارسي .

قام القيصر بعد القسطنطينية بزيارة بيت المقدس ومن ثم دمشق لكي يضع حجر الأساس في بناء النفوذ الالماني الجديد في بلاد الشام وكان غرضه في هذه الرحلة أن يؤكد ، بل يبالغ في التأكيد على عادته ، عطفه على السلطان وشعوره الطيب نحو الاسلام وخليفة المسلمين ، وقد قال في خطبة ألقاها في دمشق « أود أن يطمئن حضرة صاحب الجلالة السلطان والملايين الثلاثمائة من المسلمين الذين يجلونه إلى انهم سيجدون في امبراطور ألمانية صديقاً لهم على الدوام » . وبعد ذلك زار قبر صلاح الدين في احتفال كبير ووضع عليه اكليلاً ثم أمر بأن يصنع مصباح من الفضة يوضع فوقه كهدية منه ترمز إلى اعجابه الشديد بذلك البطل الاسلامي . كانت كل حركة من هذه الحركات تذاع وتنشر في كل مكان حتى إذا ماعاد القيصر إلى برلين فعل ذلك وسط سيل متدفق من الثناء العاطر صبته عليه صحف العالم الاسلامي بتوجيه خاص .

لم يكن عبد الحميد من الغباوة بحيث يبهره دور البطولة الذي مثله حاميه الجديد ولكنه كان يقدر قيمة حليف من هذا الوزن في الدوائر الاوربية العليا ويثق الثقة الكافية بقدرته هو على اتقاء الأخطار الناشئة عن محاولة

ألمانية بسط نفوذها ، كذلك رحب عبد الحميد بما قام به القيصر من تطبيل وتزمير لاعلان صداقته للاسلام ولكن لم ينشأ هذا الترحيب عن قناعته بهذه الصداقة لذاتها بل عن رغبته في تسخيرها كأداة للدعاية ولدعم مركزه الدولي ، أما اطماع ألمانية في تركية فقد شعر عبد الحميد انه يستطيع المساومة على امور لم تؤمن له حتى الآن أي مورد وأن يكون كريماً في المساومة مادامت تلك الاطماع لاتعني أية سيطرة سياسية ، وقد رحب بصورة خاصة بالمشروع الالماني لبناء سكة حديد بغداد لأنه رأى فيه وسيلة تساعده ، كالخط الحجازي ، على تمتين سيطرته على الشعوب العربية المتذمرة ولا سيما ان الخوف المبالغ فيه من قيام العرب بثورة ضده لم يكن ليعتقه البتة . وعمل مستشاروه الموثوقون أمثال عزة باشا على تنمية هذه المخاوف في نفسه لتأتي بالنتيجة المرغوبة كما ان فون دير غولتز الذي يعتقد عبد الحميد باخلاصه كان يحثه منذ أعوام على أن يطبق سياسة اقدام واصلاح في المقاطعات العربية (١).

وهكذا مد عبد الحميد يده للقيصر وسمح له أن يقبل وجنته بينما وقفت الدول المعظمة المنافسة تنظر شزراً وفي كل ذلك لم يكتب لأحد غير عبد الحميد نفسه أن يعرف المدى الذي سيصل إليه أخيراً في منحه الخسيسة . على ان حكمه الفردي المطلق انتهى في ٢٣ يوليه عام ١٩٠٨ على أثر ثورة قام بها ضباط الجيش فأرغموه على اعادة دستور مدحة باشا بعد أن ظل معلقاً احدى وثلاثين سنة ، ولا حاجة بنا إلى القول بأن هؤلاء الضباط كانوا من خريجي المعاهد العسكرية .

(١) يمكن مطالعة آراء فون دير غولتز المتعلقة بهذا الموضوع في مقالته « عوامل الضعف والقوة في الامبراطورية العثمانية » وذلك في عدد شهر تشرين الأول عام ١٨٩٧ لمجلة (دويتش روندشاو) .

الباب الخامس

الحركة في طفولتها : ١٨٦٨ — ١٩٠٨

— ١ —

بدأ أول عمل منظم في حركة العرب القومية عام ١٨٧٥ بقيام خمسة شباب من الذين تلقوا العلم في الكلية السورية البروتستانية في بيروت بتشكيل جمعية سرية وكان ذلك قبل تولي عبد الحميد بسنتين . وكانوا جميعاً من النصارى الا انهم أدركوا ضرورة اشراك المسلمين والدروز معهم فاستطاعوا بعد مدة من الزمن أن يدخلوا اثنين وعشرين عضواً ينتمون إلى الطوائف المختلفة ويمثلون خواص المتنورين في البلاد وكانت الماسونية كما تعرفها أوربة قد دخلت بلاد الشام من عهد قريب فتمكن القائمون على الجمعية السرية من حمل المحفل الذي انشيء حديثاً على الاهتمام بعملها وذلك بتوسط أحد الأعضاء .

كانت بيروت مركز هذه المنظمة وقد انشئت فروع لها في دمشق وطرابلس الشام وصيدا . ولما كانت أهداف القائمين عليها ترمي بصراحة إلى الثورة فلم يكن في مقدورهم أن يسمحوا بتعريض حركتهم لأي نوع من الاعلان ولهذا حصروا نشاطهم في البداية بالاجتماعات السرية حصراً تاماً وكانوا في هذه الاجتماعات يتبادلون الرأي ويبحثون الاساليب ويعملون على نشر أفكارهم السياسية بواسطة الاتصال الشخصي . وأخيراً وبعد أن استمرت مؤامراتهم الواسعة ثلاث سنوات أو أربعاً أدركوا انهم إذا استمروا في

حصر تبشيرهم بأنفسهم لم يتعد الحماس الذي ينفخونه أشخاصهم ولهذا عزموا على توسيع نطاق عملهم واختاروا لهذا التوسع الجديد الاسلوب الوحيد الممكن في ظل ادارة تركية يقظة وهو لصق النشرات المجهولة المصدر في الشوارع ٠

وما كادوا يصممون على هذا الأمر حتى شرعوا ينفذون العمل بنشاط يمتاز به دوماً الشباب المتآمرون فكانوا بعد أن يعتمدوا نص النداء المراد توجيهه يقضون الليالي الطويلة في تهيئة نسخ عديدة منه بخطوط مختلفة ومجهولة ثم يخرج صغار الاعضاء وقد تسلحوا بزجاجات الصمغ في جيوبهم ليلصقوا أكبر عدد ممكن منها على جدران المدينة وفي الصباح كان الناس يتجمعون حول هذه النشرات ويشرع أحدهم بقراءتها بصوت مرتفع حتى تحضر الشرطة فتمزقها وتلقي القبض على قسم من الجمهور وهم أبرياء . وما يكاد الغليان الذي تخلقه نشرة من هذه النشرات يهدأ في بيروت حتى تصل الأنباء عن ظهور نشرات مماثلة في دمشق وطرابلس وصيدا . وأخذ الناس يتحدثون همساً في المواضيع التي تثيرها النشرات وذلك في الاجتماعات الخاصة بينما كان أعضاء الجمعية يختلطون بأصدقائهم وأصحابهم ويشتركون في أبحاثهم ثم يحيطون علماً بينهم وبين أنفسهم بتعليقات النـاس وهم في ذلك كله محتفظون بسرهم احتفاظاً تاماً . وبعد ذلك يعدون نداءهم المقبل على ضوء الأثر الذي تركه النداء السابق وقد أتقنوا فن الاخفاء فأخذوا يغيرون ويبدلون في الاسلوب الكتابي والمستوى الأدبي للنشرات حتى انهم كانوا يتعمدون الخطأ في الصرف والنحو مما كان يزيد الشك في معرفة مؤلفيها ٠

كانت هذه النشرات تهاجم مساوىء الحكم التركي بشدة وتحث الشعب العربي على الثورة لقلبه فحارت فيها السلطات التركية في القسطنطينية والشام

وقلقت حتى ان السلطان بعث برسله السريين إلى بيروت للتحقيق فوقعت بيوت كثيرة عرضة للتفتيش كما اعتقل عدد من الناس لمجرد الشبهة وانتشرت الشائعات القائلة بأن حاكم الشام العام – وهو مدحة باشا نفسه الصدر الأعظم السابق ومنشئ دستور عام ١٨٧٦ – كان على علم بسر وجود الجمعية وانه إن لم يكن مؤسسها فقد كان على الأقل حاميها . وذهبت الشائعات إلى أبعد من ذلك فقيل ان غرضه اثارة القلاقل في الشام بأمل فصلها عن حكم السلطان والاستيلاء عليها لنفسه ولذريته من بعده كما فعل محمد علي في مصر . ومع ان هذه التهم كانت مفتقرة إلى برهان يؤيدها ، وهو برهان ماوجد حتى هذا اليوم مما جعل براءة مدحة باشا من أية صلة بالموضوع أمراً يكاد يكون مسلماً به ، فقد استدعاه السلطان بعد أن بلغ الغليان الناجم عن نشرات جمعية بيروت حداً عظيماً . وبقيت الجمعية في الوجود ثلاث سنوات أو أربعاً بعد ذهاب مدحة باشا فلما اشتدت وطأة الاستبداد الحميدي ووصلت إلى درجة لايمكن تحملها رأى الأعضاء ان الحكمة تقضي بتوقيف أعمالها فأتلفوا سجلاتها القليلة وهاجر إلى مصر الكثيرون من أعضائها البارزين بنشاطهم . لقد بقي سر الجمعية مكتوماً كتماناً تاماً حتى النهاية فلم تتوصل الحكومة ولا توصل الشعب إلى معرفة أشخاص هؤلاء المتآمرين .

– ٢ –

لم نجد بين المصادر المنشورة التي راجعناها أي بحث عن أعمال الجمعية السرية في بيروت ونحن مدينون كثيراً في ما أوردناه في الفصل السابق للدكتور فارس نمر باشا (١) وهو أحد أعضائها المؤسسين الذي استطاع وهو

(١) ان فارس نمر باشا من أبرز شخصيات العالم العربي وقد ولد في لبنان ثم هاجر إلى مصر عام ١٨٨٣ حيث بقي حتى اليوم وهو أحد –

في الثمانين من عمره المديد ومتمتع بكامل قواه العقلية أن يذكر الوقائع الرئيسية وأسماء الأعضاء الاثنين والعشرين . لقد اجتمعنا إليه مرات متعددة وافدنا كثيراً من ثمرة ذاكرته الخارقة فجعلنا نضم الوقائع الواحدة إلى الأخرى ، وهي الوقائع المتصلة بحوادث ساهم فيها هو نفسه لأول مرة قبل ستين عاماً ، حتى حصلنا على الصورة كاملة لاينقصها إلا شيء واحد هام هو نص تلك النشرات . على ان الدكتور نمر استطاع أن يعطينا فكرة واضحة عن اتجاهها العام وموضوعها ولهجتها الآخذة في شدة متزايدة واهتمام كتابها البالغ باخفاء خطوطهم وتنويع اسلوبهم . ولكنه لم يستطع بسبب بعد الشقة أن يذكر نص تلك الصيحات وهو لو فعل لساعدنا على فهم قيمتها الصحيحة . ولم يحتفظ أحد في ذلك الوقت بأية نسخة عنها كما ان التصريح بمضمونها علناً كان مستحيلاً في زمن عبد الحميد حتى من جانب الذين هجروا البلاد وذلك خوفاً من أن يحدث تصريحهم رد فعل يؤدي إلى الإيقاع بأصحاب العلاقة . وهناك شخص آخر من أعضاء الجمعية وهو الوحيد الذي مازال في قيد الحياة باستثناء الدكتور نمر ولكنه هو الآخر لم يذكر النصوص وان شهد بصحة كثير من الوقائع التي أشرنا إليها . وفي النهاية خيل لنا اننا لابد من أن نأتي على قصة الجمعية دون اثبات نصوص النشرات .

قضينا عاماً ويزيد ونحن نقتفي أثر الجمعية السرية التي اسست عام ١٨٧٥ ، وهو أثر يكاد يكون ممسوحاً ، وذلك خلال رحلاتنا للبحث عن مواد هذا الكتاب . فكنا نوجه الأسئلة المتصلة بها إلى اناس كثيرين في جميع

— مؤسسي مجلة (المقتطف) وهي مجلة شهرية علمية ، وجريدة (المقطم) وهي جريدة يومية ، وكلاهما تصدر في القاهرة وما تزالان منتشرتين انتشاراً واسعاً في بلاذ العربية .

أنحاء الشام وفي القاهرة وبغداد فكان الكثيرون منهم يذكرون ظهور تلك النشرات كما ان بعضهم أكدوا لنا من حوادث يعرفونها بأنفسهم أن أثر هذه الصيحات الداوية في نفوس أبناء الجيل المتيقظ كان عميقاً جداً. ولكن ظلت النصوص مجهولة ولم نعثر لها على أثر.

وبعد سنة بينما كنا نقوم بالبحث والتنقيب في دائرة السجل العام (١) في لندن عثرنا على برقية من قنصل بريطانية العام في بيروت مؤرخة في ٢٨ يونيو عام ١٨٨٠ هذا نصها:

« ظهرت نشرات ثورية في بيروت. يشتبه أن يكون مدحة مصدراً لها. مع ذلك يسود الهدوء. التفاصيل في البريد القادم »

وقد أتى بعد هذه البرقية عدد من الرسائل الصادرة عن بيروت ودمشق والتي تصف القصة كما عرفها العمال القنصليون البريطانيون في ذلك الحين وقد أضافوا تكهناتهم عن مصدر النشرات. ولكن الأهم من ذلك كله ان القنصل العام في بيروت استنسب ارسال النصوص العربية المطابقة لثلاث نشرات مختلفة وقد ارفقها بكتب منه. كانت الواحدة هي النشرة الاصلية بعينها وقد انتزعت من مكانها قبل وصول الشرطة بينما كانت الاثنتان صورتين عن الأصل. ونحن نستطيع بعد الاطلاع على هذه النصوص أن نكون فكرة أوضح من ذي قبل عن أهداف الجمعية واتجاهاتها. فاذا نظرنا إلى النشرات الثلاث بترتيب ظهورها لحظنا تدرجاً يلفت النظر في المواضيع التي كانت تعالجها واللغة التي كتبت بها.

كانت النشرة الأولى مرفقة برسالة مؤرخة في ٣ يولية عام ١٨٨٠ وكانت أقصر من أختيها وأقل منها أهمية. ومن الواضح انها كانت أول

(١) دائرة السجل العام ف. و. ١٩٥ / ١٣٠٦

نشرة لحظتها القنصلية البريطانية ولكنها لم تكن أول نشرة أصدرتها الجمعية بدليل انها تشير إلى نداء سابق وتعمل على تأكيد اخلاص منشئيها ووطنيتهم في موضوع يتعلق بنشرة سابقة . وهي تؤنب أهل الشام على سباتهم في ظل الاستعباد التركي وعلى التفرقة المتأصلة فيهم والتي تجعلهم هدفاً للأطماع الأوربية كما انها تؤكد أهمية توحيد الصفوف وتحث الناس على أن يدفنوا خلافاتهم ليتحدوا ضد مستعبديهم عاملين بوحي من عزتهم العربية . وفي أعلى النشرة رسم لسيف مسلول تحته بيت من الشعر يعلن ان الاماني البعيدة لاتدرك الا بحد السيف ويناشد العرب بأن يسلوا سيوفهم لكي يفوزوا بغاياتهم .

أما النشرة الثانية فكانت مرفقة بالرسالة ذاتها الا انها كانت أصرح من سابقتها في مهاجمة الاتراك فهي توجه لهم التهمة لأنهم لم يقوموا بالاصلاح الذي وعدوا به منذ عشرين سنة أي من عام ١٨٦٠ وهي السنة التي وقعت فيها مذابح الشام ، كما انها تعلن للملأ ان الترك اناس لايمكن تقويمهم ولا امل فيهم البتة . وهي تذهب إلى أبعد من سابقتها في انها تدعو بوضوح إلى اقامة الحكم الذاتي ، وحتى المستقل ، في بلاد الشام وتنتهي بأسلوب خطابي يعلن عزم منشئيها على خدمة وطنهم مهما كلفهم الامر .

أما النشرة الثالثة وهي التي ذكرت الرسالة المرفقة بها انها وضعت على الجدران في ليلة ٣١ كانون الأول عام ١٨٨٠ فانها تلفت النظر أكثر من اختيها لانها تتضمن أول برنامج سياسي عربي مدون . فهي تبدأ كسابقتيها بتوجيه التهمة إلى الحكم التركي الذي أضاف سيئة جديدة إلى سيئاته السابقة بسعيه للقضاء على اللغة العربية وهي تضرب على الوتر الديني اذ تعتبر تولي السلطان الخلافة اغتصاباً لحقوق العرب وتتهم الترك بأنهم تعودوا التجاوز على الشريعة الاسلامية كما انها تقول بأنه بعد أخذ رأي « زملائنا

في جميع أنحاء البلاد » تم اعداد برنامج ينفذ بحد السيف إذا لزم . ويتضمن هذا البرنامج النقاط الرئيسية التالية :

١) منح الاستقلال لسورية متحدة مع لبنان .

٢) الاعتراف بالعربية كلغة رسمية للبلاد .

٣) الغاء الرقابة والقيود الأخرى التي تحول دون حرية الرأي وانتشار العلم .

٤) عدم استخدام الوحدات العسكرية المجندة من أهل البلاد إلا ضمن حدود بلادهم .

إذا نظرنا إلى هذه النشرات الثلاث وجدنا انها تتضمن تدرجاً واضحاً من العام إلى الخاص أي من التهجم الحماسي على سيئات الحكم التركي إلى اعداد برنامج معين يحوي الأماني القومية وتظهر فيه بجلاء آثار اليازجي والبستاني : الاول في سعيه لاعلاء شأن اللغة العربية والثاني في حملته على الجهل . وكان ابراهيم اليازجي ابن ناصيف من أعضاء الجمية ومما يزيد في اهتمامنا بهذه النشرات الثلاث انها جميعها تنتهي بأبيات مأخوذة من القصيدة التي ألقاها قبل احد عشر عاماً في جلسة سرية للجمعية السورية العلمية .

- ٣ -

ليس من السهل بعد مرور ستين سنة أن نقدر مبلغ الأثر الذي تركته جمعية بيروت السرية في توجيه الأفكار وحركتها . كان القناصل البريطانيون ميالين إلى الاقلال من شأنها في مانقلوه من أخبارها في تقاريرهم فقد وصفوا مناشيرها الثورية بأنها تظاهرة فاترة أثارت قليلاً غريزة الفضول في نفس جمهور جامد . وكان رأي العرب المعاصرين على نقيض ذلك اذ أكدوا من مشاهداتهم وملاحظاتهم ان تأثير تلك المناشير كان عاماً .

وبينما تمتاز التقارير القنصلية بأنها كتبت في ذلك الوقت وان أصحابها كانوا حياديين نسبياً الا ان قيمتها لاشك تضعف إذا ذكرنا ان الموضوع هو موضوع تآمر وخيانة وان الممثلين والنظارة فيه كانوا مضطرين إلى عدم التصريح بما يجول في خواطرهم (١) . ويخيل لنا ان شهادة اولئك المعاصرين الذين بحثنا معهم الموضوع في السنوات الأخيرة مقنعة ومقبولة بالرغم من وجود عوامل مخففة كمرور الزمان واحتمال المبالغة وعدم استقرار ذاكرة الانسان .

ومهما يكن من الأمر فان دعوة الجمعية كانت بمثابة النداء الأول الذي بعثته حركة العرب وهي ماتزال في طفولتها كما ان الجمعية نفسها كانت أول هيئة تتشكل وهدفها الأول سياسي . وإذا ألقينا نظرة على الجمعية وقارنا بينها وبين الحوادث التي وقعت بعدها وأحوال العصر الذي عاشت فيه وجدنا ان نشاطها كان سابقاً لأوانه لأنه افترض بلوغ الوعي القومي في البلاد درجة من النمو والانتشار لم يبلغها في الواقع . وعلى هذا فان الجمعية إذ عملت على اثارة الهيجان السياسي الذي تدعمه الثورة المسلحة عند اللزوم لم تظفر بجمع كلمة الشعب تلبية لندائها لان النداء جاء كما قلنا سابقاً لأوانه . فيمكننا القول إذن بأن المحاولة كانت فاشلة من هذه الجهة ولكنها اثمرت من جهات أخرى ، وكان من أهم تلك الثمرات ان دعوتها المتكررة عملت على صب الرغبات الغامضة والآمال المبهمة في قالب معين وبهذا لم تكسب سيل الافكار المتدفق قوة فحسب بل اكسبته كذلك شعوراً بالاتجاه الواجب اتباعه . لقد امتاز البرنامج الذي حوته نشرة الجمعية الثالثة في انه أصبح نموذجاً لما اتى بعده

(١) تحوي التقارير بعض الاخطاء الصريحة التي تدل على ان أكثر الحقائق عن أعمال الجمعية كانت تحجب عن الممثلين القنصليين البريطانيين .

من برامج كما انه كان في تاريخ الحركة أول بيان معروف يحوي أهدافاً سياسية معينة . وبالاضافة إلى ذلك تستحق هذه النشرة اهتمامنا لأنها الوثيقة الوحيدة من نوعها التي تعطينا صورة صحيحة عن حقيقة الفكرة القومية العربية واتجاهها وهي ماتزال في فجر عهدها الأول .

ظلت الحركة حتى ذلك الوقت محصورة ضمن محيطها وقد رأينا كيف خلقتها اليقظة الفكرية والاجتماعية التي استندت إلى عاملين رئيسيين هما البعث الأدبي والشعور الذي تنبه كرد فعل لمذابح عام ١٨٦٠ . ولم تكتف الحركة بأن تكون قواها الدافعة روحية بحتة وبعيدة عن مؤثرات الحاجة الاقتصادية أو النظريات السياسية بل كانت قواها بالاضافة إلى ذلك ذات محرك ذاتي وليد انفعال داخلي . وقد استقت الحركة أفكارها من منابع مألوفة في بيئتها وذلك قبل أن تشرع باستعارة مبادئ النشوء والارتقاء الغربية بزمن طويل . فان البدع التي ادخلها محمد علي إلى مصر والسلطان محمود الثاني إلى تركية استهدفت بالدرجة الاولى اصلاح القوى العسكرية وتجديد بعض فروع الادارة فأدت إلى نقل اشكال المؤسسات الأوربية ونقل نماذج عنها دون أن تنقل عقائدها المثالية . من المعروف ان الوسائل العملية تهضم دوماً قبل هضم الافكار التي تدعمها ولهذا فان فكرة الامة كمجموعة منسجمة من السكان تشكل كلاً متحداً توجهه فكرة قومية مشتركة وهدف قومي مشترك — ان هذه الفكرة لم تكن في ذلك الحين قد نفذت أي نفوذ في الاجزاء العربية من المملكة العثمانية . وقد تبين لنا حتى في عهد متأخر كعام ١٨٧٦ درجة بعد الناس عن فهم المعاني التي تنطوي عليها فكرة الامة والدولة كما يعرفها الغرب ففي تلك السنة ظهر دستور مدحة باشا للوجود فاستقبله الرأي العام بحماس كبير مع ان الهدف الأسمى الذي يسعى إليه

هو تأليف دولة مختلطة بنتيجة اندماج عناصر متباينة قومياً تسعى كلها وراء أهداف متباعدة جداً ولم تدخل تلك الفكرة — فكرة الدولة والامة بمفهومها الغربي — بلاد الشام الا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، فغزت العقول وطعمت شجرة القومية العربية ذات المنبت المحلي التي كانت حتى ذلك الحين تتناول القسم الأكبر من غذائها من التربة التي حوت جذورها وهذا أمر طبيعي في حركة نشأت في بيئتها الخاصة . وبالاضافة إلى ماتقدم فقد كان للبرنامج الذي حوته نشرة جمعية بيروت قيمة تاريخية من حيث انه ، في الوقت الذي عرّفنا بالاتجاهات الثقافية التي تضمنتها الحركة منذ ولادتها ، مكننا من أن نتبين الاعراض الأولى لظاهرة فكرية جديدة هي الرغبة في قيام دولة مستقلة سياسياً على أساس قومي صحيح .

— ٤ —

كان الهدف الأول في ذلك البرنامج تحقيق وحدة سورية ولبنان كأساس لاستقلالها فان نوع الادارة الخاصة القائمة على الحكم الذاتي المحلي والتي أوجدها النظام الأساسي في لبنان عام ١٨٦٤ قد منحت ذلك الجزء ادارة مستقلة ادت في الواقع إلى فصله عن سائر أجزاء سورية من الناحية السياسية . ومهما حوى هذا الانفصال من فوائد في بعض النواحي فانه كان وروح النهضة العربية الجديدة على طرفي نقيض لأن هذه النهضة كانت تنفر من الحواجز والتقسيم وكان من عقائدها الأساسية الايمان بفضائل الوحدة والوئام التي اعتبرتها شرطاً أساسياً لبقائها . ومما زاد في تحمس قادة الحركة وسعيهم الحثيث لاعلاء شأن هذه الفضائل ادراكهم انها غريبة عن الخلق العربي ذي الميل القوي نحو الفردية مما يجعل العرب يلبون بسرعة أي نداء يدعوهم إلى إثارة النزاع القبلي أو الحزبي . ولهذا أتى البرنامج

الذي ظهر في نشرات بيروت مؤكداً وحدة المصلحة بين لبنان وسائر أجزاء سورية التي يشكل معها كذلك وحدة سياسية لاتتجزأ ، فكان في ماذهب إليه انعكاساً طبيعياً لاشمئزاز الافكار من أي ميل نحو التقسيم والانفصال . ونلمس في هذا الاتجاه كذلك منشأ فكرة الوحدة العربية التي ظهرت في بلاد الشام ثم انتشرت منها إلى جميع أنحاء دنيا العرب القومية لتحتل مكانها في الصف الأول من أماني العرب . ان الرغبة في تحقيق هذه الفكرة في بلاد الشام هي التي حملت الافراد الذين اعدوا برنامج عام ١٨٨٠ على الدعوة ، للمرة الاولى على مانعلم ، إلى تأليف دولة مستقله تشكل وحدة سياسية قائمة على أساس قومي لاطائفي .

وتعكس النقطة الثانية في البرنامج المذكور العوامل ذاتها التي وجهت النهضة العربية في عهدها الأول وهي الافكار القائلة بلزوم تجديد شباب اللغة العربية لكي تصبح أداة صالحة للتعبير الأدبي ، وبضرورة القيام بحملة على الجهل والتعصب . فقد اتجهت الادارة في المملكة العثمانية منذ عام ١٨٦٤ نحو المركزية الضيقة وأخذ استعمال اللغة التركية كلغة رسمية يفرض في بلاد الشام على مقياس واسع وكان كبار الموظفين من الترك وهم يجهلون اللغة العربية جهلاً تاماً كما كانت اللغة التركية لغة الدواوين في المحاكم وفي الادارات الرئيسية حتى أصبحت معرفة تلك اللغة أمراً لابد منه في جميع المعاملات الرسمية وهذا بعد أن كانت تعتبر لغة أجنبية برغم بقاء البلاد تحت السيطرة العثمانية مدة أربعة قرون . وقد جرى هذا التحول الرسمي نحو اللغة التركية في عهد استيقاظ اللغة العربية من سباتها الطويل واحتلالها مكانتها القديمة كأداة للاعراب عن الافكار مما أدى ، كما رأينا ، إلى خلق حركة قوية غايتها اصدار المؤلفات الادبية والعلمية باللغة القومية وذلك كله

بفضل جهود الجمعيات التبشيرية في ميدان التعليم وبفضل نشاط العلماء . فكان فرض اللغة التركية بشدة متزايدة عاملاً مناهضاً لهذه الحركة وكانت نتيجته شعور أنصارها المتحمسين لها بأن كرامتهم قد طعنت في الصميم. وكأن هذا كله لم يكف فأسس عبدالحميد فور تعليق الدستور رقابة مابرحت تنمو في شدتها وحماقتها حتى مدت يدها الاثيمة إلى الكتب الاجنبية فمنعتها وإلى الرأي المحلي فخنقته . وكانت هذه القيود ثقيلة الوطأة ولا سيما على أعضاء الجمعية السرية التي شكلت في بيروت لأنها كانت تضم بين أعضائها نخبة متنوعة من العلماء والادباء وكانت كثرتهم من تلامذة اليازجي والبستاني وكانوا جميعهم من اتباعهما . وما كانت دعوتهم إلى احياء اللغة وإلى الحرية الفكرية ، مثل دعوتهم إلى الاتحاد ، الا صدى لعقائد هذين الاستاذين المتأججة في صدريهما وقد كتب للدعوتين أن تصبحا نداء الحرب الذي ارتفع به صوت أبناء الجيل المقبل .

أما النقطة الثالثة في البرنامج فهي تبحث ناحية عرضية لا أساسية من الموضوع إذ تتضمن الاحتجاج على خطة اخذت الدولة بتطبيقها حديثاً وهي إرسال الجند من عرب الشام لمحاربة عرب اليمن . فان عودة الجيوش العثمانية إلى فتح تلك البلاد عام ١٨٧٢ قد بدأ عهداً طويلاً ومكلفاً من العداء بين الترك والعرب وكانت الجيوش الامبراطورية تلاقي صعوبة قصوى في الثبات أمام شعب يشعر بهذا العداء . وأصدرت الحكومة التركية الأوامر القاضية بتوجيه الجند من أهل الشام إلى الجزيرة ظناً منهم ان الفرق المؤلفة من جنود عرب قد لاتواجه بتلك المقاومة العنيدة . وفي عام ١٨٧٤ انزل الترك إلى البحر بالقوة الجزء الأول من هذه الفرق وقد بلغ مجموعه عدة آلاف فأثار عملهم هذا دهشة عامة . ثم بعد مضي ثلاث

سنوات أرسلوا طوابير مؤلفة من جند الشام إلى ميادين القتال في الحرب الروسية التركية فأخذوا يقاتلون في سبيل قضية لاتمت إليهم بأدنى صلة .

— ٥ —

بلغت الجمعية بنشرها البرنامج المشار إليه أقصى حد في أعمالها الظاهرة ، ومع ان حياتها استمرت خلال السنوات الثلاث أو الاربع القادمة وبالرغم من قيام الدليل الشفوي على انها تابعت اصدار المناشير الا اننا لم نعثر على أثر أعمالها في تلك الفترة وهي على كل حال لم تضف شيئاً جديداً محسوساً إلى ماورد في المناشير التي سبقتها وهذا ثابت بشهادة أحد أعضائها المؤسسين . لقد أدت الحركة رسالتها اذ صاغت الاحساس العنصري في قالب عقيدة سياسية وهي بذلك لم تنشر الراية فحسب بل عملت ماكانت الامة في حاجة أشد إليه ألا وهو رسم السهم الذي يدل على الاتجاه الواجب اتباعه .

ان من طبيعة المزاج العربي تصور أي عمل كان في شكل وثبات متفرقة لابصورة جهد متصل ومستمر ، ولهذا كان تاريخ حركة العرب القومية سجلاً لانفجارات ناشطة تتخللها فترات استشفاء واستجمام ولعلنا نصيب الحقيقة إذا مثلناها بلهب يندلع صاعداً من نار فاترة هي نار شعور كالدُّعر (١). وكانت المحاولة الثورية التي قامت بها جمعية بيروت السرية بمثابة الموجة الاولى في سلسلة من الموجات التي تعاقبت في انسياب غير منتظم . ويمتاز برنامج ١٨٨٠ بالاضافة إلى قيمته الذاتية ، بأنه من الناحية التاريخية يمثل أقصى حد بلغته تلك الموجة الأولى . ولم يكن له نتيجة ملموسة أو ظاهرة لأن أثره بقي كامناً في الزوايا الخفية للوعي العربي العام وقد أصبح شعاراً له . ثم ان تفكير العقول التي نحتت هذا البرنامج من الآمال المطموسة التي تشع من جوانح

(١) الدعر بضم الدال وفتح العين هو العود الذي يدخن ولا يتقد .

شعب عي كان سابقاً لعصره ، ولكنه في الوقت ذاته دل على ان تلك العقول قد فهمت القضية فهماً صحيحاً ورأتها بكاملها منتصبة أمام مخيلتها فكان من دواعي فخرها ان اسس برنامجها لم تبطل في أي عهد من العهود القادمة .

— ٦ —

ان المقاطع التالية التي أخذناها عن كتاب معاصرين راقبوا الحالة لتصف بجلاء الحركة الفكرية في بلاد الشام والغليان السياسي الذي غذته .
لقد سجل كاتب فرنسي زار البلاد عام ١٨٨٢ الأثر الذي تركته الروح الجديدة في نفسه كما يلي :

« ... ان روح الاستقلال منتشرة انتشاراً كبيراً وقد رأيت شباب المسلمين خلال اقامتي في بيروت منهمكين بتشكيل الجمعيات العاملة على تأسيس المدارس والمستشفيات والنهوض بالبلاد . ومما يلفت النظر في هذه الحركة انها محررة من أي أثر للطائفية فان هذه الجمعية تستهدف قبول النصارى بين أعضائها والاعتماد على معاونتهم في العمل القومي ولكنها تهمل الترك تماماً » (١) .

وهناك فرنسي آخر قام برحلات واسعة في البلاد العربية فزار شمال افريقية وشواطئ البحر الأحمر والخليج الفارسي وركب دجلة حتى بغداد في عام ١٨٨٣ فلمس في رحلاته اعراض القلق الذي عم جميع البلاد العربية ووصفه بما يلي :

« ... لقد كان يواجهني في كل مكان وبنفس النسبة ذلك الشعور العام المستقر : كراهية الترك ... وأما فكرة القيام بعمل

---

(١) غبريل شارم (Gabriel Charmes) في كتابه : رحلة إلى الشام (Voyage en Syrie) ص ١٧١ — ١٧٢

مشترك مرتب لطرح هذا النير البغيض فهي في دور التكون . . .
ويلوح في الافق البعيد طيف حركة عربية ولدت حديثاً . وسيقوم
هذا الشعب الذي كان مغلوباً على أمره حتى الآن بالمطالبة عما قريب
بمركزه الطبيعي في عالم الاسلام وفي توجيه مصير هذا العالم » (١) .

وقد بدأت جرثومة التكتل السياسي تظهر حتى في الجزيرة نفسها
فقد كتب المعتمد البريطاني في جدة عام ١٨٨٢ يقول :

« إلا انه قد وصل إلى علمي ان بعض الاذهان ، حتى في
مكة نفسها ، أخذت تتحرك بفكرة الحرية . ويلوح لي ، بعد الذي
سمعته من تلميح ، ان هناك خطة مرسومة ترمي إلى توحيد نجد
مع بلاد مابين النهرين (العراق الجنوبي) وتنصيب منصور باشا عليها ؛
وتوحيد عسير مع اليمن وتنصيب علي بن عابد عليها . وسأتأكد
عما قريب من صحة هذه الرواية وما إذا كانت تنطوي على شيء
غير الاحلام » (٢) .

ان هذه التقارير التي كتبها مراقبون أجانب للحالة تؤيد على علاتها
ما أثبته شهود معاصرون من العرب ، فان القلق لم يبق مقتصراً على الشام
بل انتشر في الأجزاء الشرقية الاخرى من العالم العربي ومع ان الاسباب
المباشرة لهذا القلق لم تكن واحدة في كل مكان الا انه كان يرمي في ظاهره
إلى هدف واحد وهو التحرر من الحكم التركي فألبسه هذا الأمر ثوباً
غير ثوبه الأصلي إذ جعل الناس يظنون ان هناك حركة مرتبة وموحدة .

(١) دنيس دوريفوار (Denis de Rivoyre) في كتابه : العرب
الاصليون وبلادهم — (les Vrais Arabes et leur Pays) ص ٢٩٤—٢٩٥

(٢) دائرة السجل العام ف . و . ٣٤١٥/٧٨

وفي واقع الامر لم يكن بين أجزاء العالم العربي المختلفة والمشتتة أي تعاون مقصود في ذلك الحين اذ لم تكن وسائط النقل السريعة قد باشرت السير وكانت السكك الحديدية في العالم العربي بحكم المفقودة كما ان العقبات الناشئة عن بعد المسافات مازالت هائلة وكانت الصحافة ملجمة، ومع ان الأنباء والأفكار كانت تنتقل على عادتها دون الالتفات إلى الحواجز الا ان حركات الافراد كانت مقيدة، الامر الذي جعل القيام باعداد ثورة منظمة في تلك المساحة الواسعة خارجاً عن حدود الامكان .

ولهذا وجب علينا الا نفسر علامات القلق التي بدت في العالم العربي في أوائل الخمس الاخير من القرن الماضي بأنها انفجارات ظهرت قبل أوانها لمؤامرة عربية مدبرة، فقد كانت في الواقع الآثار الأولى لأفكار جديدة ولدت في الشام وأخذت ريحها تجتاح بلاد العرب المترامية الاطراف سائرة في طريق غير منتظم فاذا ما التقت بنار التذمر من الحكم التركي حركتها فأثارت لهباً هنا وهناك، مثلها في ذلك مثل نيران الافراح إذا اوقدت عرضاً في صقع كبير من الأرض تملؤه التلال . أما الفتنة المدبرة والانفجار الذي أعقبها فانهـا لم تقع إلا بعد ثلاثين سنة في زمن زال فيه استبداد عبد الحميد وخلفه شكل آخر من اشكال الحكم التركي هو دستوري بالاسم ولكنه في الواقع أشد استبداداً واستفزازاً من سابقه .

— ٧ —

إذا نظرنا إلى المظاهر الخارجية للحركة العربية في تلك الفترة لحظنا انها كانت واقفة في مكانهـا . فبالاضافة إلى ما امتاز به العهد الحميدي من رقابة وتجسس وأهوال خفية أدت جميعها إلى لجوء أكثر مفكري الحركة حماساً إلى الهجرة، فقد اصطدمت الحركة بكثير من العوامل الاخرى التي

اوهنتها . ونأتي هنا على ذكر ثلاثة من هذه العوامل وهي سياسة عبد الحميد في بلاد العرب ، وقد امتازت على اختيها بمكرها وغدرها ، وما نشأ عن انتشار التعليم الغربي ونمو نفوذ الكهنوت .

لقد شرحنا في باب سابق سياسة السلطان في البلاد العربية وهي سياسة قائمة على استغلال ماهر لغريزتي الطمع والخوف فكان لابد لها من أن تصيب بعض النجاح موقتاً . ومع انها لم تقتل الحركة ولم توقف نموها الخفي الا انها جعلتها عديمة التأثير وذلك اما عن طريق اغراء الناس بالتوظيف والعطيات الاخرى واما عن طريق الارهاب . ولم تشاهد الاجزاء العربية الاخرى ماشاهدته الشام من تطبيق حرفي وملح لهذه السياسة فنالت حصة الاسد من التفات عبد الحميد . وسواء أكان هذا العطف الخاص ناشئاً عن كونها مهداً للحركة العربية ام عن تفوقها من الناحية الثقافية على ممتلكاته العربية الاخرى وموقعها الجغرافي كمفتاح لها فقد رضيت به الشام وأنكرت بذلك رسل حريتها .

كان انتشار التعليم الغربي في البلاد من العوامل المضعفة للحركة ، ولئن كان في ظاهر هذا القول تناقض ما فانه في حقيقته صحيح . فقد انتشر هذا النوع من التعليم في بلاد الشام في العهد الحميدي على مقياس أوسع من ذي قبل فتأسست شبكة من المدارس والكليات في طول البلاد وعرضها ولم تعد هذه المؤسسات منحصرة في الفرنسيين والامريكان والبريطانيين لأن البعثات الروسية والايطالية والالمانية أخذت تؤم البلاد لتضم نشاطها إلى نشاط من سبقها . فاذا ذكرنا ان البلاد نفسها تحوي عناصر داخلية للتجزئة أدركنا ان هذا الاختلاف في التعليم هو شر جديد مضاف إلى الشر القديم ، ولا سيما ان بعض البعثات كانت أدوات مسخرة لتحقيق الاطماع

السياسية جلبت معها بالاضافة إلى نعمة التعليم نقمة التناحر الدولي . كانت الحكومة الفرنسية تمد البعثات الدينية الفرنسية بالمال رغبة منها في تقوية نفوذها فتحالفت هذه البعثات مع الموارنة وطائفة النصارى الملكيين وعملت على اعطاء النشء الجديد نوعاً من التعليم هو جيد في حد ذاته ولكنه يستهدف صب أفكار التلامذة في قالب فرنسي وتوجيه أذهانهم وولائهم الفكري نحو فرنسة . أما الروس فكانوا يرمون سراً إلى الغاية نفسها بواسطة بعثة دينية وجمعية تعليمية غنية وقد أخذوا ينمون صلاتهم بالعرب الارثوذكس وبطريركي انطاكية وبيت المقدس الارثوذكسيين . أما البعثات البريطانية والامريكية فلم يقم لدينا الدليل على انها كانت مدفوعة بعوامل سياسية على ان بريطانية العظمى أخذت تؤيد الدروز وتشجعهم بواسطة ممثليها القنصليين على الاعتقاد بأنها تتولى حمايتهم سياسياً وذلك في سبيل حفظ التوازن بينهم وبين النصارى الخاضعين لنفوذ فرنسة وروسية . ولم يدخل الامريكان قط ميدان السياسة بل حصروا نشاطهم في حقلي التعليم والتبشير ولكن نفوذهم في هاتين الناحيتين أدى إلى خلق طائفة جديدة وهي الكنيسة السورية البرسبيتيريه التي ان ضمت بعض العناصر الممتازة بتنورها في البلاد فقد أضافت مصدراً جديداً من مصادر التنافر فزادت بذلك الخلافات القائمة . وقد ساهمت المدارس الالمانية والايطالية في تنمية هذا التباين ولكن جهودها كانت محدودة بالنسبة إلى غيرها .

يتضح لنا مما تقدم ان انتشار التعليم الغربي لم يكن نعمة خالصة فقد اوقع الضرر بالبلاد من نواح متعددة وان رفع مستواها الثقافي إلى درجة عالية نسبياً بحيث أصبحت بلاد الشام أكثر البلاد العربية تقدماً . اما اضراره فهي ناشئة عن سعيه إلى ابراز الخلافات الطائفية وتقويتها في بلاد تشكو وجود

هذه الخلافات لأنها تشكل أكبر عقبة تعترض طريق النهضة القومية . هذا من جهة ومن جهة ثانية فلم يكن التعليم الغربي واسطة للتثقف فحسب بل كان كذلك اداة للتسلط السياسي وكان من أعظم مساوئه التي يلام عليها لوماً شديداً انه سهل لرجال الدين التمتع بالنفوذ السياسي وكان في بعض الاحيان يتقصد حضهم على ذلك . فنحن نرى اذن كيف كان التعليم الغربي من هاتين الناحيتين — أي اثارة الخلافات الطائفية ورفيق السوء الذي يصاحبها : اثارة الاطماع السياسية في نفوس رجال الدين — يعمل على القضاء على جهود المصلحين العرب من أبناء جيل البستاني الذين كانوا أول المناهضين لهذين العاملين اللذين كانا يوجهان الضربات إلى صميم حركة العرب القومية .

— ٨ —

كان من أهم النتائج البعيدة لانتشار التعليم الغربي في بلاد الشام انه ساعد على انتقال قيادة حركة العرب القومية من النصارى إلى المسلمين وكان من أكبر العوامل التي سببت ذلك الانتقال الهجوم غير المباشر الذي شنته المؤسسات المدرسية الأجنبية على مركز اللغة العربية كأداة للثقافة القومية .

أدى نشاط المدارس والكليات الاجنبية إلى نتيجة طبيعية وهي ان تلامذتها أتقنوا اللغات الأجنبية التي كانت سائدة في كل منها ومما يلفت النظر في هذا الشأن ان اتقان اللغات الاجنبية تم بمرور الزمان على حساب اللغة العربية ويعود ذلك إلى سببين مختلفين : الأول ان بعض المؤسسات التي كانت تسير عمداً نحو هدف سياسي تقصدت اعطاء لغتها الاصلية المقام الأول ، والثاني ان انتشار التعليم الذي كان سريعاً جداً قد ولد احتياجاً سريعاً أيضاً إلى الكتب العلمية وهي تحوي مصطلحات غريبة لم يكن للغة العربية قدرة على استيعابها الامر الذي جعل تعريب الكتب المدرسية مهمة شاقة جداً . ان اللغة العربية

لغة غنية وذات قابلية كبيرة لاشتقاق الكلمات اللازمة من أصول قديمة ولكن ليس في مقدورها أن تنهض بأعباء التبعة التي ألقيت عليها فجأة فتوجد المفردات المقابلة للكلمات والجمل الجديدة دون أن يكون هناك عمل منظم ومستمر لتحقيق هذه الغاية يقوم عليه العلماء واللغويون . ولم يقم أحد ، أو يحاول جدياً ، بهذا العمل الذي كانت الحاجة إليه ماسة مما حمل رجال التعليم من الأجانب على اهمال اللغة العربية والاعتماد على اللغات الاوربية . وقد فعل ذلك الامريكان أنفسهم بعد ما كانوا حتى ذلك الحين يقودون حركة احياء اللغة العربية واحياء مصادرها ، ففي عام ١٨٨٠ على وجه التقريب اختاروا أسهل الطرق فأخذوا يلقون الدروس في الكلية السورية البروتستانتية باللغة الانكليزية وهكذا نشأ مع مرور الزمان جيل يجد سهولة في الافصاح عن أفكاره باللغات الفرنسية والانكليزية والروسية أكثر من اللغة العربية .

كان لهذه الظاهرة أثر بليغ في مستقبل الحركة القومية وكان هذا الأثر من بعض نواحيه قاطعاً ، فان الكثرة الساحقة من طلبة المدارس الأجنبية كانت تتألف من النصارى لأن المسلمين كانوا يخشون اخراج أبنائهم عن دينهم ويفضلون ارسالهم إلى المدارس الاميرية أو الأهلية لأنها اسلامية محافظة وان كانت سوية التعليم فيها أضعف بكثير من المدارس الأجنبية ، وهذا من الناحية العلمية المجردة ، على ان القالب الغربي الذي صب فيه التعليم الاجنبي قد أضعف الأثر الروحي للثقافة العربية في عقول الطلاب وأرضعهم من ثدي غريب غير الثدي الذي غذى الحركة العربية في طفولتها . أما المسلمون فانهم لبعدهم عن المدارس الأجنبية احتفظوا بالصلة التي تربطهم بأسلوب حياتهم التقليدية وبقيت أذهانهم مشربة بروح البعث العربي تشرباً شديداً حتى عندما كانوا مرغمين على اللجوء إلى المعاهد التركية لتلقي علومهم العالية . قد يكون

التعليم الذي تلقوه ضيق الافق ولكنهم تلقوه باللغة العربية فكانت عناصره مألوفة لديهم وكان متناسباً مع الحركة القومية وهذه ميزة كبرى (١) .

وكانت نتيجة ذلك كله ان الأفكار التي بثها النصارى في الأصل أخذت في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحاضر تجد لها عند المسلمين تربة خصبة ، ولم يكن هذا التطور ملموساً في حينه لأن الحركة كانت تجتاز دور ركود ظاهري ولكنه كان مع ذلك تطوراً حقيقياً وحاسماً وقد بانت آثاره بسرعة عندما قضي على استبداد عبد الحميد فظهرت زعامة الحركة العربية إلى الوجود وهي بالدرجة الأولى زعامة اسلامية .

— ٩ —

ظهرت في الميدان شخصية جذابة عندما شارف القرن الماضي على الانتهاء وهي شخصية الكواكبي الذي ساهم في سير الحركة مساهمة قيمة بمؤلفين لامعين تشع من سطورهما آثار فكر مبدع وفطنة مرحة ، وساهم كذلك بأحاديث كثيرة تفيض حيوية وملاحة .

كان عبد الرحمن الكواكبي عربياً مسلماً من اسرة سورية معروفة وقد ولد عام ١٨٤٩ في حلب حيث تلقى العلم في أكبر كلية اسلامية وهي ان كانت تسير على اسس غير علمية فقد كانت محافظة على القيم الانسانية (٢)

---

(١) لا يجوز أن نستنتج من هذا القول ان جميع النصارى كانوا يتلقون العلم في مدارس التبشير الأجنبية وان أحداً من المسلمين لم يتلق علمه فيها ، أو انه لم يكن في البلاد مدارس مسيحية عربية ، فان ما ذكرناه أعلاه انما هو صحيح بوجه عام . هذا مع الاعتراف بوجود حالات شذت عن هذه القاعدة العامة وان تلك الحالات كانت أحياناً على جانب كبير من الاهمية .

(٢) humanistic

العميقة السائدة في ذلك الزمان . وكان في بدء حياته العامة صحافياً وقانونياً ثم انتقل إلى الوظائف الحكومية حيث اكسبه تهجمه العلني على الاستبداد غضب رؤسائه ثم السجن فلما أطلق سراحه عام ١٨٩٨ غادر الشام ليتمتع بجو أوسع من الحرية في مصر . وبعد سنتين قام برحلة لدراسة الحياة بين سكان بعض المناطق العربية البعيدة فزار بلاد الصومال وزنزبار وتغلغل في داخل اليمن وبعد اقامة طويلة في مكة عاد إلى القاهرة حيث توفي فجأة عام ١٩٠٣ وهو في الرابعة والخمسين من عمره .

لم يكتب عن الكواكبي شيء يذكر ولكن بعض معاصريه الذين كانوا يعرفونه معرفة جيدة مازالوا لحسن الحظ في قيد الحياة ويخيل لنا ان الانطباع الذي تركه في نفوسهم ينطبق على صورة شخصيته المنعكسة في كتاباته . والظاهر انه لم يكن بين هؤلاء المعاصرين من يعرفه معرفة صحيحية الا ان من كانوا يعرفونه أكثر من غيرهم وصفوه بأنه رجل ذو احساس عميق وقلب رؤوف حقاً يستمد منه الوحي الأول في جميع حركاته وسكناته وان أفكاره كانت هادئة وواضحة برغم النار المتأججة في نفسه . ومما لاشك فيه انه كان يؤمن إيماناً عميقاً بمستقبل الاسلام والامة العربية ويكره كرهاً عميقاً كذلك أي نوع من أنواع التعصب والظلم ولا سيما ظلم الفقراء . ومما وصفوه به انه كان محدثاً رائعاً يسحر سامعيه بآرائه وما تنطوي عليه من ابداع وجرأة كما يأخذهم بالفكاهة التي تتخلل تلك الأحاديث في جلسات يومية في مقهى (سبلنديدبار) بالقاهرة . وكانت حلقة صحابه كبيرة ومنوعة تضم جماعات من النصارى واليهود بالاضافة إلى المسلمين لأنه كان يطبق مايدعو إليه كثيراً وهو ان الوطنية فوق الفوارق الدينية . ومع ذلك فقد كان الفقراء هم أصدقاءه الحقيقيين . ولعلنا لانعثر على ناحية من سيرته تعطينا

صورة صادقة عن طبيعة نفسه مثل المكتب الذي أنشأه من حسابه الخاص في حلب ليقدم للفقراء من جميع الاديان الاستشارات الحقوقية والمساعدات التي قد يطلبونها فلقبه الناس في حلب بأبي الضعفاء وهو لقب فاز به بفضل أعوام طويلة قضاها في محاربة الظلم بجهد لايكل وهذه لعمر الحق أنبل غاية يسعى إليها إنسان .

حوى كتابه الأول (ام القرى) مجموعة من الآراء التي تبحث في مصير الاسلام وفيه يتخيل ان اثنين وعشرين شخصاً يمثلون العلماء والفقهاء في اثنين وعشرين قطراً من أقطار الاسلام اجتمعوا في مكة لأداء فريضة الحج وبعد تبادل الآراء في أكثر من اثنتي عشرة جلسة رسمية اتفقوا على تشكيل جمعية غايتها بعث الاسلام . ويتألف القسم الأكبر من الكتاب من جزء يمكن اعتباره ضبطاً حرفياً للجلسات الخيالية ويعقب ذلك ثبت بقوانين الجمعية الجديدة وينحرف في ختامه عن الموضوع الاصلي ليبحث موضوع الخلافة . فهو مؤلف قيم وعلى جانب كبير من سرعة الخاطر والملاحة كما انه ، بالقالب الذي لبسه ، كان أداة صالحة جداً لعرض أفكار الكواكبي الجريئة . أما كتابه الثاني (طبائع الاستبداد) فهو يضم مقالاته عن الاستبداد التي سبق له نشرها في الصحف المصرية مع بعض الاضافات ويعكس هذا الكتاب أيضاً تأملاته وعمق تفكيره كما يتدفق في شرح فلسفته بهدوء وسلاسة ، أما كرهه الواضح للاستبداد فهو عامل منشط لهذا الشرح ولا يعكره في قليل أو كثير .

صدر الكتابان في القاهرة في حياة المؤلف مع اغفال اسمه فكان انتشارهما واسعاً والاهتمام بهما كبيراً وقد هربت بعض النسخ إلى بلاد الشام حيث جرى توزيعها بالسر . فاذا ألقينا على الكتابين معاً نظرة اجمالية وجدنا

انها يحويان تحليلاً عميقاً ورائعاً لحالة التداعي التي بلغها العالم الاسلامي بصورة عامة واجزاؤه العربية بصورة خاصة وفيه كذلك تحليل لعلل هذا التداعي وعلاجها المحتمل مع الدعوة بحرارة إلى وجوب الأخذ بالدواء الناجع. وفي نظره ان هناك أمرين لابد من تحقيقها وهما أسياسيان وعلى جانب كبير من الاهمية: الأول وجوب القيام بعمل جدي ومنظم لمكافحة جاهلية علماء الدين وجهل الجماهير، والثاني أن يستعيد العرب مركزهم الطبيعي في تسيير دفة الاسلام. وهو يرى ان جمعية كالتي تخيلها في كتابه (ام القرى) ذات فروع في جميع أنحاء العالم الاسلامي تصلح لتحقيق الامر الأول وأما الأمر الثاني فقد دعا إلى تحقيقه بفصاحة وحرارة في بحث (الخلافة) وفي كتابه عن الاستبداد. لقد ساهم هذان المؤلفان بالحركة العربية فكان لهما مكانة خاصة احتفظا بها بفضل ما امتازا به من ابداع وافق واسع وجرأة.

أما عنصر الابداع في الدعوة التي حركها الكواكبي فهو تفريقه مابين الحركة العربية والحركة العامة التي تستهدف الوحدة الاسلامية والبعث الاسلامي والتي تولى جمال الدين الأفغاني اثارتها ثم سخرها عبد الحميد لأغراضه الخاصة. ومما لاشك فيه ان الكواكبي تأثر بسلفه فهناك نقاط توافق بينهما في الشكل وفي الاساس تدل على وجود رابطة وثيقة بين الفكرين. ولكن بينما كان جمال الدين يعتبر عالم الاسلام جميعه ميداناً واحداً يجب توحيده تحت حكم خليفة واحد ولا يهتم بجنس ذلك الخليفة سواء أكان تركياً أم أفغانياً أم مصرياً مادام قوياً وسيداً في داره، كان الكواكبي يفرق تفريقاً واضحاً مابين العرب والاجناس الاسلامية الأخرى. ويعود منشأ هذا التفريق إلى ما شاهده في التاريخ من دروس وعبر أي الدور الذي لعبه العرب في قيام الاسلام وانتشاره، والصلة الوثيقة بين عبقرية العرب وروح

الاسلام ، والمركز الخاص الذي يحق للعرب احتلاله في تسيير دفة الاسلام بفضل لغتهم وأصلهم . وعلى هذا فان الكواكبي ، في الوقت الذي أيد فكرة الوحدة الاسلامية تأييداً تاماً ، راح يدعو إلى الغاء حق السلطان في الخلافة وإلى المناداة بتنصيب خليفة في مكة ينتمي إلى قريش [١] .

كان من الطبيعي أن تساعد المبادئ التي بشر بها الكواكبي على انتقال زعامة الحركة العربية بالتدريج إلى المسلمين ، وهذا بالرغم من ان حملته كانت بعيدة كل البعد عن التحيز إلى طائفة دون اخرى بل كانت على العكس تحث الناس بحرارة على نبذ الخلافات الطائفية حتى ان بعض المقاطع من كتاباته دعت بصراحة إلى المساواة بين الاديان في سبيل صيانة التضامن القومي ولم يكن أدنى شك في حرارة هذه الدعوة وصدقها . ولما كانت حملته تتضمن في الوقت نفسه العمل على نهضة الاسلام بالاضافة إلى نهضة العرب فقد كان لها تأثير اعمق في نفوس المسلمين لأنها كانت تحركهم بدافع مزدوج .

— ١٠ —

ان الحملة السياسية الوحيدة التي تمت في عهد عبد الحميد بالاضافة إلى حملة الكواكبي هي التي قام بها نجيب عزوري وهو عربي نصراني ظهر نشاطه في الاعوام الأخيرة للعهد الحميدي . بدأ عزوري حملته عام ١٩٠٤ في باريس حيث شكل جمعية عرفت باسم (رابطة الوطن العربي) [٢] غايتها التي أعلنتها تحرير بلاد الشام والعراق من سيطرة الترك وقد وجهت عدداً من النداءات

---

(١) ان من الشروط التقليدية الواجب توفرها في الخليفة أن يكون في استطاعته اثبات نسبته إلى قبيلة قريش العربية وهي القبيلة التي ينتسب إليها النبي . ولكن هذا الشرط لم يتحقق إلا قليلاً .

(٢) Ligue de la Patrie Arabe

الملتهبة تحض فيها العرب على القيام بالثورة . وفي السنة التالية أصدر كتاباً باللغة الفرنسية بعنوان (يقظة الامة العربية) (١) ثم بعد مضي سنتين فاز بمؤازرة بعض الكتاب الفرنسيين المعروفين فأخذ يصدر بالفرنسية مجلة شهرية اسمها (الاستقلال العربي) (٢) وقد ظهر أول عدد منها في ابريل عام ١٩٠٧ وكانت غايتها نشر المعلومات عن بلاد العرب واثارة الاهتمام بقضية تحريرها ، وتوقف صدورها عندما نشر الدستور العثماني في يولية عام ١٩٠٨ (٣) .

لم تترك حملة عزوري أثراً يذكر في الحركة العربية نفسها وان أثارت بعض الاهتمام في اوربة في ذلك الحين . فهي مهما حوت من قيمة في ذاتها إلا انها كانت مشلولة بطبيعتها لانها صادرة عن عاصمة أجنبية وبلغة أجنبية فلم تتصل قط بصميم الحركة ، وكل اهتمامنا بها هنا ناشئ عن انها مثال للمدى الذي بلغه بعض دعاة الثورة العربية في انحرافهم عن منابع الهامها كنتيجة للتعليم الأجنبي .

— ١١ —

كان عهد عبد الحميد بمجموعه عهد نمو بطيء لايكاد يرى في طفولة الوعي القومي العربي ، ولم يرفع الطفل رأسه الا مرتين : الأولى في بدء ذلك العهد بالحملة التي شنتها جمعية بيروت السرية ، والثانية في أواخره حين أحدث الكواكبي بعض الهيجان . وفي ماعدا هاتين التظاهرتين نجد الحركة

---

(١) Réveil de la Nation Arabe

(٢) Indépendance Arabe

(٣) تحتفظ دار الكتب الوطنية في باريس بمجموعة من مجلة (الاستقلال العربي) تتألف من خمسة عشر عدداً (من ابريل ١٩٠٧ إلى يونيو ١٩٠٨) .

مضطجعة وكأنها نائمة لاتستطيع النهوض بسبب ثقل وطأة استبداد عبد الحميد وآثار المخدر الذي تناولته من يده مدسوساً في قالب سياسته العربية .

في ذلك العهد انفصلت مصر عن الحركة العربية وأنشأت لنفسها سياسة قومية خاصة بها وقد بدأ هذا التحول في أوائل الثلث الاخير من القرن الماضي في عهد الخديوي اسماعيل الذي أثار السخط العام في نفس شعبه بنتيجة تبذيره والورطات المالية التي وقع فيها مع اوربة . كانت الحركة الفكرية في مصر حتى ذلك الحين سائرة يداً بيد مع اختها في الشام في مايتصل ببعث الثقافة العربية ونشوء الوعي القومي العربي فكان كل صوت يرتفع في الواحدة يجد له صدى سريعاً في الثانية وكانت كل من القاهرة وبيروت مركزاً لنشاط متواز وكان النفوذ الذي تتمتع به كل منهما مستقى من منبع ثقافي مشترك وذا تأثير مشترك كذلك في بلاد العربية الاخرى فلما احتلت بريطانية العظمى مصر عام ١٨٨٢ وجدت الوعي القومي مكوناً وقد تحول إلى حركة فكرية سياسية فنشأ تيار جديد من الافكار مصدره مصري خالص وغايته الأولى التي ليس فوقها غاية السعي لجلاء الجيش البريطاني المحتل .

بهذا الشكل نشأت القومية المصرية وتلك هي الوجهة التي سار فيها زعماؤها وهي وجهة منفصلة تماماً عن الحركة العربية العامة ، وقد أخذ هذا الاختلاف ينجلي مع مرور الايام . على ان الروابط الثقافية بين مصر والبلاد العربية الأخرى استمرت ولا سيما بعد أن ازدادت ثروة وادي النيل وساده الاطمئنان بفضل ارشاد بريطانية وحمايتها مما جعل مصر ملجأ لفئات متنوعة من طلاب العلم والكتاب والمفكرين السياسيين وكلهم من أبناء البلاد العربية الباقية تحت حكم السلطان . ومع ان أماني المصريين كانت كما هي اليوم متوافقة مع أماني العرب توافقاً كبيراً الا ان الانفصال في حقل العمل

القومي المحدود كان تاماً . وكانت حالة تونس مماثلة لحالة مصر من هذه الناحية بسبب خضوعها للحماية الفرنسية ولهذا وجدت الحركة القومية العربية نفسها منحصرة أكثر من أي وقت سابق في بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية .

ان وقوع مصر خارج نطاق حكم عبد الحميد وبعيدة عن أذاه جعل القاهرة مركزاً من مراكز التآمر ضد استبداده وكانت باريس المركز الثاني وفي هاتين العاصمتين أخذت جماعات من اللاجئين السياسيين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم (تركية الفتاة) تعد المؤامرة وتتخاطب سراً مع الانصار في سالونيك لوضع حد لاستبداد السلطان فأثمرت المؤامرة في ٢٤ يوليه عام ١٩٠٨ .

الباب السادس

العربية الفتاة وتركية الفتاة : ١٩٠٨ – ١٩١٤

– ١ –

منح عبد الحميد شعبه دستوراً في ٢٤ يوليه ١٩٠٨ بعد ما استولى عليه الذعر بنتيجة قيام الثورة العسكرية ، وفي اليوم التالي ألغى الرقابة وأفرج عن المعتقلين السياسيين وسرح جيش الجواسيس التابع له والبالغ مجموعه ثلاثين ألفاً وهكذا دخلت الحرية ، أو صورة من الورق عنها ، الميدان وكأنها ملكة من ملكات أعياد المساخر التي تظهر فجأة أمام الناس وتنحني لهم ثم تشرع بتوزيع الهدايا عليهم بسخاء .

كانت الثورة من عمل جمعية (الاتحاد والترقي) وهي جمعية سرية غايتها القضاء على استبداد السلطان وقد شكلها رجال (تركية الفتاة) في سالونيك . لسنا نرى ، ونحن نسعى إلى انجاز مهمتنا في هذا الكتاب ، ضرورة لترسم خطى جمعية (تركية الفتاة) والعودة إلى اصولها إذ لم يكن بين أمانيها وأماني الحركة العربية أية صلة اللهم إلا في الاشتراك بكره الاستبداد الحميدي . ومع ان جماعة من العرب وأكثرهم من ضباط الجيش انتسبوا للجمعية وتعاونوا مع زعمائها تعاوناً وثيقاً الا انهم فعلوا ذلك بصفتهم رعايا عثمانيين لا بصفتهم عرباً قوميين . كانت جمعية (الاتحاد والترقي) خليطاً من الأجناس والأديان يسوده الترك ويأتي بعدهم فيه اليهود مباشرة وقد قطروا وراءهم عثمانيين آخرين من أبناء الملل الأخرى بينما وقف اللاجئون

السياسيون والمنفيون إلى الخارج في الصف الخلفي . كانت الجمعية تسير بقوة خليط من الدوافع يماثل في تنوعه الخليط الذي تتألف منه ولكنها مع ذلك كانت متحدة في السعي لتحقيق هدفها الأول وهو القضاء على حكم عبد الحميد الفردي والتوصل إلى إقامة حكم صالح للامبراطورية على أساس دمج الاجناس المختلفة في بوتقة واحدة على نحو ما أراده دستور عام ١٨٧٦ . كان الرأي الأول في جلسات الجمعية للأعضاء العسكريين وهذا أمر طبيعي في جيل نشأ على تمجيد التعليم العسكري تمجيداً كبيراً ، ولعل لجوءها في إيقاع ضربتها المفاجئة إلى ثورة يقوم بها الجيش كان أمراً لابد منه فهي الثورة التي كان عبد الحميد يخشاها أكثر من سواها .

كان دستور عام ١٩٠٨ هو نفسه مشروع مدحة الذي ظهر للوجود عام ١٨٧٦ فلما اعيد إلى الحياة بجرة من القلم برزت إلى العيان نواقصه القديمة وعدم ملاءمته للاحوال بسبب قدم عهده ونمو الاحساس القومي في البلاد . على ان الناس استقبلوا اعادة الدستور بابتهاج عظيم ولعل ابتهاج العرب به فاق سواهم لأن زعماءهم الوطنيين أخذوا بفورة التحرر الأولى فظنوها الحرية الحقة . وشملت الافراح جميع أجزاء الامبراطورية حيث تآخى الترك مع العرب والمسلمون مع النصارى وكلهم يعتقد اعتقاداً صادقاً بأن الدستور سيسد حاجة الجميع ، ولم يلحظ أحد على ما يظهر انه لايتفق بتاتاً مع أهدافهم الفكرية وان محاولته دمج العناصر المختلفة في ديمقراطية عثمانية واحدة تسود فيها اللغة التركية تنطوي بحد ذاتها على نقض عقيدة الوحدة الفكرية . ولكن سكر الجميع لمجرد ظهور الحرية على المسرح وبلغ بهم السكر درجة لم يحتفظ معها إلا القليلون منهم بالقدرة على التفكير الصافي وكان لابد من مرور أشهر عديدة قبل أن تجد شكوك هؤلاء القليلين آذاناً صاغية .

أسست أول جمعية عربية وهي جمعية (الإخاء العربي العثماني) في هذه الفترة من الصداقة التركية العربية ففي اليوم الثاني من شهر سبتمبر تم افتتاحها رسمياً في اجتماع كبير عقدته الجالية العربية في القسطنطينية وحضره أعضاء (جمعية الاتحاد والترقي) وذلك وسط مظاهر الابتهاج العظيم. أما أهدافها الرئيسية فهي حماية الدستور وتوحيد جميع الاجناس في ولائها للسلطان وتحسين حالة الأجزاء العربية على أساس من المساواة الصحيحة بين العرب والملل الاخرى في الامبراطورية ونشر التعليم باللغة العربية وتشجيع المحافظة على العادات العربية . وكان باب الانتساب مفتوحاً أمام العرب من جميع الاديان كما تقرر انشاء فروع للجمعية في جميع المقاطعات العربية وقد شرعت فعلاً باصدار جريدة غايتها بث آراء الجمعية وهي ، كما شاهدنا ، من انتاج تفكير مشوش .

اتخذت في ذلك الوقت خطوتان تتطلبان منا اهتماماً خاصاً : الأولى افتتاح سكة حديد الحجاز رسمياً في شهر سبتمبر من تلك السنة (١٩٠٨) وكان الخط قد بلغ المدينة ، والثانية تعيين الشريف حسين بن علي أميراً على مكة (١) .

كان الحسين في ذلك الحين مازال يحيا في القسطنطينية تلك الحياة الهادئة التي كان يرغم عليها ضيوف السلطان وقد انقضى على اعتقاله بهذا الشكل

(١) كان كل من ينتسب إلى النبي يحمل لقب (شريف) دون أن يصاحب التسمية أية وظيفة . أما المنصب الذي عين إليه الحسين والذي يسمى بمقتضاه (شريف مكة وأميرها) فكان يصاحبه عمل معين وهام وكان من أكبر صلاحياته سدانة الاماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز والاشراف على الحج والفرائض الدينية الاخرى .

ست عشرة سنة تقريباً فكبح هذا الاعتقال جماح نفسه ولكنه لم يقتل حيويتها . كان بطبعه حاذقاً وكثير الكلام الا انه بعد الذي تعرض إليه بنتيجة وثوقه بأناس خانوا الامانة أخذ يحتاط للأمر وتعلم التحفظ والحذر . كان السلطان قد عينه عضواً في مجلس شورى الدولة فظهر في حياته العامة بشخصية بارزة ومحترمة وهذا أمر طبيعي في شخص من سلالة النبي يعيش في عاصمة الاسلام . وقد فاز بفضل تقاه وتهذيبه العالي وحياته النقية ، مضافة إلى نسبه ، باجلال عدد كبير من المعجبين به . فلما استولت جمعية الاتحاد والترقي على الحكم اختارته ليكون أميراً على مكة في مكان أميرها القائم وذلك لا لمزاياه المذكورة فحسب بل بصورة خاصة لأنها كانت تعلم بكره السلطان له . وقد عارض عبد الحميد هذا الاختيار بدهائه وبعد نظره محتجاً بأن الحسين لن يكون في هذا المنصب الهام آلة صماء بل سيكون قوة لايستهان بها ولعله يصبح كذلك خطراً مداهماً . إلا ان تحذيره لم يجد أذناً صاغية فأبحر الحسين إلى الحجاز وكان في ذلك الوقت في العام الثالث والخمسين من عمره .

ثم جرت الانتخابات للبرلمان الأول في ظل الدستور الجديد فكانت الصدمة الأولى التي هزت التحالف بين الترك والعرب ، وكان في أساسه تحالفاً غير طبيعي . كانت جمعية الاتحاد والترقي مسيطرة على الآلة الانتخابية وقد وجهتها بشكل يضمن انتخاب الاكثرية الساحقة من مرشحيها ومما زاد في غرابة الامر ان المناطق الانتخابية وزعت بطريقة ترجح كفة العنصر التركي على حساب الأجناس الاخرى . ولم يكن الترك أكبر عنصر في الامبراطورية فقد كان العرب متفوقين عليهم بالعدد وذلك بنسبة ثلاثة من

العرب لكل اثنين من الترك تقريباً (١) . ومع ذلك فان المجلس الذي التأم في شهر ديسمبر ضم ٢٤٥ عضواً منتخباً ، ١٥٠ منهم من الاتراك و ٦٠ من العرب ، أي ان كفة الترك كانت راجحة بنسبة خمسة إلى اثنين . أما في مجلس الاعيان الذي يضم أربعين عضواً يعينهم السلطان فكان عدد العرب ثلاثة فقط . وكان هذا التدبير الاول في سلسلة من التدابير التي شرع الترك باتخاذها فأقاموا بواسطتها البرهان على وجود فارق عظيم مابرح يتوسع بين ما ادعوه من اقامة المساواة بين الأجناس ، وبين ماطبقوه بالفعل . وقد فسح هذا التصرف المجال أمام بعض رجال العرب المرتابين بالامر فأعربوا عن شكوكهم التي لقيت في هذه المرة سمعاً مرهفاً .

قامت في شهر ابريل من السنة التالية ثورة ثانية وكانت مفاجئة مثل التي سبقتها في شهر يولية الفائت ولكنها كانت في هذه المرة محاولة من عبد الحميد للتخلص من (جمعية الاتحاد والترقي) . ففي اليوم الثالث عشر من شهر ابريل أعلنت حامية القسطنطينية العصيان بتحريض من عمال السلطان ثم هاجمت دار البرلمان وقتلت ، بالاضافة إلى عدد من ضباطها ، وزير العدل ونائباً عربياً (٢) . فلما بلغت أخبار هذه الفتنة سالونيك عزم محمود شوكة باشا على السير على العاصمة ، وهو عربي ارتقى في الجيش العثماني حتى بلغ رتبة

(١) ليس لدينا احصاء مضبوط فاذا أجرينا حساباً تقريبياً ألفينا ان عدد السكان في المملكة العثمانية (باستثناء مصر) كان يبلغ الاثنين والعشرين مليوناً في عام ١٩٠٨ بينهم سبعة ملايين ونصف من الأتراك وعشرة ملايين ونصف من العرب بينما كانت الملايين الأربعة الباقية مؤلفة من اليونان والالبان والارمن والاكراد وغيرهم من العناصر الصغيرة .

(٢) وهو الامير محمد ارسلان وكان درزياً ومبعوثاً عن الشام .

عالية وكان في ذلك الحين قائداً للجيش المرابط في سالونيك ، فدخل القسطنطينية في اليوم الرابع والعشرين بعد قتال قصير وعنيف وأعاد لجمعية (الاتحاد والترقي) سلطتها . وبعد ثلاثة أيام أعلن البرلمان في جلسة مشتركة لمجلسي الاعيان والمبعوثين خلع عبد الحميد وتنصيب أخيه الأمير رشاد .

اتخذ السلطان الجديد اسم محمد الخامس وكان هرماً في الرابعة والستين من العمر ، ومما لاشك فيه انه لم يتمنطق بسيف عثمان ملك قبله يحاكيه في رقته وحبه للتواري وضعفه ، فلم يحركه طموح أسلافه ولا استولت عليه رذائلهم فكان على استعداد للسماح للآخرين بأن يسيروه ويحكموا باسمه . وهكذا وجدت (جمعية الاتحاد والترقي) نفسها بارتقائه العرش صاحبة السلطة المطلقة فاستطاعت خلال السنوات الخمس التي سبقت الحرب العالمية أن تستمر في الحكم ماعدا فترات قليلة ، وأن تقيمه على أساس من الاستبداد لايقل عن استبداد عبد الحميد ولا يختلف عنه إلا بالنوع . أما في نظر العرب فكان حكمها حكماً بغيضاً أكثر من الحكم الحميدي بكثير . كان من أول أعمال الاتحاديين بعد أن قضوا على فتنة ابريل الغاء الجمعيات التي أسستها العناصر غير التركية ومن بينها جمعية (الاخاء العربي) وذلك قبل أن تنقضي ثمانية أشهر على افتتاحها ، ذلك الافتتاح الذي تأيد بحلف الايمان المغلظة على الاخلاص الابدي في احتفال حماسي جمع بين العرب والترك وقد أخذوا بالوهج اللامع الذي شع من صداقتهم وهي في أوجها .

— ٢ —

لابد لنا من أن ننصف رجال تركية الفتاة فنقول ان التراث الذي خلفه لهم العهد الحميدي لم يكن تراثاً لعيناً بذاته فحسب بل انهم ورثوه في وقت غير ملائم البتة . فقد كانت القوى الانفصالية التي تعمل في الولايات

البلقانية متغلبة ، وانتصبت أطماع دولتين من دول أوربة المظمة مهددة وراء ستار دبلوماسي شفاف ، كما وقعت سلسلة من الكوارث قبل أن يتاح لرجال تركية الفتاة الفرصة الكافية لاثبات مقدرتهم : فقد استلحقت النمسة والمجر البوسنة والهرتزك في اكتوبر عام ١٩٠٨ وفي الوقت ذاته تم انفصال بلغارية ، ووقع العدوان الايطالي في ليبية في خريف عام ١٩١١ ، وقامت حرب البلقان في عام ١٩١٢ . ففي تلك السنوات القليلة فقدت الامبراطورية العثمانية جميع ولاياتها الاوربية ماعدا تراقية الشرقية كما فقدت ذلك الجزء من ليبية الذي يضم طرابلس الغرب وبني غازي وفقدت كذلك جزيرة كريت وجزر الدوديكان . وبالاضافة إلى الخسائر في الأراضي فقد اثقلت النفقات العسكرية كاهل الخزانة التركية فناءت بها موارد الموازنة .

على ان رجال تركية الفتاة كانوا هم أنفسهم مسئولين عن فشلهم من جهات أخرى . لاشك انهم حين قاموا بثورتهم كانوا مدفوعين بعوامل الوطنية والحرية وكانوا مخلصين في ما ذهبوا إليه من المناداة بالمساواة بين الجميع أمام الدستور ولكن استعدادهم كان أقل بكثير من المستوى الذي تتطلبه المهمة التي أخذوا على عاتقهم النهوض بها . وكان أول خطأ ارتكبوه — وقد رأينا كيف ارتكبه غيرهم أيضاً — انهم لم يدركوا النقص الخطير في الاسلوب الذي سار عليه دستور مدحة باشا لمعالجة المشكلة الجنسية . وبعد ذلك ، حين أخذوا يفهمون واقع الامر ونتائجه ، ارتكبوا خطأ ثانياً ولكنه في هذه المرة خطأ أدى بالنهاية إلى زوالهم . فقد طرحوا مبدأ المساواة جانباً وعمدوا إلى تسخير قوتهم ، واسلوبهم الغالب في ذلك ينطوي على جانب كبير من الحماقة والأذى ، لترويج المصلحة التركية على حساب اخوانهم العثمانيين فحكموا الامبراطورية على أساس السيادة العنصرية للجنس التركي .

ان الرغبة في تمجيد العنصر التركي ورفعه فوق العناصر الاخرى هي رغبة طبيعية في ذاتها إذا ذكرنا ان الترك هم الذين أسسوا هذه الامبراطورية غير ان هذه الرغبة نشأت عن دوافع اخرى غير الاثرة فان حركة قومية وتركية محضة أخذت تثبت أقدامها وهي الحركة التي ترمي في الأساس إلى تأكيد حديث لحقيقة قديمة وهي تحدر الشعب التركي من أصل طوراني ، وقد تولدت عن ذلك عقيدة تقول بأن نهضة الملة التركية لاتتم إلا بإتحادها مع الشعوب ذات الاصل الطوراني مثلها وكانت أكثرية هذه الشعوب تحت الحكم الروسي . ومع ان جمعية الاتحاد والترقي لم تتبن عقيدة الوحدة الطورانية وكل ما تؤدي إليه من حركات لضم الاجزاء الطورانية إلا انها كانت متأثرة إلى حد كبير بأفكارها . وهنا أيضاً كان تفكير الاتحاديين مشوشاً فان فكرة الوحدة الطورانية كانت تتعارض كل المعارضة مع فكرة الوحدة العثمانية لأن الأولى كانت تسعى وراء غايتها السامية وهي تمجيد العنصر التركي وتأكيد القرابة القائمة مابين الترك في الامبراطورية العثمانية واخوانهم في الدم المقيمين في أواسط آسية ، بينما كانت غاية الفكرة الثانية توحيد العناصر المختلفة في المملكة وخلق أمة واحدة منها على أساس المساواة بين الجميع . ولم يفهم الاتحاديون ان سياسة واحدة تقوم على هاتين الفكرتين المتناقضتين لايمكن أن تكون صالحة ، وهم إذا فهموا ذلك فقد حاولوا التوفيق بينهما وهي محاولة عقيمة كانت نتيجتها الوحيدة انهم دبوا الذعر في نفوس الاجناس الاخرى ولا سيما العرب فباتوا يعتقدون ان الدعوة إلى الوحدة العثمانية التي طلب منهم أن يقبلوها ويخلصوا لها انما هي دعوة كاذبة وان التفسير الوحيد الذي يمكن أن تفسر به هو حملهم على نبذ أمانيهم الفكرية العربية والسكوت عن تحريكهم في سبيل تحقيق تلك الوحدة .

وارتكب الاتحاديون خطأ أكبر وهو سيرهم على سياسة مركزية استعاروها ، كما استعاروا الكثير غيرها من المبادئ التي يهتدون بها ، من عقائد الثورة الفرنسية . ولكنهم حين استعاروها لم يلتفتوا إلى وجود فارق أساسي بين فرنسة كما كانت عام ١٧٨٩ والمملكة العثمانية في عام ١٩٠٨ فلم يكن تمركز الادارة الجمهورية في باريس إلا استمراراً لتدرج تاريخي وهو تمركز منسجم مع القوى التي عملت خلال قرون عديدة على جعل باريس مركزاً ثقافياً واقتصادياً مما أدى إلى توحيد فرنسة سياسياً واداريا في ذلك المركز بفضل تلك العوامل . وكان الوضع على نقيض ذلك تماماً في المملكة العثمانية فان القوى التي ولدتها اليقظة القومية كانت تعمل باتجاه معاكس سائرة من المركز نحو الخارج لأن المنابع التي تسقي تلك القوى مازالت قائمة على فوارق اللغة والعادات والافكار . ومع ان القسطنطينية كانت بوتقة لصهر تلك الفوارق الا انها لم تكن في حال من الاحوال مركزاً لوحدة فكرية . وكان وجود الاجناس المختلفة التي تتألف منها المملكة يتطلب حكماً لامركزيا يمنح العرب وغيرهم من أبناء الولايات غير التركية مبلغاً وافراً من الحكم الذاتي والحرية لمتابعة نموهم السياسي والفكري كأعضاء مستقلين استقلالاً ذاتياً ضمن الامبراطورية . أما السياسة التي سار عليها الاتحاديون فكانت على عكس ذلك لأنهم أخذوا بالشكل المركزي للحكم كما وجدوه حين استولوا على السلطة وراحوا يشتدون في تقوية سيطرة الادارة المركزية بدلاً من العمل على تخفيف وطأتها . وكان لابد لسعيهم إلى تقوية وحدة المملكة على هذا الشكل من أن يصيبه الفشل فان الاعمال الخرقاء والمثيرة التي قاموا بها تنفيذاً لسياستهم جعلت هذا الفشل واضحاً كما زادت في شدة الالم الذي ولدته .

- ٣ -

ان تعطيل الاتحاديين لجمعية (الاخاء العربي) دفع بالزعماء العرب إلى العمل السري فتشكل عدد من الجمعيات السرية دون أن يتوصل الترك إلى معرفة بعضها البتة . ومن ذلك الحين أصبح نشر الأفكار القومية العربية خاضعاً لأسلوبين : الأول علني بواسطة النوادي والجمعيات المعترف بها ، والثاني سري وهو الذي كانت تقوم به منظمات سرية ترتب المؤامرات . وتشكل عدد من هذه الجمعيات وأخذ يعمل بنشاط بين عام ١٩٠٩ و ١٩١٤ ولكن أربع جمعيات منها تستحق اهتماماً خاصاً : اثنتان علنيتان واثنتان سريتان (١) . كانت أعمال كل جماعة متممة لأعمال رفيقاتها إلى حد بعيد ولعلنا نوفق إلى اظهار هذا الارتباط فيما بينها بوضوح إذا نحن انحرفنا عن ترتيبها الزمني وشرعنا بالكلام عن الجمعيتين المعترف بهما أولا ثم انتقلنا إلى أعمال الجمعيتين السريتين .

كان (المنتدى الأدبي) أقدم الجمعيتين وقد قام بتأسيسه في القسطنطينية في صيف عام ١٩٠٩ جماعة من الموظفين والمبعوثين والكتاب والطلاب (٢)

---

(١) لقد استطعنا أن نكوّن سجلاً صحيحاً يكاد يكون تاماً عن هذه الجمعيات كلها بنتيجة رجوعنا إلى المصادر المكتوبة والمنقولة على الأفواه وكانت الاخيرة في الغالب من فم المؤسسين أنفسهم . ولما كان اثبات هذا السجل بتمامه ووصف أعمال كل جمعية لما يستغرق وقتاً كبيراً ويؤدي إلى تطويل لا لزوم له فقد حصرنا حديثنا هنا في الجمعيات التي يشكل الدور الذي لعبته في تاريخ الحركة حلقة أساسية في نموها .

(٢) ومنهم الأشخاص الآتية أسماؤهم : عبد الكريم الخليل* (مسلم من لبنان) وصالح حيدر* (مسلم من بعلبك) ورفيق سلوم* (مسيحي من حمص) —

ليكون مركزاً يلتقي فيه العرب من زوار العاصمة والمقيمين فيها وقد استقر (المنتدى) في منزل يحوي مكتبة وداراً للضيافة وحقق الغاية التي انشيء من أجلها فأصبح مركزاً فعالاً ونافعاً . وقد سكت الاتحاديون عن وجوده وشملوه برعايتهم مدة من الزمن لأن أهدافه المعروفة لم تكن سياسية ولكنه في الواقع كان يتمتع بنفوذ سياسي كبير حتى اعترف في وقت من الاوقات بلجنته الادارية كوسيط بين العرب والاتحاديين في المفاوضات التي جرت لتسوية الخلافات بين الطرفين . وعلى كل حال كان (المنتدى) مصفاة للأفكار لامصنعاً لها وهذا هو عمله الحقيقي فانحصرت مساهمته بالحركة العربية في تنميته الدعوة لها وتوسيع مداها لا في خلق دافع جديد يحركها . كان عدد أعضائه كبيراً جداً حتى بلغ مجموعهم الآلاف وكان أكثرهم من التلامذة كما انه أنشأ فروعاً له في مدن مختلفة من الشام والعراق وكان من أكبر ميزاته انه اوجد مراكز يلتقي فيها العرب من كافة أنحاء المملكة وهم اذ شعروا انهم في بيوتهم تحدثوا بحرية في جو ترتاح إليه الأذهان وتجد فيه الأفكار واسطة للانتقال .

أما الجمعية العلنية الهامة الاخرى فقد أسست في القاهرة في أواخر عام ١٩١٢ واتخذت اسم (حزب اللامركزية الادارية العثماني) وكانت أهدافها ذات شقين : اقناع حكام تركية بضرورة ادارة المملكة على أساس لامركزي من جهة ومن جهة ثانية توجيه الرأي العام العربي نحو المطالبة باللامركزية . وكانت الكثرة من مؤسسيها مؤلفة من رجال ذوي خبرة ومكانة

— وجميل الحسيني (مسلم من القدس) ويوسف مخيبر (مسلم من بعلبك) وسيف الدين الخطيب* (مسلم من دمشق) .

* تدل النجمة على ان الاتراك شنقوا صاحب الاسم أثناء الحرب العالمية بتهمة القيام بأعمال قومية تعتبر خيانة للدولة .

وقد برزوا كثيراً في الحياة العامة (١) . وقد سنت الجمعية قوانين تجعلها صالحة لايجاد آلة حزبية كبيرة ، على ان الاشراف والتوجيه كانا منحصرين في لجنة قوية مؤلفة من عشرين عضواً من المقيمين في مصر ويشكل ستة منهم الهيئة التنفيذية . وقد اسست لها فروعاً في كل مدينة من مدن الشام كما أسست وكالات صغيرة في بعض الاماكن الاخرى وأقامت صلات وثيقة جداً بينها وبين الهيئات السياسية العربية في الشام والعراق ولا سيما (المنتدى الادبي) في القسطنطينية . لم يمض سنة على تأسيس (حزب اللامركزية) حتى أصبحت لجنته تنطق بلسان العرب وتعرب عن أمانيهم وقد امتازت بحسن تنظيمها وقوة نفوذها .

تعود قيمة هذه الجمعية في تاريخ الحركة العربية إلى انها أول تجربة تقوم بها الحركة في حقل المجهود المنظم فقد مضى ثلاث سنوات على المعركة بين الاتحاديين ، وسياستهم التوحيد في المركز ، والعرب الساعين إلى الحصول على حكم ذاتي ، وهي ما تزال متقطعة ومبعثرة شأن معارك العرب جميعها فأسست هذه الجمعية لكي تسعى إلى تنسيق الجهود وتوحيدها ولتكون أداة لضغط شديد مجتمع ومستمر .

---

(١) ومنهم الاشخاص الآتية أسماؤهم : رفيق العظم (مسلم من دمشق) ورشيد رضا (مسلم من طرابلس الشام) واسكندر عمون (مسيحي من لبنان) وفؤاد الخطيب (مسلم من لبنان) وسليم عبد الهادي* (مسلم من جنين) وحافظ السعيد (مسلم من يافا) ونايف تللو (مسلم من دمشق) وعلي النشاشيبي* (مسلم من القدس) .

* تدل النجمة على ان الاتراك شنقوا صاحب الاسم أثناء الحرب العالمية بتهمة القيام بأعمال قومية تعتبر خيانة للدولة .

تم تأسيس الجمعيتين السريتين خلال هذه البرهة ، فشكلت الواحدة واسمها (الجمعية القحطانية) في أواخر عام ١٩٠٩ بعد تأسيس (المنتدى الأدبي) بقليل وقد امتاز مؤسسوها بأقدامهم كما امتاز هدفها بأنه يرمي إلى تحقيق مشروع جديد وجريء وهو تحويل المملكة العثمانية إلى مملكة ذات تاج مزدوج ، فكان هذا الهدف محاولة جديدة لمعالجة المشكلة التي خلقتها سياسة الاتحاديين المركزية . ويتلخص المشروع في ان الاجزاء العربية تشكل مملكة واحدة ذات برلمان خاص بها وادارة محلية خاصة كذلك وأن تكون العربية لغة مؤسساتها وتكون هذه المملكة جزءاً من امبراطورية تركية وعربية تشبه في تكوينها امبراطورية النمسة والمجر ، وعلى هذا يضع السلطان العثماني في القسطنطينية على رأسه تاج المملكة العربية بالاضافة إلى تاجه التركي على غرار امبراطور آل هابسبورغ في فينة الذي وضع على رأسه التاج المجري . وبهذا التفريق تتوصل الامبراطورية إلى تكوين وحدة حقيقية توحد مصير الترك والعرب على أساس ثابت لأنه يستند إلى الواقع .

أمامنا إذن مشروع ملموس فكرته واضحة معينة وقد أوجدته جماعة من الرجال العمليين ذوي العزم الأكيد الذين أدركوا ان تحقيقه عن طريق الدعوة له علناً أمر مستحيل . كان زعيمهم عزيز علي المصري وهو ضابط في الجيش التركي وسنعود إلى حديثه فيما بعد ، وكان أعضاء (الجمعية القحطانية) ينتقون بدقة وحذر فلا يقبل الا من كانت وطنيته فوق كل شك ومن يستوثق من قدرته الأكيدة على كتم السر (١) .

(١) ومنهم الأشخاص الآتية أسماؤهم : سليم الجزائري* (ضابط في الجيش ومسلم من دمشق) والاميران أمين وعادل أرسلان (درزيان من لبنان) وخليل حمادة (مسلم من بيروت) وأمين كزما (مسيحي من حمص) —

وقد ضمت عدداً من الضباط العرب ذوي الرتب العالية في الجيش التركي واثنين من مؤسسي (المنتدى الأدبي) وكان لها كلمة سر واشارة للتعارف وانشيء لها فروع في خمسة مراكز بالاضافة إلى القسطنطينية . واستمدت الجمعية قوتها من قوة شخصية بعض أعضائها أما قيمتها في تاريخ الحركة فهي ناشئة عن كونها قامت بأول محاولة معروفة لكسب الضباط العرب في الجيش التركي والفوز بمؤازرتهم الفعالة للحركة القومية .

كانت الجمعية كبيرة النشاط في السنة الأولى من حياتها إلى أن وجد المؤسسون بعض الدلائل التي جعلتهم يخشون الخيانة . وبالرغم من ان الاشخاص كانوا لايقبلون فيها إلا بعد اجراء تحقيق دقيق فقد تبين ان أحد الأعضاء — من غير المذكورين في الهامش — قد أفشى السر فأثار ذلك قلق الباقين . لم يعمد الأعضاء إلى حل جمعيتهم فعلاً ولكن رؤساءها وجدوا انه يستحيل عليهم الاستمرار في العمل وبينهم رجل يرتابون في شأنه فماتت كنتيجة لاهمال مقصود .

أما الجمعية السرية الثانية فهي جمعية (العربية الفتاة) التي اسست في باريس عام ١٩١١ ولم تلعب أية جمعية اخرى الدور الذي لعبته هذه الجمعية في تقرير مصير الحركة القومية . كان مؤسسوها سبعة من العرب ، وكلهم مسلمون ، الذين كانوا يتابعون دراستهم العالية في العاصمة

— وصفوة العوا (ضابط في الجيش ومسلم من دمشق) وعلي النشاشيبي * (ضابط في الجيش ومسلم من دمشق) وشكري العسلي * (مسلم من دمشق) .

* تدل النجمة على ان الاتراك شنقوا صاحب الاسم أثناء الحرب العالمية بتهمة القيام بأعمال قومية تعتبر خيانة للدولة .

الفرنسيه (١) فسار عملهم باتحاد وقوة بفضل ما امتازوا به أنفسهم من فتوة ورغبة أكيدة في العمل ووحدة في الرأي . ويذكرنا تأسيس الجمعية من هذه الناحية بتشكيل جمعية بيروت السرية عام ١٨٧٥ والفارق بين الحالتين ان العمل في هذه المرة انتقل إلى أيدي المسلمين . أما اهداف الجمعية فكانت : تحقيق استقلال البلاد العربية وتحريرها من الحكم التركي وأية سيطرة أجنبية أخرى ، ونحن نلحظ في هذا تقدماً ذا مغزى على البرامج السابقة التي كانت تطالب بالحكم الذاتي ضمن المملكة كما نلحظ عوداً غير مقصود إلى المثل العليا التي اعتنقتها جمعية بيروت السرية .

سيتضح لنا قريباً جداً مبلغ تأثير جمعية (الفتاة) في سير الحوادث ولكننا هنا سنحصر اهتمامنا بنموها الذي كان نمواً حذراً ولكنه سريع أدى إلى جعلها أكثر الجمعيات العربية العاملة فعالية . وكانت تمتاز لا بأهدافها وأساليبها فحسب بل أيضاً بالنظام الشديد السائد بين الأعضاء والذي يدعو إلى الاعجاب فكان الانتساب لايتم الا بعد أن يمر الراغب بدور تجربة طويل ويتوقف على نتيجة هذه التجربة وكان لكل مرشح جديد عضو محلف قديم يتولى تقديمه فلا يعرف المرشح غيره من الأعضاء ويظل يجهلهم حتى يجتاز دور التجربة بنجاح وعندئذ يدعى إلى حلف اليمين فيقسم أن يعمل على تحقيق غايات الجمعية ولو أدى ذلك عند اللزوم إلى بذل حياته في خدمتها .

---

(١) وهم : عوني عبد الهادي (جنين) وجميل مردم (دمشق) ومحمد المحمصاني* (بيروت) ورستم حيدر (بعلبك) وتوفيق الناطور* (بيروت) ورفيق التميمي (نابلس) وعبد الغني العريس* (بيروت) .

* تدل النجمة على ان الاتراك شنقوا صاحب الاسم بتهمة القيام بأعمال قومية تعتبر خيانة للدولة .

بقيت باريس مركزاً للجمعية مدة سنتين فبقي عدد الأعضاء قليلاً فلما تخرج أعضاؤها وعادوا إلى أوطانهم انتقل المركز إلى بيروت عام ١٩١٣ ثم إلى دمشق في العام الذي تلاه فبلغ مجموع الاعضاء المائتين وكلهم من المسلمين باستثناء عدد ضئيل من النصارى . وبقي سر وجودها مكتوماً حتى النهاية ولم يعرف بها أحد إلا بعد أن تحررت البلاد العربية من الحكم التركي . وعندما كان الترك يلاحقون القوميين العرب بتهمة الخيانة أثناء الحرب العالمية حاول أحد أعضاء (الفتاة) الانتحار لما وصلوا في تعذيب جسمه حداً لا يطاق كما فضل عضو آخر المشنقة على افشاء سر الجمعية . وإذا كان القسم الذي فرض على الاعضاء يذكرنا بالروايات المسرحية العنيفة فلا نرى بأساً في ذلك مادام في هذا الشكل ضمان للولاء .

كانت هذه الجمعيات الاربع ، وغيرها من الجمعيات التي تقف دونها في الأهمية ، في الوجود حين ارتطمت موجة جديدة من موجات الحركة العربية بصخرة المقاومة التركية وقد بدأت الموجة في الايام الاخيرة من عام ١٩١٢ ثم حملها التيار نفسه إلى باريس حيث انعقد مؤتمر عربي بعد ستة أشهر .

نهضت بالعمل في بيروت فئة متنفذة اتخذت لنفسها اسم (**جمعية الاصلاح**) وعدد أعضائها ستة وثلاثون يمثلون جميع الاديان فأعدوا مشروعاً يقضي بمنح المناطق العربية في المملكة العثمانية حكماً ذاتياً وقد حملهم على القيام بهذا الامر الدوافع نفسها التي أدت إلى إنشاء حزب (اللامركزية) في القاهرة وكانت الروابط بين الهيئتين وثيقة كما ان مشروعهم كان بمثابة التعبير العملي عن المبادئ التي بشر بها دعاة الحكم الذاتي على أساس اللامركزية .

كان المشروع منطبقاً على الهيكل الاداري وتقسيماته القائمة كما انه اعترف

اعترافاً تاماً بالسيطرة التركية ولكنه فرق تفريقاً واضحاً مابين المسائل ذات الصفة الامبراطورية العامة كالشئون الخارجية والدفاع والمواصلات البعيدة ومالية الدولة ، وبين المسائل ذات الصفة الاقليمية كادارة المقاطعات ومواردها والدوائر المحلية ، كما انه قضى بانتقال جميع المصالح الاقليمية في ولاية بيروت إلى أيدي هيئات تمثل الاهالي . ومن جملة الاصلاحات التي أتى بها المشروع الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية واستعمالها في البرلمان على قدم المساواة مع اللغة التركية . أما في موضوع الخدمة العسكرية فقد قضى المشروع بلزوم العدول عن تجنيد الجند للخدمة وقت السلم خارج مناطقهم . ونحن نتبين في هذه البنود الاخيرة صدى لصيحات جمعية بيروت في عام ١٨٧٥ .

نشرت جمعية (الاصلاح) مشروعها في أواسط شهر فبراير عام ١٩١٣ فاستقبل بمظاهر الاستحسان العام لا في أنحاء الشام فحسب بل أيضاً في العراق وعقدت اجتماعات عامة في دمشق وحلب وعكا ونابلس وبغداد والبصرة وتدفقت البرقيات على القسطنطينية مرحبة بالمشروع ومعلنة انه يعرب عن رغبات جميع الناس في الاجزاء العربية . على ان الاتحاديين وهم في الحكم كانوا خصوم فكرة اللامركزية ولهذا اتخذوا التدابير للقضاء على هذه الحركة ، ففي اليوم الثاني من شهر ابريل وأثناء انعقاد جلسة من جلسات جمعية (الاصلاح) حضرت الشرطة وأعلمت الاعضاء ان الحكومة قررت حلها واغلاق مركزها الرئيسي فولد هذا العمل فزعاً مثبطاً للهمم وغضباً عامين فأضربت جميع الاسواق والمتاجر في بيروت وظهرت الجرائد وقد أحيطت صفحاتها بشارة الحزن السوداء ولم تنشر شيئاً سوى الامر القاضي بحل الجمعية . وتابعت السلطات التركية سيرها في سياسة الشدة التي تعشقها الحكومات المكروهة فاعتقلت الرؤساء البارزين وعطلت الجرائد ولكن الهياج ازداد وأدى إلى قيام

المظاهرات التأييدية في جهات اخرى من بلاد الشام فلجأت الحكومة إلى اجراء حل وسط : فأطلقت سراح الزعماء المسجونين وأعلنت أنها ستقوم بالاصلاح بشكله المطلوب ثم في اليوم الخامس من شهر مايس نشر الحاكم العام بالفعل قانوناً جديداً للولايات من شأنه أن يمنح الهيئات التي تمثل السكان في المقاطعات سلطات أوسع من ذي قبل ولكن هذا الحل قصر عن مشروع الجمعية بشكل جعل الناس ينظرون إليه ، وهم على حق في نظرتهم ، كخطوة مقنّعة نحو مركزية متزايدة نتيجتها تقوية الساعد الذي تمده القسطنطينية لتطبق على العرب بقبضة يدها وتخنق الحريات .

- ٥ -

انتقل في ذلك الوقت مركز الحركة إلى باريس . فقد كان الشباب الذين أسسوا (جمعية الفتاة) يفكرون منذ زمن بعرض القضية العربية في جو حيادي وحر بغية الاسراع بايجاد حل لها فاختاروا اسلوب عقد مؤتمر عربي وبعد أن ترددوا قليلاً في أمر المكان الملائم للاجتماع بين سويسرة وفرنسة وقع اختيارهم على باريس ولهذا كتبوا بتاريخ ٤ ابريل عام ١٩١٣ إلى لجنة (حزب اللامركزية) في القاهرة يدعونه والجمعيات التابعة له لحضور المؤتمر . ومن المهم أن نذكر هنا ان الدعوة أتت ، في رأس الاسباب المبررة لعقد المؤتمر ، على ذكر الحجة القائلة بأن إنكار المطالب العربية أدى إلى تعميم الفوضى في الولايات العربية وتعريضها إلى التدخل الاجنبي ، أي الاوربي . فوافق الأعضاء على الفكرة ولبوا الدعوة فوراً كما ان (جمعية الاصلاح) في بيروت ، التي كانت تئن من أثر مساعي الاتحاديين لقمع حركتها ، أرسلت تعلن انضمامها للمؤتمر بحرارة وقد بلغت السرعة التي لبى فيها الناس الدعوة حداً اضطر معه القائمون على العمل بأن يعدوا عدتهم

في أقصى السرعة حتى ان الدعوة لم تصل الاجزاء العربية البعيدة إلا قبيل التئام المؤتمر الذي عقد جلسته الافتتاحية في يوم ١٨ يونيو في قاعة بشارع سان جرمان .

ضمت قائمة الممثلين المعتمدين خمسة وعشرين شخصاً حضر منهم أربعة وعشرون ممثلاً وكان تمثيل النصارى في المؤتمر مشابهاً لتمثيل المسلمين مشابهة تكاد تكون تامة وكانت الاكثرية الغالبة من الحاضرين من أهل الشام ، ومثل العراق عضوان كما حضر ثلاثة أعضاء لتمثيل الجاليات العربية في الولايات المتحدة وكانت نسبة تمثيل المناطق العربية باستثناء الشام ضئيلة . استمر انعقاد المؤتمر أكثر من ستة أيام عقد فيها أربع جلسات رسمية واتخذ عدداً من القرارات باجماع الآراء ، وحضر الجلسات حول المائتين من العرب بصفة مستمعين وفي اليوم الأخير فتحت الابواب لجميع الزائرين بدون قيد وجرت المناقشات باللغة الفرنسية .

تمتاز أبحاث المؤتمر بصراحتها ولهجتها المسالمة كما ان مقرراته تدل على ميل نحو الاعتدال وكانت هذه المقررات بمثابة ترديد مجدد للمبادئ التي سبق أن أعلنها (حزب اللامركزية) وللمقترحات المعينة التي تقدمت بها سابقاً (جمعية الاصلاح) في بيروت مع الاصرار على طلب العرب الحصول على حقوقهم السياسية الكاملة وعلى نصيبهم الفعلي في ادارة شئون الامبراطورية وأشارت الأبحاث جميعها إلى ان التدخل الاجنبي محتمل الوقوع ويجب صرفه بعزم أكيد لما ينطوي عليه من خطر الا ان هذه الاشارة كانت دوماً تصاغ في قالب حكيم لما لها من صلة بأطماع فرنسة . ولم يأت المؤتمر البتة على ذكر الانفصال أو الانشقاق بل بالعكس كان الخطباء يبذلون الجهد لاظهار الرغبة العامة في المحافظة على وحدة المملكة على شرط الاعتراف بحقوق العرب

كشركاء فيها وفسح المجال لأمانيهم الفكرية بأن تتحقق ضمن الشكل اللامركزي للحكم . وامتازت بعض الخطب بما دلت عليه من ادراك سياسي واع وعميق ، فاستعرض أحد الخطباء أسباب الخلاف وأصاب صميم المسألة إذ كشف النقاب عن التضليل الذي ينطوي عليه مبدأ المركزية الذي يتمسك به الاتحاديون وقد أخذوه عن مبادئ الثورة الفرنسية كما قام بتحليل واضح أثبت فيه ان العرب إذا قبلوا بهذا المبدأ فهم إذن مقدمون على الانتحار .

كانت السلطة يومئذ في يد الاتحاديين فكان من الطبيعي أن يقفوا من المؤتمر موقفاً عدائياً فقاموا بتوجيه حركة ، غذتها جرائدهم وأيدتها المظاهرات المدفوعة ، غايتها تشويه المؤتمر وبذر بذور الخلاف بين القائمين عليه فلما فشلوا في هذه المحاولة أرسلوا أمين سر (حزب الاتحاد والترقي) إلى باريس وزودوه بالتعليمات التي تخوله حق الدخول في مفاوضات مع زعماء المؤتمر فنجح في تنفيذ هذه التعليمات وتوصل الطرفان إلى الاتفاق على المبادئ التي اعتبرها الزعماء العرب صالحة كأساس للقيام بمفاوضات أخرى فسافر ثلاثة منهم إلى القسطنطينية للوصول إلى تنفيذ ما فازوا به .

كان الاتفاق الذي تم في باريس فوزاً للعرب في ظاهره لأنه منحهم ماطلبوه في مواضيع كثيرة كالخدمة العسكرية ضمن الاقليم وجعل اللغة العربية رسمية في الولايات العربية وادخالها كأداة للتعليم في المدارس الابتدائية والثانوية ، ونص الاتفاق على ضرورة تعيين مفتشين أوربيين يشتركون في اصلاح الادارة . أما في موضوع اللامركزية فان تساهل الاتحاديين كان ظاهرياً لا حقيقياً ، وذلك ان الاتفاق منح الهيئات المحلية في الاقاليم سلطات في بعض المصالح الثانوية كما حفظ للعرب بعض المناصب في دوائر الدولة العالية وعلى هذا

نال العرب الحق بأن يكون منهم مالا يقل عن الخمسة من الحكام العامين بصورة دائمية وما لا يقل عن الثلاثة من الوزراء في أية وزارة عثمانية تأتي للحكم .

لسنا نعلم ما إذا كان موفد الاتحاديين توصل إلى هذا الاتفاق بناء على التعليمات التي يحملها أم انه حاول تهدئة العرب بلعبة من صنعه ولعله كان يفعل الأمرين معاً فقد تبين فيما بعد ، عندما مسخت مواد الاتفاق بشكل لم يعد لها معه أدنى قيمة ، انه لم يكن في نية زعماء الاتحاديين ابرام الاتفاق في وقت من الأوقات ومع ذلك فقد استمروا يمثلون الدور مدة شهرين فاستقبلوا زعماء العرب الثلاثة بحرارة لدى وصولهم من باريس واقيمت على شرفهم الحفلات والمآدب كما كان رجال الترك البارزون موضع الحفاوة في (المنتدى الأدبي) وبهذا تجدد الاخاء الرخيص الذي ظهر عام ١٩٠٨ محاطاً بهالته اللفظية القديمة .

نشرت في ١٨ اغسطس ارادة سنية ترمي في ظاهرها إلى اعطاء اتفاق باريس الشكل القانوني ولكنها في الواقع اختصرت إلى حد بعيد الحقوق التي اعترف بها الاتفاق كما أحاطت ما تبقى منها بالتحفظ والغموض فقد ورد في الارادة نص يفرض استعمال اللغة العربية في المدارس الابتدائية والثانوية ولكنها نصت كذلك على ان المدارس الثانوية في العواصم الاقليمية تثابر على استعمال اللغة التركية وكانت المدارس الثانوية جميعها في تلك العواصم . أما الخدمة العسكرية فقد تأيد حقها بالشكل ذاته ، ولم تشر الارادة البتة إلى ضرورة اعتبار العربية لغة رسمية أو الاعتراف بها كاحدى اللغات الرسمية في المناطق العربية كما انها لم تأت على ذكر المناصب التي يجب أن تخصص للعرب في الوزارة وبين الحكام العامين .

كان ظهور الارادة السنية سبباً لانتشار الفزع الذي مالبث أن تحول إلى يأس حين أخذ العرب المتنبهون يدركون انها هي أيضاً لعبة وان الاتحاديين يرمون من ورائها إلى قتل القضية الكبرى. وقد وجهت إلى بعض الولاة في المناطق العربية تعليمات لايرافقها أي حماس تطالبهم بأن « يمهدوا السبيل لتنفيذ الارادة السنية العظيمة في المستقبل » وفي الوقت ذاته أخذ رسل الاتحاديين يتصلون ببعض رجال العرب البارزين ويعرضون عليهم المناصب ثمناً لرضاهم فقبل خمسة منهم أن يعينوا أعضاء في مجلس الأعيان وكان أربعة من هؤلاء غرباء عن الحركة القومية بينما كان الخامس ، وهو عبد الحميد الزهراوي ، من أكبر أساطينها وهو الذي ترأس مؤتمر باريس : وقد ادعى ان قبوله هذا المنصب ماكان الا مناورة سياسية لأنه شعر بأن المؤتمر ، وقد انعقد مباشرة بعد الحملة التي بدأت في بيروت ، قد أوصل العلائق بين الترك والعرب إلى نقطة خطرة تشرف فيها على الانقطاع وانه بحكم منصبه الجديد قد يتاح له أن يعمل عملاً نافعاً فيبذل نفوذه لتحسين تلك العلائق واقناع الاتحاديين بلزوم السير في سياسة تنطوي على مبلغ أكبر من التسامح والحرية. ويخيل لنا من قراءة بعض رسائله التي نشرت بعد وفاته انه كان صادقاً في هذا الزعم وأيده بعض زملائه المقربين في هذه الخطة وان شذت عنه أكثريتهم ، على ان جمهرة المشتغلين بالحركة القومية عدوا قبوله المنصب بمثابة الخيانة. وقد نشر أمر تعيينه في الجريدة الرسمية في ٤ يناير عام ١٩١٤ فولد نفوراً عاماً يمكننا اعتباره كنقطة تحول في الحركة. لقد فشلت كل من الحركة التي قامت في بيروت ومؤتمر باريس في تحقيق اغراضها الرئيسية فأصاب موجة الشعور التي حملتها ركس جر في أثره الالم واليأس ولم تبذل أية محاولة للاتفاق مع الاتحاديين بعد ذلك. ومما زاد في خطورة الامر ان

هؤلاء ، بعد أن ربحوا المركة بلعبتهم واحتيالهم ، عملوا على متابعة ظفرهم بتصرف جديد يمتاز بحماقته وعنفه .

– ٦ –

في اليوم التاسع من شهر فبراير بينما كان المقدم (البكباشي) عزيز على المصري (١) ، وهو من ضباط أركان الحرب ، يغادر فندق طوقاطليان بعد الغداء اعترضه ثلاثة من رجال الشرطة السرية ودعوه إلى دائرة الشرطة المركزية في القسطنطينية حيث اعتقل دون أن توجه له تهمة ما فأخذت الشائعات تنتشر وهي تقول بأنه سيحاكم بتهمة الخيانة ، وقابل العرب نبأ اعتقاله بدهشة شديدة مالبثت أن تحولت إلى غضب أعربوا عنه بالمظاهرات الشعبية التي قاموا بها في الشوارع .

كان عزيز علي ، وهو في الخامسة والثلاثين من العمر ، رجلاً معروفاً . ولد في القاهرة حيث يقيم والده وتلقى علومه في الكلية العسكرية بالقسطنطينية ثم في مدرسة الاركان حيث تخرج بتفوق عام ١٩٠٤ وعين في هيئة أركان حرب الجيش الثالث في مقدونية حيث انتسب إلى جمعية الاتحاد والترقي وكان من الضباط الذين نظموا الثورة العسكرية عام ١٩٠٨ ثم اشتركوا بالسير على القسطنطينية في شهر ابريل من السنة التي تلتها . ولكن انتسابه لجمعية الاتحاد والترقي لم يكن ناشئاً عن رغبته الصادقة في صلاح المملكة العثمانية فحسب بل كان كذلك نتيجة لايمانه بالمثل العليا العربية القومية ، فلما وقعت الثورة المعاكسة عام ١٩٠٩ وأدرك خلال الشهور التي أعقبتها ان

---

(١) وهو الآن (١٩٣٨) عزيز على المصري باشا المفتش العام للجيش المصري .

سياسة الاتحاديين ترمي إلى مقاومة الحركة العربية وإلى سوء ادارة المملكة أخذ يبحث عن أنصار ذوي قيمة أكبر ليعمل معهم .

كان عزيز علي يتمتع بنفوذ أكبر من النفوذ الذي يتمتع به عادة ضابط برتبته وذلك لأنه كان في وقت من الاوقات يلقي محاضرات في مدرسة الاركان فاستطاع خلال تلك الاشهر أن يجذب إليه قلوب الضباط الشباب من أبناء الجيل المقبل . أما في السلك العسكري فقد برز بخلقه واقدامه وحكمته وكان تشبثه واندفاعه القوي في وطنيته يحملان من هم أكبر منه في السن على القبول بزعامته ، وهو الذي قام بتأسيس (الجمعية القحطانية) يساعده في ذلك زميله الضابط سليم الجزائري وكان برنامجه يستهدف العمل على اقامة ملك مزدوج يحقق للعرب أمانيهم مع الاحتفاظ بالولاء للمملكة العثمانية ، وفي عام ١٩١٠ أرسل في الخدمة الفعلية إلى اليمن حيث أصاب نجاحاً إذ اقنع الامام بلزوم تسوية خلافاته مع الباب العالي ، وفي السنة ذاتها تطوع للخدمة في ليبية حيث لمع نجمه بقيادته للقوى العربية التي كانت تقاوم العدوان الايطالي ، وفي عام ١٩١٣ عاد إلى القسطنطينية ليشاهد بأم عينه المساعي المبذولة خلال الاشهر التي اعقبت مؤتمر باريس للقضاء على آمال العرب قضاء بطيئاً . وقد وجد الفوضى والفساد سائدين في وزارة الحربية ، وعلم برغبة القائمين على الامر فيها الانتقاص من شأن أعماله الباهرة في افريقية مدفوعين بدافع الحسد ، كما لمس ميل الاتحاديين إلى اصدار الاوامر بنقل جميع الضباط العرب ، وهو بضمنهم ، من العاصمة للخدمة في الحاميات البعيدة في الاقاليم فاشمأزت نفسه مما رأى واستقال .

قام عزيز علي في أوائل عام ١٩١٤ بتنفيذ مشروع مازال ينمو وينضج منذ أيام (الجمعية القحطانية) حين أدى اكتشافه لوجود خائن بين أعضائها

إلى زوال اهتمامه بها فقرر أن يحولها إلى هيئة لاتضم إلا ضباط الجيش فشكل منظمة اخرى مستقلة عن الاولى ولكن برنامج الاثنتين متشابه وسمى المنظمة الجديدة (جمعية العهد) وكانت أهدافها هي نفس أهداف (الجمعية القحطانية) ولكن برنامجها في هذه المرة صيغ بلغة عسكرية ولم يسمح لغير العسكريين بالانتساب إليها باستثناء اثنين من المدنيين فتح لهما الباب بسبب الثقة التامة بوطنيتها وكان أحدهما وهو الامير أمين أرسلان من المؤسسين الأول للجمعية الأولى . كان العراقيون يشكلون أكبر عنصر في الجيش العثماني ولهذا كان عددهم كبيراً في (جمعيه العهد) وقد أسسوا لها فروعاً في بغداد والموصل ، وتبوأت هذه الجمعية بالنسبة للعسكريين نفس المركز الذي احتلته (جمعية الفتاة) بالنسبة للمدنيين وبالرغم من ان كل واحدة منها كانت تجهل وجود الاخرى في بداية الامر الا ان نشاطها - كل واحدة في حقلها الخاص - أصبح بعضه متمماً للبعض الآخر . وفي عام ١٩١٥ اتصلت الجمعيتان في دمشق ووحدتا مواردها لاعداد الثورة العربية .

لعل الاتحاديين كانوا يرتابون بوجود (جمعية العهد) حين امروا بالقبض على عزيز علي ولكنهم لم يكونوا واثقين من ذلك وثوقاً تاماً فلما وجهت إليه التهم لم يذكر من بينها تهمة الاتصال بجمعيات سرية . بدأت محاكمته في ٢٥ مارس أمام محكمة تأديب عسكرية وكانت سرية ولكن عرف الناس بأن لائحة الاتهام حوت تهمة اختلاس أموال الجيش ، وتهمة تسليم برقة إلى الايطاليين لقاء رشوة تناولها ، وتهمة محاولة تأسيس دولة عربية في شمال افريقية ، وكلها تهم بعيدة عن التصديق بعداً تاماً فعم الغليان الذي ولده اعتقاله جميع الأنحاء ، وفي مصر وهي مسقط رأسه ارتفعت أصوات

الجماهير بالاحتجاج الشديد معلنة سخطها وعقدت اجتماعات عامة وقامت حملة شديدة في الصحف كما شكلت لجنة برئاسة شيخ الأزهر وزارت وفود عديدة اللورد كتشنر المعتمد البريطاني في القاهرة وطلبت إليه أن تتدخل بريطانية دبلوماسياً .

وفي أوائل ابريل أصبح من المعروف ان عزيز علي قد حكم بالاعدام سراً فأدى ذلك إلى اشتداد الهياج فراح الضباط العرب أينما وجدوا يحلفون الأيمان على أن يثأروا لدمه ، وكان من حسن حظ عزيز علي ان صوت اوربة ولا سيما انكلترة انبعث في الدفاع عنه فقد حمل كتشنر وزارة الخارجية البريطانية على أن تتدخل وقام السير لويس مالِت بمساع في القسطنطينية كما قامت جريدة (التايمز) بكتابة سلسلة تتألف من أربع مقالات افتتاحية استمر نشرها ستة أسابيع وتولت فيها الدفاع عنه بصراحة وقوة .

فكتبت (التايمز) في عدد ٩ ابريل مايلي :

« ... وإذا أعقب الجور الذي أصاب هذا الضابط العربي الباسل تدبير لايمكن وصفه إلا بأنه جريمة قتل مرتدية رداء القانون فان ذلك سيؤثر تأثيراً خطيراً في العلاقات بين الحكومة العثمانية ومصر ، ولعل هذا التأثير لايقتصر على العلاقات بين تركية ومصر . »

وفي اليوم الخامس عشر من الشهر ذاته أعلنت الحكومة ان حكم الاعدام قد صدر بحق عزيز علي الا ان السلطان أبدل العقوبة بالسجن خمس عشرة سنة مع الأشغال الشاقة فارتاح الرأي العام لذلك الا ان الغليان الناجم عن وقوع الظلم في هذه القضية استمر إلى أن صدر العفو عنه أخيراً في ٢١ ابريل وأطلق سراحه فأبحر في اليوم التالي إلى مصر حيث استقبل بحماس شديد . ولعلنا لانبالغ إذا قلنـا بأن الهزة التي أصابت العالم العربي

من جراء محاكمته كانت أعمق من أية هزة اخرى سببها الترك بأعمالهم المستبدة كما انها شحذت عزائم العرب فقرروا المضي في كفاحهم من أجل الحرية لأن الهزة في هذه المرة حركت الجماهير العامة بالاضافة إلى المفكرين .

— ٧ —

وخلال ذلك جرت تغييرات هامة في الاجزاء النائية من مملكة السلطان العربية وها نحن نستعرض في مايلي الحالة في العالم العربي كما كانت في صيف عام ١٩١٤ .

ففي افريقية غنمت إيطالية في حرب ١٩١١ ذلك الجزء من ليبية الذي يضم ولايتي طرابلس وبني غازي وقد ارغمت تركية على التنازل عن سيادتها عليهما رسمياً بمعاهدة (اوشي) ولكن بقي في يدها نجد برقة الذي لم يكن آهلاً بالسكان والذي لم تفتحه الجيوش الايطالية وكان لهذه المنطقة قيمة سياسية خاصة لأنها كانت موطن الاخوان السنوسيين وزعيمهم النشيط السيد أحمد الشريف الذي كان نفوذه في افريقية الشمالية يمتد بعيداً إلى ما وراء حدود اقليمه الخاص .

انشأ فرقة السنوسيين في برقة في أواسط القرن التاسع عشر رجل تقي من الجزائر غايته اصلاح الدين الاسلامي وكانت تعاليمه شبيهة إلى حد بعيد بالتعاليم الوهابية لأن الحركتين كانتا سلفيتين تدعوان للعودة إلى الاساليب والعادات السائدة في صدر الاسلام ، وكان لهذه الحركة اغراض تبشيرية فأقامت الزوايا ، وهي مراكز للعبادة والتعليم الديني ، في طول البلاد وعرضها وغنمت عن طريقها بنفوذ سياسي بالاضافة إلى نفوذها الديني حتى أصبح في مكنتها تجنيد المتطوعين لاغراض عسكرية . ومن الصفات المميزة لهذه الحركة انها شجعت الاقامة على الارض وزراعتها ، واستطاعت الفرقة السنوسية

خلال نصف قرن من حياتها أن تكتسب قوة وانسجاماً وأن تنشيء الهجر التي يقيم فيها أنصارها وذلك في مساحات واسعة في أواسط افريقية . كان زعيم الحركة القائم السيد أحمد من سلالة المؤسس ولم تكن علاقاته حسنة مع الاتحاديين ولكنه وضع يده في يد عزيز علي لتنظيم القوى العربية التي قامت بمقاومة عنيدة عندما شرع الايطاليون بأولى محاولاتهم للتسرب إلى الداخل فلما ثارت نيران الحرب العالمية كان السيد أحمد مستمراً في قيادته على رأس تلك المقاومة .

أما في آسية فكانت ممتلكات السلطان بمجموعها في عام ١٩١٤ كما كانت عليه حين تحدثنا عنها في السنين الأولى من عهد عبد الحميد ، فقد استمر انتشار النفوذ البريطاني وأدى إلى عقد عدد من المعاهدات بين حكومة الهند وبعض الامراء العرب على طول الساحل الجنوبي والشرقي من جزيرة العرب . أما في المناطق الواقعة وراء عدن إلى الداخل فقد وضع الجزء المؤلف من تسع حكومات صغيرة وهو الجزء المعروف باسم (محميات عدن) تحت نفوذ بريطانية وحمايتها ، وجددت المعاهدتان المعقودتان مع مسقط والبحرين كما عقدت معاهدات جديدة ولا سيما مع الكويت عام ١٨٩٩ فمنحت هذه المعاهدات حكومة الهند في الواقع حق الحماية وأهملت سيادة السلطان اهمالاً يكاد يكون تاماً ، واعتمد موظفون من المنتسبين إلى الخدمة السياسية في الهند لدى الامراء العرب كما عين مقيم بريطاني في (بوشير) الواقعة على الساحل الفارسي ليشرف على هؤلاء الموظفين ويوجه أعمالهم حتى أصبح خليج فارس في ظاهره وفي حقيقته معقلاً بريطانياً يسهر على تأمين حرية المرور وهو أمر ازدادت خطورته حين حصلت شركة بريطانية على امتياز لاستغلال آبار النفط الغنية في الجنوب الغربي من فارس .

أما في داخل الجزيرة فقد قويت شوكة الترك بصورة عامة في الجزء المتاخم لخليج فارس كانت الحرب سجالاً خلال الاعوام الثلاثين الماضية بين آل الرشيد وآل السعود فطرد السعوديون من نجد ثم عادوا في أوائل القرن الحاضر واسترجعوها على يد بطل باسل من البيت السعودي اسمه عبد العزيز بن السعود وفي دور من ادوار هذا التزاحم ارتمى أمير آل الرشيد القائم في احضان الترك وطلب نصرتهم له فأرسلوا حملة لمساعدته وخفق علمهم في قلب الجزيرة لاول مرة منذ تقدم ابراهيم باشا . وبعد ذلك نمت سلطة عبد العزيز بن السعود فقام بضربة جريئة عام ١٩١٣ وضعت حداً لاحتلال الترك منطقة الحساء الساحلية فكانت ضربة موجهة لنفوذ السلطان ولكن الاتراك عوضوها بعض الشيء بتقوية العلائق بينهم وبين آل الرشيد في بلاد شمر .

أما في أجزاء الجزيرة المتاخمة للبحر الاحمر فقد لاقى عبد الحميد ظروفاً سيئة جداً في اليمن ولكن رجال (تركية الفتاة) نجحوا إلى حد بعيد في استعادة اعتبار الدولة . فان حملة عام ١٨٧٢ احتلت صنعاء ولكنها لم تخضع الداخل الذي بقي مضطرباً وثائراً وفي عام ١٨٩١ قامت فتنة خطيرة استلزمت ارسال قوى كبيرة ثم في عام ١٩٠٣ هيأ الامام يحي ثورة جديدة قادها بنفسه ففتحت عهداً جديداً في تاريخ حكم الترك للبلاد العربية يمتاز بما لاقوه من انكسارات وكوارث عسكرية حتى ان الثوار احتلوا صنعاء وبقوا فيها مدة تربو على السنة ثم عادوا فدخلوها مرة ثانية عام ١٩١١ مما جعل الترك على استعداد لاجراء تسوية لان الجهد المتواصل أنهك قواهم فقام عزيز علي بمفاوضات أولية توصل منها إلى عقد اتفاق رحب به القائد العام التركي وأدى إلى إقامة السلام بين المتحاربين وإلى منح الامام سلطات كبيرة مشفوعة باعانة سخية .

تقع في شمال اليمن مباشرة منطقة عسير التي بزغ فيها نجم جديد وهو نجم السيد محمد بن علي المعروف بالسيد الادريسي سليل اسرة أقامت في الجزيرة حديثاً وقد علا شأنه في الأعوام الاولى من القرن الحاضر. كان جدوده من عرب مراكش الذين اموا مكة لاداء فريضة الحج في السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر وبعد ذلك استقروا في مرتفعات عسير وكان السيد أحمد الادريسي أول من هاجر منهم وهو رجل تقي وعالم اشتهر بمكانته الروحية فلما توفي خلف لورثته تلك الميزات والمنافع التي كثيراً ما يتمتع بها أعضاء اسرة معترف لها بتلك المكانة في المجتمع الاسلامي. واتخذ الادارسة عسير موطناً لهم وتناسلوا فيه وعاشوا باطمئنان في رخاء يندر أن تكافأ به حالة من حالات القداسة حتى ظهر منهم رجل — وهو السيد محمد زعيم الادارسة الحالي — يفوق اسلافه في الكفاءة والطموح فعزم على أن يدعم المركز الروحي القوي الذي تتمتع به الاسرة بتحويلها إلى بيت حاكم محرر من سلطة الترك. لم يكن افق السيد محمد محدوداً بحدود الجزيرة العربية لانه عاش في القاهرة حيث تلقى العلم في جامعة الازهر كما انه أقام مع زعيم السنوسيين في برقة فلما عاد إلى عسير أوجد في تلك الجبال نوعاً خاصاً من الادارة ثم ثار على الترك في عام ١٩٠٩ عندما كان شاباً في الخامسة والثلاثين من العمر وذهب لمساعدة الامام يحي في ثورته فلما أصابه الفشل قام بثورة جديدة بمساعدة الايطاليين ولكنه في هذه المرة انتهى إلى عقدة لا يمكن حلها فلم يبق تحت حكمه الا المناطق الجبلية وحدها وهي ذاتها التي كان يسيطر عليها في بداية حركته. وفي عام ١٩١٤ كان تابعاً للسلطان بالاسم ولكنه لم يكن راضياً عن هذه الحالة في الواقع وكان يجمع قواه استعداداً لمنازلة الترك من جديد.

أما في الحجاز فكانت سلطة السلطان أكثر استقراراً من أي مكان آخر في الجزيرة بفضل عامل رئيسي هو وصول الخط الحجازي إلى المدينة ولولا وجود أمير مكة الجديد لكانت هذه السلطة مطلقة ، فقد تبين ان التشبث العنيد كان من صفات الحسين البارزة وما كان الاتحاديون ليرتابوا بوجود صفة كهذه في ذلك الرجل الارستقراطي الرقيق والمسالم حين اختاروه لهذا المنصب الرفيع . فقد وجد الحسين لدى وصوله إلى الحجاز في عام ١٩٠٨ ان اسلافه أهملوا الكثير من ميزات المنصب فعمل بعزم أكيد على احيائها ونجح بشكل خاص في اعادة سيطرة الشرفاء على عشائر الحجاز وسعى إلى فرض سلطته خارج حدود الحجاز الى جهة الشرق حيث تقيم القبائل التي يدعي ابن السعود بولائها له كحق من حقوقه . ولما أعلن الاتحاديون ان ادارة الحجاز يجب أن تتفق من الآن فصاعداً مع ادارة باقي أجزاء المملكة على أساس النظام المركزي وانهم ينوون ادخال التجنيد الاجباري في تلك البلاد اعترض الحسين قائلاً بأن هذا الامر غير معقول ، وكان محقاً في اعتراضه ، فدعا هذا الموقف الاتحاديين إلى تقرير عزله ولكن مركزه القوي حال دون تنفيذ هذا القرار بسرعة فارسلوا إلى الحجاز والياً معروفاً بخشونته وسرعة غضبه ليمهد السبيل إلى معاقبة الحسين الذي أخذ يقاومه بكل ما أوتي من عناد وذكاء حتى انتصر عليه في ربيع عام ١٩١٤ وبعد مشادة طويلة كادت تتحول إلى فتنة تلقى الوالي الامر بلزوم مصالحة الحسين وارضائه ففعل ذلك مضطراً في احتفال عام قبل فيه اذيال الحسين رمزاً إلى اجلاله لمقامه المقدس .

الباب السابع

الحرب والجهاد : ١٩١٤

— ١ —

كان الامير عبدالله ، الابن الثاني للحسين ، في مقدمة المبعوثين العرب في البرلمان العثماني وكان وهو مايزال دون الثلاثين من عمره يتمتع بمكانة بارزة في الدوائر السياسية وكان منذ بداية حياته يمتاز على اقرانه بروحه المستقل واعتزازه بنسبه وتحمسه لمزايا قومه والدفاع عنها . واستطاع بفضل اقامته الطويلة بالقسطنطينية أثناء اعتقال والده فيها أن يتقن اللغة التركية وأن يتطبع بطباع الترك المهذبين إلى حد انها خففت كثيراً من شدة خشونته العربية المتأصلة دون أن تحرمه منها تماماً . وكان ذا قابلية طبيعية لتولي سياسة المشاًر كما كان مندفعاً في السعي إلى دعم مركز اسرته وهذا ماحمل والده على اختياره للقيام بمهمته الخطيرة كمندوب ووسيط ، تلك المهمة التي ظهر انه أكثر لياقة لها من أخيه الأكبر على ذي الطبع الرقيق والحيي ، أو من أخيه الأصغر فيصل الذي كان يعمل حتى ذلك الوقت في الحقل العسكري فلمع اسمه فيه كبطل شجاع . كان عبدالله متمتعاً بشهرة واسعة وبمحبة الناس له وكان في ذلك متفوقاً على أخويه تفوقاً كبيراً وكان من ميزاته الكبرى جاذبيته الشخصية وكان يتعشق الشعر العربي ، الامر الذي حببه إلى نفوس زملائه العاملين في القضية العربية ، فكان يقرأ ويحفظ الكثير

من ذلك الشعر وكان ذا حس أدبي شديد ودقيق جعل حديثه ممتعاً وغنياً كما جعل أفكاره ترتدي رداء الحكمة حتى في تلك السن المبكرة .

وفي خارج الحجاز استغل عبدالله مكانته بصفته ابن الشريف وبده اليمنى استغلالاً تاماً فسعى كمبعوث عن الحجاز إلى تسخير مركزه ونفوذه في الباب العالي ليدعم مركز أبيه في الحجاز ذلك المركز الذي لم يكن قوياً في ربيع عام ١٩١٤ . وكان الاتحاديون يعتقدون انه هو الذي يحرض أباه على اتخاذ موقفه العنيد منهم ثم يجيء يلتمس له الاعذار ولهذا حاولوا اشغاله بأن عرضوا عليه أولاً منصباً وزارياً ثم ولاية اليمن ولكن عبدالله أدرك انهم انما يقدمون له طعماً لاصطياده فاعتذر عن قبول المنصبين واحتفظ باستقلاله لأنه كان مثل أبيه مصمماً على أن يتوصل إلى توليد احتكاك مع الترك تعرف بنتيجته حقيقة قوتهم . كان في كل من الاب والابن طموح متشابه وكلاهما كان يحلم برؤية الحجاز مستقلاً استقلالاً ذاتياً يؤدي مع مرور الايام إلى إيصال الاجزاء العربية الباقية إلى حالة مماثلة وكان الفارق الاساسي بين الاب والابن فارقاً في الاسلوب أو ، بالاصح ، فارقاً في المزاج فكان الحسين حذراً ممعناً في حذره ومستمراً فيه إلى أن يأتي اليوم الذي يخاطر فيه بكل شيء وهو غير مبال البتة ، أما عبدالله فكان ذا صبر نافد وكان واثقاً من نفسه ومتسرعاً وينقصه الشيء الكثير من عمق والده وبعد نظره وهذا ماجعله يذهب إلى اللورد كتشنر بجرأة ليفهم منه موقف انكلترة الحقيقي .

كان ذلك في الاسبوع الاول من شهر فبراير عام ١٩١٤ اذ كان كتشنر المعتمد البريطاني في مصر وكان عبدالله ماراً بالقاهرة في طريقه من مكة إلى القسطنطينية فزاره رداً لزيارته ، وكانت المجاملة المذر الظاهر لهذه الزيارة ، فأطلع عبدالله كتشنر على توتر العلاقات بين السلطات التركية

والشريف وكان المستر (الان السير) رونالد ستورز السكرتير الشرقي في دار الاعتماد البريطانية حاضراً ، وكان عبدالله على علم من ان الاتحاديين اتخذوا قراراً سرياً يقضي بعزل والده فأفهم كتشنر بأنهم إذا نفذوا ماقرروه فيحتمل أن تقوم ثورة في الحجاز ثم حاول وهو متحفظ في ألفاظه أن يفهم من كتشنر موقف الحكومة البريطانية في حال نشوب نزاع علني بين الترك والعرب . لم يأت جواب كتشنر مشجعاً وان كان لايربط قائله بشيء سلبي أو إيجابي فقد قال انه يرى ان سياسة بريطانية التقليدية هي سياسة صداقة مع تركية ولهذا فهو لايتوقع أن تتدخل في حالة كهذه . وفي الوقت ذاته أدرك كتشنر بأن لدى زائره من الحديث مالا تتسع له زيارة رسمية فطلب من ستورز أن يرد الزيارة بعد يومين ويفسح المجال أمام عبدالله للافصاح عن افكاره بشكل أتم .

كان حديث عبدالله مع ستورز أكثر وضوحاً فقد كان ستورز يتكلم العربية قليلاً وكان من خصائصه انه يستطيع استخراج الكثير من القليل كما كان يجمعه بعبدالله ميل واحد مشترك على الاقل وهو الولع بلعبة الشطرنج فتصادق الرجلان في هذا الجو من الود الخالص الذي يندر وجوده بين انكليزي وعربي فاطمأن عبدالله وأخذ يتكلم بحرية فتحدث مع زائره حديثاً أطول بكثير من حديثه مع كتشنر فأخبره بخطورة الحالة في الحجاز وأطلعه على الاستعدادات التي يقوم بها والده ليواجه القطيعة النهائية التي خيل إليه أن لامفر من وقوعها كما تحدث طويلاً عن أهداف الحركة العربية وآمال زعمائها ويأسهم الآخذ في الازدياد . وبعد ذلك ابتدر محدثه باستفهام ينم عن الصراحة التي يتصف بها فسأله عما إذا كان كتشنر على استعداد لمساعدة الشريف في الحصول على مدافع رشاشة .

كان من الطبيعي أن يأتي جواب ستورز بجواب كتشنر مثبطاً للعزم وبهذا انتهى الحديث بين الاثنين . وفي أواخر ابريل مر عبدالله ثانية بالقاهرة دون أن يقابل كتشنر ولكنه التقى مجدداً بستورز الذي قال له في صراحة لاتقبل الشك انه لايجوز له أن ينتظر أية مساعدة من جانب بريطانية العظمى وعلى هذا عاد عبدالله إلى الحجاز . وبالرغم من ان هذه الاحاديث لم تنته إلى شيء الا انها كانت ذات أثر فعال في توجيه الامور لأنها نبهت كتشنر إلى قوة العداء القائم بين الترك والعرب وعمقه وأفهمته كذلك رغبة العرب الحقة في الاستقلال كما حملته على أن يتخذ بعد أشهر قليلة بعض التدابير التي استمرت حتى أدت في النهاية إلى ادخال العرب في الحرب كحلفاء إلى جانب انكلترة ضد تركية .

— ٢ —

تعود قيمة هذه الأحاديث إلى ان محاولات عبدالله جاءت عن طريق الصدفة في وقت اضطرب فيه ذهن كتشنر ببعض الافكار والتكهنات التي كانت تشغله فهو بصفته معتمداً بريطانياً في القاهرة كان مسئولاً بالدرجة الاولى عن مصر والسودان ولكن خياله ذهب به إلى ماوراء حدود عمله المباشر فان حروبه في السودان والمدة التي قضاها كقائد عام في الهند والمعرفة الوثيقة التي اكتسبها هناك بنتيجة المشاكل القائمة على الحدود الشمالية الغربية وفي الافغان — ان كل هذه العوامل أوجدت صلة مباشرة بينه وبين بعض القوى المجاهدة في الاسلام ونمت في نفسه احساساً دقيقاً بالقيمة العظيمة التي تتمتع بها الرابطة الدينية في الاسلام . وخلال السنوات الثلاث التي قضاها في القاهرة كانت عيناه ترمقان القسطنطينية مركز الخلافة بقلق بالغ وكان يرقب كذلك نمو النفوذ الالماني والتقدم المشئوم في مشروع سكة حديد بغداد

حتى أدرك ادراكاً عميقاً ماينطوي عليه هذا الامر من تهديد لمركز بريطانية في خليج فارس وفي الهند وكاد هذا الوعي يتحول في رأسه إلى هوس مستقر وطاغي . وكان يقول لأصفيائه القليلين بصراحة انه يعتقد بأن الدبلوماسية البريطانية ارتكبت خطأ لايغتفر بسماحها لالمانية بالتفوق السياسي والعسكري في عاصمة المملكة العثمانية ، وكان التفكير بالاساليب التي تدرأ الأخطار الناجمة عن هذا الوضع من الامور التي تشغل فكره باستمرار .

كان كتشنر يفكر بحلول مختلفة ومن جملتها أن يُفصل عن المملكة العثمانية بمرور الزمان ذلك الجزء من بلاد الشام الذي يبدأ من خليج حيفا وعكا على البحر الأبيض المتوسط وينتهي في خليج العقبة على البحر الاحمر فيوضع تحت حماية بريطانية لكي يؤمن امتداد النفوذ البريطاني بدون انقطاع من مصر إلى خليج فارس . ومن تلك الحلول كذلك تشجيع الاجزاء العربية في المملكة العثمانية على تشكيل دولة ، أو عدد من الدول ، مستقلة استقلالاً ذاتياً ومرتبطة مع بريطانية العظمى بروابط الصداقة لأن هذه المناطق تقع على الطريق كله من ساحل البحر الابيض المتوسط في الغرب إلى حدود فارس في الشرق وبهذا يقام سد عربي انكليزي لمقاومة التيار الالماني التركي . وبعبارة اخرى نقول ان كتشنر توصل عن طريق تفكيره المستقل إلى تخيل تلك الاحتمالات بعينها التي كان الزعماء العرب أنفسهم يفكرون فيها ، وبينما كان ذهنه منهمكاً في هذه التكهنات زاره الامير عبدالله الذي كان هو نفسه عضواً في احدى الجمعيات السرية ومن المؤمنين بفكرة التفاهم المثمر بين الانكليز والعرب والمتحمسين له . وفي هذه الزيارة زوده بمادة جديدة للتفكير .

— ٣ —

كان كتشنر يقضي اجازته في انكلترة لما اشتعلت نار الحرب في شهر

اغسطس فتوجه فوراً إلى مقر عمله ولكنه ما كاد يبلغ دوفر حتى استدعاه رئيس الوزراء وسمّي وزيراً للحربية فوجد أمامه فعلاً بين عشية وضحاها مهمة خلق جيش بريطاني كبير على مقياس لم يسبق له مثيل وبينما كان منصرفاً بكليته إلى انجاز مهمته ظل جزء من تفكيره منحصراً في الاخطار الناجمة عن سيطرة ألمانية الدبلوماسية كما ظل جزء آخر من ذهنه مأخوذاً بمسألة إيجاد الطريقة المناسبة لمواجهة تلك الأخطار. فكانت تركية في الظاهر مصممة على اتباع سياسة الحياد أو على الاقل هذا ما كان رجال جمعية الاتحاد والترقي — وهي الحزب الحاكم في ذلك الوقت — يرددونه على الدوام ولكن لم يكن من المعقول أن يصدق كتشنر هذا الادعاء بسبب القلق الذي كان يساوره، فقد شعر بأن التصديق قد يعرض البلاد لأخطار جمة ولهذا عمل على اقناع مجلس الوزراء باتخاذ بعض التدابير على أثر تلقيه اقتراحاً من ستورز في أواسط ايلول.

كان ستورز يعمل بنشاط منذ عودته إلى مصر وحده بدون رئيسه. فان الصراحة التي حدثه بها عبدالله قبل أشهر قليلة نبهت ذهنه الحاد إلى المعاني البعيدة التي تبنى على تذمر العرب وأدرك بوضوح ادراكاً لم يتوصل إليه سواه في ذلك الوقت امكان الاستفادة من ذلك التذمر وقد ازداد تمسكاً بهذا الرأي بنتيجة الابحاث التي تهيأ له اجراؤها كسكرتير شرقي مع عدد كبير من الزعماء العرب المقيمين في مصر فأرسل كتاباً خاصاً إلى كتشنر طلب فيه السماح له بالتأكد من عبدالله عن الجهة التي سيقف العرب إلى جانبها فيما إذا دخلت تركية الحرب كما ذكر انهم إذا وقفوا إلى جانب بريطانية حسنوا الوضع الحربي تحسيناً بالغاً بتقويتهم اطراف الجيش وهذا بالاضافة إلى الاعتبارات الثانية الكبرى، ولعله لم يستعمل في ما كتب هذه الكلمات بعينها ولكن هذا معنى ما خطه.

تبنى كتشنر هذا الاقتراح فوراً وأبرق إلى ستورز بتعليماته بعد أن أخذ رأي مجلس الوزراء فطلب إلى ستورز بصورة خاصة أن يستفهم من عبدالله عما إذا كان أمير مكة يود السير في خطوات تركية أم انه سيقف في صف بريطانية في حال اقناع ألمانية لتركية بدخول الحرب إلى جانبها . وقد أرسلت هذه التعليمات في آخر اسبوع من شهر ايلول أي قبل أن تعلن تركية الحرب بستة أشهر وقضى ستورز بضع ايام في البحث عن رسول أمين يمكن الاعتماد عليه للسفر إلى الحجاز سراً وهناك يجد لنفسه طريقة يتسرب بواسطتها إلى مجلس عبدالله دون أن يلفت النظر إلى شخصه . وفي أواسط اكتوبر بلغ الرسول — وهو مصري يعرف باسم علي أفندي — مكة حيث أدى رسالته وعاد مزوداً بجواب خطي من عبدالله .

وضعت رسالة كتشنر أمير مكة في موقف دقيق بل فائق في الدقة فقد كان يعمل على تثبيت سلطته في الحجاز ولو أدى ذلك إلى منازلة الترك وكان هذا قبل نشوب الحرب بأشهر عديدة في وقت لم يدر فيه في خلد أحد ان حرباً عالمية ستقع وان تركية ستدخلها ، وهو عهد كان فيه الخلاف بين الحسين والترك ناشئاً عن قضايا تتعلق بالحجاز ومنحصراً فيها أما الآن وقد وقعت الحرب بالفعل وأصبح دخول تركية فيها قريب الاحتمال فقد توسع الموضوع وأصبح ذا صلة بمستقبل جميع الاجزاء العربية في المملكة العثمانية . أما إذا دخلت تركية الحرب بالفعل وانصرفت بكليتها إليها أفلا ينشأ عن ذلك أخيراً سنوح الفرصة التي كان العرب ينتظرونها من زمن بعيد ؟ وقد خيل إلى العرب ان أمامهم طريقين : فاما الوقوف إلى جانب تركية في ساعة حاجتها وبهذا يكسبون عطفها كنتيجة لاعترافها بجميلهم معها ، واما الثورة عليها والفوز بحريتهم بحد السيف . فأي واحد من هذين الطريقين يسلكون ؟

ابدى ولدا الحسين اللذان استشارهما في الامر رأيين متعارضين : أما فيصل فكان يحبذ الطريق الاول لاعتقاده الجازم بأن لفرنسة وانكلترة اطماعاً الاولى في الشام والثانية في المناطق الجنوبية من العراق ولم يحو عرض كتشنر أية ضمانة تبدد المخاوف الناجمة عن هذه الاطماع ، وبالاضافة إلى ذلك فان العرب في نظره غير مستعدين للأمر استعداداً كافياً مما جعله يخشى على الثورة من الفشل (١) . وأما عبدالله فكان يرى غير هذا الرأي لأنه بانتسابه إلى احدى الجمعيات السرية اطلع على دخائلها ففهم قوة الشعور الثوري السائد ولما كان من المتفائلين بطبعه فانه كان على ثقة من ان كلا من دمشق وبغداد ستلبي نداء الثورة حالاً . وقد شعر بأن الاسلوب الواجب اتباعه هو عدم رفض ماعرضه كتشنر بداعي انه عرض ناقص بل التوصل عن طريق المفاوضة إلى معرفة ما إذا كان هذا العرض ينطوي على ضمانة كاملة لاستقلال العرب .

وتمسك كل واحد من الاخوين برأيه تمسكاً عنيداً ولم يحيدا قيد انملة عن موقفهما هذا في الاجتماعات التي كان يدعوهما إليها والدهما للمداولة الهامسة . وكان الحسين ميالاً على وجه العموم إلى الأخذ برأي فيصل القائل بعدم استعداد العرب في المناطق الاخرى ومع ذلك فان الحاح عبدالله جعله يتريث ويفكر حتى اتخذ في النهاية قراراً وسطاً : ان يقوم من جهة بارسال الرسل

(١) ذكر لورنس في كتابه (اعمدة الحكمة السبعة) كما ذكر غيره من الكتاب ان فيصلاً كان في ذلك الوقت عضواً في جمعية سرية عربية ومحبذاً لفكرة الثورة ولكن الحقيقة كما ذكرها لنا فيصل نفسه هي انه لم ينتسب إلى أية واحدة من هذه الجمعيات قبل الحرب وانه لم يعتنق فكرة القيام بثورة عربية الا عند زيارته دمشق عام ١٩١٥

إلى بلاد الشام وإلى كبار امراء العرب ليكشفوا حقيقة الشعور القومي ومبلغ الاستعداد للعمل ويجسوا نبض الزعماء ، ومن جهة ثانية أن يتحف كتشنر بجواب يحوي مقداراً قليلاً من التشجيع ، دون أية زيادة ، يكفي لاستمرار الامل في نفسه باكتساب العرب . فأنشأ رسالة موجهة إلى ستورز وقعها عبدالله وقد أبدى فيها ميله إلى التفاهم مع بريطانية العظمى وأشار إلى عدم تمكنه في الوقت الحاضر من تغيير موقفه الحيادي الذي يرغمه مركزه في الاسلام على اتخاذه . وقد حصر ملاحظاته في الحجاز متجنباً بكل دقة وحذر الادلاء بما يستشم منه انه ينطق باسم سائر أجزاء العالم العربي ملمحاً بأنه قد يستطيع دفع أنصاره القريبين منه مباشرة إلى الثورة في حال قيام الترك بعمل نهائي في الموضوع وعلى شرط الحصول من بريطانية على وعد يبذل المساعدة الفعلية (١)

تلقى ستورز هذه الرسالة قبل نهاية اكتوبر فأرسل بها برقية إلى لندن على الفور ولا شك ان كتشنر استلم نصها في وقت قريب من استلامه كتاباً من صديقه القديم السيرجون ماكسويل الذي كان في ذلك الوقت يقود القوات البريطانية في مصر وكان كتابه مؤرخاً في ١٦ اكتوبر وفيه يقول مقترحاً : « . . . لست بمطلع على سياسة وزارة الخارجية ولكني أرى أن نتصل بالعرب في مكة واليمن ونحملهم على القيام في وجه الترك » .

(١) لم يصل إلى علمنا ان نص هذه الرسالة اذيع حتى الآن ونحن مطمئنون إلى ان ما أثبتناه أعلاه هو خلاصة صادقة لمضمونها وقد توصلنا إلى هذا الاعتقاد بنتيجة أحاديث عديدة أجريناها مع المغفور له الملك حسين وأولاده . وتنطبق هذه الملاحظة على جميع الرسائل المتبادلة بين كتشنر وعبدالله في هذا الدور .

كانت المدة التي خدم فيها ماكسويل في الشرق طويلة وكان لرأيه وزن عند كتشنر ففي ٣١ اكتوبر أبرق كتشنر إلى دار الاعتماد البريطانية في القاهرة نص رسالة جوابية موجهة إلى عبدالله . بدأت الرسالة باعلام المخاطب بدخول تركية الحرب وحوت وعداً قاطعاً للحسين بأنه إذا انحاز مع مريديه إلى جانب انكلترة ضد تركية فان الحكومة البريطانية تضمن بقاءه في منصبه كأمير لمكة مع احتفاظه بجميع الحقوق والميزات المتصلة به كما تعهدت بالدفاع عنه ضد كل اعتداء خارجي وتضمنت الرسالة كذلك وعداً موجهاً للعرب بصورة عامة بمساعدتهم في محاولتهم الوصول إلى الحرية شريطة أن يرتبطوا بانكلترة . وختمت الرسالة باشارة تلمح إلى ان الشريف يستطيع الاعتماد على اعتراف بريطانية به في حال مبايعته خليفة للمسلمين .

استلم عبدالله هذه الرسالة في ١٦ نوفمبر في وقت حرج كما سيتضح لنا فيما بعد فنالت لديه أطيب القبول لأنها أعطت الحسين الضمانة التي كان يطلبها بعينها فيما يتعلق بالحجاز وأما في موضوع المناطق العربية الاخرى فقد فتحت باب أمل يغري بمستقبل بهي من التحرر القومي . لقد صيغت الرسالة بألفاظ مدروسة دراسة دقيقة بقصد ابقائها عامة في مدلولها ولكن النص كما وصل إلى يد عبدالله (١) حوى عبارات مثل « الامة العربية » و « تحرير العرب » ومهما كانت المعاني التي قصدها كتشنر حين كتب هذه العبارات وهو مستغرق في وسط مهامه الجسيمة فانها في نظر الشريف كانت تنطوي على دعوة لاشك فيها إلى تهيئة ثورة يقوم بها جميع العرب . هذا هو التفسير الذي فسر به الكتاب الموجه إلى ابن الحسين باسم كتشنر وكان كتشنر يتمتع بشهرة في بلاد الشرق تفوق شهرة أي انكليزي معاصر وكانت كلمته

---

(١) أي كما عرب في دار الاعتماد البريطانية بالقاهرة .

تحمل على محمل الصدق بدون أدنى تردد ولهذا شرع الحسين يوجه همه نحو تحقيق تلك الغاية .

أجاب عبدالله ، بناء على أمر الحسين ، بكتاب أرسله إلى القاهرة وتعهد فيه باسم أبيه بأن يسير في سياسة تحالف سري مع انكلترة . وقد أكد عبدالله مرة ثانية عدم استطاعة الشريف القيام بأي عمل عدائي مكشوف ضد الترك قبل أن يتم جميع استعداداته ولهذا طلب منحه مهلة يتمكن خلالها من دراسة وضعه الحقيقي وجمع قواه حتى تجيء الفرصة المواتية لاعلان العداء كما وعد ستورز بأن يبعث له برسالة ثانية في المستقبل . وصل جواب عبدالله القاهرة في أوائل ديسمبر وبه يختم الجزء الأول من المؤامرة التي اشترك فيها الانكليز والعرب وأما الجزء الثاني فانه سيستهل بعد ثمانية أشهر ، أي في يولية القادم ، فور انتهاء الحسين من استجواب الزعماء العرب والمفاوضة معهم وكانت فاتحة هذا الجزء المذكرة التي كتبها الحسين إلى السير هنري مكماهون وهي الأولى في سلسلة من المذكرات الدبلوماسية التي تؤلف ماهو معروف باسم مراسلات مكماهون .

— ٤ —

كانت النتيجة الطبيعية والفورية لدخول المملكة العثمانية في الحرب إلى جانب الدول الوسطى ان قضية أماني العرب القومية لابد لها من الانجذاب إلى قلب دائرة السياسة الاوربية ، فقد أصبح موقف العرب أمراً ذا أهمية مباشرة للحلفاء وبصورة خاصة لبريطانية العظمى لأن تركية كانت في مركز تستطيع معه أن تهدد المصالح البريطانية في نقطتين حيويتين وذلك بفضل استيلائها على الشام والعراق . أما النقطتان فهما قناة السويس ورأس خليج فارس حيث تقع آبار النفط القيمة التابعة للشركة الانكليزية الفارسية . ولا يجوز

انكار الخطر الذي يهدد بريطانية في الجزيرة العربية نفسها ، فان الاتراك كانوا يستطيعون استعمال ساحل البحر الاحمر الطويل لاتخاذ مراكز عديدة وخفية فيه لبث الالغام أو لارسال الرسل إلى مصر والسودان وداخل افريقية لتوزيع السلاح واثارة النفور ، وكان في اليمن حامية مؤلفة من فرقتين تكفي قوتهما لتهديد عدن . أما في الحقل السياسي فان الخليفة السلطان إذا أعلن الجهاد ونال تأييد شريف مكة له فيه تمكن من تحويل الحجاز إلى مركز لبث الدعاية المهيجة التي تنبعث منه لا لتثير البلاد العربية فحسب بل لتحرك كذلك الاقوام الكثيرة الاسلامية وغير العربية التي تعيش تحت حكم الحلفاء أو على أطراف المناطق التابعة لهم .

كان خطر الدعوة إلى الجهاد أكثر هذه الأخطار هولاً وكان من المسلم به انه من ضمن الاعمال الاولى التي ستقوم بها تركية إذا دخلت الحرب إلى جانب الدول الوسطى لكي تثير العالم الاسلامي ضد الحلفاء ، وفي هذه الحال يعلن السلطان بصفته خليفة المسلمين وامامهم الاعلى ان تركية وهي أكبر دولة اسلامية وفيها مقر الخلافة تحارب دولاً مسيحية تريد خرابها وان الاماكن المقدسة باتت في خطر وان واجب جميع المؤمنين الصادقين في إيمانهم يدعوهم إلى الالتفاف حول راية الدين . ولم يكن من السهل على المرء أن يقدر سلفاً مبلغ الاثر الذي ستحدثه هذه الدعوة فلم يسبق في العهود الحديثة أن أعلن الجهاد على هذا المقياس الواسع الذي يشمل العالم كله وكان لابد لدعوة كهذه تصدر عن تركية من أن يصيبها شيء من الضعف بسبب تحالف تلك الدولة نفسها مع دول مسيحية . ومن جهة ثانية فان الشعور بتضامن الامم الاسلامية الذي بذل عبد الحميد قصارى جهده لتنميته كان خاملاً ، ان تعذر ادراك حقيقته ادراكاً صحيحاً ، فلم يكن

من الجائز انكاره . ومهما يكن من الامر فانه لم يمض كبير وقت على ثورة المهدي في السودان ومقاومة المسلمين للتقدم الاوربي في تونس ومراكش وطرابلس الغرب — تلك الحركات التي أقامت الدليل على ان اثارة الدافع الديني في الدعوة إلى القتال مازالت محتفظة بشيء من قوتها القديمة وقدرتها على تهييج النفوس . ثم ان الجهاد وان لم ينجح الا نجاحاً جزئياً فانه لابد من أن يشكل خطراً كبيراً على الحلفاء وهو خطر ليس في وسع انكلترة أو فرنسة أو روسية انكاره ، فان الاولى تحكم مايقارب السبعين مليوناً من المسلمين في الهند وستة عشر مليوناً في مصر ، والثانية تحكم عشرين مليوناً في افريقية والثالثة تحكم عدداً مماثلاً ضمن حدودها .

كانت مصر معرضة لخطر أعظم من غيرها من البلاد المذكورة فقد كان من المحتمل أن تخلق الدعوة إلى الجهاد إذا نجحت مصاعب جمة أمام بريطانية العظمى أو فرنسة أو روسية في الاجزاء النائية من العالم الاسلامي مثل الهند أو مراكش أو بلاد القفقاس ولم يكن من المتوقع أن تطور هذه المصاعب فتصبح شيئاً أكثر من ثورات محلية على أسوأ تقدير أو ان تتطور إلى حرب محلية على حدود الهند الشمالية الغربية في حال تلبية الافغان داعي الجهاد ، أما في مصر فان هذا التهديد يحوي في طياته خطراً هائلاً لان اقفال قناة السويس ليس معناه ازعاج انكلترة فحسب بل شل حركتها في نقطة من نقاطها الحيوية . وعلى هذا يمكننا تقسيم العالم الاسلامي الذي سيدعى للجهاد إلى قسمين متباعدين : يشكل الاول نطاقاً خارجياً مؤلفاً من امم اسلامية وغير عربية ويشكل الثاني نطاقاً داخلياً مؤلفاً من بلاد عربية مركزها الجغرافي مصر . وكان لابد للقيام بهجوم بري على قناة السويس من اجتياز مناطق يقطنها العرب ، ومن جملة الخطط التي يمكن اللجوء إليها

لدرء هذا الخطر الخطة الرامية إلى الفوز بانتصار العرب لجبهة الحلفاء . وهذا ما كان كتشنر يدركه ادراكاً تاماً عندما بعث برسالته إلى الشريف وهذا هو العمل الذي قذف بالقضية العربية إلى قلب دائرة السياسة الاوربية كنتيجة فورية لدخول تركية الحرب .

— ٥ —

أصدرت الحكومة التركية أمرها بالتعبئة العامة في ٢ اغسطس ثم قامت تحت ستار هذه التعبئة ببعض الاستعدادات ذات الصفة العدائية فسببت قلقاً بالغاً في القاهرة وهذا بالرغم من تظاهر تركية بالحياد . وكانت بلاد الشام من الوجهة العسكرية أهم البلاد المجاورة لمصر وكانت حامية الشام تتألف من جيشين ويتألف كل جيش من فرقتين أو ثلاث فرق فيبلغ عدد الجند في الاوقات العادية مجموعاً يتراوح بين الستين ألفاً والسبعين ألفاً (١) ، فلما دخلت تركية الحرب ضمت هذه المجموعات إلى بعضها فتشكل منها الجيش الرابع الذي كان مقر قيادته في دمشق وكان هدفه الرئيسي الذي اذيع على الناس الهجوم على مصر . وفي ٢٥ ايلول أعلمت دار الاعتماد البريطانية في القاهرة ووزارة الخارجية البريطانية ان الترك يقومون بحشد الجيوش سراً قرب الحدود المصرية وأمطرت السفارة البريطانية في القسطنطينية لندن بوابل من البرقيات خلال شهر اكتوبر أخبرت فيها بوجود حركات مقلقة للجيوش والاعتدة والذهب وكلها موجهة لتجهيز وتمويل العشائر العربية في سورية الجنوبية وفي سيناء تمهيداً لمهاجمة مصر كما أنبأت بوجود ستمائة من الوعاظ

(١) كانت حامية مصر في زمن السلم تبلغ أقل من ستة آلاف جندي بينما كان الجيش المصري مؤلفاً من ثلاثة عشر ألف جندي ولكن معظمهم كانوا في السودان .

يجتمعون في حلب لينبثوا منها إلى باقي أجزاء الشام فمصر لتحريض المسلمين على القيام ضد بريطانية العظمى ، وقد وصل عدد كبير من الضباط الالمان إلى الشام حيث عينوا في مراكز مختلفة في هيئة أركان الجيش الرابع بينما انصرف غيرهم من فرقة المهندسين إلى العمل في سورية الجنوبية فقاموا ببناء الطرق والسكك الحديدية وكلها متجهة نحو الحدود المصرية ، وعرف كذلك ان الجيش التركي الثاني عشر الذي تتألف احدي فرقه بكاملها تقريباً من جنود عرب آخذ في الانتقال من الموصل إلى حلب . وأبرقت السفارة بتاريخ ٢٢ اكتوبر تقول ان منشوراً وزع على الناس يحض الجنود المسلمين في جيوش الحلفاء على العصيان دفاعاً عن الاسلام وان النية معقودة على تهريب الالوف من هذه المناشير إلى مصر عن طريق الشام .

أما على حدود مصر الغربية فقد كان السنوسي ، وحقيقة موقفه مجهولة ، يدعي الصداقة لبريطانية العظمى ولكنه في الوقت نفسه كان على صلة وثيقة بالترك وبسلطان دارفور ، وكان مستمراً في حربه ضد الايطاليين فنجح بحصرهم في جزء ضيق من الساحل حيث احتفظوا بمواقعهم بفضل مدافع بوارجهم ، وما لبث الترك أن بعثوا إليه بالرسل يحملون معهم عروضاً سخية من مال ومنصب مع مطالبة الخليفة له بأن يعلن الدعوة إلى الجهاد باسمه (١) .

---

(١) وقع في يد الجنرال ماكسويل في ذلك الحين (أي حول شهر اغسطس عام ١٩١٥) عن طريق المصادفة مجموعة من الرسائل التي وجهها السنوسي إلى زعماء وصحافيين مسلمين في كافة أنحاء الجزيرة العربية والهند يدعوهم فيها إلى الجهاد ويعلمهم انه يمثل الخليفة في شمال افريقية . (التاريخ الرسمي للحرب — الحركات العسكرية في مصر وفلسطين — الجزء الاول ص : ١٠٥) .

وعلى هذا فقد كان السيد أحمد السنوسي يشكل خطراً ثانياً ملموساً على مصر بفضل مكانته كزعيم لعدد كبير من اتباعه المسلمين وما يتمتع به من نفوذ لدى الرؤساء المسلمين المقيمين على حدود مصر والسودان وانه كان مزوداً بكميات كبيرة من السلاح والعتاد .

أما في جزيرة العرب فقد كانت الحامية التركية مؤلفة من أربع فرق موزعة بين الحجاز وعسير واليمن وكانت سلطة الحسين على القبائل في الحجاز كافية لتشكيل قوة كبيرة من بينها تشترك في الهجوم على مصر إذا شاء ، وكان باستطاعته أن يجند من العربان مالا يقل عن الاربعين ألفاً ببنادقهم بينما كان يستحيل على الترك أن يتوصلوا إلى اثارة البدو بدون مساعدته ، وكانت الحامية التركية في الحجاز وعسير مؤلفة من فرقتين ولكن تمرد القبائل وصل حداً لم يتجرأ معه الجند على التوغل في داخل البلاد بل بقوا محصنين في قلاعهم ومراكزهم البعيدة ، فلكي يتوصل الترك إلى تجنيد العشائر كان لابد لهم أولاً من الحصول على مؤازرة الحسين فاذا أيدهم وساعدهم استطاعوا توجيه حامياتهم المحصورة كيفما شاؤوا بالاضافة إلى تشكيل قوة كبيرة من رجال العشائر يمدون بها القوى التي تتألف منها الحملة على قناة السويس .

لم يكن للادريسي قيمة عسكرية الا ضمن حدوده المحلية فقد كان باستطاعته أن يعطل خطوط المواصلات التركية بين الحجاز واليمن وأن يهدد مؤخرة الترك إذا هاجموا عدن على ان فائدته الكبرى للحلفاء كانت في الساحل حيث يتمكن من الحيلولة دون استعمال الترك لشواطئ عسير الطويلة كقاعدة بحرية معادية .

كان من أخطر المسائل التي أثارت اهتمام أولي الامر في عدن موقف

الامام في اليمن فان معظم الجنود في الحامية التركية المؤلفة من فرقتين كانوا أشداء ومن ذوي الخبرة كما كانت صلاتهم الظاهرية بالسكان ودية على عكس زملائهم في الحجاز ، وكان الهجوم على عدن أمراً محتمل الوقوع فاذا وقف الامام موقفاً مؤيداً منه أو اشترك فيه اتباعه قوي الامل في نجاحه .

أما في الجهات المتاخمة لخليج فارس فان وضع ابن الرشيد في شمر وابن السعود في نجد كان يتوقف بالدرجة الاولى على النزاع القائم بينهما . كان شعور الاثنين نحو الترك شعور بالعداء وكانا يتمتعان بعزة لم يتمتع بها غيرهما من امراء العرب في الاجزاء الغربية من جزيرة العرب وهي انهما كانا سيدين في داريهما فلم يكن عند أحدهما موظفون من الترك أو حاميات عسكرية ، ومع ذلك فقد رأينا سابقاً كيف ان حكام شمر استنجدوا بالترك فأتوا لمساعدتهم ونشأ عن هذا حلف لم يعمل واحد من الطرفين على نقضه ، وعليه فقد كان من المسلم به ان ابن الرشيد سيقف في صف الترك حالما تعلن الحرب .

— ٦ —

لعلنا لانكون من المبالغين إذا قلنا ان كتشنر كان يفوق سواه من سياسي الحلفاء في انه أدرك دونهم أخطار الوضع في العالم العربي فلا يجوز أن ننسى قط فضله في العمل على درء هذه الاخطار بالاشتراك مع ستورز اذ كانا أول من فكر باتخاذ خطوة جريئة هي التحالف مع أمير مكة . لقد وجه كثير من النقاد له اللوم على هذه السياسة منذ اقرارها فقالوا انها سياسة خاطئة وانها اعتمدت على تقدير ناقص لحقيقة الاوضاع في الجزيرة العربية وان بريطانية العظمى « راهنت على حصان خاسر » حين اختارت الحسين كحليف أول لها ضد الترك وفضلته على ابن السعود صاحب القوة

والسلطان . ونحن لانصيب الحقيقة إذا وصفنا هذا الانتقاد بأنه غير عادل لأنه بنظرنا في غير محله البتة فان الخدمة الكبرى التي أداها الحسين لقضية الحلفاء فيما يتعلق بالدعوة إلى الجهاد لم يكن في وسع غيره أن يقوم بها وكان عمل كتشنر في الحصول على تأييده قبل فوات الاوان ضربة سياسية رائعة تدل على فطنة حادة ونظر ثاقب وبعيد .

وإذا نظرنا إلى المساعدة العسكرية التي يستطيع الشريف حسين تقديمها وإلى قيمة تدخله السياسية أيقنا ان وضعه كان فريداً في نوعه . لقد حوت جزيرة العرب امراء غيره يسيطرون على اتباعهم سيطرة تامة ولا ينازعهم فيها أحد وفي يدهم موارد عسكرية لاتقل عن موارد الحجاز ومع ذلك فقد كان الحسين في نظر الحلفاء ذا ميزتين رئيسيتين لم تتوفرا في أي واحد من جيرانه : فانه من الناحية العسكرية مشرف على قلب المنطقة التي تسيطر عليها تركية في الجزيرة ، فان أقصى ما كان باستطاعة كل من الادريسي في عسير والامام يحيى في اليمن عمله هو اشغال الحاميات المحلية وجعلها غير صالحة للعمل الحربي ، ولم يكن ابن السعود متصلاً بأية قوة تركية . وأما الحسين فقد كان باستطاعته أن يشكل جيشاً من عشائر الحجاز ويوقع ضربة شديدة في قلب القوات التركية المرابطة في الجزيرة كما انه كان قادراً على قطع المواصلات بين حاميتي عسير واليمن وبين الشمال فينجح بذلك في عزلهما . هذا من جهة ومن جهة ثانية كان الحسين من الناحية السياسية ينفرد بميزة لامثيل لها وهي مكانته في العالم الاسلامي المستمدة من نسبه ومنصبه ، فبينما كانت سلطة جيرانه منحصرة على كل حال في المناطق التي يحكمونها كان في وسعه هو أن يجتاز جميع الحدود ويوصل صوته إلى الجماهير الكبيرة التي يتألف منها العالم الاسلامي . فقد كان الحسين من سلالة الرسول وكان

سادن الاماكن المقدسة فكان موضع الاجلال العام لهذين السببين ، وبفضلها أصبح يتبوأ مركزاً خاصاً به لاينافسه عليه أحد كما ارتفع حتى استقر في مقام سام يتمكن وهو فيه أن ينازع سلطة الخليفة نفسه في أي موضوع يتعلق بسلامة المدن المقدسة . كان الحسين أميراً على مكة وهي مركز الاسلام والنقطة التي تتوجه إليها أنظار كافة المسلمين فاذا ارتفع صوته لم يكن في مقدور أي مسلم مؤمن — وبصورة خاصة إذا كان مسلماً عربياً — أن يصم اذنه عن سماعه . وإذا نادى السلطان معلناً ان الاماكن المقدسة في مكة والمدينة باتت في خطر لم يلب نداءه أحد مالم يؤيده الحسين الذي كان هذا الحق منحصراً فيه دون سواه . وعليه فان مؤازرة الحسين كانت عاملاً هاماً ، لا بل أساسياً ، في موضوع كموضوع الدعوة إلى الجهاد وكان الترك — مثل الحلفاء — حريصين حرصاً شديداً على الحصول على هذه المؤازرة وهذا مادعانا إلى القول بأن الانتقاد الموجه إلى كتشنر بداعي انه أخطأ في اختيار الشخص المناسب هو انتقاد في غير محله فلم يكن هناك مرشح غير الحسين يستطيع تجريد الدعوة إلى الجهاد من قوتها وأثرها إذا شاء الايؤيدها .

— ٧ —

تمت الدعوة إلى الجهاد في ثلاث مراحل خلال الشهر الاول الذي اعقب دخول تركية الحرب : في المرحلة الاولى أصدر شيخ الاسلام وهو أكبر موظف ديني في المملكة العثمانية فتوى بتاريخ ٧ نوفمبر قال فيها ان الواجب المقدس يقضي على جميع مسلمي الارض ، ومنهم المسلمون التابعون إلى حكم بريطانية العظمى وفرنسة وروسية ، بأن يتحدوا ضد تلك الدول الثلاث لأنها عدوة المسلمين ، وأن يشهروا السلاح في وجهها ووجه حلفائها ، وأن يرفضوا مساعدة الحلفاء في هجومهم على المملكة العثمانية وحماتها

الالمان والنمسويين والمجر في جميع الاحوال ولو أدى ذلك إلى تعريضهم لعقوبة الموت . ثم جاءت المرحلة الثانية بمنشور أذاعه السلطان على الجيش والاسطول بتاريخ ١١ نوفمبر وناشد فيه الجند بأن يقاتلوا ليخلصوا الاسلام من عبوديته ويدافعوا عن سلامة المملكة المهددة . وأخيراً جاءت المرحلة الثالثة بالبيان الذي وجه إلى العالم الاسلامي بتاريخ ٢٣ نوفمبر وقد وقعه شيخ الاسلام ومعه ثمانية وعشرون عالماً دينياً وقد صدّر باذن السلطان الذي ورد بهذه العبارة : « نأمر بتوزيع هذا البيان في جميع البلاد الاسلامية » . ناشد البيان جميع المسلمين في العالم من رعايا الدول الحليفة وغيرهم بأن يتبعوا تعاليم القرآن الكريم كما فسرتها الفتوى الشريفة ويشتركوا في الدفاع عن الاسلام والاماكن المقدسة .

ولم يقف الامر عند هذا الحد فقد اعقب هذه الاذاعات الرسمية الثلاث عدد من النشرات المؤيدة لها من ورقات وكراسات ونشرات دورية وغيرها من انواع المطبوعات المعدة بصورة خاصة للتأثير في عامة المسلمين ، وكان مؤلفوها من الالمان أو الاتراك على السواء وكتبت بجميع اللغات المعروفة في العالم الاسلامي وكانت تنشر بالملايين في جميع أنحاء المملكة العثمانية وتهرب إلى داخل مصر والسودان والهند وفارس والافغان وما وراءها . كانت هذه النشرات منوعة وتختلف اختلافاً كلياً في لهجتها ومحتوياتها فكان بعضها يحض الجنود على الفرار بمجموعهم من جيوش الحلفاء وبعضها الآخر يحث الناس على الاغتيال وعلى أنواع اخرى من التعدي الفردي وكلها تضرب على وتر واحد وهو ان الاسلام معرض للهلاك بسبب اطماع الدول الحليفة وان اشهار السلاح للدفاع عنه هو فرض الهي لايجوز لأي مؤمن أن يتقاعس عنه .

وأرسلت البعثات لكي تؤيد الكلمة المطبوعة بالكلمة الملفوظة وبذلك تزيد في حرارة الدعوة فأخذ الرسل من جميع الاصناف — كالوعاظ المتنقلين وطلاب العلم والفقهاء ومحترفي التهييج والمستشرقين الالمان — يضربون في طول البلاد وعرضها بينما نجح البعض بالتسرب إلى مصر والسودان والاجزاء الاخرى من افريقية الواقعة تحت حكم الحلفاء، وكانت جهودهم موجهة بالدرجة الاولى نحو اكتساب المسلمين من غير الترك واقناعهم بلزوم تلبية داعي الجهاد وكانت هذه المساعي مصروفة بصورة خاصة للتأثير في العرب ومن بعدهم في الهنود والافغانيين والفرس . ولم يكن مسلمو تركية ، وعمادهم فلاحو الاناضول الطيعون والمتدينون تديناً شديداً ، في حاجة إلى الاقناع بينما وجهت الدعوة للجهاد إلى العرب — ومركزهم الجغرافي يساعدهم أكثر من غيرهم على اقلاق الدول الحليفة — بقوة واصرار يؤكد ان واجب المسلمين جميعاً يقضي عليهم بالدفاع عن الاماكن المقدسة .

— ٨ —

كان شريف مكة يسير في طريقه بحذر شديد فانه عندما قرأ عروض كتشنر في الرسالة المؤرخة في ٣١ اكتوبر والتي استلمها في وقت قريب من اعلان الدعوة إلى الجهاد انحاز نهائياً إلى رأي عبدالله وأخذ به دون رأي فيصل . ومع ذلك فلم تكن الفرصة مواتية بعد للعمل اذ كان عليه أن يقوم ببعض الاستشارات التي لاغنى عنها مع القوميين العرب في الشام والعراق ومع جيرانه في الجزيرة العربية لكي يفهم منهم مبلغ المساعدة التي يستطيع الاعتماد عليها ، وكان لابد للقيام بهذه الاستشارات من مرور شهور عديدة تقضى بالتهيئة والصبر بسبب بعد المسافات والحاجة إلى الكتمان . وكان الترك خلال ذلك يطالبونه بالحاح بأن يعلن تأييده الدعوة إلى الجهاد

وأن يمد لهم يد المساعدة الفعلية وقد اغرقوه بسيل من الرسائل والبرقيات الصادرة عن القسطنطينية من الصدر الاعظم ومن أنور وطلعة وغيرهم من الاشخاص ذوي المكانة وأخيراً أخذ جمال باشا القائد العام للجيش الرابع في الشام يلح عليه بلزوم تأييده الدعوة إلى الجهاد تأييداً علنياً وبضرورة ارسال راية الرسول إلى دمشق وتشكيل جيش من عشائر الحجاز .

لم يكن الحسين ليقل عن الترك في دهائه وذكائه ولهذا كان موفقاً توفيقاً عظيماً حين اتخذ اجراءآته لمواجهتهم ، فقد رد على طلبهم تأييده الدعوة إلى الجهاد بأجوبة تفيض حماساً وقد صيغت بتلك العبارات المسهبة والغامضة التي كان يتقنها ويعتبر استاذاً فيها فكان مما كتبه انه سيؤيد الدعوة إلى الجهاد بكل قلبه وروحه وانه سيبتهل إلى الله داعياً بنجاحها وانه يباركها بخشوع وصمت واما تأييد الدعوة علناً فهو أمر لايفكر فيه البتة خوفاً من الاثر الذي سيتركه في نفوس الحلفاء والذي سيحملهم على الانتقام منه ولا سيما ان الاسطول البريطاني مسيطر على البحر الاحمر وقادر على مهاجمة جدة وساحل الحجاز الممتد ، فاذا ما أعلن موافقته على الجهاد أجابته انكلترة بحصار بحري تضربه عليه ولعلها تعمد كذلك إلى قذف الموانى الحجازية وبهذا تحول دون تموين الحجاز بالمواد الغذائية الآتية عن طريق البحر فتعرض السكان إلى نقص في غذائهم يعقبه مع مرور الايام مجاعة . فهو يؤيد الجهاد بكل قلبه ولكنه لن يعلن هذا التأييد خوفاً من وقوع مجاعة في الحجاز تؤدي إلى ثورة القبائل . وختم قوله بالاعراب عن ثقته بحكمة السلطان العظيمة التي تجعله يدرك حقيقة الموقف .

لم يحد الحسين عن هذا الموقف المتين قيد شعرة وكان الترك مضطرين إلى تصديق مدعاه ولكنه بعد أن ثبت في وقفته هذه راح يتظاهر بالتحمس

لتلبية رغبات الترك الاخرى كما أخذ يقدم لهم في بعض الامور مقترحات دقيقة لم تخطر في بالهم . فقد أصدر أوامره باخراج راية الرسول — أو بالحرى الثوب المعروف بهذا الاسم — من مقرها في المدينة في احتفال مهيب وارسالها إلى دمشق محاطة بالمظاهر نفسها لكي يتبرك بها الجيش الذي كان على وشك المسير على مصر ، ثم اتخذ التدابير اللازمة لتجنيد المجاهدين من قبائل الحجاز وأرسل أولاده للاشراف على ذلك ولاقامة البرهان على انه جاد في عمله ، وفي الوقت نفسه وتحت ستار كثيف من الكتمان قام بارسال رسل يحملون كتباً منه إلى الادريسي والامام يحيي وابن السعود وابن الرشيد ليسبر غورهم في موقفهم من الترك وليشرح لهم السبب الذي دعاه إلى الاحجام عن تأييد الدعوة إلى الجهاد .

تلقى الحسين خلال هذه المدة التي امتدت من يناير إلى مارس عام ١٩١٥ اشارة تشجيع خفي صادرة عن جهة بريطانية اخرى : السير رجينالد وينغيت حاكم السودان العام الذي خدم في السودان مدة ثلاثين سنة فاكتسب معرفة أكيدة في السياسة الاسلامية المحلية المعقدة . حمل وينغيت ، على مسئوليته الخاصة ، السيد علي الميرغني وهو أكبر عالم ديني في السودان على أن يبعث إلى الحسين برسالة ودية وخالية من كل تعهد ولكنها تحوي مايفهم منه دعوته إلى بيان سياسته ووجهتها ولم يفت الحسين أن يقدر مصدر هذه الرسالة الحقيقي ولهذا أجاب بكتاب يفيض وداً ولكنه بعيد كل البعد عن الغموض تحدث فيه عن استبداد الترك وعن رغبته الشديدة في الخلاص منه كما أتى على ذكر العناصر التي تناهضه في تحقيق هذه الرغبة . فأجاب السيد علي باقتراح معين قال فيه انه صديق السردار (١) فليعلمه الحسين بما

---

(١) السردار هو القائد العام للجيش المصري وهذه الوظيفة هي احدى وظائف حاكم السودان العام .

يستطيع القيام به لمساعدته فاذا فعل بذل نفوذه لدى السردار في سبيل تحقيق أمانيه . على ان هذا الاقتراح جاء سابقاً لاوانه لان الحسين لم يكن قد شرع في مشاوراته بعد ولهذا أتى رده عليه منطوياً على شيء من التحفظ وقد أضاف في هامش الرسالة انه يغدو ممتناً إذا تلقى أي اقتراح قد يرى « صديقكم » ابداءه . وكان جواب السيد علي عن ذلك ان الحسين إذا أوضح رغباته فلعل « الصديق » يستطيع مساعدته بالمال والسلاح والعتاد . ولكن الحسين لم يبادر إلى توضيح رغباته بل أرسل رسله بعد أسابيع قليلة أي في شهر ابريل ليقفوا من وينغيت نفسه على مدى المساعدات الممكنة في السودان .

كانت هذه المراسلة عاملاً كبيراً من العوامل المشجعة للشريف حسين وهي بالرغم من انها لم تنته إلى شيء معين فقد أقامت الدليل على ان زعيم المسلمين في السودان يؤيد سياسته كما تبين منها ان تقديره كان صحيحاً إذ أدرك ان الميرغني كان يعمل بالاتفاق مع وينغيت ، الامر الذي زاد ثقته بصدق رغبة بريطانية العظمى في التحالف معه .

— ٩ —

أثار الحسين غضب الترك برفضه تأييد الدعوة إلى الجهاد التي كانت موجهة بالدرجة الاولى إلى العالم العربي بغية اشعال نار الحمية في صدور العرب ، ولم يكن في مكنة الترك مجادلته في العذر الذي أبداه لأنه عذر معقول ولكن هذا الامر نفسه زاد في غضبهم فراحوا يعدون العدة لعزله وتنصيب شخص آخر في مكانه يتحلى باللين وسرعة الانصياع كما امروا والي الحجاز بتهيئة السبيل سراً لاعتقاله دون أن يؤدي ذلك إلى ثورة القبائل ، وفي الوقت نفسه تلقى الحسين دعوة رقيقة لزيارة دمشق للمفاوضة مع جمال باشا .

وكان الترك في تلك البرهة يبذلون قصارى جهدهم لايهام العرب بأن أمير مكة قد أيد الدعوة إلى الجهاد وباركها فأمروا الوعاظ بأن يذيعوا هذه الكذبة بلا خجل كل اسبوع في خطبة الجمعة من جميع المنابر في الشام والعراق كما أوعزوا إلى الجرائد بأن تمثل دورها في اذاعة هذه الاكاذيب فأخذت تكثر من نشر البيانات الملفقة في هذا الموضوع . ومثالاً على ذلك نأتي على نقل المقطع التالي من بيان ظهر بتاريخ ٢٩ ديسمبر في (الاتحاد العثماني) التي تصدر في بيروت :

« ذكرنا البارحة استناداً إلى ما استيقناه عن المصادر الرسمية ان الامير عبدالله ابن شريف مكة قد تطوع للخدمة في سبيل الجهاد ومعه مفرزة كبيرة مؤلفة من عربان الحجاز وقد فهمنا الآن ان شريف مكة قد أعلن الدعوة إلى الجهاد في جميع أنحاء الحجاز تلبية لرغبة الخليفة وقد شرعت القبائل في كل مكان تجيب داعي الجهاد وهي مجهزة بسلاحها الكامل » .

كانت جميع الصحف في تلك الفترة مملوءة بمثل هذه البيانات وقد اذيع كذلك نبأ يقول بأن الشريف قد قبل زيارة دمشق لكي « يتفاوض مع جمال باشا ويعلن ولاءه للحكومة العلية » . على ان المدة التي قضاها الحسين في القسطنطينية كانت في الواقع كافية لجعله يعلم بشكل لايقبل الشك ما قد يترتب على زيارته دمشق من نتائج .

وقام الترك بحركات مماثلة في العراق حيث أوعزوا إلى علماء دينيين من السنيين والشيعيين بأن يصدروا النشرات للحض على الجهاد كما قاموا بتظاهرات عرضوا فيها بعض الآثار المنقولة من العتبات المقدسة في النجف وكربلاء محاولين بذلك اثارة الشعور العام ، وكان مما عرضوه السيف الذي

زعموا انه سيف الحسين ابن الخليفة علي الذي استشهد قبل ثلاثة عشر قرناً ، والراية المزعوم انها كانت راية العباس عم الرسول — وهو زعم واه جداً . كما سخرت الجرائد ولا سيما (صدى الاسلام) التي تصدر في بغداد كواسطة لنشر الانباء الملفقة والنداءات المثيرة على غرار ما كان يحدث في الشام .

وأرسل الترك الرسل إلى داخل الجزيرة يحملون الهدايا والعبارات المعسولة إلى امراء العرب فأثمرت المفاوضات مع ابن الرشيد فوراً لأنه كان تواقاً إلى التحالف مع الترك ولو لم يحصل بنتيجة ذلك على شيء سوى تأييدهم له ضد ابن السعود الذي كان يخشى بأسه ، وكانت حالة الامام يحي شبيهة بهذه الحالة فقد أبدى كل الرغبة في البقاء على وضعه كحليف لهم ، أما الادريسي فكان عدو الترك اللدود ولهذا أهملوا أمره ، وفعلوا مثل ذلك مع الشيخ مبارك بن الصباح أمير الكويت الذي كان مرتبطاً بمعاهدة مع بريطانية العظمى منذ عام ١٨٩٩ فلما دخلت تركية الحرب عقد على الفور معاهدة جديدة مع بريطانية تقضي بقيام التحالف الفعلي بين الطرفين ، وأما ابن السعود فلم يفز الرسل الذين زاروه بأي وعد قاطع منه ، وكان عذره في ذلك ادعاءه الخوف من هجوم بريطانية على سواحله في خليج فارس ، وواقع الامر انه كان في ذلك الحين يتفاوض مع حكومة الهند حتى انه كان يعتبر متحالفاً معها فلما تلقى في بداية العام رسالة الحسين التي يعلمه فيها برفضه تأييد الدعوة إلى الجهاد أجاب محبذاً موقفه هذا تحبيذاً شديداً . وعلى هذا فاننا إذا نظرنا إلى كبار امراء العرب الخمسة وجدنا ان ابن الرشيد والامام يحي انحازا بالفعل إلى صف تركية بينما وقف الشريف وابن السعود والادريسي ينتظرون أن تتحقق وعود البريطانيين المغرية فتنقلب عهوداً ملزمة وعندئذ يقومون باعلان الثورة .

ولم يحصر الترك جهودهم في آسية بل اتخذوا التدابير اللازمة لتوجيه دعوة الجهاد إلى البلاد العربية الواقعة في افريقية فاستطاع رسلهم أن يدخلوا مصر والسودان خفية ويجوبوا وادي النيل ليهمسوا رسالتهم الداعية إلى الثورة ، وأرسلت بعثة إلى زعيم السنوسيين في برقة برئاسة أخي أنور باشا تحمل له الهدايا من مال وعطايا ، ولم يعرف على وجه التأكيد الحد الذي بلغه رسل الترك في توغلهم داخل افريقية الوسطى ولكن آثار نشاطهم ظهرت فيما بعد في السودان وفي دارفور غرباً .

— ١٠ —

جرت حادثة ارسال راية الرسول في شهر ديسمبر عام ١٩١٤ وتم الاعلان عنها على مقياس واسع جداً فقد أذاعت جرائد الشام بلاغاً بتاريخ ٣٠ نوفمبر ذكرت فيه انه على أثر اعلان الجهاد الاكبر اخرجت راية الرسول من مكانها في حرم المدينة المنورة عند قبر النبي باحتفال مهيب حضره عشرون ألفاً من المؤمنين وذلك تمهيداً لارسالها إلى دمشق حيث تتبرك بها « جيوشنا الباسلة » وقد نال شرف حمل هذه الراية السيد العلوي بافقيه وأولاده الثلاثة وهو العميد المسن لآل الرسول في المدينة فارسل البرقية التالية إلى جمال ونشرتها الصحف في مكان بارز :

« بالرغم من تقدم سني وتجاوزي السبعين وتلبية لداعي الجهاد الذي أمر به الله عز وجل . . . فاني أتقدم مع أولادي الثلاثة للجهاد في سبيل الله حاملاً راية النبي (ص) باليد الواحدة وكتاب الله الذي فرض الجهاد على جميع المؤمنين بالثانية . اني أتوجه إلى دمشق واذني ترن بهتاف عشرين ألفاً من المصلين ودعواتهم لاقدم نفسي

قرباناً يذبح في سبيل اعلاء كلمة الله . . . ان أرض الحجاز وما فيها من قبائل عربية تلبي دعوة خليفتنا الموقر . . . »

وبتاريخ ١٥ ديسمبر وصلت الراية وركبها بالقطار إلى دمشق حيث استقبلت بأعظم ماتستطيع المدينة ابداءه من مظاهر الترحيب . كان في استقبالها على رصيف المحطة جمال باشا وهيئة أركان حربه والوالي وأعضاء مجلس الولاية وكبار علماء الدين والوفود القادمة من سائر جهات الشام وعدد كبير جداً من الاعيان فلما وقف القطار ونشرت الراية ادى لها التحية العسكرية حرس الشرف المكون من كبار ضباط الجيش كما حياها جمال ثم ركع وقبل طرفها بينما ارتفع صوت الجمهور بالتهليل والتكبير وبعد ذلك تألف موكب اشتركت فيه وحدات من الجيش تمثل جميع الاسلحة ومعها موسيقاها وكان من الجماعات البارزة في الموكب عدد ضئيل من الجنود المجهولين الذين ظهروا في دور جنود هاربين من الجيش المصري (١) .

ولم ينته الطواف بالراية في دمشق بل حملت وهي محاطة بالمظاهر ذاتها إلى بيت المقدس ، أقدس بلد في الاسلام بعد مكة والمدينة . وتوقف الموكب في نابلس لأداء صلاة الجمعة ولكي يستريح حامل الراية الطاعن في السن

---

(١) نشرت الجرائد العثمانية قبل خمسة عشر يوماً من هذا التاريخ بياناً قالت فيه ان ضابطين سودانيين ومعهما ثلاثة وعشرون جندياً سلموا أنفسهم إلى القيادة العثمانية قرب العريش وقد وصلوا دمشق ، وكان هؤلاء الجند تابعين لقطعة امامية في الجيش البريطاني فاستسلموا لأن شعورهم الديني منعهم من الاشتراك في الحرب ضد اخوانهم المسلمين . هذا ما ادعته الجرائد العثمانية والواقع ان هؤلاء الجنود كانوا تابعين لمصلحة خفر السواحل المصرية ففروا والتحقوا بالترك على أثر مناوشة جرت بالقرب من القنطرة بتاريخ ٢٠ نوفمبر .

الذي انهكته الرحلة حتى أصبح قرباناً بالفعل كما وصف نفسه . وبتاريخ ٢٠ ديسمبر وصلت الراية بيت المقدس حيث ترأس جمال باشا في هذه المرة أيضاً الاحتفال الكبير الذي اقيم لاستقبالها في صحن الحرم الواسع الذي تقع في وسطه قبة الصخرة . وختم الاحتفال بصلاة اقيمت في المسجد الاقصى حيث اودعت الراية موقتاً بانتظار اليوم الذي تخرج فيه بمناسبة سير الجيش متقدماً نحو مصر ، وبعد ثلاثة ايام توفي السيد العلوي محققاً بذلك وعده فأوعز إلى الوعاظ بأن ينتشروا بين الناس ليتغنوا بوفاته على هذا الشكل ويكيلوا له الثناء لأنه مثل صالح للغير ويعظموا شأن الحادثة مؤكدين انها نذير سوء للعدو .

بذل الترك كل جهد مستطاع لجعل مشهد راية الرسول مؤثراً ومثيراً كما عملوا بشتى الاساليب على احاطته بما يظهره في شكل رمز صادر عن مكة . على ان هذا الادعاء لم ينطل الا على القليلين لأن الناس كانوا يتساءلون لماذا لم يحضر الشريف الاحتفال إذا كان يؤيد الجهاد ، ولئن كانت أشغاله تحول دون مغادرته مكة فما الذي منعه من انتداب أحد أبنائه لتمثيله ؟ ويقول أحد المعاصرين (١) الذي كان يراقب الحالة ان الشك وصل ببعض الخبثاء إلى أن يهمسوا مؤكدين بأن الراية لم تكن راية الرسول البتة بل كانت قطعة من الثوب الذي يكسو قبر النبي . وعلى وجه العموم أخطأ الترك الهدف في مشهد الراية الذي اصطنعوه وتنحصر قيمته التاريخية في انه يمثل مبلغ الاهمية التي كان الترك ووراءهم الالمان يعلقونها على نجاح الدعوة إلى الجهاد في البلاد العربية .

(١) وهو ناصيف أبو زيد في كتابه (العصر الدموي) الصادر في دمشق عام ١٩٢٣ .

الباب الثامن

المؤامرة : ١٩١٥

- ١ -

بينما كان الحسين يسعى إلى معرفة حقيقة وضعه وامكانياته هبط عليه فوزي البكري موفداً من (جمعية الفتاة) التي أصبحت دمشق مركزاً لها في ذلك الوقت . التحق هذا الشاب الذي ينتمي إلى اسرة شامية معروفة بالخدمة في الجيش التركي مؤخراً لحصل على وظيفة اسمية في حرس الشريف ، وكان السبب المبرر لهذا التعيين في الظاهر انه امتياز منح لفتى من اسرة كبيرة فلما كانت الصداقة بين الحسين وعطا باشا عميد آل البكري قديمة كان من السهل على الشريف أن يتوصل إلى تحقيق هذا التعيين بطلبه من الترك الذين كانوا حريصين على مداراته .

كان نسيب أخو فوزي الاصغر (١) عضواً في (جمعية الفتاة) وهو الذي طالب بهذا التعيين بالاتفاق مع الرجال أصحاب العقول المفكرة التي كانت تدير الجمعية فلما تلقى فوزي الامر بالسفر إلى الحجاز اطلعوه على سر الجمعية فوراً وأقسم اليمين كعضو فيها وحمل رسالة شفوية للشريف يتلخص مضمونها في ان الزعماء القوميين في الشام والعراق ومنهم الضباط العرب أصحاب الرتب الرفيعة في الجيش التركي يحبذون القيام بثورة لتحقيق استقلال العرب ، فهل يقبل الشريف قيادتها وإذا قبل فهل يرغب في استقبال

---

(١) ذكر المؤلف خطأ ان نسيباً هو الاخ الاكبر .

وقد يأتي إلى مكة أم يفضل تفويض مندوب أمين عنه يزور دمشق وذلك بقصد احداث اتصال ينتج عنه توحيد الجهود ؟

وصل فوزي مكة في آخر اسبوع من يناير وأدى رسالته همساً في اذن الشريف الذي لم ينطق بأي جواب ولم يوجه أي سؤال لأن حذره الشديد منعه من البحث في موضوع مؤامرة امام شخص غريب فأخذ ينظر من النافذة وكأنه لم يسمع ماقيل . على ان المرض الذي حوته هذه الرسالة اثلج قلبه لأنه من النوع الذي كان يبحث عنه بعينه .

ولكن الحسين كان مضطراً إلى انتظار نتيجة بعض الابحاث التي كانت تشغله في ذلك الحين . فقد طرأ على موقف الوالي وهيب بك منه تغيير ملحوظ في المدة الاخيرة وكان لدى الحسين مايحمله على الاعتقاد بأن هذا التغيير ناشئ عن تعليمات خفية تلقاها وهيب فأوعز إلى عماله بمراقبته . وفي أوائل فبراير بينما كان الوالي مسافراً إلى المدينة اختفت حقيبة كانت بين أشيائه الخاصة فلما استلمها الحسين وجد فيها بعض الوثائق التي اتضح لدى فحصها انها تثبت وجود مؤامرة تعدها الحكومة لاغتياله .

عند ذلك شرع الحسين بالعمل فأبرق إلى الصدر الأعظم يعلمه ان لديه أموراً خطيرة يود عرضها ويستأذن في ارسال أحد أولاده إلى القسطنطينية ليتكلم فيها باسمه فصدر الاذن المطلوب فوراً واختار الحسين فيصلاً للقيام بهذه المهمة التي قضى الساعات الطويلة في تدريبه عليها . كان الغرض الظاهر من رحلة فيصل بسط شكوى والده من الوالي أمام الصدر الاعظم والسلطان وتأييدها بشرح شفوي وأما الغرض الحقيقي فكان الاتصال بزعماء العرب في دمشق لمعرفة موقفهم من عروض انكلترة وفهم درجة حماسهم في هذا الموضوع ومبلغ استعدادهم له .

- ٢ -

كانت السلطة في دمشق بيد أحمد جمال باشا وهو من أعضاء (جمعية الاتحاد والترقي) البارزين وناظر الحربية في الوزارة العثمانية وقد انتخب ليقود الحملة الموجهة لتحرير مصر ومنح صلاحيات واسعة جعلته بفضل قيام الأحكام العرفية رئيساً للحكومة في الشام وقائداً عاماً للجيوش ، وقد وصل الشام في أوائل ديسمبر الماضي فاتخذ دمشق مقراً له .

لم يكن جمال من رجال (تركية الفتاة) الذين يمثلون (جمعية الاتحاد والترقي) تمثيلاً صحيحاً لانه كان من دعاة الاسلام المعروفين وكان يخالف دعاة الوحدة الطورانية إذ كان يؤمن إيماناً لم يخل من صدق بما في انشاء قومية عثمانية قائمة على التضامن الاسلامي من مزايا وكان يعتقد بمستقبل هذه القومية وكان معروفاً بميله إلى الفرنسيين وكرهه الالمان . ولم تكن مزاياه العسكرية قد جربت بعد ولكن التنميق في اللفظ بقصد التوصل إلى فصاحة فارغة ، وهو ما امتازت به خطبه الأولى الموجهة للجيش ، كان ينذر باخفاء عقم داخلي . وتبين من السنوات الثلاث التي قضاها في الشام انه دون الوسط كقائد عسكري وانه اداري حاذق ونشيط وانه سياسي لين العريكة تسهل خدعته فاذا تهيجت عواطفه ، وكان هذا كثير الوقوع ، انقلب إلى مخلوق ينطوي على مبلغ كبير من الخبث والدناءة .

كان الانطباع الاول الذي تركه جمال في نفوس الناس عند وصوله دمشق حسناً فقد جاء وهو مصمم على اكتساب قلوب السكان العرب وحملهم على تأييد تركية تأييداً صادقاً كما كان عازماً على الظفر بمؤازرة المسلمين منهم مؤازرة عملية في الجهاد ولهذا كان دأبه السعي إلى ازالة المخاوف ونشر الثقة والاطمئنان . كان في نيته أن يستغل الدعوة إلى الجهاد أقصى الاستغلال

ولهذا كان من الطبيعي أن تتوجه أنظاره نحو مكة ينشد مساعدتها في ذلك . ان الكتب التي وجهها هو وأنور باشا إلى شريف مكة والتي مازال بعضها موجوداً لتدل على مدى التحمل والصبر الذي كانا على استعداد لاظهاره في محاولتها الفوز بمناصرة الحسين . وقبيل وصوله قام الموظفون الترك بتفتيش القنصليتين الفرنسيتين في بيروت ودمشق فعثروا على مراسلات تدين بعض الشخصيات العربية المعروفة وقد حوت الوثائق التي صادروها البراهين على قيامهم بأعمال يصعب تمييزها عن الخيانة ولكن جمالاً الذي كان عازماً على أن يحدث بشخصه أثراً حسناً لم يعمل شيئاً سوى اعلام الشريف بهذا الاكتشاف ووضع الاوراق المصادرة في درج مغلق ، ثم صرف همه إلى قضية تحرير مصر .

كانت بريطانية في ذلك الوقت قد أعلنت حمايتها على مصر فأصدر الجنرال ماكسويل بلاغات مستندة إلى الصلاحيات التي يمتع بها بفضل قيام الاحكام العرفية أعلن فيها قرارات تقضي بالغاء سيادة تركية الاسمية وخلع الخديوي عباس الثاني وتولية الامير حسين كامل العرش مع تلقيبه بسلطان مصر . وشرع جمال بهجومه على قناة السويس في ليلة ٢ فبراير عام ١٩١٥ وظاهر الامر ان قواته ضئيلة لاتستطيع النهوض بالمهمة ، وكان يعتمد على اثارة الفتنة في مصر حيث لم يكن الشعور العام شعور ود نحو بريطانية . فصد هجومه وبقيت مصر هادئة فسحب معظم قوته وعاد إلى دمشق تاركاً وراءه بعض القوات الصغيرة في سيناء لكي تشغل القوات البريطانية المرابطة عند قناة السويس بهجمات صغيرة غير منتظمة . كان جمال قد أذاع بياناً على جنوده قبل الهجوم قال فيه :

أيها الجنود ! تمتد وراءكم الصحاري الخالية ،

ويقف أمامكم العدو المنشود ،
ووراء هذا العدو تقع مصر الغنية والتواقة للترحيب بكم .
فاذا ترددتم كان الموت نصيبكم ،
فتقدموا فان الجنة أمامكم !

وأما الآن بعد المعركة فانه أخذ يذيع بين الناس انه ما ابتغى من وراء تقدمه هجوماً بل أراد القيام بعملية استكشاف يعقبها هجوم عام عندما يحين أوانه .

— ٣ —

وصل فيصل دمشق في يوم ٢٦ مارس وبقي فيها ستة أسابيع قبل أن يستأنف سفره إلى القسطنطينية فتلقاه جمال باشا بحرارة ودعاه إلى الاقامة معه في مقر قيادته ولكنه اعتذر عن ذلك اذ كان مرتبطاً بوعد سابق للنزول في ضيافة آل البكري .

تم اطلاع فيصل على أسرار الحركة العربية القومية في زيارته هذه لدمشق . لم ينقطع سيل الزائرين عن دار البكري في الايام الاولى من اقامته فيها فلما فرغ من زيارات القادمين للسلام عليه وعادت الحياة الخاصة في المنزل إلى حالة قريبة من الاعتيادية نسبياً بدأت المشاورات السياسية وكانت عملاً دقيقاً وشاقاً في تلك الظروف فكان أول من اجتمع بفيصل الاعضاء البارزون في (جمعية الفتاة) ولكنهم لم يكلموه بصراحة في البدء لأنه كان غريباً عنهم ومعروفاً بميله إلى التعاون مع الترك فسارت الابحاث بتحفظ إلى أن أطلعهم فيصل على حقيقة أفكاره وأوضح ان تفضيله الترك ناشيء عن خوفه من أوربة فأحدثت هذه الملاحظة تغييراً أساسياً في المباحثات أدى إلى اكتشاف الجميع انهم متفقون تماماً في الشعور مع فيصل فأخذوا يشرحون

له العلل . وكانت اللجنة العليا (لجمعية الفتاة) عقدت اجتماعاً قبل أشهر عديدة اتخذت فيه هذا القرار :

« ينتج عن دخول تركية الحرب ان مصير الاجزاء العربية في المملكة العثمانية باتت مهددة بخطر شديد فيجب بذل أقصى جهد لضمان تحريرها واستقلالها . وقد تقرر كذلك انه في حالة ظهور مطامع اوربية في هذه الاجزاء ينبغي على الجمعية أن تعمل إلى جانب تركية في سبيل مقاومة النفوذ الاجنبي مهما كان نوعه وشكله »[١] .

كان الطرفان يستندان إلى أساس واحد في اختيارهما اسلوبين مختلفين فلما اكتشفا وحدة المنشأ تقاربت وجهات نظرهما فارتدت الاحاديث بين فيصل وأعضاء (الفتاة) طابعاً وديا للغاية فأطلعوه على سر الجمعية وسموه عضواً فيها بعد أن أقسم اليمين . وبعد ذلك اتصل فيصل بأعضاء (جمعية العهد) عن طريق شخص ينتسب إلى الجمعيتين ، و (جمعية العهد) هذه هي المنظمة السرية لضباط الجيش فلمس فيصل تجانساً في موقف الجمعيتين : فكانت هناك رغبة في الخلاص من الترك ولكن الخوف من مطامع فرنسة وبريطانية وايطالية وروسية كان يحد من هذه الرغبة .

ولم تكن المخاوف من المطامع الاوربية واقعية فحسب بل كان لها كذلك ما يبررها فان فرنسة لم تخف ادعاءها بما تسميه « حقوقها » في

(١) اننا مدينون في إيراد الكثير من الوقائع في هذا القسم للمغفور له الملك فيصل الذي نسجل هنا كما سجلنا في أماكن اخرى اعترافنا بجميله إذ اتحفنا بهذه المعلومات وبغيرها ، ونحن مدينون كذلك للدكتور أحمد قدري وكان من أكثر أعضاء (الفتاة) نشاطاً وقد اشترك في المباحثات المذكورة أعلاه .

سورية وكان المعروف عن روسية انها تنافس فرنسة في ذلك منافسة شديدة فقد قام الفرنسيون والروس في العهد الذي سبق الحرب العالمية بنشاط ظاهر ومستمر في الشام حيث أخذوا يؤسسون المدارس الجديدة ويذيعون النداءات مطالبين بدفع الاعانات لمساعدة المدارس القائمة كما شكلت الشركات وأخذ التدخل في الشئون المتعلقة برجال الدين يزداد يوماً بعد يوم . وكان الطرفان حريصين على التأكيد بأن هذه الأعمال لاتستهدف غير الاهداف الثقافية والاقتصادية ومع ذلك فكان الاعتقاد سائداً ، وأسبابه حقيقية وجوهرية ، بأنها ترمي إلى غاية سياسية بالاضافة إلى هذين الهدفين . كان موارنة لبنان والملكيون أصدقاء فرنسة المقربين بينما كان الارثوذكس أنصار روسية والدروز من أصدقاء انكلترة القدماء فظل باقي السكان وهم المسلمون الذين يشكلون الكثرة الغالبة بعيدين عن المؤثرات السياسية الاجنبية بعداً يكاد يكون تاماً .

كانت الاطماع الاوربية في الشام من المواضيع التي أخذ الناس يتناولونها في أحاديثهم اليومية في فترة معينة من عام ١٩١٢ إذ كان الخلاف بين الاتحاديين والعرب يشتد يوماً عن يوم وكانت الدول المعظمة ترقب النتائج بانتباه شديد لأنها كانت صاحبة مطامع وترغب في تحقيقها . كانت فرنسة ترتاب في أمر انكلترة وكانت روسية تحسد فرنسة وفي وسط هذا التزاحم وقعت حادثة بسيطة كشفت النقاب عن هذه الشكوك وأعلنتها للملأ . فقد كان بعض أعضاء السلك الدبلوماسي البريطاني يقضون اجازتهم في الشام حيث اختار أحدهم وهو سكرتير في دار الاعتماد البريطانية في القاهرة أن يقضي وقته بالسفر على ظهر جواده من حيفا بطريق الساحل إلى بيروت ومن ثم إلى جبل لبنان ، فنقل بعض العمال الفرنسيين خبر هذه

الزيارات وأقنعوا حكومتهم بأنها تخفي غير ماتظهر من دوافع . وفي بدء تلك السنة كانت الحكومة الفرنسية قد أوفدت المسيو كايو لزيارة سورية لاسباب لايشك في انها سياسية ومع ذلك أخذت برأي عمالها وطالبت وزارة الخارجية البريطانية بتوضيح الامر فلستطاع السير ادوارد غراي أن يؤكد للمسيو بوانكاريه تأكيداً جازماً بأن تلك الزيارات لم تخف أي معنى سياسي وان بريطانية العظمى لاتفكر ولن تفكر بطلب الحصول على نفوذ سياسي في الشام فاستغل رئيس الوزارة الفرنسية هذا التأكيد وأذاعه في مجلس النواب يوم ٢١ ديسمبر فجاء بيانه دليلاً واضحاً على ان فرنسة تنظر الى سورية كمنطقة خاصة بها وانها تطلب من الآخرين أن ينظروا إليها بهذا المنظار .

أعقب هذا البيان تجديد النشاط من جانب فرنسة في هذا المضمار وقيام بعض الشخصيات كسلطان مراكش عام ١٩١٣ والمسيو موريس باريه عام ١٩١٤ بزيارة الشام والتحدث علناً بما يفيد هذا المعنى ، فقد تمت زيارة سلطان مراكش تحت اشراف فرنسة وذكرت الصحف انه أعلن في اجتماع عام بأن احتلال فرنسة لسورية « أمر ضروري ولا بد من وقوعه قريباً » .

لم تنحصر مخاوف زعماء العرب في الشام اذ كان المعروف ان ايطالية تتبع سياسة خاصة في عسير واليمن ترمي من ورائها إلى الحصول على منطقة نفوذ وقاعدة على الشواطئ الشرقية للبحر الأحمر ، كما ان سياسة بريطانية في عقد المعاهدات مع امراء العرب قد أوصلتها إلى فرض حمايتها على بلاد كثيرة في سواحل جزيرة العرب ، وفي الايام الاخيرة شغل الرأي العام بالنزاع على حدود عدن الذي ارغمت تركية بنتيجته على الاعتراف بحماية بريطانية لتسع امارات واقعة في ماوراء ساحل عدن .

دب الرعب في نفوس زعماء العرب بنتيجة هذه الاتجاهات المختلفة التي اشتد أثرها مع الايام حتى وصل حداً بالغاً في الاعوام التي أعقبت احتلال ايطالية لليبية . كان الجميع ينفرون من فكرة الحكم الاجنبي ولا يشذ عن ذلك حتى أولئك الاشخاص الذين لايشعرون بالتعصب ضد اوربة ويشكلون الكثرة بين العاملين في ميدان السياسة . وكان جزء من النصارى في الشام وبصورة خاصة الموارنة حريصين على وضع أنفسهم تحت حكم فرنسة بينما رحب آخرون بفكرة انشاء الصلات مع بريطانية على غرار مصر ، على ان الاشخاص الذين يحملون أفكاراً كهذه كانوا أقلية وهم من الافراد الذين شذوا عن روح الحركة العربية بسبب تعليمهم الغربي ونفوذ رجال الدين عليهم . وبالرغم من ان باقي السكان ، بما فيهم المسلمون الذين يشكلون الكثرة الغالبة ، كانوا يغبطون مصر على المنافع المادية التي جنتها بفضل الاحتلال البريطاني الا انهم كانوا يشمئزون من السيطرة الاجنبية التي كانت تهددهم وكان الزعماء يشاركونهم في هذا النفور ويتساءلون عما إذا كانت مصلحتهم في الواقع لاتقضي — في حالة تخييرهم بين الامرين — بالاستمرار في تحمل الحكم التركي الذي عرفوه وعدم الوقوع تحت حكم آخر أجنبي مثله ولكنه أقوى منه بكثير .

ما كاد الاحتمال بدخول تركية الحرب يتأكد حتى اوسل عزيز علي من معزله في مصر رسالة قاطعة إلى الاعضاء البارزين في (جمعية العهد) يناشدهم فيها بألا يغريهم أحد للوقوف من تركية موقف العداء لأنها إذا غدت محاربة تعرضت ولاياتها العربية إلى الغزو الاجنبي ، ويؤكد لهم ان واجبهم يقضي بالبقاء في صف تركية ماداموا غير حائزين على ضمانة قوية تبدد مخاوفهم من أطماع اوربة . وقام زعماء (جمعية الفتاة) من جانبهم

باتخاذ قرارهم المستقل الذي أثبتناه أعلاه والذي لايخرج في معناه عن هذه الفكرة . وعلى هذا اتحد رأي الجمعيتين وأصبح همها الاول معرفة مبلغ نجاحها في انتهاز الفرصة التي أتاحتها الحرب للحصول على ضمانات ملزمة تحقق للعرب استقلالهم في المستقبل ، وكان الاعضاء يجهلون آنئذ تبادل الرسائل بين كتشنر والشريف .

كان هذا اتجاه زعماء العرب عندما زار فيصل دمشق وانتسب بعد حلف اليمين إلى الجمعيتين الواحدة بعد الاخرى فأعجب اعجاباً شديداً بالتنظيم في (جمعية العهد) إذ كان في مقدور زعمائها اثارة الجيش في الوقت الذي يختارونه ، فان الفرق العثمانية المرابطة في الشام في تلك البرهة كانت مؤلفة من كثرة غالبة من العرب وكان ضباطها ، وأكثرهم من أعضاء الجمعية ، على استعداد لأن يقوموا مع رجالهم عند أول اشارة . وقال جمال باشا في مذكراته (١) التي نشرت بعد الحرب : « ان الدسائس الاجنبية لو نجحت في اشعال الثورة لما وجدنا طريقاً لقمعها وكانت الدولة تخسر بنتيجة ذلك جميع ولاياتها العربية » .

كان الخوف من أن تؤدي الثورة إلى ابدال الحكم الاجنبي بآخر مثله يحمل الزعماء على الاعراض عنها . وانتسب فيصل إلى الجمعيتين تدفعه حرارة المؤمن الذي اهتدى حديثاً لأن تمسكه بالاتراك كان ناشئاً عن هذا الخوف نفسه وعن عدم وثوقه من استعداد العرب استعداداً كافياً . وأطلع الزعماء على عروض كتشنر واختلاف الرأي بينه وبين عبدالله وسياسة الحذر التي يتبعها الحسين

(١) وقد نشرت في لندن مترجمة بعنوان (مذكرات سياسي تركي) ولا يعرف تاريخ صدورها .

وبعد ذلك تركهم ليقلبوا الامر على ضوء هذه المعلومات الجديدة واستأنف سيره إلى القسطنطينية فبلغها يوم ٢٣ ابريل لانجاز القسم الظاهر من مهمته .

— ٤ —

أقام فيصل في القسطنطينية أقل من شهر فكان موضع رعاية والتفات بالغين وفسح له المجال لبسط وجهة نظر أبيه بكاملها فجرت مباحثات كثيرة بينه وبين الامير سعيد حليم الصدر الأعظم وطلعة بك وزير الداخلية وانور باشا وزير الحربية وحظي مرتين بالمثول أمام السلطان فأظهر الجميع عطفهم على قضيته ولكنهم أفهموه بأن العلاج في يد والده نفسه فما عليه الا أن يعلن موافقته على الجهاد حتى يسهل تعديل الموقف في الحجاز لصالحه وعندئذ يستطيع أن يفوز بترضية تامة . وكتب كل من الصدر الأعظم وأنور وطلعة إلى الشريف بهذا المعنى وكان كتاب أنور المؤرخ في ٨ مايس أشد الثلاثة إذ شرح للشريف الوضع الحربي في الدردنيل وأوضح انتصار ألمانية والنمسة في دونيتز بشيء من المبالغة والادعاء وأكد الصبغة الدينية للحرب مصراً على الحسين بلزوم تأييد الجهاد .

عاد فيصل إلى دمشق يوم ٢٣ مايس فوجد ان زملاءه أعضاء جمعيتي (الفتاة) و (العهد) قد اتفقوا في غيابه على خطة موحدة للعمل وأعدوا بياناً بالمطالب التي يتوقف على تحقيقها تعاون الزعماء العرب مع بريطانية العظمى ضد تركية واقترحوا أن يحمل فيصل البيان إلى مكة ويطلب من أبيه أن يستوضح الحكومة البريطانية عما إذا كانت محتوياته مقبولة لديها للبدء بالعمل المشترك . وبالنظر إلى أهمية البيان نثبته في مايلي كاملاً (١) :

(١) أعارنا المغفور له الملك فيصل نسخته الخاصة من هذا البيان .

« اعتراف بريطانية العظمى باستقلال البـلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

شمالاً : خط مرسين — اضنة حتى درجة ٣٧ شمالاً ومنها على امتداد خط بيرجيك — اورفه — ماردين — مديات — جزيرة ابن عمر — عمادية حتى حدود فارس .

شرقاً : الحدود الفارسية حتى خليج فارس .

جنوباً : المحيط الهندي (خلا عدن التي تحافظ على وضعها الحالي) .

غرباً : البحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط حتى مرسين .

الغاء الامتيازات الاجنبية .

عقد تحـالف دفاعي بين بريطانية العظمى والدولة العربية المستقلة العتيدة .

منح بريطانية الافضلية في الشئون الاقتصادية »

هذه هي الشروط التي إذا تحققت كان زعماء العرب على استعداد لتأييد ثورة عربية يعلنها شريف مكة فيبذلون كل مافي وسعهم لمساعدة قضية الحلفاء .

يعتبر هذا البيان الذي أعد في دمشق وثيقة هامة جداً لا بالنظر إلى محتوياته فحسب بل كذلك بسبب الدور الذي لعبه فيما بعد حين استفاد منه الحسين في مفاوضاته مع بريطانية العظمى التي استؤنفت في شهر يولية المقبل . لقد صيغت هذه الوثيقة بعبـارات مقتضبة بالقدر الذي يسمح به مؤداها واتخذت شكل بيان مختصر بالمبادئ العامة وذلك كله ناتج عن الكتمان الشديد الواجب احاطتها به . ومع ذلك فقد كانت صريحة جداً في أمرين : استقلال العرب والتحالف مع انكلترة . ولعل قيمتها الرئيسية كوثيقة تاريخية نشأت عن انها كشفت حقيقة موقف العرب من دول الغرب . كان الاستقلال

هدفهم وهو استقلال تام متحرر من كل تدخل أجنبي بما في ذلك التدخل المعروف باسم الامتيازات الاجنبية فاذا تعهدت انكلترة بالاعتراف باستقلال العرب فانهم يرحبون بحلف يعقد معها .

أعرب فيصل في المناقشات التي جرت بعد وصوله دمشق عن شكه في قبول الحلفاء هذه الشروط لأنه كان شديد الارتياب بنواياهم ولكنه وافق على انها تمثل الحد الأدنى لمطالب العرب التي يمكن أن تبرر الدعوة إلى الثورة ووعد بالاسراع في العودة إلى مكة لعرضها على والده ونيل موافقته وبعد ذلك أقسم الزعماء الستة البارزون يمين الاخلاص التي تعهدوا فيها بالاعتراف بالحسين كوكيل للدفاع عن قضية العرب كما تعهدوا بأن تثور جميع الفرق العسكرية المرابطة في الشام حالما يتوصل الحسين إلى الاتفاق مع بريطانية على أساس البيان ، وفي سبيل دعم هذا التعهد سلم الشيخ بدر الدين الحسني ، وهو كبير علماء الدين في دمشق ، فيصلاً ختمه ليحمله إلى الشريف كدليل على ثقة الشام به .

وأخذت الحوادث تسابقهم فقد أمر الترك بنقل احدى الفرق العربية المرابطة في الشام إلى جناق قلعة وكان يخشى نقل غيرها مثلها ولكن سفر فيصل لايتم بدون مقابلة جمال باشا الذي كان غائباً في رحلة تفتيشية في جنوب سورية .

وبدلاً من انتظار عودة جمال توجه فيصل إلى بيت المقدس حيث استأذنه بالسفر ثم عاد إلى دمشق ومنها استقل القطار إلى المدينة ومعه نسخة عن البيان مكتوبة بخط صغير جداً وقد خيطت في داخل حذاء أحد اتباعه . وفي يوم ٢٠ يونيو وصل مكة وقدم لوالده تقريراً مفصلاً بنتيجة مهمته شارحاً كيفية اقتناعه بفكرة الثورة في حالة قبول المطالب المذكورة .

واستجوبه الحسين استجواباً دقيقاً بصرامته المشهورة مع أولاده وقد قال فيصل فيما بعد : « كان ذلك الاسبوع من أشد أسابيع حياتي علي » .

— ٥ —

وفي هذه الفترة قامت السلطات البريطانية في مصر بما يمكن لدرء الخطر الناجم عن الدعوة إلى الجهاد وكان الشخصان الرئيسيان العاملان في هذا المضمار في البدء هما السكرتير الشرقي المستر رونالد ستورز ورئيس الاستخبارات العسكرية نائب الزعيم (الليوتنان كولونيل) ج . ف كلايتون . وفي يناير عام ١٩١٥ باشر السير هنري مكماهون عمله كمندوب سام في مصر والسودان وكان السير رجينالد وينغيت ، كما ذكرنا سابقاً ، حاكماً عاماً للسودان فاشترك هؤلاء الاربعة في وضع أساس العمل .

شرع ستورز وكلايتون بأحاديث مع قادة العرب المقيمين في مصر وفي مقدمتهم عزيز علي ومعه السيد رشيد رضا وهو فقيه مشهور وسياسي ومصلح ومن الدعاة المتحمسين للنهضة الاسلامية العربية فكان محور هذه الاحاديث رسائل كتشنر إلى الشريف وهدفها اقناع العرب بأن مستقبلهم يتوقف على تحالفهم مع انكلترة ثم توسعت دائرة هذه المشاورات بمرور الايام فلم تترك فكرة أو ميلاً إلا وسجلته سواء أكان صاحبه متبرعاً به أو مدعواً لابدائه . ولكن الاحاديث لم تنته إلى اتفاق وهذا أمر متوقع لأن هؤلاء القادة أمثال عزيز علي ورشيد رضا الذين يتمتعون بنفوذ يكفي للتأثير في أنصارهم في الشام والعراق طلبوا ضمانة استقلال العرب كشرط أساسي للدعوة إلى ثورة عربية ولم يكن اعطاء ضمانة كهذه في مقدور أي شخص من الاشخاص الموجودين في مصر .

ومع ذلك فلم تذهب هذه المشاورات عبثاً لأنها أقنعت السلطات البريطانية

بأن سعيها إلى اكتساب العرب دون اعطائهم تعهدات معينة هو سعي عقيم وقد وصل السير رجينالد وينغيت إلى هذه النتيجة من جانبه إذ قام بمشاورات مع السيد علي الميرغني وغيره من كبار المسلمين في السودان وبحث الموضوع من وجهة نظر اسلامية فأدرك ان لابد من الاسراع في اصدار بلاغ يحوي تأكيدات صريحة عن مستقبل بلاد العرب ومصير الخلافة . وأخيراً أثمرت مساعي وينغيت التي أيدها كتشنر بقوة نخولت الحكومة البريطانية مكماهون سلطة اذاعة بلاغ عام بهذا المعنى .

كان القصد من هذا البلاغ تبديد مخاوف المسلمين أكثر من تحقيق أماني العرب السياسية فقد تعهدت فيه بريطانية بأن تجعل الاعتراف بجزيرة العرب كدولة مستقلة تتمتع بالسيادة التامة في أراضي الاسلام المقدسة شرطاً من شروط الصلح وأشارت إلى استعداد الحكومة البريطانية للترحيب بقيام خلافة عربية . نشر هذا البلاغ في أوائل شهر يونيو وطبع على كميات كبيرة من المناشير التي وزعت في جميع أنحاء مصر والسودان وهربت إلى الشام كما ان الطائرات البريطانية ألقت نسخا عنها فوق الوجه وينبع ورابغ وجدة .

تجاوزت الحكومة البريطانية في هذا البلاغ التأكيدات التي أعطاها كتشنر في ٣١ اكتوبر عام ١٩١٤ من ناحية واحدة فقد وعد كتشنر الشريف بحماية جزيرة العرب من الهجوم الخارجي بينما منح البلاغ أكثر من ذلك إذ تعهد بالاعتراف بالدولة العربية المستقلة في الجزيرة وبضمان سلامتها ولكنه سكت عن مطلب أساسي من مطالب العرب وهو أن تشمل الضمانة بلاد الشام والعراق بالاضافة إلى الجزيرة . وبعد ذلك أخذت الاحاديث التي بدأها ستورز وكلايتون في الخريف تفتر فاذا ماحل فصل الصيف ذبلت تماماً .

عملت حكومة الهند بنشاط ضمن افقها المحدود وأخذت تهتم بالجزيرة العربية اهتماماً خاصاً فقد كانت دلهي ، لا لندن ، هي التي تشرف عادة على السياسة في عدن وما وراءها وفي خليج فارس ، ودلهي هي التي أدارت الاعمال الحربية المؤدية إلى احتلال البصرة في نوفمبر عام ١٩١٤ . وفي نهاية العام تقريباً أوفد الرئيس (الكابتن) ج . ر . شيكسبير الموظف السياسي في حكومة الهند بمهمة لدى ابن السعود للسعي إلى الحصول على مؤازرته لقضية الحلفاء ، ولم يكن ابن السعود في حاجة إلى الاقناع لان عواطفه نحو الترك لم تكن ودية فان عضو (جمعية العهد) الذي هبط عاصمته عند دخول تركية الحرب موفداً من قبل عزيز علي للمطالبة بتأييده القضية القومية لقي لديه قبولاً حسناً . وفي الوقت ذاته احرجت الدعوة إلى الجهاد موقفه كزعيم للوهابيين فكان من الصعب عليه اهمالها إذا أيدها شريف مكة . وقد وصلت رسالة الحسين التي يجس فيها نبضه في يناير عام ١٩١٥ أي حين كان شيكسبير في زيارته .

أوضحنا أعلاه ان ابن السعود أيد الشريف بحرارة في موقفه من الدعوة إلى الجهاد كما انه أفهمه بأن الترك لن يلقوا أية مساعدة في نجد . أما جوابه عن عروض شيكسبير فكان ودياً ثم ما كاد عام ١٩١٥ ينقضي حتى عقد معاهدة تحالف مع نائب الملك في الهند .

وعقدت حكومة الهند كذلك اتفاقاً مع الادريسي في ابريل ينحصر في الامور المحلية شأنه في هذا شأن المعاهدة التي عقدت فيما بعد مع ابن السعود اذ لم يشر العهدان إلى ماهو أوسع من ذلك من الامور المتعلقة بحركة العرب القومية كما ان وضع الادريسي كان مشابهاً لوضع ابن السعود في انه لم يكن في وسع الاثنين القيام بدور كبير ، عسكري أو روحي ، ضد

الاتراك وكانت قيمة الاتفاقين مبنية بالدرجة الاولى على نتائجها السلبية إذ قضيا نهائياً على أي أمل — وكان في أحسن الظروف أملاً ضعيفاً — في التحالف بين هذين الاميرين وتركية وضمنا مساعدة ابن السعود في منع المؤن من الوصول إلى العدو عن طريق خليج فارس وحالا دون استعمال الترك لسواحل عسير كقاعدة بحرية معادية تعرقل سير سفن الحلفاء عبر البحر الاحمر .

ولم يسع أحد إلى التقرب من ابن الرشيد أو الامام يحيي كما انهما لم يحيدا عن موقفهما قط فربط الاول مصيره بمصير الترك منذ البداية بينما نظر الثاني إلى الفرقتين التركيتين المرابطتين في أراضيه فوجد ان بقاء العلاقات الحسنة بينه وبين هذه القوات المحتلة يحوي من الفوائد مايفوق أي منفعة قد يعرضها الحلفاء ، فوقف على الحياد بينما دخل الاتراك محمية عدن وقد أجرى المقيم البريطاني في عدن بعض الابحاث معه فيما بعد ولكنها لم تسفر عن شيء وبقي الامام متفرجاً سلبياً حتى النهاية .

لم تكن الحرب في الشرق الادنى سائرة في مصلحة الحلفاء عندما استأنف الشريف المفاوضات في يولية عام ١٩١٥ فقد فشلت الحملة على جناق قلبة بعد أن كلفت غالياً ، وبالرغم من ان هجوم الترك على مصر قد صد الا ان خطر عودته أرغمهم على حجز قوات كبيرة في ذلك الميدان ، وبقيت نوايا السنوسي مجهولة وان كان ماعرف من اتصالاته بالترك كافياً لاحداث القلق الذي بررته احداث وقعت في وقت متأخر من السنة ذاتها ، وأظهر سلطان دار فور .وهو مازال على اتصال وثيق بالسنوسي مايدل على ميله إلى تلبية داعي الجهاد ، وكانت القوات التركية المرابطة في اليمن قد غزت محمية عدن

وبعد أن هزمت القوة البريطانية التي أرسلت للدفاع عن لحج وصلت إلى نقطة لاتبعد عن عدن نفسها إلى بضع أميال فاضطر الانكليز إلى ارسال لواء من مصر على عجل لانقاذ الموقف . كانت القوات البريطانية التي تحارب في البلاد العربية في موقف دفاع في جميع الجبهات خلا جبهة العراق حيث كانت الحملة المتجهة من البصرة شمالاً تتقدم تقدماً محسوساً في وجه مقاومة عنيفة .

وبينما كان السير هنري مكماهون منصرفاً إلى معالجة هذه الأخطار التي مازالت تحف بمصر إذا به يتلقى مذكرة من الشريف حسين .



الباب التاسع



بلاد العرب الشرقية

تمثل المساحات المخططة المنطقة العربية المستقلة كما حددها الشريف حسين

في مذكرته المؤرخة في ١٤ يوليه عام ١٩١٥

الباب التاسع

تعهد بريطانية العظمى : ١٩١٥

- ١ -

أرسل الحسين مذكرته الاولى إلى السير هنري مكماهون في أواسط يولية فوصلت القاهرة في تاريخ غير معين من شهر اغسطس يحملها رسول أمين حائز على ثقة الشريف وهو الشيخ محمد عارف بن عريفان وقد أحاط مهمته بالكتمان الشديد ، ولم تكن المذكرة مؤرخة ولم تذيل بتوقيع وهذه عادة متبعة في الجزيرة مبالغة في الحذر التام ولكنها كانت مرفقة برسالة شخصية من عبدالله إلى ستورز مؤرخة في ١٤ يولية .

أوضحت المذكرة (١) الشروط التي يقبل العرب التدخل على أساسها وبعد مقدمة تؤكد عزم العرب على الحصول على استقلالهم السياسي واعتقادهم بتوافق المصالح البريطانية والعربية أخذت تعدد الشروط التي كان الحسين ، باسم العرب ، مستعداً لاتخاذها أساساً للتحالف مع بريطانية العظمى بغية تحقيق تلك الاهداف ، ثم عينت المذكرة مهلة مدتها ثلاثون يوماً يترتب على الجانب البريطاني خلالها أن يبعث بقبوله أو رفضه الصريحين وكانت الشروط التي جعلتها المذكرة أساساً لقبول العرب التحالف مع بريطانية هي نفسها الشروط التي وردت في بيان دمشق مع اضافة شرط واحد يتعلق

---

(١) نشرنا نصوص هذه المذكرة والرسالة والمذكرات التي تبودلت فيما بعد بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون في الملحق (آ)

بالخلافة وينص على وجوب اعتراف بريطانية بالخليفة العربي في حالة مبايعته وفي ختام المذكرة فقرة مضافة تنص على ان مفعول المواد الخاصة بالمساعدات المتقابلة يسري مدة خمس عشرة سنة أو أكثر إذا رغب الطرفان .

وفيما عدا هاتين الاضافتين كانت البنود المقترحة في المذكرة هي نفسها البنود الواردة في بيان دمشق حتى ان مادته الاولى المتعلقة بحدود الدولة العربية المستقلة نقلت حرفياً في المذكرة . وأوضح الشريف في المقدمة ان السرعة التي يقتضيها الظرف قد حملت العرب على حصر الموضوع في المسائل الاساسية وتأجيل البحث في المسائل الثانوية إلى فرصة تسنح في المستقبل فتكون أكثر اتساعاً لمثل هذه الامور .

ولم يتعرض عبدالله في رسالته الموجهة إلى ستورز للشروط الواردة في مذكرة أبيه بل رجاه تحويلها إلى الجهة المختصة وارتأى الكف عن القاء مناشير الدعاية في جزيرة العرب مادام العرب قد عقدوا النية على اتخاذ هذا الموقف وأكد ضرورة تبادل الرسائل بحذر وكتمان تام وكان طلبه المادي الوحيد متعلقاً بكميات القمح التي تجمع في مصر من الخيرات والمبرات وتقدم سنوياً لتوزع في موسم الحج على فقراء مكة والمدينة فلما كانت الحرب قد حالت دون مجيء الحجاج من مصر طالب عبدالله بإيجاد الوسيلة الملائمة لارسال تلك المعطيات التي ترافق الحجاج عادة فاذا وصلت كان لها تأثير أمضى من مناشير الدعاية .

— ٢ —

كان جواب السير هنري مكماهون المؤرخ في ٣٠ اغسطس مثالاً للمراوغات الرسمية والظاهر انه كتبه بناء على تعليمات تلقاها من وزارة الخارجية يقضي بتجنب كلمتي (لا) و (نعم) فقد ردد ذكر الضمانات العامة المتعلقة

باستقلال العرب والخلافة العربية التي سبق ان اعطي مثلها للشريف باسم اللورد كتشنر فلما أتى دور تعيين معنى هذه الضمانات وتحديد منطقة هذا الاستقلال العربي صرح بأنه لم يحن بعد وقت بحثها موضحاً ان اثارة مثل هذه المواضيع في ظروف الحرب ضياع للوقت ولا سيما ان الترك مازالوا يحلون بعض المناطق في البلاد العربية . وبمثل هذه الحجة التي تنم عن تفكير ساذج أراد مكماهون أن يرد على مقترحات قدمت تحت ضغط الحرب وكانت ترمي فيما إذا قبلت إلى مساعدة الحلفاء على انهاء الاحتلال التركي بتمكين العرب من القيام بثورة . ولعل أكثر حججه الثلاث مبعثاً للدهشة تلك التي قال فيها ان بعض رعايا السلطان منتسبون إلى جيوشه في المناطق العربية التي مازالت في يد الترك . وختم مذكرته باعلان استعداده لارسال عطيات القمح المصرية لفقراء الحجاز .

كانت المذكرة مثالاً للحماقة لا لبعدها الملموس عن الاخلاص فحسب بل أيضاً لأنها حاولت التوفيق بين أمرين يستحيل جمعهما : فكانت تحاول من جهة استمالة الشريف ليصبح حليفاً عاملاً ، وتسعى من جهة ثانية إلى حرمانه من الوسيلة الوحيدة التي تمكنه من جعل هذا التحالف فعالاً . ونحن نستطيع تفسير هذا التناقض إذا أدركنا ان معلومات مكماهون ومستشاريه عن العوامل الخفية في حركة الحسين كانت حتى في تلك الفترة المبكرة مازال ناقصة ، فكانوا يجهلون فحوى مباحثات فيصل في دمشق كما يجهلون (الفتاة) جهلاً تاماً بينما كانت معرفتهم بوجود (العهد) ضئيلة جداً . وكانوا يعتقدون بأن الحسين لايمثل إلا نفسه ويتوقعون انه كان يسعى لتحقيق اغراضه الخاصة وعلى هذا يتم استجلابه إذا وعد بالاعتراف به كخليفة ولوح له بصورة مستقبلة عن استقلال العرب وهي صورة غير واضحة .

ثم اتهم الانباء التي صححت أفكارهم هذه بعد شهر عن طريق الصدفة ، أما في نهاية اغسطس فلم يكن لديهم أية فكرة عما تخفيه مقترحات الشريف .

كتب مكماهون مذكرته الاولى وجميع المذكرات التي أعقبتها بالعربية ولا شك ان النص الاصلي وضع باللغة الانكليزية ثم عرب في دار الاعتماد قبل ارساله (١) ولكن اسلوب كل مذكرة كان مختلفاً عن الاخرى كأن دار الاعتماد سخرت معرباً مختلفاً في كل مرة ولم تخف أية واحدة منها البتة أصلها الانكليزي وهذا باستثناء عبارات الثناء السمجة والالقاب التي لم تكن انكليزية أو عربية بل كانت مزيجاً من عبارات النفاق التركية والفارسية التي استنسب أحد معاوني مكماهون استعمالها ولكن هذه الالفاظ الفارغة أزعجت الحسين الذي لم يكتم انفعاله في جوابه إليه . كانت مذكرة مكماهون المؤرخة في ٣٠ اغسطس ١٩١٥ بغيضة جداً على نفس الحسين من كافة وجوهها .

— ٣ —

سطر الشريف جوابه على الفور فكانت مذكرته الثانية وهي أطول من الاولى بكثير مؤرخة في ٩ سبتمبر .

كان لاسلوب الحسين كذلك غرابته فقد استعمل في مذكراته إلى مكماهون تلك الاصطلاحات الثقيلة العربية في صيغتها والتركية في أصلها والتي تعلمها في القسطنطينية في العهد الحميدي حين كان الانسان يلجأ إلى الافصاح عن آرائه بعبارات مبهمة لكي ينجو من الخطر فلما كان الحسين بطبيعته صريحاً ومستقيماً راح يحتمي وراء سور من الجمل الحذرة فكانت النتيجة

(١) يقول المؤلف انه هو الذي ترجم المذكرات المنشورة في الملحق إلى الانكليزية وكذلك المقاطع المنقولة هنا .

أن تغلفت صراحته بغلاف محكم من الجمل المعترضة والمتممة والتلميحات والامثال والملاحظات المقتضبة اللاذعة وقد ربط بعضها بالبعض الآخر بتنسيق أدبي جعلها تبدو كأنها مجموعة من الالفاظ الفارغة الرنانة لايحاكيها في ذلك شيء حتى ان اسلوب اوفيوس (١) يغدو رشيقاً إذا قورن بها . لقد أصبح الحسين استاذاً في هذا الاسلوب الواقي الذي جعل يمارسه مدة طويلة حتى غدا عبداً له في النهاية . كانت مذكراته التي أرسلها إلى القاهرة موجزة وواضحة ومعقدة في وقت واحد ولم يكن هذا الاسلوب ليحول قط دون فهم المعنى الذي يقصده ومع ذلك فكثيراً ماكان هذا المعنى يختفي وراء مجموعة من الالفاظ الملتوية التي يحتاج تبسيطها إلى الصبر الجميل ، ومهما كانت قراءة المذكرات شاقة فان ترجمتها كادت تؤدي إلى يأس المترجمين .

يمتاز جواب الحسين بما ظهر فيه من عزم أكيد على مواصلة السعي لتحقيق فكرته بينما كانت مذكرة مكماهون تمتاز بالمراوغة فلم تكن عباراتها المصطنعة لتخفى على الحسين الذي فهم معناها الحقيقي فنسبه إلى جهل صاحبها ، وبعد أن اهتدى بفطنته اليقظة إلى نواقصها أخذ يحاول تصحيحها . لقد اعرب الحسين عن دهشته لما بدا من فتور وتردد في تلقي اقتراحه المتعلق بتعيين حدود الدولة العربية المستقلة كما أوضح بجلاء ان مقترحاته لم تكن من عندياته بل تقدم بها الشعب العربي كشرط أساسي . وأظهر انزعاجه من عودة مكماهون إلى موضوع الخلافة كأنه رئيسي لايستغنى عنه فقال بخشونة ظاهرة ان الخلافة أصبحت شيئاً منتهياً . وفي الفقرة نفسها غمز الحسين مكماهون

(١) يقصد به ذلك النوع من الاسلوب الكتابي المملوء بالمبالغات العبارات الفارغة ذات الالفاظ المنمقة وهو اسم لكتاب انكليزي ظهر في القرن السادس عشر .

غمزة خفيفة (١) إذ أبدى له عدم اعجابه باستعماله الالقاب الفخمة وعبارات الثناء الضخمة . قال :

« ان غايتنا أيها الوزير المحترم التأكد من ان الشروط اللازمة لمستقبلنا ستبنى على أساس من الحقيقة لا على العبارات والالقاب المزخرفة والمنمقة تنميقاً شديداً » .

ثم انتقل من هذا إلى القول بلزوم اعتبار مسألة الحدود جوهرية لأن الامة التي يتكلم باسمها مجمعة على أن تنظر إليها هذه النظرة التي يشترك فيها حتى أولئك العرب الذين كانت ظروفهم ترغمهم على البقاء في خدمة حكامهم الترك وقد أوضح بصورة لاتقبل الشك ان المفاوضات مع مكماهون تتوقف على أمر واحد لاثاني له وهو هل يقبل بالحدود المقترحة أم يرفضها .

— ٤ —

لم يعد مكماهون ليتردد بعد ذلك في اختيار الطريق الواجب سلوكه كما أدرك انه لابد لجوابه في هذه المرة من الاقتران بنعم أو لا .

على ان مكماهون ومستشاريه تلقوا في الفترة التي سبقت ذلك بعض المعلومات التي زادت معرفتهم بالمسائل العربية وأدت إلى تعديل موقفهم من مقترحات الحسين . فقد وصل القاهرة في أوائل اكتوبر ضابط عربي شاب في الجيش التركي اسر في جناق قلعة حيث لجأ إلى صفوف البريطانيين وسلم نفسه طالباً حمله إلى القاهرة لأن لديه أنباء هامة يود اطلاع أولي الامر عليها

---

(١) تبين ان مكماهون لم يفهم هذه الغمزة أو انه فهمها وأهملها فان جميع المذكرات المقبلة كانت تصدر بمقدمة طويلة تحوي عدداً من هذه النعوت السمجة .

وقد ظهر انه من أعضاء (جمعية العهد) وانه من العاملين بنشاط على تحرير العرب وهو مسلم عراقي اسمه محمد شريف الفاروقي .

كان للمعلومات التي أدلى بها الفاروقي أثر قاطع في نفوس مكماهون وزملائه وبالرغم من انه لم يكن في الواقع مندوباً معتمداً عن (العهد) فقد كان مطلعاً اطلاعاً كبيراً على نظام هذه الجمعية وأهدافها هي واختها الملكية (الفتاة) فتحدث طويلاً عن الشعور الذي يغلي في صدور أعضائها فلما ضبطت أقواله وفحصت فحصاً دقيقاً تبين انها صحيحة تمام الصحة مما حملهم على أن ينظروا إليه لا كمخبر أمين ذي نوايا حسنة فحسب بل أيضاً كمندوب معتمد عن جمعيتي (الفتاة) و (العهد) ، ولئن لم يكن هناك أدنى شك في صحة النظرة الاولى فقد ظهر فيما بعد عدم صحة الثانية . ومهما يكن من أمر معلوماته فقد كانت موثوقة وأطلع السلطات على أشياء كثيرة كانوا يجهلونها فيما يتعلق بحقيقة شعور القوميين العرب في الشام والعراق فلما وصلت مذكرة الشريف الثانية كان لدى مكماهون ومستشاريه معلومات كافية عن دوافعها الخفية جعلتهم يقرأونها في هذه المرة وقد فهموها فهماً أعمق من ذي قبل .

كانت المذكرة الجوابية التي بعث بها مكماهون أهم وثيقة في هذه المراسلات كلها ويجوز أن تعد أهم وثيقة دولية في تاريخ حركة العرب القومية لأنها تحوي التعهدات التي دخل العرب على أساسها الحرب معلنين انضمامهم إلى جانب الحلفاء وأصبحت هذه الوثيقة في الاعوام التي أعقبت الحرب موضوعاً رئيسياً للمناقشة وما زالت حتى هذا اليوم تذكر كبرهان أول في يد العرب يبرر اتهامهم بريطانية العظمى برجوعها عن وعودها التي قطعتها لهم .

كتبت هذه المذكرة بتاريخ ٢٤ اكتوبر عام ١٩١٥ وقد افتتحها مكماهون بتأكيده للحسين ان عدم رغبته سابقاً في بحث مسألة الحدود لم ينشأ إلا عن اعتقاده بعدم حلول الوقت المناسب لبحث مثل هذه المواضيع من جميع وجوهها وانه بالنظر إلى ماذهب إليه الحسين من اعتبار المسألة أساسية وعاجلة فقد خولته الحكومة البريطانية سلطة اعطاء العرب بعض التأكيدات ثم انتقل إلى بيان هذه التأكيدات التي كانت بمثابة تعهد من جانب بريطانية العظمى بأن تعترف باستقلال العرب وتؤيده وذلك في نطاق حدوده التي عينها الشريف مع استثناء بعض أجزاء آسية الصغرى وسورية وأورد تحفظاً يتعلق ببعض الاقسام الواقعة ضمن هذه الحدود التي ترتبط بريطانية العظمي فيها بمعاهدات عقدتها مع بعض أمرائها العرب .

أما الفقرات التي تحدد تعهدات بريطانية والتحفظات التي ترافقها في مذكرة مكماهون فهي :

« ان مقاطعتي مرسين والاسكندرون وكذلك أجزاء سورية الواقعة إلى غرب منطقة دمشق وحمص وحماه وحلب لايمكن اعتبارها عربية صرفة ولهذا السبب وجب استثناؤها من التحديد المقترح .

« اننا نقبل بهذا التحديد مع مراعاة التعديل الموضح أعلاه على أن لايؤثر ذلك في المعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض أمراء العرب .

« أما فيما يتعلق بالمناطق الواقعة ضمن الحدود المقترحة والتي تستطيع بريطانية العظمى أن تعمل فيها دون أن تمس مصالح حليفتها فرنسة فاني مكلف باعطائكم التعهدات التالية باسم حكومة بريطانية العظمى وبأن أجيب عن مذكرتكم بما يلي :

« ان بريطانية مستعدة للاعتراف باستقلال العرب وتأييده في جميع المناطق الواقعة ضمن الحدود التي اقترحها شريف مكة مع مراعاة التعديلات المبينة أعلاه » .

وتحوي المذكرة أربع مواد تبحث في غير موضوع الحدود ففي الأولى تضمن بريطانية العظمى سلامة الاماكن المقدسة ضد أي اعتداء خارجي وفي الثانية تبدي استعدادها لمساعدة العرب على اقامة الاوضاع الادارية الملائمة في المناطق التي تتألف منها الدولة العربية المستقلة وتنص الثالثة على ان العرب لن يلجأوا لغير انكلترة للحصول على المستشارين وغيرهم من الموظفين الاجانب الذين قد يحتاجونهم وتنص الرابعة على ان لبريطانية العظمى مصالح خاصة في العراق تستدعي اقامة نوع خاص من الادارة في منطقتي البصرة وبغداد على أساس لم تعينه ولكنه ينطوي على التعاون بين الانكليز والعرب في ذلك الجزء من الدولة العربية المستقلة .

وأعرب مكماهون في الفقرات الختامية من مذكرته عن أمله في أن تكون ثمرة هذه التأكيدات تحالفاً أبدياً بين بريطانية العظمى والعرب وأن يكون من النتائج الأولى لهذا التحالف طرد الترك من البلاد العربية وتحرير الشعوب العربية ولم يشر إلى موضوع الخلافة في قليل أو كثير بعد أن طرحه الحسين جانباً بشيء من النزق ولكنه بالرغم من ملاحظات الشريف العنيفة عن الالقاب وعبارات الثناء استمر في اغراقه بسيل منها باصرار لايقبل الوقوف .

— ٥ —

ظهر الشريف في الجواب الذي أرسله عن مذكرة مكماهون الثانية كأحسن مايكون السياسي ذو النظر البعيد كما ظهر كأسوأ مايكون كاتب

رسالة فقد حوى جوابه فقرتين أو ثلاث فقرات تكاد تكون ترجمتها في حكم المستحيل وكانت احدى هذه الفقرات وهي التي تبحث في أجزاء العراق طويلة ومعقدة تتألف من مواد ثم تنقسم إلى فروع لهذه المواد وهي مملوءة بالعلامات المختلفة التي تفصل بين الجمل المعترضة وكانت أجزاء هذه الفقرات تتوالد فتتكاثر بحيث لايمكن التوصل إلى فهمها الا بعد قراءتها المرة تلو الاخرى شريطة أن يكون القارئ مؤمناً بفصاحة الكاتب فاذا وصل القارئ إلى هذه النتيجة فقدت الجملة أهوالها الأولى وبرز معناها وقد أكسبه قالبه المركب قوة كبيرة .

كانت هذه المذكرة الثالثة التي أرسلها الشريف مؤرخة في ٥ نوفمبر وقد بدأها الحسين ببيان موقفه من مسألة الحدود معلناً على الفور قبوله باخراج ولاية أضنة التي تضم ميناء مرسين من منطقة الاستقلال العربي ولكنه رفض الموافقة على اخراج أجزاء سورية الواقعة غرب مناطق دمشق وحمص وحماه وحلب محتجاً بأنها خلافاً لاضنة ومرسين بلاد عربية محضة كما انه لم يقبل باستثناء الاسكندرون . وقد وافق على التحفظات الخاصة بامراء العرب المتحالفين مع بريطانية العظمى ولكنه صاغ هذه الموافقة بعبارات قد يفهم منها انها انما تنحصر بالامراء المجاورين للبصرة . وأما فيما يخص التعاون الانكليزي العربي في ادارة اجزاء العراق فقد رفض اقتراح مكماهون بكامله ولكنه وافق أن تحتل بريطانية بعد الحرب أجزاء العراق الواقعة في هذا التاريخ (٥ نوفمبر) بيد البريطانيين شريطة أن يكون هذا الاحتلال موقتاً وأن لايفهم منه سلخ أية بقعة عربية ، على أن تقوم بريطانية لقاء ذلك بدفع اعانة مالية للدولة العربية العتيدة يتفق عليها فيما بعد لتكون بمثابة مساعدة لخزانتها في عهد طفولتها .

واذن فان الخلاف الاساسي مازال ناشئاً عن مسألة الحدود وهو يتعلق بالمناطق الساحلية من سورية . ان الشريف بقبوله خروج ولاية أضنة قد تنازل عن شيء هو في الوقت نفسه أكثر مما طلبه مكماهون وأقل ، فان ماطلبه مكماهون بالضبط هو اخراج منطقتي الاسكندرون ومرسين فوافق الشريف على اخراج مرسين ثم تبرع بولاية أضنة بكاملها ولكنه ظل محتفظاً بالاسكندرون التابعة لولاية حلب كما انه لم يقبل بتحفظات مكماهون الخاصة بقية أجزاء سورية .

ثم أثار الحسين نقطة جديدة وهي وجوب ضمان عدم عقد صلح منفرد إذ طالب باعطائه تأكيداً قطعياً يضمن عدم ترك العرب وحدهم وجهاً لوجه أمام قوى ألمانية وتركية المتحدة وأشار كذلك إلى اعتبار العرب محاربين غير رسميين في مؤتمر الصلح وطالب باعطائه ضماناً من جانب بريطانية بشكل وعد تؤكد فيه عزمها على الوقوف إلى جانب العرب لتدافع عن قضيتهم في مفاوضات الصلح . ولم يرغب الحسين في اعلان الثورة فوراً لكي يتم استعداده ومهما يكن من الامر فلا بد له قبل الاتيان بأية حركة من الحصول على هذه الضمانات .

— ٦ —

تأخر وصول الرد البريطاني على مذكرة الشريف الثالثة بعض الوقت ثم أتى مؤرخاً في ١٣ ديسمبر فكان الاسلوب الذي كتب فيه — أو على الاقل في صورته العربية التي بعث بها — متأرجحاً بين الغموض والوضوح .

أعرب مكماهون في هذا الرد عن ارتياحه لاخراج ولاية أضنة ولكنه أبقى تحفظه المتعلق بالمناطق الساحلية من سورية الشمالية ولم يحتج هذه المرة بأنها ليست عربية صرفة بل استند إلى تعلق المصالح الفرنسية بها .

أما في موضوع المعاهدات المعقودة مع امراء العرب فقد أبلغ الشريف ان موافقته اعتبرت شاملة للجزيرة العربية بالاضافة إلى العراق . على انه لما شرع يعالج اقتراح الحسين الصريح والخاص بالتعاون الانكليزي العربي في بعض أجزاء العراق في المستقبل لجأ إلى الغموض وتعمد استعمال الجمل المسهبة التي قال فيها انه لابد من اتخاذ تدبير من هذا النوع للمحافظة على مصالح بريطانية. محافظة حسنة وان كان الامر يحتاج إلى بحث مفصل لايتيسر اجراؤه في هذا الوقت .

وأثنى مكماهون في المذكرة على حذر الحسين ولكنه حثه على بذل الجهود لمنع العرب من مساعدة العدو ريثما تعلن الثورة . وتنتهي المذكرة بتأكيد يعلن ان بريطانية لن تعقد صلحاً مالم يحو شروطاً تضمن « حرية الشعوب العربية » .

— ٧ —

أجاب الحسين بمذكرة رابعة مؤرخة في أول يناير عام ١٩١٦ وكان قد تلقى تقريراً طويلاً من الفاروقي عن محادثاته مع مكماهون ومستشاريه في القاهرة ولذلك بدأ مذكرته بالاعراب عن ارتياحه لما بلغه من تأييد هذا الضابط لجميع أقواله السابقة .

وكان الحسين مطمئناً حين فسر القبول الضعيف الذي أبداه مكماهون في مسألة ادارة العراق المستقبلة على انه قبول نهائي لمقترحاته وأعلن انه مستعد لترك أمر تقدير الاعانة المالية « لحكمة بريطانية العظمى وانصافها » .

وتعرض بعد ذلك إلى بحث المناطق الساحلية لسورية الشمالية فكان من الواضح انه واقع في معضلة كبرى . فهو من جهة حريص على أن يختم هذه المفاوضات الجارية فعلاً منذ شهر اكتوبر عام ١٩١٤ لكي يشرع

باعداد العدة للثورة ، ولكن لم يكن في مقدوره من جهة ثانية التساهل في أمر الاقتراح القاضي باخراج أي جزء من أجزاء سورية من مجموعة المنطقة العربية التي سيعلن استقلالها فكيف يستطيع قبوله ؟ ولم يلجأ الحسين إلى التساهل أو الموافقة للتخلص من المعضلة بل عمد إلى التأجيل فأخبر مكماهون انه حريص على تجنب كل مامن شأنه أن يعكر صفو الوفاق مابين فرنسة وبريطانية العظمى وانه لذلك يؤجل البحث في هذا الموضوع مادامت الحرب قائمة ولكنه أعلمه في الوقت نفسه بصراحة لاتقبل الشك ان التنازل لفرنسة أو لأية دولة أخرى عن شبر واحد من تلك الاجزاء أمر مستحيل استحالة مطلقة وانه سينتهز أول فرصة بعد انتهاء الحرب للمطالبة بحقوق العرب في سورية بكاملها .

ولم يطلب الحسين جواباً عن أية واحدة من ملاحظاته بل كانت لهجته لهجة من يعتبر الصفقة منتهية ، وختم المذكرة بتأكيد عزمه على اعلان الثورة في أول فرصة ولمح إلى انه سيخبر مكماهون في وقت مناسب عما يحتاجه من الأسلحة والعتاد والمؤن .

لعلنا نرى تناقضاً بين رغبة الحسين في تأجيل البحث في المناطق الساحلية من سورية الشمالية وبين ماسبق من اصراره على ضرورة الموافقة حالاً وسلفاً على جميع شروطه ، ولكن ذلك يفسر بأن موقفه الثاني ناشئ عن ايمانه العميق بالعدالة البريطانية وهو اعتقاد سائد بين جميع العرب في ذلك العهد . كان الحسين أثناء مقامه بالقسطنطينية يرقب حركات اللاعبين في الميدان الدبلوماسي بعين مجردة ونافذة فمال إلى ممثلي بريطانية العظمى لأنه وجدهم أشد اللاعبين نزاهة فأنشأ علاقات حبية مع السفارة البريطانية بالقدر الذي تبيحه الحكمة فوجد نفسه أمام شعور ودي وبعيد عن المكر

وهي صفات خارقة للطبيعة في نظر من تعود العيش في جو من الالتواء الحميدي . وقد علم ان بريطانية أيدت سراً تعيينه أميراً على مكة عام ١٩٠٨ .

ونشأ عن هذا المزيج من الاعجاب وعرفان الجميل ان ولد في نفس الحسين احترام عميق لبعض الافراد الانكليز وعقيدة صلبة في مقاييس الشرف عند الانكليز في معاملاتهم فلما حصل من مكماهون على تأكيدات قاطعة في الموضوع الاساسي المتعلق بمساحة المنطقة العربية المستقلة مال إلى ترك التعاريف الثانوية حتى يجيء وقتها وكانت ثقته بحق العرب غير المنازع في سورية بكاملها وبأن بريطانية العظمى ستعالج الموضوع في وقته بانصاف تام — كانت ثقته بهذين الأمرين عظيمة إلى حد اطمأن معه إلى تأجيل البحث في مصالح فرنسة في المنطقة الساحلية وفي التدابير الواجب اتخاذها لادارة العراق .

— ٨ —

أجاب مكماهون بمذكرة مؤرخة في ٣٠ يناير حوت في الغالب تكراراً لما ورد في المذكرات السابقة فقد أثنى على الشريف لرغبته في تجنب كل مامن شأنه أن يحرج بريطانية العظمى في علاقتها مع فرنسة ولكنه أشار إلى انه من العبث توقع حدوث أي تراخ في التضامن القائم بين الدولتين بعد الحرب . والقصد الظاهر من هذه الاشارة هو بيان انه في حالة اصرار فرنسة على المطالبة بحقها لايبقى في وسع بريطانية العظمى أن تضمن بقاء اجزاء سورية التي اخرجت من المنطقة العربية في مذكرة ٢٤ اكتوبر عام ١٩١٥ ضمن المناطق التي تعهدت بالاعتراف باستقلال العرب فيها وتأييده .

— ٩ —

وبهذا انتهت المفاوضات وعد كل من الفريقين الصفقة تامة . لقد تبودلت فيما بعد مذكرات بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون ولكنها

كانت تتعلق بالاستعدادات القائمة لاعلان الثورة ولم تضف جديداً على بنود هذا الالتزام الانكليزي العربي اللهم الا التأكيدات المتكررة بالاخلاص المتبادل. ان المذكرات الملخصة في هذا الباب — وعددها ثمانية — هي الوحيدة التي تبحث مواد الالتزام ومنها تتألف المجموعة المعروفة باسم مراسلات مكماهون .

نستطيع تلخيص مواد الالتزام الاساسية بايجاز تام . لم يجر بصراحة ذكر الواجبات العسكرية التي يترتب على كل من الطرفين القيام بها لأنها بحثت شفوياً مع رسول الشريف ولكن كان من الامور المسلم بها منذ البداية والتي لم يتردد في شأنها الشريف قط تسخير جميع قواته ونفوذه مشفوعة بكل مايستطيع اعداده من موارده المادية في سبيل انجاز مهمة دحر تركية ، وكذلك قيام بريطانية العظمى بمساعدته لسد النقص في موارده المادية أي في الاسلحة والتجهيزات والمال . وأما من الناحية السياسية فقد تعهد الشريف باعلان الثورة العربية وباتهام الترك علناً بأنهم أعداء الاسلام ، بينما تعهدت بريطانية العظمى بتحقيق أمرين صريحين لاشك فيهما : الاعتراف بالخلافة العربية إذا قامت والاعتراف باستقلال العرب ضمن منطقة معينة وتأييد هذا الاستقلال .

قام نقاش بعد الحرب حول البلاد العربية التي تدخل في تلك المنطقة واشتد هذا النقاش بصورة خاصة في موضوع ذلك الجزء من الشام المعروف اليوم باسم فلسطين والموضوع تحت الانتداب ، فقال العرب ان فلسطين تقع ضمن المنطقة العربية التي وعدت بالاستقلال بينما ادعت الحكومة البريطانية العكس وظل هذان الرأيان واقفين وجهاً لوجه إلى يومنا هذا فلا يمكن اصدار الحكم الفاصل بينهما إلا بعد فحص مراسلات مكماهون (١) .

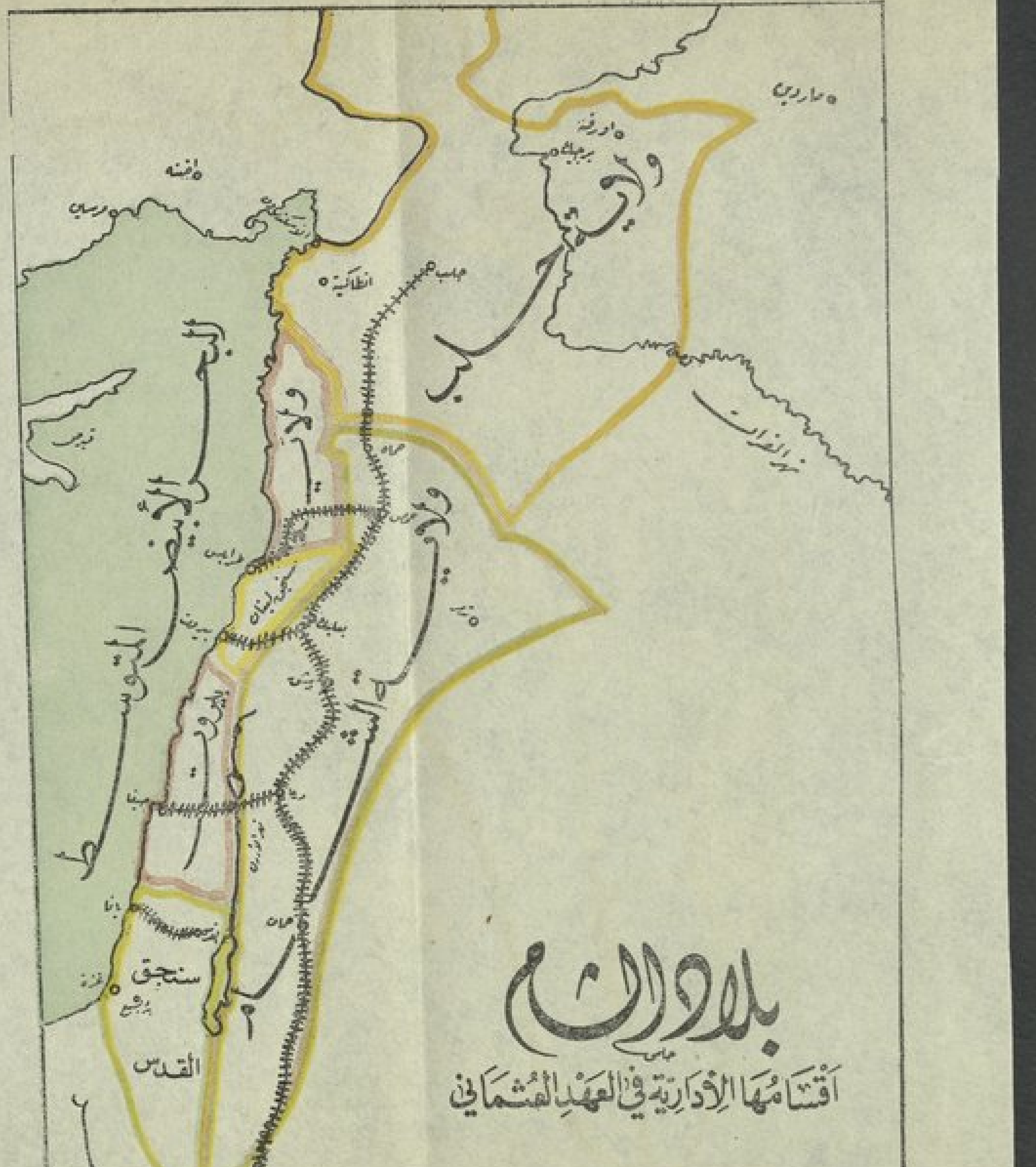
(١) لم يكن الرأي العام البريطاني مطلعاً على هذه المراسلات والمؤلف هو أول من ترجمها إلى اللغة الانكليزية في هذا الكتاب .

- ١٠ -

يجب الانتباه منذ البداية إلى ان السير هنري مكماهون لم يحدد قط المنطقة العربية المستقلة بل كان يقبل دوماً بمجموع الحدود التي يقترحها الشريف حسين مع مراعاة بعض التحفظات ونتيجة ذلك حتماً ان الاجزاء الواقعة ضمن المنطقة التي حددها الشريف والتي لم يرد عليها أي تحفظ — كفلسطين أو غيرها — تشكل جزءاً من المنطقة العربية التي وافقت بريطانية العظمى على استقلالها .

وأول مايلفت نظرنا أن هذه الوثائق لا تأتي على ذكر فلسطين مطلقاً فنحن نرى انه بينما ذكرت بعض أجزاء المنطقة العربية المستقلة بعينها — وأحياناً مع شيء من عدم الدقة — لأنها تحتاج معالجة خاصة ، لم يرد في أي مكان أي ذكر لذلك الجزء من الشام المعروف في لغة الادارة العثمانية باسم سنجق القدس . تتألف فلسطين بحدودها الحاضرة من سنجق القدس القديم مع ضم الجزء المجاور له من ولاية بيروت القديمة وكان السير هنري مكماهون حريصاً في جميع رسائله على أن يعدد أسماء كل الاجزاء التي تناولتها تحفظاته ولهذا فعدم ذكره سنجق القدس أو الاشارة إليه بصورة غير مباشرة يقضي فوراً على الخرافة القائلة بأن بريطانية العظمى استثنت فلسطين بحدودها الحاضرة من المنطقة التي تعهدت باقامة حكومة عربية مستقلة فيها تعترف بها وتؤيدها .

تدعي الحكومة البريطانية ان فلسطين مستثناة ضمناً في قول السير هنري مكماهون إذ ابلغ الشريف بأن « أجزاء سورية الواقعة في غرب مناطق دمشق وحمص وحماه وحلب » خارجة عن المنطقة العربية المستقلة . وقد أيد المستر ونستون تشترشل هذا الادعاء علناً في عام ١٩٢٢ حين خطب بوصفه


بلاد الشام
اقسامها الادارية في العهد العثماني
الرقم ٣
ولاية حلب
ولاية بيروت
البحر الابيض المتوسط
سنجق لبنان
سنجق القدس
ماردين
اورفة
برجيك
انطاكية
حلب
اطنه
مرسين
قبرص
نهر الفرات
طرابلس
بيروت
حماه
حمص
بعلبك
يافا
غزة
بئر السبع
العقبة

وزيراً مسئولاً من وزراء التاج يحاول اثبات وجهة نظره بقوله ان كلمة « مناطق » في تلك الجملة مرادفة لكلمة « ولاية » فلما كانت ولاية دمشق تضم ذلك الجزء من سورية المعروف باسم شرق الاردن والواقع في شرق نهر الاردن فان ذلك الجزء من سورية الواقع في غرب نهر الاردن والمعروف اليوم باسم فلسطين يعتبر من الاجزاء التي عناها مكماهون في تحفظه .

إذا عدنا إلى النص أدركنا ان حجة الحكومة البريطانية واهية وأول مايدحضها ان كلمة « مناطق » في عبارة مكماهون لايمكن أن تعتبر مرادفة لكلمة « ولايات » لأنه لم يكن في الوجود في ذلك العهد مناطق تعرف باسم « ولاية دمشق » و « ولاية حمص » و « ولاية حماه » بل كانت هناك ولاية واحدة هي ولاية الشام وعاصمتها دمشق ومقاطعتان ادارتان صغيرتان كانت حمص وحماه المدينتان الرئيسيتان فيهما . ولا يبقى لجملة مكماهون أي معنى مالم نفسر كلمة « المناطق » بمعناها العام أي الاقاليم المجاورة للمدن الاربع وما لم نعتبر ان تحفظه ينطبق على ذلك الجزء من سورية الممتد على وجه التقريب من صيدا إلى الاسكندرون والواقع إلى غرب الخط المار بتلك المدن الاربع والاقاليم المجاورة لها تماماً .

نأتي هنا بمثالين يوضحان سخف المحاولات المبذولة لتفسير تلك الجملة على غير حقيقتها : فلو قالت الجملة « مناطق لينكولن وغينزبورو ودونكاستر ويورك » لما فسر أحد كلمة « مناطق » على انها تعني الوحدات الادارية الانكليزية (١) ولما استنتج أحد ان المساحة التي تحددها تضم الوحدتين الاداريتين — لينكولنشاير ويوركشاير — بكاملهما . وبالشكل ذاته لو قالت الجملة « مناطق نيويورك ونيوارك ونيوبرانزويك وترينتون » فهل يخطر في بال أحد

(١) أي (County) وهي الوحدة الادارية في بريطانية التي تقابل المحافظة .

أن يفسر كلمة « مناطق » على أنها تعني « ولايات » وان المساحة المقصودة تضم ولايتي نيويورك ونيوجيرزى بكاملها ؟ ومع ذلك فهذا هو بالضبط تفسير الحكومة البريطانية في محاولتها غير الموفقة لتبرير اخراج فلسطين من المنطقة العربية المستقلة (١) .

ثم ان مكماهون أشار في مذكرته الثالثة المؤرخة في ١٣ ديسمبر إلى ان المناطق التي أراد استثناءها تقع في « ولايتي حلب وبيروت » فلو كان يقصد فلسطين لأضاف بكل تأكيد عبارة « سنجق القدس » فان عدم ذكره ذلك يؤيد ماذهبنا إليه من ان أجزاء سورية الوحيدة التي اقترح في ذلك العهد الاحتفاظ بها لصالح فرنسة هي المناطق الساحلية لسورية الشمالية .

وأخيراً فان مكماهون حين تقدم بتعهده في مذكرته الثانية قال ان بريطانية تعترف باستقلال العرب في المناطق الواقعة ضمن الحدود التي اقترحها شريف مكة والتي تستطيع « أن تعمل فيها دون أن تمس مصالح حليفتها فرنسة » . كانت الحجة التي أوردها مكماهون في هذه المذكرة وفي المذكرة التي أعقبتها بتاريخ ١٣ ديسمبر لتبرير استثنائه بعض أجزاء سورية هي مراعاة بريطانية العظمى لمصالح فرنسة ، وعليه فاذا وجدت بريطانية العظمى بعد الحرب انها تستطيع العمل بحرية في أي جزء من أجزاء سورية كانت تعد نفسها ملزمة بالاحتفاظ به لصالح فرنسة ، لم يبق لهذا التحفظ أي مبرر وفقد قوته

(١) استعمل كل من الحسين ومكماهون في جميع مراسلاتهما كلمة « ولاية » بمعناها العام المرادف لكلمة « منطقة » أو « مقاطعة » كما استعملاها بمعناها الخاص للدلالة على وحدة ادارية تركية ونجد أمثلة على استعمالها بهذا الشكل وبدون تفريق بين المعنيين في ملاحظاتنا على النصوص المنشورة في الملحق (آ) .

التي كانت له في البداية . وينتج عن هذا ان ذلك الجزء من سورية الذي لم يعد واقعاً ضمن المنطقة التي لفرنسة فيها مصالح — كما أصبحت فلسطين فيما بعد — يدخل حتماً ضمن المنطقة العربية المستقلة التي اقترحها الشريف وقبلتها بريطانية العظمى ، مالم تكن هناك اتفاقات صريحة تنص على عكس ذلك .

— ١١ —

وما يزال هذا النقاش مستمراً وما يزال أفراد بارزون في الحكومة وخارجها ينادون بأعلى صوتهم قائلين — وبعضهم مخلص في قوله — ان مكماهون قد أخرج فلسطين بالفعل من المنطقة العربية المستقلة .

لايمكن لانسان قرأ نصوص مراسلات مكماهون أن يتمسك بهذه الفكرة وهو قانع بصحتها ، وما تجرأ الناس على تأييد مثل هذا الادعاء الواهي الا لفقدان النص الكامل بأية لغة خلا اللغة العربية ، وبالرغم من انه طلب إلى الحكومات البريطانية المتعاقبة نشر النص الانكليزي الرسمي فقد رفضت نشره كاملاً مدعية ان المصلحة العامة تحول دون ذلك وقد كان من المحتمل أن تحتفظ هذه الدعوى بقوتها لو بقيت المذكرات المتبادلة بين الحسين ومكماهون سراً رسمياً وحقيقياً ولم تذع بشكل من الأشكال .

وواقع الامر ان العرب في سائر أقطارهم واقفون على مضمون مراسلات مكماهون وقد نشر الحسين نفسه مقاطع منها في مكة وبصورة رسمية كما ظهرت صور كالأصل وكاملة عن بعض المذكرات في كتب وجرائد عربية ويستطيع أي انسان له معرفة باللغة العربية وقادر على الوصول إلى ملفات الجرائد العربية القديمة أن يجمع كل المذكرات المتبادلة مع مكماهون وهذا ماقمنا به خلال أربع سنوات قضيناها متنقلين وباحثين بين القاهرة وبغداد وبين حلب وجدة .

أما الأسباب التي جعلت الحكومة البريطانية تلجأ إلى ذكر المصلحة

العامة لتبرير عدم نشرها مراسلات مكماهون فانها ماتزال سراً غامضاً وقد شعرنا بالواجب يدعونا إلى بحث هذه الناحية من المشكلة قبل النهوض بالتبعة المترتبة علينا والناشئة عن مهمتنا التاريخية . ولكننا لما قابلنا النسخ التي حصلنا عليها للمذكرات المتبادلة مع مكماهون والفنا النص النهائي والكامل لها اتضح لنا بأن الرأي العام في كافة أنحاء العالم العربي مطلع على ماتحويه وقد اتضح كذلك ان التفسير الذي أعطته الحكومة البريطانية لمعنى تعهداتها ومداها لايتفق مع حرفية النصوص وروحها . كان الشعور بالواجب العام يقضي باذاعة النصوص العربية لسبب واحد على الاقل وهو ان الخلاف بين البريطانيين والعرب على تفسير هذه التعهدات كان سبباً لوقوع مايمكن تلافيه من تخريب وآلام ودماء كثيرة ، وسيستمر وقوعها في المستقبل مادام سوء التفاهم هذا قائماً . واذن فان المصلحة العامة تقضي لابكتمان النصوص بل باذاعتها عاجلاً لما في ذلك من مصلحة لجميع الجهات ذات العلاقة . وقد خطت اللجنة الملكية التي شكلت لبحث قضية فلسطين خطوة يجب أن تحتذى بنشرها مذكرة مكماهون المؤرخة في ٢٤ اكتوبر عام ١٩١٥ بكاملها في الباب الثاني من تقريرها .

وليس هذا رأينا وحدنا فان في بريطانية العظمى وبلاد العرب رجالاً مسئولين وعاملين في الحقل العام يطالبون دوماً ويلحون بأن تذاع النصوص بكاملها ومن يتصفح الصحف البريطانية الصادرة خلال الاعوام الثمانية عشر الماضية يجد عدداً كبيراً من الرسائل حول هذا الموضوع كتبها طلاب ومؤرخون ورجال سياسة ، وتحوي المحاضر الرسمية لمناقشات مجلسي اللوردات والعموم ثبتاً بالخطب التي ألقاها أعضاء بارزون مطالبين باذاعة النصوص بشكل رسمي مستندين في ذلك إلى أسمى الاعتبارات المعنوية والسياسية وكان بعض

هؤلاء الخطباء ممن اشتركوا في وزارات تقلدت الحكم أثناء الحرب فبسطوا وجهة نظرهم معتمدين على ماعندهم من معرفة باطنية . وكان المرحوم السير ادوارد غراي (الذي أصبح فيما بعد اللورد غراي اوف فالودين) أحد هؤلاء الوزراء ولعل لرأيه قيمة تفوق رأي غيره من السياسيين لأنه كان الوزير المختص الذي كتب مكماهون مذكراته بناءً على تعليماته . فقد خطب في مجلس اللوردات في جلسة ٢٧ مايس عام ١٩٢٣ قائلاً :

« لقد اطلع الرأي العام على عدد كبير أو صغير من هذه الالتزامات عن غير الطرق الرسمية ولست أعلم ما إذا اذيعت جميع تلك الالتزامات بهذا الشكل ولكني أقترح على الحكومة بكل الحاح بأن الطريقة الوحيدة التي تستطيع بواسطتها صيانة شرفنا في هذا الموضوع هي نشر جميع الألتزامات التي ارتبطنا بها خلال الحرب والتي لها علاقة بهذا الموضوع بصورة رسمية . . . اني لعلى يقين بأننا لن نستعيد شرفنا إذا نحن أخفينا التزاماتنا وتظاهرنا بعدم وجود التناقض إذا كان هذا التناقض موجوداً بالفعل ، وأنا واثق من ان اشرف سبيل نتبعه هو اطلاع الناس على حقيقة التزاماتنا والاعتراف صراحة بوجود التناقض إذا ظهر فعلاً وبعد هذا الاعتراف وبعد أن نتيح الفرصة للناس لكي يقدروا بالضبط مبلغ هذا التناقض يدعونا هذا السبيل الشريف إلى التفكير بأعدل وأشرف مخرج لنا من هذه العقدة التي قد تكون الالتزامات قد أوقعتنا فيها . »

هذه هي الكلمات التي تفوه بها ذلك السياسي نفسه الذي كان وزيراً للخارجية ومسئولاً بهذه الصفة عن الالتزامات التي تعهد بها مكماهون في مراسلاته . وقد أبدى المرحوم اللورد اكسفورد والمستر لويد جورج آراء

مماثلة في مناقشة من مناقشات مجلس العموم في جلسة ٢٠ مايس عام ١٩٢٣ حين تسابق هذان السياسيان الكبيران في الالحاح على رئيس الوزراء القائم بضرورة اذاعة الوثائق . وبين وقت وآخر كانت ترتفع أصوات بعض الرجال البارزين الذين يمثلون مختلف الاحزاب السياسية مؤيدة غراي واسكويث ولويد جورج في ماذهبوا إليه .

- ١٢ -

كان المغفور له الملك حسين هو نفسه الذي اقترح علينا فكرة القيام بأبحاث لجمع نصوص مراسلات مكماهون وذلك في عمان عام ١٩٣١ قبل وفاته بأشهر قليلة وكان حرصه الشديد على تعريف الناس بالحقيقة الكاملة يدفعه في ذلك العهد إلى الاكثار من الكلام خارجاً في ذلك على تحفظه القديم ، وقد اطلعنا على النسخ الاصلية لمذكراته التي وجهها إلى مكماهون وسمح لنا بتدقيقها ونسخها بينما أخذ يرقب عملنا بصمت لايخرج منه الا للجواب عن سؤال نوجهه . ولن ننساه قط وقد جلس أمامنا وهو منزعج في مقعد وثير أوسع من جسمه الذي قلصه الشلل وقد علت وجهه الجميل صفرة الموت ولمعت عيناه فجأة ببريق الحماس المكبوت بعد أن كانتا غارقتين في فراغ مبعثه الاستسلام ، وكان في هذه المرة متيقظاً وواضحاً كما كان عند اجتماعنا الاول قبل سبع سنوات حين كان في قمة نشاطه ، وخيل لنا في هذه المرة ان تفكيره قد أضاع مرونته القديمة وانه أخذ يلجأ إلى استعمال العبارات الانيقة التي كانت دوماً من ميزات حديثه ولكنها طغت عليه الآن كأن حكم العادة غلب التفكير ، وتحولت رغبته القديمة في تبرير نفسه إلى هوس جامح .

كان يلح علينا بضرورة تدوين قصة الثورة العربية مشيراً إلى الاوراق الموضوعة أمامنا وهو يقول : « هذه هي مقدمات الثورة العربية وهذه مبرراتي ،

أقول مبرراتي » . وقد ردد هذه الجملة مالا يقل عن ثماني مرات أو عشر في خلال الساعة الأولى من لقائنا .

كان الحسين حتى ذلك التاريخ أي في ربيع عام ١٩٣١ قد قضى ست سنوات في المنفى بعد أن ضيع عرشه وأرغم على مغادرة بلاده في ظروف سنأتي على ذكرها فيما بعد ، وكان رجلاً مريضاً طاعناً في السن لايهتم بشيء سوى تبرير نفسه وكان وهو في تلك الحالة من الالم المرير يسند كل المصائب التي حلت به إلى الحنث بالوعود التي قطعها مكماهون ويشكو من ذلك لانه السبب الوحيد لمحنته الحاضرة وكان يذكر كتشنر باستمرار وان لم يجتمع به قط ويأسف لوفاته ويتعرض كثيراً في حديثه إلى لويد جورج كأنه الرجل الشرير في القصة وقد صاغ هجومه العنيف بتلك العبارات الانيقة التي كانت دارجة في العهد الحميدي وهي عبارات مهذبة ومضحكة ولكنها لم تفقد هذا الهجوم شيئاً من قوته . قال : « ان الانكليز يا ولدي قوم شرفاء بالقول وبالفعل وحين تقبل الايام وحين تدبر . أقول شرفاء . ولكن حضرة صاحب الدولة لويد جورج بهلوان وثعلب . أقول ثعلب حاشى حضوركم . رحم الله روح حضرة صاحب المعالي كتشنر ! . »

الباب العاشر

الثورة : يونيو ١٩١٦

— ١ —

كان من المصادفات الغريبة ان بدأت الثورة في يوم وفاة كتشنر أي في ٥ يونيو عام ١٩١٦ ولكنها قامت على مقياس أضيق بكثير مما كان الحسين يستعد له في الاصل فقد كان مشروعه الاصلي يقضي باثارة الفتن في وقت واحد في الشام والحجاز على أن تقع في الوقت الذي تنزل فيه حملة حليفة إلى البر في نقطة قريبة من الاسكندرون وبهذا يقع الترك بين نارين فتشل حركة قواتهم المرابطة بين حلب ومكة ، ثم تمتد الثورة شرقاً لتوقع ضربتها بهم في العراق . ولكن الحلفاء لم يقبلوا بهذه الفكرة فلم يبق أمام الحسين الا أن يعلن الثورة في الحجاز كمقدمة للهجوم على مراكز الترك في الشام .

— ٢ —

وصلت مذكرة مكماهون الرابعة مكة في ١٢ فبراير ومن تلك اللحظة شرع الشريف بانجاز استعداداته النهائية .

وكان الظرف يستلزم حذراً أشد من ذي قبل فدفعه هذا الحذر إلى اللجوء للحيلة . كانت شكوك الترك تزداد يوماً عن يوم وقد ازدادت قوتهم المعنوية بانسحاب الحلفاء من جناق قلعة وبما تراءى لهم من أمل في استسلام البريطانيين في كوت الامارة فراحوا يجددون التفكير بالعودة

إلى خططهم القديمة لغزو مصر ويلحون على الحسين بلزوم تجنيد الجند في الحجاز لحملة مصر فاضطر إلى إرسال فيصل ثانية إلى دمشق قبل نهاية عام ١٩١٥ تلبية لرغبة جمال الملحة . ثم انصرف هم الحسين الى مقاومة الطلبات الجديدة التي تقدم بها الترك والاشراف على انجاز استعداداته تحت أنفهم مع الانتباه إلى ضرورة تجنب أي عمل متطرف قد يثيرهم فيدفعهم الى اعتقال ولده لأن أمراً كهذا يعرض نجاح الثورة في الشام الى الخطر . ثم أوفد اكبر أولاده علياً الى المدينة ليراقب الحاكم التركي ويزود رؤساء العشائر المجاورة بالتعليمات اللازمة بعد اطلاعهم على السر وبقي عبد الله بجانب أبيه ليساعد في انجاز ما يترتب عمله في مكة من الاستعدادات للثورة ، ولم يكن ساعد الأمير زيد ولده الرابع قد اشتد بعد فاحتفظ به ليقوم بأية مهمة طارئة .

ولكن ظهر للميدان عامل واحد كان يحتمل أن يؤدي الى هدم خطط الحسين سواء في الثورة التي يتوقع قيامها في الشام أم في سعيه لتجنب الاصطدام مع الترك قبل الأوان . أما هذا العامل فهو سياسة جمال باشا الجديدة في بلاد الشام .

— ٣ —

رأينا كيف سعى جمال باشا سعياً حثيثاً للظفر بمساهمة أهل الشام — والمسلمون منهم بصورة خاصة — مساهمة تامة في الحرب التي قال ، ولعله كان يعتقد ذلك بالفعل ، بأنها قائمة للدفاع عن الاسلام . كانت مهمته الاولى حين تولى قيادة الجيش الرابع تنظيم الحملة على مصر ولما كان معظم الجنود الموضوعين تحت قيادته من العرب فكر بأن الحكمة تقضي بعدم اعطائهم مجالاً للتذمر وكان عند وصوله سورية يجهل وجود الجمعيات القومية السرية او يعرف عنها القليل فلما أطلعوه على الوثائق التي ضبطت في القنصليتين الفرنسيتين في

بيروت ودمشق قرر اهمالها ولا سيما أن الأشخاص المتهمين فيها هم من المسلمين ذوي المكانة . وكان نخلة مطران باشا وهو مسيحي معروف الشخص الوحيد الذي اضطهده لأسباب سياسية اذ ثبتت عليه تهمة محاولة الحصول على مساعدة فرنسة لضم بعلبك الى لبنان فحكم بالنفي المؤبد وعرض في شوارع دمشق ثم توفي وهو في طريق المنفى ، ولم تخل الوفاة من مساهمة الحكومة فيها .

ولما فشلت الحملة على مصر بسبب سوء تقدير جمال بالدرجة الأولى عاد من جبهة سيناء وهو شاعر بالذل في دخيلة نفسه فولد هذا الشعور حدة في مزاجه تظهر عادة في صغار الرجال بعد خيبة يمنون بها ، فلما عرضت عليه أوراق تجرم قساً مارونياً في لبنان معروفاً بميله الشديد لفرنسة واسمه يوسف حايك لتبادله رسائل تحوي عناصر الخيانة مع المسيو ديشانيل رئيس مجلس النواب الفرنسي آنئذ ، وقع الحكم باعدامه بلا تردد فشنق هذا القس المنكود الحظ علناً في دمشق يوم ٢٢ مارس عام ١٩١٥ .

ثم أخذت التقارير ترد بالتدريج وهي تنبئ بصورة متزايدة بوجود الدلائل على نشاط الحركات الوطنية بالسر وان الجيش مملوء بالمراكز التي تعمل من أجل الثورة وان انكلترة وفرنسة لهما عمال في البلاد يسعون لاثارة الفتنة وان نزول الحلفاء في سواحل سورية بات قريباً وان الضباط العرب في الجيش وعدوا بمساعدة هذا النزول ، فوقعت هيئة أركان الجيش الرابع في الخطأ الذي تقع فيه دوماً دوائر الاستخبارات العسكرية عندما تحاول اقتفاء أثر حركة سياسية فكانت أذناها متفتحتين لسماع الشائعات ولكن أنفها لم يميز رائحتها . فصدقت أنباء هذه التقارير ولكنها لم تهتد الى المتآمرين الحقيقيين فأثارت مخاوف جمال وجعلته حاقداً راغباً في الانتقام ولكنه وقف ازاء ذلك مرتبكاً مثله فيه مثل بوليفيموس الذي أراد ازال الضربة ولكنه لم يعرف

عن ينزلها . وفي تلك الأثناء أي في يونيو عام ١٩١٥ طلب اليه انور أن يمده بالجند لجبهة جناق قلعة فأرسل له الفرقة الخامسة والعشرين المؤلفة كلها من العرب وكانت من الدعائم الرئيسية في خطة (جمعية العهد) للثورة . وأخذ جمال بعد ذلك ينتهز الفرص لاخراج الوحدات العربية من سورية واحلال طوابير تركية محلها .

ثم وجه اهتمامه الى المنظمات الملكية فقرر ملاحقة الأشخاص الذين تجرمهم الوثائق المضبوطة في القنصليتين الفرنسيتين فألقى القبض على عدد كبير من الناس وأحضروا أمام محكمة مشؤومة في عالية بلبنان حيث جرى استجوابهم وعذبوا ثم حوكموا فحكم على ثلاثة عشر شخصاً منهم وجاهياً بالاعدام وحكم على خمسة وأربعين شخصاً غيرهم ممن فروا أو كانوا في الخارج غيابياً بالاعدام وبعقوبات مختلفة من حبس وابعاد وكانوا جميعاً من ذوي المكانة وكان بعضهم من الشخصيات البارزة المعروفة في سائر أنحاء العالم العربي .

نفذ حكم الاعدام في فجر يوم ٢١ أغسطس عام ١٩١٥ في أحد عشر شخصاً من الذين حكموا وجاهاً وأجل التنفيذ بحق اثنين فنصبت احدى عشرة مشنقة في ميدان بيروت الرئيسي المسمى بميدان الحرية وهذا من غرائب الصدف وكان عشرة من هؤلاء الشهداء مسلمين والواحد مسيحياً وكانوا من سكان جهات مختلفة من الشام : بيروت وبعلبك وحماه ودمشق وجنين ، واكثرهم في مقتبل العمر وقد تلقوا الموت بشجاعة فغدت كلماتهم الأخيرة التي تلهب الشعور الوطني رسالة تلقاها منهم أبناء وطنهم المفجوعون فقدسوها . وكان بينهم محمد المحمصاني أحد خريجي معهد حقوق باريس اللامعين ومن مؤسسي (الفتاة) فمات دون أن ينبس ببنت شفة عن وجود الجمعية بالرغم من التعذيب الذي تحمله والعفو الذي لوح له به كمكافأة له اذا اعترف .

وكان الشخصان اللذان أجل بحقهما التنفيذ هما حافظ بك السعيد من يافا والشيخ سعيد الكرمي من طولكرم وكانا متقدمين في السن فأبدل حكم إعدامهما بالسجن المؤبد وتوفى الاول في السجن . ونجا حسن حماد من أهل نابلس بأعجوبة فقد تخلف عن حضور المحاكمة بسبب تأخر تبليغه الدعوة فثابر على القيام بوظيفته كرئيس (الطابو)[١] في نابلس بكل براءة فحكم بالاعدام غياباً ولكنه استلم الدعوة خلال ذلك فتوجه لحضور جلسات ديوان الحرب في عالية فلما وصل الى فندق القرية طالع إحدى الجرائد عن طريق الصدفة وفيها نبأ الحكم باعدامه فتناول حقيبته وركب القطار الى دمشق حيث أقام في الخفاء وأرسل لحيته وتزوج ابنة حاميه فولدت له ولدين عاد بهم جميعاً إلى نابلس بعد الحرب .

وبهذا الشكل بدأ جمال سياسته العربية الجديدة وهي بداية متواضعة اذا قورنت بما أعقبها .

— ٤ —

وجد فيصل لدى وصوله دمشق في اوائل شهر يناير التالي ان الامور تغيرت تغيراً كلياً فقد كانت الغاية المحددة لرحلته تحريك الفرق العربية في الجيش التركي للثورة واثارة الاهلين بجموعهم ليشعلوا نار الفتنة وذلك بناء على اشارة يتلقاها من والده . وقد رافقه حرس خاص مؤلف من اربعين شخصاً تقريباً كانوا جميعاً مختارين وكلهم من ذوي العزم الصادق وكان الكثيرون منهم من آل الشريف نفسه وقد وضعوا ارواحهم في اكفهم مثله . وعلل فيصل وجودهم لجمال بقوله انهم يؤلفون مقدمة القوة التي طولب الشريف بتشكيلها في الحجاز فقبل جمال التفسير على ظاهره ورحب بهم فاقيمت الولائم والحفلات على شرفه واحتفاء

(١) دائرة التسجيل العقاري .

بوصول هذه المقدمة فلما انتهت الاحتفالات ووجد فيصل متسعاً من الوقت لدراسة الوضع الفى نفسه امام حالة من اعجب الحالات .

فقد تم نقل آخر الفرق العربية وفيها معظم اصدقائه اعضاء (العهد) وجيء بطوابير تركية حلت محلها كما ابعد المتبينون من الملكيين بالمئات الى جهات الاناضول النائية وبدأت المجاعة التي انتشرت فيما بعد بشكل مفزع اودى بحياة عدد كبير من الناس وكان هم السكان منحصراً في اتقاء الجوع بعد ان افقرتهم المصادرات العسكرية وتدني النقد وقلة الغذاء . ومما زاد في الخوف العام ان السلطة اعتقلت عدداً جديداً واكبر من سابقه من الوجهاء المسلمين والنصارى الذين حجزوا في حلب بانتظار محاكمتهم بتهمة الخيانة .

ضمت هذه الزمرة بعض الاسماء التي كان اصحابها من اشهر رجال الشام واوسعهم نفوذاً مما دل على أن جمالاً قد طرح سياسة الرفق جانباً ودامت المحاكمات عدة شهور وسارت بصرامة مقصودة يرافقها التهديد بأشكاله المختلفة من معاملة سيئة وتعذيب . وتوسط الشريف ببرقيات ارسلها الى جمال والصدر الاعظم والسلطان مطالباً بألا يتجاوز الحكم السجن المؤبد اذا ثبتت التهمة ومضيفاً بشيء من الوعيد ان هذا الامر اذا لم يتم فأن الدماء المراقة سيعقبها دماء . وتوسل فيصل بذاته لدى جمال باشا ولكن وساطتها كانت عقيمة .

كان جوزيف هاني اول الضحايا وهو من سكان بيروت المتبينين فشنق علناً يوم ٥ ابريل وبعد شهر اعدم واحد وعشرون شخصاً بالشكل ذاته ، سبعة في دمشق واربعة عشر في بيروت وكان بينهم عضو مجلس الاعيان عبد الحميد الزهراوي وهو من حمص وقد ترأس المؤتمر العربي في باريس ، وثلاثة من مبعوثي دمشق هم شفيق المؤيد وشكري العسلي ورشدي الشمعه ، وضابط قدير باسل في الجيش التركي هو سليم الجزائري ، والقاضي سيف الدين الخطيب من حيفا ، والمحامي الشاب ذو المستقبل الباهر الامير عارف الشهابي من حاصبيا ، واحمد طباره

من بيروت هو كاتب وصاحب جريدة وكان من الموفدين الى مؤتمر باريس العربي، وعلى عمر النشاشيبي من القدس ومحمد الشنطي من يافا وجورج حداد من لبنان ويتمتع ثلاثتهم بشهرة واسعة وبمحبة الناس لهم، والامير عمر الجزائري وهو دمشقي من سلالة الامير عبد القادر المشهور . وكان المسلمون سبعة عشر شخصاً والباقون من النصارى .

لم تعلن الاحكام في حينها بل دخل سجان قاعة السجن في عاليه ليلة التنفيذ وقرأ اسماء واحد وعشرين شخصاً من المتهمين ورجاهم بأن يرتدوا ملابسهم ويتبعوه فنقل الذين تقرر اعدامهم في دمشق بالقطار وعند وصولهم سيقوا الى ساحة المرجه وهي اكبر ميدان في المدينة حيث نصبت سبع مشانق ونقل الآخرون في عربات الى بيروت فعرفوا مصيرهم بالحدس وراحوا يقتلون ساعات الظلام بالاناشيد الوطنية التي تتغنى بحرية العرب فكانت كل جماعة تجيب الاخرى من عربتها حتى وصلوا ساحة الحرية عند الفجر . وما كادت تدق الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم السادس من شهر مايس حتى كانت المجزرة منتهية، ولم تمض عليها ساعتان حتى صدر عدد خاص من جريدة (الشرق) (١) وزع مجاناً وفيه بيان بالتهم والمحاكمة والاحكام وتنفيذها وقد ذكرت كلها دفعة واحدة ووصفت التهم بأنها اشتراك في اعمال خيانة غايتها فصل سورية وفلسطين والعراق عن السلطنة العثمانية لتشكل دولة مستقلة .

سرت في البلاد قشعريرة من الاشمئزاز إذ لم يتوقع احد من جمال بطشاً كهذا حتى الذين يعرفون ما يخفيه في أعماق نفسه من وحشية . ومما زاد في فظاعة الأمر ان الاحكام نزلت بالأبرياء والمذنبين على السواء فقد

(١) جريدة يومية عربية اسست في دمشق عام ١٩١٣ ورعتها السلطة لتخدم سياسة جمال باشا .

كان معروفاً عن الكثيرين من الشهداء أنهم بعيدون تمام البعد عن كل ما يتصل بالخيانة فاستولى الفزع على عامة الناس فوراً وأصيب الزعماء القليلون الذين لم تتعرض لهم السلطة بالذهول لأنهم لم يتوقعوا حتى في أحرج الأوقات أن يحكم هذا العدد الكبير من زملائهم بالموت ولما أدركوا أنهم عاجزون عن العمل فاضت قلوبهم بالألم وهم يشاهدون حرياتهم المخنوقة وفكروا بالواجب الذي يدعوهم الى التحرر لا رغبة في ذلك لذاته فحسب بل أيضاً كوسيلة للانتقام. وتأثر فيصل كثيراً فتجاوز حدود الحكمة اذ حاول إقناع جمال بضرورة إنقاذ أحرار العرب، وإذا بقي في نفسه أي شك في صحة الثورة على الترك فان شعوره الهائج واشمئزازه قضيا على ذلك الشك فأرسل حين سمع باعدام أولئك الأحرار صيحة ما لبثت أن اتخذت نداء حربياً للثورة العربية.

— ٥ —

كان الأمير فيصل مقيماً في مزرعة آل البكري في القابون يوم شنق الأحرار وهي قرية تبعد خمسة أميال عن دمشق وكان يتناول طعام الصباح مع مضيفه في الحديقة حين تلقوا النبأ على يد رسول سلمهم العدد الخاص من جريدة (الشرق) الذي حوى الحكاية البشعة فقرأه أحد أبناء البكري بصوت مرتفع وأخذ السامعون ينتبهون إلى فداحة الخطب كلما اهتز المكان حزناً عند ذكر اسم من أسماء الواحد والعشرين شخصاً وبقيت رنة الأسى متعلقة بالفضاء الساكن في صباح ذلك اليوم من أيام الربيع في غوطة دمشق وكأنها نحيب مفجوع. ومرت الدقائق الطويلة والجمع في صمت رهيب لا يقطعه إلا تمتمة بدعاء والا الرحمة يستنزلونها همساً على روح الشهداء وقرأ الفاتحة أحد الحاضرين ثم وثب فيصل واقفاً كمن أصابه فجأة مس من الجنون وانتزع كوفيته من رأسه وألقاها على الأرض وداسها بعنف وهو يصيح: طاب الموت يا عرب.

- ٦ -

شرع الحسين بالعمل فور تلقيه نبأ شنق الشهداء فقد كان دائباً بنشاط على اتمام استعداداته ولا سيما منذ ان أعلمه جمال بأن قوة قوامها ٣،٥٠٠ من الجند ستمر بالحجاز في طريقها الى اليمن وكانت هذه القوة التي يقودها خيري بك مؤلفة من جند مختارين ومجهزين تجهيزاً خاصاً وهي موجهة لتعمل بالتعاون مع بعثة المانية حربية يقودها البارون اوتمارفون ستوتزينغن ولم يكن في نية الحسين أن يسمح لعدد كهذا بأن يمد الحامية التركية في الجزيرة ولذلك سعى أن يقطع عليه الطريق قبل وصوله.

كانت القبائل على استعداد للثورة بعد ان فاتح الحسين شيوخها بالأمر فتعهدوا بمؤازرته ولكن معظم أفراد هذه القبائل لم يكونوا مجهزين تجهيزاً كافياً وكان الحسين يراسل مكماهون بشأن إرسال المال والبنادق والعتاد وطلب أن ترسل هذه الأشياء إلى بور سودان حيث تنتظر اشارة منه فتحملها المراكب الصغيرة إلى مكان أمين ترسو فيه على ساحل الحجاز وطلب كذلك ان تضرب البوارج البريطانية الحصار على موانئ الحجاز لكي يضغط بشكل غير مباشر على التجار وغيرهم من السكان الذين ما زالوا مترددين في اتجاههم السياسي. وكان مستمراً في محاولته إثارة الفتن في الشام لكي تقوم في وقت إعلان ثورته في الحجاز ولهذا أصر على مكماهون بلزوم إعداد حملة بريطانية تنزل الى البر في ساحل الشام لتعرقل المواصلات مع آسية الصغرى أو على الأقل لكي تشغل الأتراك.

لم يعمل الحلفاء بهذا الاقتراح الذي قدمه الشريف. كان إنزال الجنود في الاسكندرون موضوع بحث في دوائر الحلفاء منذ نهاية عام ١٩١٤ وبعد سنة عادوا إلى دراسته بشكل أعمق مع شيء من التفصيل وذلك عندما زار

كتشنر غرب البحر الأبيض المتوسط لدرس مشكلة الانسحاب من جبهة (جناق قلعة) فقنع بصحة الخطة وانها تؤدي الى قطع المواصلات بين تركية والعراق وبين تركية والشام فأيد اقتراح الحسين أمام وزارة الحرب بقوة فرفض لأسباب عسكرية ولاعتبارات سياسية ناشئة عن اعتراض الحكومة الفرنسية التي لم يكن لديها جنود تستطيع الاستغناء عنهم للقيام بالعملية ولم تشأ أن تقوم بها قوة غير فرنسية . ويشك كثيراً في صحة الرأي القائل بوجود أسباب عسكرية محضة تدعو الى نبذ فكرة الانزال مع العلم بأنه يحتمل أن يكون الرأي الراجح في وزارتي الحربية والبحرية البريطانيتين معارضاً للفكرة . ولكن أصحاب الاختصاص المشرفين على الجبهة نفسها كانوا يؤيدونه وهم كتشنر والسير تشارلز مونرو وماكسويل ومكماهون وما زالت فئة من المؤرخين العسكريين تعتقد أن الخطة سليمة وان تنفيذها كان يقرب موعد انهيار تركية في الغالب .

ومهما يكن من الأمر فقد رفض اقتراح الشريف ولم يقبل الحلفاء حتى بالتظاهرة التي طلب اليهم القيام بها وكان يقول فيما بعد إنه لم يفهم قط سبب هذا الرفض وسمعناه في زيارة من زياراتنا له في شونة نمرين في شرق الأردن عام ١٩٢٤ يشرح خطته القديمة فكان يتناول الموضوع من ناحيته النفسية ويذكر الخلق والقوة المعنوية والروح على أنها العوامل الأساسية المرجحة ويشير الى المدافع والقنابل كأنها أمور ثانوية يملكها الطرفان بمقدار متساو فلا يحسب لها حساب وكان يقول إن التركي ولد وفي نفسه قدرة على الدفاع المستميت ولهذا كانت النتيجة لمجابهته بهجوم أمامي هي الخسارة المحتمة مهما كان المهاجم متفوقاً كما حدث في جبهة (جناق قلعة) وفي رأيه أن الجند الترك يقاتلون ببسالة فائقة في الميادين التي يختارونها هم لأن قواعدهم التي ألفوها تقع وراءها فتمكنهم من الرجوع اليها عند اللزوم فاذا

اختلت طرق مواصلاتهم ضاعوا . ويخاف الجندي التركي من المغامرة وهو عبد العادة فاذا واجهه ما لا يتوقعه ارتبك ، ففاجئه بهجوم من الخلف أو بتهديد جناحه وبسلسلة من الثورات حوله تقض عليه . هذه وجهة نظرة الحسين الذي لم يكن جندياً ولكنه يفهم نفسية الترك بدرجة فهمه العرب ومن مزايا خطته أنها تعتمد أسلوباً في القتال يتلاءم مع أساليب العرب الحربية وهو في الوقت نفسه يرمي الى احراج الترك أشد الاحراج بالاستفادة من نقاط ضعفهم . ولكن الخطة لم ترق لأساطين الحلفاء من كبار ضباط الاركان فلم يبق أمامه إلا أن يستدعي ولده من الشام .

— ٧ —

تلقى فيصل الامر بالعودة بعد شنق الشهداء في ٦ مايس بايام قليلة وكانت صيغة هذا الامر تدل على قرب قيام الثورة بحسب الرمز المتفق عليه بين الاب وابنه فكانت المشكلة التي تجابهه الآن هي كيفية العودة الى مكة واعداد مايلزم لعودة حرسه دون اثارة شكوك الترك .

لعب فيصل لعبته ببراعة تامة فقد طلب موعداً لمقابلة جمال وفاتحه بشأن المجندين في الحجاز واعلمه ان عدداً كبيراً من الذين لبوا دعوة ابيه قد حشدوا في المدينة استعداداً للسفر الى دمشق وسأله رأيه في مجيء احد ابناء الشريف على رأسهم لكي يضفي على حضورهم حلة من الجلال فوقع الباشا في الفخ ولم يكتف بقبول الفكرة بل اقترح ان يكون فيصل نفسه على رأس هؤلاء المجندين ممثلاً للشريف ورغب فيصل في إحكام اللعبة فاعترض على ذلك موضحاً أن للحسين ولدين أكبر منه سناً فيجب تقديمها عليه ولا سيما أن وجودهما الآن في الحجاز يساعدهما على جلب حاشية من أعيان الحجاز ورجال الدين فيه فأجاب جمال : « ولكني ارجوك ان تذهب على كل حال وليأت أحد أخويك اذا استطاع ولكن ذهابك

الى المدينة ضروري لتعجيل الاستعدادات وسترافقك حاشيتك الخاصة » .

عمل فيصل اللازم لبقاء حرسه في القابون كضيوف على آل البكري واختار نسيباً البكري ليرافقه الى المدينة ويعود ومعه التعليمات البانة عن وقت مغادرتهم وكيفية حركتهم .

غادر فيصل دمشق يوم ١٦ مايس وبرفقته نسيب وثلاثة أو أربعة من الوجهاء أوفدهم جمال معه وكان أخوه علي على اتصال دائم بأبيه وعلى علم بقرب قيام الثورة التي يحتمل أن تقع قبل الوقت الذي عينه الشريف لأن القوة الخاصة بقيادة خيري باك وصلت المدينـة وكانت التعليمات الموجهة الى علي تقضي بلزوم منعها من السير على مكة مهما كلف الامر أما بعثة فون ستوتزينغن وهي المتممة لتلك القوة فقد اضطرت لترك القطار في محطة العلا التي لا يجوز لغير المسلمين تجاوزها وتوجهت غربا نحو الوجه لكي تسير منه بطريق الساحل إلى جدة وقنفدة .

تلقى علي يوم ٢٤ مايس تعليمات جديدة من والده يقول له فيهـا : إنه لم يبق ما يدعو إلى التأجيل بعد عودة فيصل وأن عليه تعيين يوم قيام الثورة في المدينة وإعلام أبيه به في الوقت المناسب ويترتب عليه كذلك اخبار رؤساء العشائر . فبحث الاخوان هذا الامر وحـددا يوم الاثنين ٥ يونيو وبعثا بالنبأ إلى أبيهما مع مطالبته ، بناء على اقتراح فيصل ، باعادة الكرة على الحلفاء وأن يلح في طلب قيامهم بنظـاهرة حربية على سواحل سورية . ومن ثم أرسل علي الرسل إلى رؤساء العشائر واوفد فيصل نسيباً إلى دمشق على جناح السرعة ليهيء خلاص الحرس .

وفي صباح ٥ يونيو خرج الاخوان عند الشروق راكبين إلى قبر حمزة حيث معسكر الألف والخمسمائة رجل الذين جندهم الشريف وأعلنـا تحرر

العرب من حكم الترك باسم الشريف حسين أمير مكة ومن ثم أطلقا لفرسيهما العنان وفي أثرهما المجندون ليلتقوا برجال القبائل في المكان المعين في جنوب شرق المدينة.
لقد بدأت الثورة العربية .

— ٨ —

حدد يوم السبت التالي الواقع في ١٠ يونيو موعداً لبدء الثورة في مكة التي لم يكن فيها إلا جزء من حاميتها الاعتيادية يبلغ مجموعه ١٤٠٠ جندي لان الوالي ومعه القسم الأكبر من الجنود انتقلوا للطائف في بداية الحر وهي مصيف الحجاز فأعطى الامير الاشارة وقت الفجر بتوجيه نيران البنادق على الثكنات ومواقع الحامية اذ لم يكن لدى القوات العربية مدافع فدام تبادل اطلاق النار بعنف ثلاثة أيام استسلمت في نهايتها المواقع الصغيرة بينما استمرت مقاومة الثكنات الرئيسية وقلعة جياد ثلاثة أسابيع أخرى لانها مجهزة بمدفعية ضخمة وكان السير رجينالد وينغيت خلال ذلك قد عجل بارسال سريتي مدفعية من الجيش المصري المرابط في السودان فوصل مدفعان الى مكة وأرغما باقي القوات التركية على التسليم .

لقد وجدنا ان أحسن وصف لسقوط مكة هو الذي نشرته جريدة (القبلة) التي اخذت تصدر في مكة بعد مدة قصيرة وها نحن ندرج ادناه ما ورد في أعداد ١٥ الى ١٨ شوال اي ١٤ الى ١٧ أغسطس عام ١٩١٦ :

« في الساعة الثالثة والنصف من صباح السبت ٩ شعبان (١٠ يونيو) أي قبل الشروق بدأ إطلاق النار باستمرار على ثكنات مكة وعلى بناء الحميدية الذي تقع فيه دوائر الحكومة وحوصرت جميع القوات التركية في حصونها المختلفة واخذت قلعة جياد [1] الواقعة

(١) في أقصى الجنوب من أطراف مكة .

على قمة جبل شاهق والمشرفة على جميع أحياء المدينة تطلق النيران باستمرار على مواقع البدو واستحكاماتهم وعلى جميع المساكن وبصورة خاصة على القصر الشريفي الذي كان هدفاً لاكثر قنابلهم وهكذا ظل الطرفان يتبادلان اطلاق البنادق بمصاحبة نيران مدفعية القلعة حتى الساعة التاسعة صباحاً .

« وعندئذ خاطب الضباط الذين يتولون القيادة في ثكنات جروال[1] القصر الشريفي بالهاتف وطلبوا وقف القتال ورجو ايفاد ممثل الادارة الملكية المحلي ليشرح لهم سبب هذه الفتنة ويتداول معهم في التدابير الواجب اتخاذها لاخمادها تجنباً لاستمرار التقتيل وسفك الدماء[2] فارسل ممثل الادارة المكية تلبية لطلبهم واعلمهم بان البلاد قد اعلنت استقلالها وان الاصطدام لاينتهي الا باخلائهم الثكنات وتسليمهم اسلحتهم بكاملها الى القائد العربي ولكن الضباط لم يصغوا الى هذا الاقتراح بل قرروا المقاومة والدفاع عن النفس وامروا قائد القلعة بأن يستأنف اطلاق القنابل على الناس بشدة متزايدة فلما اعلم ممثل الادارة الشريف بذلك اصدر اوامره باستئناف القتال فتم ذلك بشكل يفوق الحالة السابقة للمفاوضات شدة واستمرت الحالة على

(١) وهي الثكنات الرئيسية الواقعة في طرف مكة الغربي والتي تحمي الطرق المؤدية الى جدة والمدينة .

(٢) من القصص الشائعة بين الناس ان قائد الحامية حين خاطب الحسين بالهاتف قال له : « لقد ثار العرب ويقال انهم اعلنوا استقلالهم التام فارجو ان تبذل مافي وسعك بهذا الشأن » ويقال ان الشريف اجابه بفتور قائلاً : « لقد سمعت ايضاً أنهم راغبون في هذا الاستقلال وأؤكد لك اني سأبذل مافي وسعي بهذا الشأن » .

هذا الشكل حتى المساء اذ فتر القتال. . . وقدرت خسائر الترك خلال الحركات بمائة وخمسين قتيلاً اوجريحاً بينما اصيب ثمانية من العرب بين قتيل وجريح.

« استؤنف القتال صباح الاحد (١١ يونيو) بعد الفجر بقليل يرافقه اطلاق البنادق والمدافع حول جميع المواقع التي تحتلها الحامية وفي الساعة الحادية عشرة هاجمت قوات الشريف موقع باش قراقول [1] قرب الصفا فاخترقته واستولت عليه واسرت حاميته.

« سار القتال يوم الاثنين (١٢ يونيو) على غرار اليومين السابقين ولكنه اشتد بصورة خاصة حول دوائر الحكومة في الحميدية حيث اعتصم وكيل الوالي وهو من ضباط الجيش ومعه حامية عسكرية واخذوا يصوبون نار بنادقهم على غير هدي فيردون المارين بدون تمييز بين المسنين والعجزة والنساء والمصلين في الحرم الشريف فشنت مفرزة من القوات الشريفية هجوماً عنيفاً على ذلك الموقع واخترقته وارغمت حاميته على التسليم فسيق الجميع ومعهم وكيل الوالي والضباط التابعون له الى القصر الشريفي مع المحافظة على مقامهم العسكري وهناك وضعوا في الجناح المخصص للأسرى وعوملوا بالاحترام والرعاية الواجبين نجاه من كان في مقامهم ... ولما وصل وكيل الوالي ومعه باقي الاسرى الى القصر واطلع على الوقائع وعلى اسباب الثورة واهدافها كتب بخط يده الى كل واحد من قواد الثكنات الرئيسية والقلعة يعلمهم بما حل به وينصحهم بالتسليم ويظهر ان كتبه لم يكن لها اي تأثير اذ عمدت الثكنات الى التأجيل والتسويف بينما ربطت القلعة مصيرها بمصير الثكنات واخذت تطلق نيران البنادق والمدافع على الناس والبيوت وعلى الحرم الشريف بشكل اصبحت معه الصلاة مستحيلة

(١) وهو الموقع الرئيسي للحرس ويقع خارج الزاوية الجنوبية الشرقية للحرم الشريف.

ولم يعد في امكان الناس دخول الحرم للطواف او الصلاة أو حتى الدنو منه سواء اكانوا منفردين أم مجتمعين . . . ولم تقف وقاحة الحامية عند هذا الحد بل تجاوزته بقذفها الكعبة الشريفة نفسها بقنبلتين ومقام ابراهيم بثالثة فهرعت ألوف المصلين تحت وابل من الرصاص وشظايا القنابل المتفجرة لاخماد النار التي شبت في سقف الكعبة الشريفة .

« واستمرت الامور في الثكنات الرئيسية والقلعة على هذا النحو اياماً طويلة اذ لم يكن عند العرب مدفعية يسلطونها على الترك المحصنين تحصيناً قوياً هذا من جهة ومن جهة ثانية لم يتجرأ الترك على الخروج من استحكاماتهم ولو الى مسافة قليلة وفيما بعد وصلت بعض المدافع من جدة ومعها جنودها (١) فشرعت تقذف القلعة حتى فتحت ثغرة في جانبها استفاد منها العرب فهاجموها بشجاعة فائقة وهم معرضون لنار البنادق والمدافع حتى اخذوها عنوة بعد قتل ضابطين تركيين وجندي ولم تصب القوة المهاجمة الا بجرح واحد .

« وهكذا سقطت قلعة جياد يوم الثلاثاء ٤ رمضان (٤ يوليو) في يد القوات الشريفية التي استولت كذلك على مدفعين كبيرين وثلاثة مدافع صغيرة وما يقارب ٨٠٠٠ بندقية من انواع مختلفة قديمة وحديثة مع كمية كبيرة من العتاد والمواد الحربية . كان مجموع المدة التي تحملها الحصار خمسة وعشرين يوماً رأت الحامية خلالها ان ترتكب الفظائع التي وصفناها

« وبعد ان اسكتت مدافعنا بطاريات القلعة وحققت استسلامها وجهت الى ثكنات جروال ونصبت الى جانب القوات المحاصرة واخذت تقذف قنابلها مستهدفة فتح ثغرة فيها لولوجها وكانت الحامية التركية كلما

---

(١) وهم تابعون لسريتي المدفعية العائدة للجيش المصري في السودان والاتين عجل وينغيت ارسالها الى جدة فور تلقيه نبأ قيام الثورة .

اشتد عليها الحال تسعى الى مخادعة القوات الشريفية برفع علم أبيض وطلب مفاوضة القائد ولكنها سلمت أخيراً بالفعل إذ خرج عـددٌ من الضباط يحملون علماً أبيض إلى وسط المعسكر العربي لمقابلة القـائد ومفاوضته فسيقوا ثانية إلى ثكناتهم حيث حملوا على تسليم جميع أسلحتهم وعتادهم وتجهيزاتهم وكل ما في الثكنات خلا الاشياء الشخصية الخاصة بالضباط والجنود أي دراهمهم وحقائبهم وحتى خيولهم لان التعليمات قضت بلزوم تسليمهم هذه الاشياء .

« بهذا الشكل سلمت الثكنات الرئيسية لقوات الشريف مساء الاحد في ٩ رمضان (٩ يولية) بعد ان خيم الظلام وتقدر خسائر الترك في هـذا الحصار بواحد وعشرين قتيلا وبستة وسبعين جريحـا وهذا فيما عدا خسائرهم في الجزء الاول من الحركات . وسيق الذين نجوا الى الاماكن التي خصصت لهم وبعضها في حي الشهداء (١) والبعض الآخر في منازل مختلفة داخل المدينة وكان عددهم ثلاثين ضابطاً و ١٢٠٠ جندي برتب مختلفة . وبسقوط الثكنات زالت سلطة الاتراك من مكة اذ تمكنت قوات الشريف من احتلال سائر مواقع الحامية ومراكز الحرس ودوائر الحكومة وكذلك جميع الاحيـاء والابنية الرسمية في المدينة . »

هوجمت جدة من الخارج يوم قيام الثورة في مكة . فان قوة مؤلفة من ٣٥٠٠ اعرابي ينتمون الى عشائر حرب الكبرى بقيادة الشريف محسن حاولت الدخول عنوة الى المدينة ولكن فقدان المدفعية هنا أيضاً جعلهم يقفون عاجزين أمام

(١) وهو من أحياء مكة النائية .

الحامية التركية المؤلفة من ١٥٠٠ جندي والتي كانت متفوقة بتجهيزاتها فاضطر الى اللجوء لخطة الحصار الذي اشترك فيه الفاروقي ، وقد أوفد من القاهرة . وقذفت البوارج البريطانية مراكز الترك الخارجية كما أن الطيارات البحرية ألقت قنابلها خارج نطاق المدينة وبعد أيام قليلة تلقت الحامية رسالة من القائد التركي في مكة يقول فيها أنه لا يستطيع نجدتها فاستسلمت في ١٦ يونيو .

وخلال ذلك حاصرت الطائف قوة يقودها الامير عبدالله بينما توجهت قوة ثانية شمالاً فاستولت على رابغ وينبع وسقطت قنفدة بمساعدة الاسطول البريطاني على ان حصار الطائف امتد زمناً طويلاً اذ لم يخامر عبدالله الشك في انه سيأخذها في النهاية فلم يشأ مهاجمتها بالرغم من وجود البطاريات المصرية معه وكان حكيماً اذ رفض عروض الترك لعقد هدنة وانتظر حتى سلمت الحامية بلا قيد يوم ٢١ سبتمبر ومعها الغنيمة الكبرى : والي الحجاز غالب باشا .

كانت الثورة قد ثبتت قدمها حتى ذلك التاريخ اذ استولى الشريف على ٦٠٠٠ اسير وكمية كبيرة من المواد الحربية ووقعت مدن الحجاز الكبرى خلا المدينة المنورة في يده .

الباب الحادي عشر

النتائج الفورية

— ١ —

اذهل نبأ الثورة تركية وألمانية فأخفي عن الجمهور اسابيع عديدة وكانت البلاغات التركية حتى في تاريخ متأخر — ٢٦ يونيو — تكذب نبأ قيام اية ثورة في الحجاز وصدر اول اعتراف ، اذا أمكن تسميته اعترافاً ، في ٢٩ يونيو اذ اذاعت جريدة (الشرق) الرسمية في دمشق بياناً قالت فيه ان افخاذ بعض القبائل هاجمت عدداً ضئيلاً من المواقع بجوار المدينة ولم تشر الى احتلال مكة وجدة ولم تتعرض للشريف الذي ورد ذكره للمرة الاولى يوم ٢ يولية اذ نشرت ارادة سنية تقضي بعزله وتنصيب الشريف علي حيدر أميراً على مكة دون بيان الاسباب. ولم يسمح بنشر شيء عن الثورة قبل ٢٦ يولية حين أتت جريدة (طنين) الصادرة في القسطنطينية على وصف الثورة وصفاً مشوهاً بقصد الاقلال من شأنها ثم استمرت الصحافة خلال شهور عديدة تنعت حركة الشريف حسين بأنها عصيان شخص بدافع الدسائس البريطانية وان الحكومة آخذة في قمعها بمساعدة أهل الحجاز ورجال عشائره وقد ظلوا جميعاً مخلصين للخلافة ولتعاليم الرسول التي فرضت الجهاد على المسلمين .

وصرف الترك جهوداً خاصة في الشام لتشويه ثورة الشريف وتصغير شأنها ففاضت صفحات (الشرق) بعد صمتها في الاسابيع القليلة الاولى بالمقالات

الموعز بها والاخبار المختلقة فنشرت في عدد ١٩ سبتمبر تقريراً ادعت انه صادر عن القائد التركي العام في المدينة يقول فيه ان عدداً كبيراً من رجال عشائر الحجاز قدموا الطاعة وان فيصلا لجأ الى بارجة بريطانية بعد هزيمته وان اخاه علياً هائم على وجهه لانه ضائع وحيران . وفي يوم ٢٤ سبتمبر أي بعد سقوط الطائف بثلاثة ايام نشرت بلاغاً رسمياً يعلن هدوء الحالة في الطائف حيث صد هجوم قام به الامير عبد الله على رأس بعض البدو فتكبد خسائر جسيمة ولم يسمح للصحف بنشر أي شيء آخر .

لم يقف غضب جمال عند حد فراح يقتشف ممن تبقى من زعماء العرب القليلين الذين نجوا حتى ذلك الوقت من براثنه فاصدر الاوامر باعتقال الناس جملة واخذت شرطته العسكرية تاتي شبابا كها على غير حصر فقبضت في دمشق وحدها على اربعين شخصاً تقريباً من الوجهاء الباقين فزجتهم في السجن وسامتهم انواع العذاب الشنيع ، من ذلك انهم جلدوا شكري باشا الايوبي وهو رجل مسن ووقور جلداً يومياً مبرحاً حتى كادوا يقتلونه ووضعوا عبدالحميد باشا القاطقجي وهو امير لواء في الجيش التركي ، وزكي بك العظمة وهو ضابط من رتبة عالية ، وفارس الخوري وهو مبعوث مسيحي في البرلمان العثماني ، في غرف منفردة حيث جلدوا وحرموا الطعام . ولكن احداً من هؤلاء لم يعترف ولم يبح بسر من اسرار الحركة العربية حتى ان شكري القوتلي وهو من اصغر اعضاء (الفتاة) سناً واكثرهم حماساً حاول الانتحار بقطع شريانه بسكين عادية ومثلمة عند مابلغوا في ضربه حداً مزقوا معه جلده نخشي ان يفقد وعيه ويعترف بما لايجوز اباحته من اسرار الجمعية ، وفي الوقت ذاته اخذ الترك يلفقون التهم لكي يوجدوا عذراً ظاهراً يبرر الحكم بالاعدام . ولا شك ان الموت كان يصيب الكثيرين لو لم يتدخل فيصل في الوقت المناسب اذ انذر جمال بأنه سيثأر لكل متهم يعدم أو يموت بنتيجة المعاملة السيئة من الضباط الاتراك الاسرى في مكة والطائف فيقتل عشرة منهم رمياً بالرصاص بلا

تردد مقابل كل عربي يذهب ضحية ارهاب جمال فكان لهذا التهديد اثره اذ اطلق سراح المتهمين ووضعوا تحت رقابة شديدة .

وفي تلك الفترة قبض على مائة وعشرين رجلاً من وجهاء العرب في مختلف انحاء الشام وابعدوا الى الأناضول ثم اتخذت تدابير قمعية زادت في هول الاحكام العرفية وفي اكتوبر الغيت الامتيازات الخاصة والحكم الذاتي الذي منح للبنان عام ١٨٦٤ وتولت الادارة التركية حكمه مباشرة بما عرف عنها من اساليب العسف.

وزاد في فداحة الخطب انتشار المجاعة في كل البلاد فقد اجتاحتها اسراب من الجراد في ربيع عام ١٩١٥ فقضت على موسم الحبوب وسببت نقصاً كبيراً فيها واشتدت وطأة هذا النقص بنتيجة سوء الادارة وعدم صلاح وسائط النقل وتدني قيمة النقد وكان اكبر العوامل المؤثرة الاحتكار والتلاعب بالاسعار والتواطؤ الخسيس الذي تعجز اقبح النعوت عن ايفائه حقه بين الموظفين الترك وبعض التجار الشاميين فأخذ الجوع يدب في الطبقات الفقيرة. ولكي نكون فكرة صحيحة عن المجاعة في ذلك الدور نكتفي باثبات ثلاثة مقاطع هنا من تقارير كتبها شاهدو عيان .

كتب قنصل امريكة العام مذكرة لحكومته بتاريخ ١٥ يوليه عام ١٩١٦ قال فيها :

« ان حالة الفقر هنا يرثى لها فان الشوارع غاصة بالجياع من النساء والاطفال . . . والحكومة واقفة من ذلك وقفة المتفرج المجرد من الاحساس حتى انها لم تسمح لجمعية الصليب الأحمر الامريكي بمساعدتهم . واني كثيراً ما ارى خلال تجوالي في المساء المبكر جثث الموتى ملقاة على جوانب الطريق . . . »

وظهر مقال في عدد ١٢ اغسطس من جريدة (التايمز) بتوقيع « مراسل حيادي » كتبه اثر عودته من الشام جاء فيه :

« لا يمكننا ان نصدق الحالة التي صار اليها اهل الشام . . . فان

الذين يتكلمون العربية باتوا خاضعين لارهاب جديد . . . ويقدر عدد الذين ماتوا جوعاً في سورية الشمالية بين الستين الفاً والثمانين . . . »

وكتبت سيدة امريكية تقطن بيروت وقد غادرتها في ذلك الصيف في جريدة (التايمز) تقول :

« وعند حلول الربيع تقريباً ظهرت حوادث الجوع الشديد فقد شوهد اناس في الشوارع وقد فقدوا وعيهم فحملوا الى المستشفيات . ومررنا في طريقنا بنساء واطفال ارتموا على جوانب الطريق وعيونهم مغمضة ووجوههم شاحبة تعلوها صفرة الموت وكان من المشاهد المألوفة رؤية الناس وهم يفتشون بين اكوام القاذورات لعلهم يعثرون على قشور البرتقال أو قطع من الطعام القديم أو أي نوع من الفضلات فاذا ظفروا بضالتهم التهموها التهاماً وكنت ترى النساء في كل مكان يبحثن عن الاعشاب النابتة في الطرق لعلهن يستطعن اكلها . . . »

ومع ذلك فقد كان المستقبل يخبىء حالة اسوأ .

— ٢ —

لم تجد الثورة العربية لها صدى آنياً في أي قطر من الاقطار العربية الاخرى فقد كان العراق – أو على كل حال ذلك الجزء الذي مازال في يد الترك – واقعاً مثل الشام في قبضة هيئة عسكرية صارمة وخاضعاً لارهاب شبيه بها قوامه الاعتقال والابعاد والشنق وان لم يبلغ الدرجة التي أصابت الشام وكان العراق يختلف عن الشام في وضع زعماء الحركة فيه اذ كان اكثر العاملين في الحقل القومي من ضباط الجيش المنتمين الى قطعات مرابطة في اجزاء اخرى من المملكة العثمانية فكانوا عماد (العهد) واكبر دعائم الحملة العربية التي ولدتها الثورة فقاموا فيها بالدور الاول .

أما أثر ثورة الشريف في العراق وبصورة خاصة في المناطق التي احتلها البريطانيون فكان متعلقاً في الدرجة الاولى بموقف حكومة الهند منها ذلك الموقف

الذي كان ناشئاً عن عاملين : اولهما ارتباط مسلمي الهند بالخلافة كنتيجة للاحساس الديني العميق المنتشر بينهم وثانيهما مطامع حكومة الهند في العراق الذي عدته ميداناً خاصاً بها لاستعمار مقبل . فكان موقفها من الحركة العربية مرتبطاً بهذين العاملين ولهذا كانت نظرتها في سياستها الخارجية محدودة في اطماعها فاتخذت موقفاً معادياً من الثورة العربية . اما مسلمو الهند فما زالوا متأثرين بدعوة عبد الحميد لاعلاء شأن الخليفة ولم يهتموا بالحركة العربية القومية فعدوا الثورة عصياناً على سلطة الاسلام ومصدعاً لوحدته وكانوا كذلك يرتابون بنوايا البريطانيين نحو بلاد العرب ويحرصون حرصاً شديداً وصادقاً على سلامة الاماكن المقدسة فعقدت اجتماعات عامة واهمها اجتماع (لكناو) يوم ٢٧ يونيو للتنديد بحركة الشريف بعبارات صريحة وبالرغم من ان هذه المخاوف لم يكن لها اساس من الصحة الا أن حكومة الهند لم تطمئن للأمر وهذا سبب ارتباكها الشديد يضاف اليه حرصها على مستقبل العراق كمنفذ تغذيه بما يفيض من سكانها . هذا هو العامل الاول الذي حال دون قيام البريطانيين بدعوة اهل العراق للمساهمة الفعلية في حركة الشريف .

اما في جزيرة العرب فكان لاعلان الثورة أثر عميق . انها لم تجذب الاميرين العربيين ، ابن الرشيد والامام يحي ، اللذين سبق أن ربطا مصيرهما بمصير الترك ولكنها حملتهما على اعادة النظر في موقفهما بصورة جدية كما حرمتهما من تأييد بعض كبار شيوخ العشائر أمثال مشايخ حاشد وباقل الذين كانا يسعيان الى اكتسابهم لمعسكر الترك ورحب باقي امراء الجزيرة بالثورة فاعلنوا تأييدهم في اجتماع عقدوه في الكويت بتاريخ ٢٠ نوفمبر وحضره ابن السعود واميرالكويت وشيخ المحمرة وما ينوف عن المائة والخمسين شخصاً غيرهم بينهم بعض ورؤساء العشائر الصغيرة الاقوياء . ولخص ابن السعود الموقف بخطاب بليغ اثار حماساً شديداً فقد حض العرب جميعاً على الانضواء تحت لواء الثورة والا يدخروا وسعاً في نصرة القضية المشتركة بين انكلترة والعرب . وسرى نبأ الاجتماع وخطاب ابن السعود في الجزيرة سريان النار الخاطفة

وأخذ الرواة يتلون مقاطع كاملة من الخطاب على عادة الرواة في بلاد العرب .

وصلت أنباء الثورة الى مصر والسودان في وقت ملائم جداً فقد كانت القوات البريطانية لشهور خلت تقاتل السنوسي في الطرف الغربي من مصر وتقاتل علي دينار سلطان دارفور عند حدود السودان الغربية ومع انه كان لكل من الحربين عواملها المحلية الخاصة بها الا أنها في الواقع كانتا الثمرة المباشرة للدعوة الى الجهاد . اجتاز السيد احمد السنوسي الحدود المصرية في نوفمبر عام ١٩١٥ يساعده ضباط وجنود اتراك وغواصات المانية تعمل قرب الساحل فارغم حامية السلوم والمراكز الواقعة على الحدود على التراجع الى مرسى مطروح التي تبعد ١٣٠ ميلاً نحو الشرق فحشدت فيها قوة خاصة مؤلفة من لواءين أو ثلاثة وجرى قتال منهك انتهى باسترجاع السلوم في مارس وطرد قوات السنوسي . ومن العواقب الهامة لهذه الحرب اسر جعفر باشا العسكري الضابط العراقي العربي الذي أظهر كفاءة وبسالة في قيادته الهجوم التركي على مصر والذي كتب له بمرور الايام أن يلعب دوراً ممتازاً في قيادة القوات النظامية للثورة العربية .

وفي الجنوب شن هجوم في اوائل السنة على سلطان دارفور الذي نشر راية الجهاد وأخذ يثير أنصاره والقبائل المجاورة لمهاجمة السودان وقامت عمليات حربية في نقاط متعددة من الوجه القبلي في مصر لصد هجمات اتباع السنوسي على وادي النيل .

لم تنقلب واحدة من هذه الحروب الصغيرة الى قتال شديد على مقياس واسع ولكنها بمجموعها شغلت عدداً كبيراً من الجند البريطانيين وسببت قلقاً وازعاجاً كبيرين للذين تولوا الدفاع عن مصر والسودان ، ولا سيما أن شعور المصريين السياسي نحو قضية الحلفاء لم يكن ودياً تجاه الثورة العربية في وقت اشتدت فيه اسباب ذلك القلق اذ كان من الممكن أن يتحول الهيجان الذي نشأ عن اعلان زعيم السنوسيين الجهاد الى انفجار كبير .

لم يحدث نبأ قيام الثورة أثراً كبيراً في مصر في بادىء الأمر حتى أن الدوائر

التي كانت تميل الى تركية تلقته بعدم القبول وحاولت جرحه بالاقلال من شأنه وكانت الرقابة الشديدة المفروضة على الصحافة تمنع كل تهجم علني ولكن عداء المصريين للثورة كان حقيقياً وبيناً وان لم يكن عاماً وقد غذاه الشعور بكره بريطانية بدرجة ماغذاه الشعور بالعطف على الترك . على أن الجاليات السورية والعراقية استقبلت الثورة بحماس عام وتلقتها الصحافة بالقبول الحسن بفضل نفوذ السوريين في صحافة القاهرة والخرطوم فلما اذاع الشريف بيانه الاول في يولية، أو بالاصح بعد سقوط الطائف في سبتمبر واداء فريضة الحج الذي حل موسمه تلك السنة في الاسبوع الاول من اكتوبر واشترك في ادائه عدد كبير من المصريين، كان اصحاب الرأي في مصر يعدون الثورة اكبر ضربة نزلت بتركية حتى ذلك الوقت .

— ٣ —

شرح الحسين موقفه في بيانه الاول وهو اخطر بيان اصدره وناشد المسلمين جميعاً بان يحذوا حذوه مستنداً في تبرير ثورته الى العاملين الديني والقومي وان كانت عباراته تنم عن اهتمامه الاول في حفظ مصلحة الاسلام . وهاجم الاتحاديين لخروجهم على الاسلام مستعيناً ببعض الامثلة على ذلك كما ندد باستبداد الزمرة الحاكمة المؤلفة من انور وجمال وطلعة وعسفها وعدها مسئولة عن المشانق التي علقت في بلاد الشام وعن سياسة الارهاب الطاغية عليها وكذلك عن جرائم اخرى ضد الاسلام والعرب ووصف الثورة بانها واجب ديني وقومي وفرصة هيأتها السماء لتحقيق الاستقلال وختم البيان بمناشدة جميع مسلمي العالم باقتفاء اثره لما له من حق عليهم بصفته اميراً على مكة وفي سبيل صيانة التضامن الاسلامي .

ولم تنشأ قيمة البيان عما حواه من مبررات للثورة بدرجة مانشأت عن دعوته الى قيام المسلمين ضد تركية فقضى بذلك قضاء مبرماً على الدعوة الى الجهاد في البلاد العربية على الاقل .

— ٤ —

اعترف جمال بهذا الامر في خطابه الذي ألقاه في مأدبة أدبت على شرف رئيس مجلس الشورى العثماني في دمشق ونشرته (الشرق) في عددها الصادر يوم ٢٣ يناير ١٩١٧ وفيه يظهر جمال في فورة عظيمة من الغضب والجمجمة. قال:

« يؤسفني أن تقول إن إنساناً وضيعاً قد سد طريق الجهاد بحالفه في قلب أراضي الاسلام المقدسة مع الدول المسيحية التي ترمي إلى اغتصاب دنيا الاسلام والاستيلاء على عاصمتها القسطنطينية. إن هذا الانسان السافل الذي لا يخجل اذ يسمي نفسه بابن النبي صلى الله عليه وسلم قد أرغم المملكة العثمانية على أن توجه إليه حملة كان الاولى بها أن توجه لدحر البريطانيين في القناة والاستيلاء على القاهرة. ولم يفعل هذا الخائن فعلته إلا خدمة للبريطانيين ولكنها لن تحول دون ظفر الاسلام في في النهاية ولن توقف جنودنا، أولئك الابطال الذين دافعوا عن القسطنطينية، دون اجتياز القناة وإبادة البريطانيين وقطع رأس هذا المنذل في مكة ... »

— ٥ —

كان من أولى النتائج العسكرية للثورة أنها قضت على الحملة الالمانية بقيادة البارون فون ستوتزينغن.

كانت هذه البعثة مؤلفة من أربعة ضباط وعاملي لاسلكي وبعض الاتباع وقد أوفدت إلى الجزيرة لتعمل بالاتفاق مع قوة خيري بك المنتقاة الموجهة إلى اليمن وكان هدف القوتين دعم سلطة الترك في الجزيرة وفتح ميدان جديد للحرب مع الحلفاء. وعرف من الاوراق التي ضبطت فيما بعد مع عدة

ضابط ألماني أن هدفهم الاول إقامة مركز للاسلكي في الجزيرة للاتصال بقيادة الجنرال ليتوفوربيك في افريقية الشرقية الالمانية وربطها ببرلين ، وكان عليهم بعد ذلك تنظيم الدعاية وتوجيهها لبلاد الصومال والحبشة والسودان وربما للهند، ويظن أن هدفهم الثالث نجدة الطابورين المستولين على المنافذ المؤدية إلى قلعة عدن ، وآخر أهدافهم كما أسره فون ستوتزينغن لفيصل في دمشق هو إرسال السلاح والعتاد عبر البحر الاحمر إلى الحبشة بقصد تحريك الفتن في اريترية والصومال والسودان .

كانت البعثة قد وصلت بسكة حديد الحجاز إلى محطة العلا وهي أقصى نقطة في الجنوب يستطيع غير المسلمين بلوغها وكانت القوة التركية الرئيسية قد واصلت سفرها إلى المدينة بينما ترك الالمان القطار وتوجهوا نحو الساحل ليعودوا فيتصلوا بخيري بك في قنفدة ويسيروا منها جميعاً إلى اليمن . وكان الالمان في ينبع لما قامت الثورة فلاذوا بالفرار ونجوا بأنفسهم بعد أن ألقوا تجهيزاتهم في البحر واختفى ثلاثة منهم لم يسمع عنهم شيء فيما بعد ولكن ستوتزينغن والضباط الآخرين تمكنوا من النجاة والعودة إلى دمشق سالمين وأما قوة خيري بك فقد حجزت في المدينة حيث بقيت حتى سقوطها بعد انتهاء الحرب .

إن وصول هذه الحملة التركية الالمانية هو الذي دفع بالشريف إلى إعلان الثورة في التاريخ الذي قامت فيه مع العلم بأنه لم يكن في نيته أن يفعل ذلك قبل شهر أغسطس المقبل حيث يكون قد أنجز كافة استعداداته وكان أولاده يلحون عليه بلزوم التريث أو على الأقل انتظار وصول كمية كافية من الأسلحة والعتاد ولكنه بعد تقليب الأمر على وجوهه المختلفة قرر العمل فوراً لاعتقاده بأن الخطر الكامن في الحملة التركية الألمانية يفوق الخطر الناجم عن حرمانه موقتاً من المدفعية . ليس من السهل على غير المختص في الأمور

العسكرية ان يكون رأياً صحيحاً عن سلامة تقدير الحسين من الناحية العسكرية والظاهر من آراء الاخصائيين انه كان مصيباً في ما ذهب اليه وفيما يلي أقوال بعضهم .

نبدأ برأي مؤرخ رسمي (١) :

« كانت الحملة التركية الألمانية على جانب كبير من الخطورة فقد كان باستطاعتها مفاجأة عدن والاستيلاء عليها كما ان مدداً كهذا كان يستطيع سحق الادريسي ونجدة الامام في الجنوب ، ومن أكبر أسباب خطورتها تأثيرها عبر البحر الأحمر فيما لو نجح ستوتزينغن في الاتصال بعمال الألمان وكانت تستطيع تقديم المساعدة المادية إلى (الملا المجنون) في الصومال الذي كانت له مطامع في الاريترية حيث لم يكن عدد الجنود البيض في الحامية يتجاوز الألفين وقد قضت الثورة العربية على جميع هذه الخطط والاحتمالات » .

ثم ننقل رأي الجنرال بريمون رئيس البعثة العسكرية الفرنسية في الحجاز الذي قال عن الحملة التركية الألمانية المرسلة إلى اليمن (٢) :

« انها تعرض الحلفاء إلى خطر كبير فلو نجحت في مهمتها لأقفلت البحر الأحمر وفسحت المجال للألمان بأن ينشطوا في المحيط الهندي . . . ومن حسن الحظ أن ثورة الحجاز احبطت مساعي الحملة وبهذا خدمت قضية الحلفاء خدمة عظيمة وهذا ما لا شك فيه ... »

وأخيراً ننقل رأي المرحوم الدكتور هوغارث البحاثة المشهور الذي قضى أعوام الحرب في القاهرة وهو يعمل في المكتب العربي فكتب مقالة في مجلة (سنتشوري) في يولية عام ١٩٢٠ قال فيها :

---

(١) تاريخ الحرب الرسمي — الحركات العسكرية في مصر وفلسطين (١٩٢٨) — الجزء الأول ص ٢٣٠ .

(٢) من كتاب (البحارة اصحاب الجمال) الصادر في باريس عام ١٩٣٥

« ولولم تقم الثورة بغير احباط تقدم الترك والألمان المشترك نحو جنوب الجزيرة عام ١٩١٦ لتوجب علينا مكافأتها بأكثر مما كافأناها به حتى اليوم » .

— ٦ —

مر على الشريف ستة شهور من القلق قبل ان يتمكن من تركيز شأنه على أثر انتصاراته . انه لم ينجح في أخذ المدينة ولكنه في ما عدا ذلك حقق جميع أهدافه الحربية المباشرة بسقوط الطائف في النصف الأخير من شهر سبتمبر .

كانت الشهور الثلاثة التي اعقبت ذلك أسوأ عهد في تاريخ الحملة العربية فكان الترك ، المحصورون بالمدينة والذين بلغ مجموع قوتهم بعد انضمام خيري بك ١٤٠٠٠ جندي مجهزين بمدفعية قوية ، يخرجون كثيراً في هجمات عكسية حتى أنهم في إحدى المرات دحروا بفضل مدافعهم الداوية العرب المسلحين بالبنادق فخيل للناظر أنهم على وشك استرجاع رابغ والسير على مكة فقام جدال طويل اشترك فيه جميع الذين لهم صلة بالثورة حول انزال لواء واحد من جيوش الحلفاء في رابغ لكي يرابط على طريق مكة ويقف في وجه أية محاولة تركية ولكن الحكمة قضت بنبذ هذه الفكرة كما أن خطر السير على مكة لم يتحقق قط وقضي على كل أمل فيه نهائيا في يناير من السنة التالية بتقدم أحد جيوش الشريف بقيادة فيصل نحو الشمال واحتلاله ميناء الوجه بمساندة الاسطول البريطاني.

وخلال هذه الشهور استقرت بعثات بريطانية وفرنسية في جدة فكان أول الحاضرين نائب الزعيم (الليوتنانت كولونيل) ويلسون التابع للادارة السياسية في السودان والذي أرسل ليكون معتمداً بريطانياً لدى الشريف فأصبح الوسيط الأول بينه وبين السلطات البريطانية في السودان ومصر . وفي سبتمبر أتت بعثة فرنسية برئاسة الزعيم (الكولونيل) بريمون وبعد ذلك حضر ضباط

آخرون بمهام معينة ومختلفة خلا واحداً واسمه لورنس حضر في زيارة بدافع حب الاستطلاع ثم بقي كما هو معلوم ليقوم بأعمال أثارت دهشة العالم. كانت مهمة هؤلاء الضباط استشارية وعين وينغيت قائداً اعلى للحركات في الحجاز في سبيل تنسيق أعمالهم ولم يترتب على هذه التسمية قيامه بقيادة قوات الشريف بل كان القصد منها جعله مسئولاً عن تأمين المساعدة البريطانية الموجهة للعرب خلال الحرب بشكل مرضي سواء أكانت باعطاء الرأي أم بتقديم المعدات وفي نهاية السنة عندما خلف وينغيت مكماهون كمندوب سام في القاهرة أصبح مسئولاً عن الجهة السياسية بالاضافة الى الناحية العسكرية من التعاون الانكليزي العربي .

عهد في بداية الأمر إلى عزيز علي الاشراف الفعلي على الحركات العسكرية العربية فقد تطوع لهذا العمل وكان اهلاً له اكثر من غيره .

كان عزيز علي يرقب الأمور ويتحين الفرص ونحن نذكر كيف اتصل به الانكليز في القاهرة على أثر دخول تركية الحرب وكيف قطع المباحثات معهم وعاد إلى عزلته لما اكتشف أن بريطانية العظمى لم تكن مستعدة في ذلك الوقت لأن تقطع على نفسها عهداً صريحاً وباتاً بصيانة استقلال العرب، ولكنهم أسروا له فيما بعد بفحوى مراسلات مكماهون فانحاز فوراً إلى جانب التعاون الانكليزي العربي وعرض خدماته .

وصل عزيز علي إلى جدة في شهر سبتمبر ليتولى القيادة فشرع يعمل بهمته المعتادة على خلق نواة لجيش نظامي من ابناء شعب لا يفقه معنى النظام والتنظيم وهذا عمل شاق جداً، ولكنه لم يبق في القيادة مدة طويلة إذ كان لا بد من حدوث الاحتكاك بين رئيس صعب المزاج كالحسين ومرؤوس يتعشق الكفاءة ولا يتساهل في امرها البتة كعزيز علي فترك القيادة التي خلفه فيها فيما بعد جعفر العسكري، وقد رأينا كيف أسر في حرب السنوسي .

كان جعفر هو الآخر متردداً على الالتحاق بالثورة أول الامر فلما بلغه نبأ إعدام الشهداء في ٦ مايس وهو في المعتقل تأثر تأثراً عميقاً وراح يصب اللعنات على كل عربي يبقى في خدمة الترك بعد هذه الوحشية التي بدرت منهم فتطوع للخدمة مع الشريف وفي الوقت نفسه وبناء على اقتراح الفاروقي أخذت السلطات تبحث بين معسكرات الاسرى في مصر والهند عن الضباط والجنود العرب وتعرض عليهم فكرة الالتحاق بالحرب القائمة لتحرير العرب فوصل عدد من الضباط والجنود الذين أطلق سراحهم بنتيجة ذلك إلى ينبع والوجه والتحقوا بالجيش النظامي الذي كان في دور التشكيل ومن هؤلاء نوري السعيد ومولود مخلص وكلاهما عراقي وعضو في (العهد) وقد برزا فيما بعد بأعمالهما في الحملة العربية .

— ٧ —

نودي في ٢ نوفمبر بالشريف حسين ملكاً فقد عقد أعيان البلاد وزعماؤها الدينيون في صباح ذلك اليوم اجتماعاً لا شك أن الشريف نفسه أوعز به فنادوا به ملكاً على البلاد العربية وأعلنوا مبايعته والولاء له بهذه الصفة حسب التقاليد العربية وأبلغ عبد الله بصفته وزيراً للخارجية النبأ برقياً إلى الحكومات الكبرى الحليفة والمحايدة مع رجائها الاعتراف بالحسين بصفته الجديدة فتلقت الدوائر الدولية النبأ بالدهشة ولا سيما الدوائر البريطانية والفرنسية إذ عدت هذه الخطوة سابقة لأوانها وغير حكيمة — وهذا صحيح — لان الاعتراف إذا تم أوقعها في إشكال معقد ومنوع فان الشريف باتخاذه لقب ملك العرب قد تجاوز ولو بالشكل على المركز الذي يحتله بعض أمراء العرب فاظهر الحلفاء حكمة في الامتناع عن الاعتراف بسبب هذا الاعتبار . وأخيراً توصل الحلفاء الى ايجاد مخرج لهم في لقب (ملك الحجاز) فاعترفوا بالشريف بهذه الصفة وابلغوه ذلك بمذكرتين متماثلتين بريطانية وفرنسيه مؤرختين في ٣ ينار .

— ٨ —

ان العهد الذي بدأ بثورة المدينة في ٥ يونيو انتهى باحتلال الوجه في ٢٤ يناير . لقد ثبتت الثورة أقدامها وفشلت محاولات الترك لاسترجاع مكة ولم يعد لهم أمل فيه بعد أن أخذ العرب الوجه . فلم يبق أمامهم سوى الاحتفاظ بمركزهم في المدينة ما دام القطار سائراً بينها وبين دمشق ومعنى ذلك عزل حامية كبيرة فيها وعدد من الحاميات الصغيرة المنتشرة على طول الخط الحجازي . وكان في المدينة أيضاً الشريف علي حيدر الذي سماه السلطان خلفاً « لذلك الوغد المقيم في مكة » وقد وصل المدينة في يولية ومعه حاشية كبيرة واكياس من الذهب لتوزيعها في سبيل ضمان دخوله مكة بعد استرجاعها ولكنه بعد سقوط الوجه بقليل استأذن السلطان في العودة فأذن له بالاقامة في لبنان حيث ظل معتكفاً حتى نهاية الحرب .

— ٩ —

كانت قوات الثورة في ذلك الوقت منقسمة الى ثلاث مجموعات كبرى على رأس كل منها ولد من أولاد الشريف . كانت القوات التي يقودها علي واقفة أمام المدينة وهمها منصرف الى تذكير قائد حاميتها بأن الثورة حقيقة راهنة أكثر من انصرافه الى القيام بحركة فعلية ضده . وتوجه عبد الله الى وادي عيس وهدفه الأول عرقلة مواصلات الترك والاستيلاء على ما يرسل لهم من غذاء ومؤن . أما فيصل فهو الذي احتل الوجه واتخذها قاعدة له تنبعث منها الحركات الكبرى المقبلة . يصعب تقدير عدد هذه القوات تقديراً صحيحاً لا لأنها كانت تتراوح بين صعود وهبوط كبيرين فحسب بل أيضاً لأن عدد رجالها في ذلك العهد لم يكن مساوياً لعدد بنادقها فكان عدد القوات العربية بعد اعلان الثورة بثلاثة أسابيع يتراوح بين ٣٠٫٠٠٠ و ٤٠٫٠٠٠ ولكن عدد

البنادق لم يكد يتجاوز ١٠،٠٠٠ ولم يكن في حوزتهم مدافع ورشاشات فلما سقطت الوجه بلغ مجموع رجال العشائر الذين جندوا ٧٠،٠٠٠ ومجموع البنادق الصالحة للاستعمال ٢٨،٠٠٠ .

أتت هذه القوات بنتائج باهرة بالرغم من فقرها في المعدات وانعدام النظام الصارم فيها فانها بالاضافة الى ٦٠٠٠ أسير اعتقلتهم حجزت في المدينة حامية تتألف من ١٤،٠٠٠ تركي كما حجزت حامية أخرى قوامها ٥،٠٠٠ وقاعدتها تبوك وقامت بتهديد المواصلات بين دمشق والمدينة فارغمت العدو على زيادة حامية معان حتى تجاوزت ٧،٠٠٠ وهذا بالاضافة الى الفرق التركية الثلاث — اثنتان في اليمن وواحدة في عسير — التي لم يعد بينها وبين قواعدها الأصلية أدنى اتصال .

أما من وجهة نظر خطط الحلفاء الحربية فقد سدت الثورة منافذ البحر الأحمر والمحيط الهندي ووقفت أمام التوسع التركي الألماني المتجه نحو الجنوب وبتحالف ابن السعود مع بريطانية أصبحت المنطقة العربية الموالية تمتد من البحر الأحمر الى خليج فارس فضمنت للحلفاء سلامة الملاحة في هذين البحرين. وفي الشمال كان السير آرشيبالد موراي يعد هجومه على فلسطين فكان مرتاحاً الى نجاح الثورة في إحراج العدو الذي يواجهه إحراجاً شديداً ، ولم يكن في أول الأمر راضياً عن فكرة القيام بثورة عربية لأنه عدها عملاً ذا أهمية قليلة قد يزعج الحلفاء أنفسهم ولكن حين دخلت قوات فيصل الوجه عدل الجنرال موراي موقفه بعد أن « اهتز فجأة اذ أدرك أن عدد الجنود الترك الذين يحاربون العرب يفوق العدد الذي يحاربه هو » كما قال لورنس .

الباب الثاني عشر

العرب في الحرب : ١٩١٦ - ١٩١٨

- ١ -

كان احتلال العقبة في يولية عام ١٩١٧ فاتحة لعهد الثورة الأخير الذي يشكل مشهداً من أروع المشاهد وهو عهد اندفاع العرب نحو دمشق ، وكان احتلال الوجه في ٢٥ يناير من السنة ذاتها خاتمة لعهدها الأول ، وفي الشهور التي توسطت الاحتلالين نشب قتال متفرق في كل من المعسكرات العربية الثلاثة وقام الاستعداد السياسي للسير نحو الشمال على قدم وساق .

كان ضغط العرب على القوات التركية المحصورة يشتد كلما ازدادت كمية الأسلحة التي تصلهم على مر الشهور ومع أن الحلفاء ظلوا بخلاء بالمدافع فانهم كانوا كرماء بالبنادق والعتاد كما أنهم أرسلوا عدداً من الضباط القديرين لتدريب العرب فاصبحت هجماتهم على الخط الحجازي كثيرة وذات أثر فعال ومتزايد وإن لم يبلغوا مستوى التخريب الكبير الذي بلغوه فيما بعد بفضل مهارة لورنس الشيطانية . أما الآن فكانوا يقتلعون القضبان ويخربون الجسور والقناطر وفيما بعد تعلموا نسف القطارات وقاطراتها وكانوا أحيانا يهاجمون احدى المحطات ويأسرون حاميتها أو يتعرضون الى قافلة من قوافل العدو وعلى كل حال لم تبلغ الأضرار التي ألحقوها بالخط حداً يعطله نهائياً وان جعلت اصلاحه باستمرار مكلفاً وصعباً . وأدرك الترك انعدام الفائدة من الهجوم فظلوا قابعين في مواقعهم على الخط لا يغادرونها الا أحياناً لمحاولة اصلاح القضبان واعادة بناء الجسور .

يعود الفضل الأول في نجاح هذه الهجمات الى مهارة عدد من الضباط وبسالتهم وهم الذين أعارتهم السلطة البريطانية الى الشريف لتدريب قواته فقاموا بأكثر من ذلك بكثير. لقد ترك النور الوهاج الذى سلط على لورنس زملاءه الآخرين في ظلام نسبي مع أنهم قاموا بواجبهم لا بتدريب العرب على أساليب الحرب الحديثة وتعليمهم استعمال المتفجرات وفن التخريب فحسب بل بتفانيهم أيضاً في انجاز مهمتهم على وجهها الأكمل الذي فسر على انه تفان في سبيل القضية العربية وقد أظهروا من التحمل والجرأة ما أثار اعجاب قوم تحلوا هم أنفسهم بمقدار واف من هذه الصفات وكان هذا كله بمثابة حجر الأساس في بناء التعاون الانكليزي العربي خلال الحملة. وقد سمعنا المغفور له الملك فيصل في اكثر من مناسبة واحدة في الأعوام التي أعقبت الحرب يعلن أنه باستثناء لورنس الذي تخوله عبقريته أن يحتل مقاماً خاصاً به فان العرب مدينون لأمثال الزعيم (الكولونيل) نيوكومب والمقدم (الميجر) جويس بالجميل بمقدار لا يقل عما يستحقه أي انكليزي آخر.

لم يبق في مقدور الترك القيام بهجمات عكسية فقد انتقل عبد الله الى وادي عيس في شمال المدينة الغربي بينما غادر علي قاعدته في رابغ وسار نحو المدينة بعد أن تغلب على المراكز الواقعة في طريقه فنصب معسكره على مسافة ٦٠ ميلاً عن المدينة الى جنوبها الغربي ونجح الأخوان معاً في مضايقة الترك فعمل كل منهما بحسب القوة الموجودة معه وتعاونا تعاوناً وثيقاً لتحقيق الهدف المشترك وهو القضاء على حركة القائد التركي وفي وقت من الأوقات اشترك الأمير زيد وهو أصغر أنجال الحسين في حصار المدينة بقوة قادها بنفسه. وقد أعار الحلفاء القوات الثلاث مدربين ومعظمهم من الضباط المراكشيين والجزائريين الذين أوفدهم الفرنسيون. وبينما كان فيصل في الوجه يعد العدة للهجوم على الشام ضرب الأمراء الثلاثة في الجنوب نطاقاً حول المدينة وألجأوا

الى خطط الحصار لعدم امكان قذفها بالقنابل لحرمتها فدام هذا الحصار حتى نهاية الحرب فكان الدور الذي لعبوه أحقر من دور فيصل في ظاهره ولكن لولاه لتعذر على فيصل تحقيق ظفره الباهر .

قام العرب بعمليتين هامتين وموفقتين ، ففي اوائل يناير التقى جيش الامير عبد الله ببعثة تركية يقودها المدعو اشرف افندي وهي في طريقها الى اليمن لاعادة المواصلات التي قطعتها الثورة وكان الجنود المرافقون مسلحين تسلحاً تاماً فقاتلوا قتالاً عنيفاً لانهم يحملون اكياساً من الذهب وقائدهم مغامر جلود ذو عزم اكيد فاسره العرب ومعه غيره ممن نجوا من القتل واستولوا على الذهب وعلى اوراق البعثة وفي ابريل قامت قوة يقودها زيد بعملية اعظم من تلك اذ داهمت قافلة كبيرة تحمل المؤن المرسلة من الترك الى ابن الرشيد فتغلبت عليها في حنكية التي تبعد ثمانين ميلاً تقريباً الى الشمال الشرقي من المدينة وغنمت ٣٠٠٠ جمل محملة بالغذاء والكساء وغيرهما واسرت ٢٥٠ رجلاً ومما زاد في قيمة هذا الظفر انه ادى الى وقوع النفور بين ابن الرشيد والترك اذ اخذ يزعجهم بمطالبته الملحة بتعويض خسارته فلما لم يلبوا طلبه تجهم لهم ويئس منهم في عزلته .

— ٢ —

عمل فيصل بجد واجتهاد في معسكره بالوجه على اقناع العشائر بضرورة تناسي خلافاتها الخاصة في سبيل تحقيق الهدف المشترك فكانت مهمته هذه من اشق المهمات . ان الشقاق من الصفات المتأصلة في القبائل العربية في علاقاتها الخارجية الواحدة بالاخرى لان كيانها قائم على النظام القبلي وانقسام القبيلة الى فروع متعددة ، اما في داخل الوحدة القبلية نفسها فان الصفة البارزة هي على نقيض الشقاق تماماً اذ يسود شعور قوي بالتضامن والتفاني الشديد والاعمى في سبيل حفظ مصلحة القبيلة وصيانة سمعتها فاذا قورن هذا الشعور الملتهب بالشعور الوطني ظهر هذا الاخير الى

جانبه بارداً ونظرياً. ولكن رابطة كهذه لم تكن لتجمع بين قبيلة واخرى فنشأ عن ذلك تفكك برزت آثاره في مايسود القبائل من القواعد الصارمة المتصلة بالثأر وقانون الانتقام وحق التنقل ، وبينما كان ذهن فيصل مشتغلاً في التفكير بدمشق مثلت امام ناظريه غابة غيرمتناهية من الثارات والخصومات والمشاكل القديمة التي لم تحل والديون التي تنتظر أن توفى بالدم .

لم يكن شأن هذه العقبات خطيراً في أيام الاستقرار حين كان المعسكر منصوباً خارج المدينة اما الآن وقد اوشكت الثورة أن تتحول الى قتال متحرك هدفه دمشق الواقعة على بعد ٦٠٠ ميل فكان لابد من العمل على تذليلها وكانت المشكلة هي في ايجاد الاسلوب الملائم . كان في حوزة فيصل كميات كبيرة من الذهب بفضل حلفائه البريطانيين وقد بذلها فنجحت في دفع الناس الى الالتحاق بالثورة وفي تخفيف آثار الاحتكاك ولكن وقف الذهب عاجزاً امام قوة التفاخر ونفوذ التقاليد وكان فيصل الذي قضى شبابه الاول في خيمة احد المشايخ يعرف قانون الصحراء معرفة اكيدة جعلته لايعتمد على الذهب وحده لحل المشاكل فكان لمكانته الشخصية أثر بليغ جداً لابفضل نسبه فحسب بل أيضاً بما كان مشهوراً عنه من الشجاعة فسخر نفوذه الشخصي بحكمة كلما رأى الباب مفتوحاً امامه للتوسط المثمر . على أن قوة واحدة تستطيع وحدها دون سواها أن تحمل العربي على نبذ إبائه الفردي وهي قوة الايمان فكانت مهمة فيصل الاولى اذن اقناع الناس باعتناق مذهب سياسي جديد فكان عليه أن يبشر برسالة تحرير العرب وان يلهب افكار القبائل بنار الايمان المتأججة في صدره هو .

دأب فيصل على جذب رؤساء العشائر معتمداً هذه الوسائل الثلاث : الذهب والنفوذ ورسالة التحرير . فقد اخذ يعني بدراسة تواريخ ثارات العشائر بصبر وتأن ويصغي الى شكوى كل رجل فلا يرفض الاستماع الى أي شخص كان مها انحطت

مكانته أو طالت قصته وكلما وجد انه يستطيع انهاء نزاع مايبذل الدراهم قدر مبلغ التعويض وعد نفسه مدينا به ثم اداه ، وفي الحالات التي لم تكن الدراهم صالحة لتعويض شرف القبيلة لجأ الى عادة التحكيم العربية وتدخل كوسيط حيادي مبرراً تدخله بحرصه على مصير الامة العربية . وبينما كان منصرفاً الى قبائل الحجاز ارسل الى مشايخ بني عطية والحويطات والرولة في سورية الجنوبية فحضر بعضهم الى الوجه بانفسهم بينما اوفد آخرون ابناء عمهم فناشدهم فيصل جميعاً باسم الشريف الا يضيعوا هذه الفرصة الرائعة للفوز بحريتهم الى الابد تساعدهم قوة بريطانية، وهي الحرية التي تغدو ملكاً لهم يورثونه الاجيال المقبلة .

قال احدهم (١) « إن البدو اكثر اقوام الارض تمتعاً بالحرية » ولهذا وجد فيصل آذاناً صاغية لدعوته فراح يعمل الشهور الطويلة بدافع من حرارة ايمانه وبعزم لايعرف الكلل حتى ذلل العقبات وصالح المتنازعين بحيث سرى ايمانه الى نفوس المتخاصمين الذين ورثوا العداء الشديد منذ اجيال فنبذوه واقسموا الايمان على أن يخدموا تحت لوائه كاخوان في الجهاد لتحرير العرب وان يعدوا الحصول على الاستقلال اثمن من الاسرة والملك والحياة نفسها .

— ٣ —

كان عودة أبو تايه بين المشايخ الذين اموا الوجه وهو شيخ الطوايحة من عشائر الحويطات التي تنتقل على الاراضي الواقعة في الزاوية الجنوبية الشرقية من بلاد الشام ولم يكن عودة شيخ عشيرة تتعشق القتال فحسب بل كان أيضاً بشخصه قبيلة قائمة بذاتها على حد تعبير بعضهم اذ كان يتفوق على اقرانه بسهولة سواء في ذلك عند المداولة في الخيمة أو عند النزال في الميدان ولم يكن من عادته أن يستشير احداً الا في القليل النادر وقد أقام الدليل في حياته المملوءة بالمخاطرات على أنه لم

(١) دوزي في كتاب (تاريخ المسلمين في اسبانية)

يحمر بانفراده في الرأي وكان في ذلك الحين يبلغ الخامسة والخمسين ومازال محتفظاً بقوته ونشاطه ومعروفاً بأنه اشجع مقاتل في البلاد وكان وجهه شبيهاً بالنسر اذ كان انفه المقوس يشكل ربع دائرة ورأسه مائلاً الى الوراء وعيناه كبيرتين وناعستين ونظراته بعيدة وتنم عن العنفوان وقد سبب حضوره هزة في معسكر فيصل الذي فاق اغتباطه كل اغتباط لانه كان على علم بالجهود الجبارة التي بذلها الترك للظفر بولاء عودة لهم .

تم التفاهم بين فيصل وعودة بسرعة اذ بالرغم من عدم اجتماعهما قبل هذه المرة فقد تفرس كل منهما في وجه صاحبه وكون عنه رأياً لم يحد عنه قط فيما بعد ، ومع أن الثارات كانت قائمة بين عودة وجميع الشيوخ المجاورين له تقريباً إلا أنه قطع على نفسه العهد فوراً أمام فيصل بأنه من جهته يرى أن لا ثأر له إلا عند الترك واقترح من ساعته الهجوم على العقبة التي زعم أنه يستطيع احتلالها بمفرده مع رجاله بدون مساعدة أحد لهم وكان هذا الاقتراح متفقاً مع الخطة التي رسمها فيصل فقبله وطلب إلى عودة أن يعود من حيث أتى ليجمع أنصاره ويهاجم المواقع التركية التي تحمي العقبة .

كان فيصل في ذلك الوقت على وشك إرسال بعثة إلى الشام تدعو للثورة وتمهد السبيل للعمل المشترك في المستقبل فاختار أحد أبناء عمه وهو الشريف ناصر ليرأس البعثة ويكون ممثله الشخصي كما اختار نسيباً البكري ليكون معتمدها السياسي واستأذن لورنس في مرافقتها كرسول إلى قادة العرب في دمشق فأذن له وغادرت البعثة الوجه يوم ٩ مايس ومعها عودة وحرس مؤلف من خمسة وثلاثين خيالاً تقريباً وبعد مسافة معينة تفرق رجالها واتجهوا في وجهات مختلفة فذهب عودة إلى عشيرته لجمع شملها ونصب الشريف ناصر معسكره قرب كاف في وادي سرحان وسار نسيب إلى جبل الدروز وذهب لورنس بمفرده في رحلة فاقت جميع مغامراته في غرابتها وجرأتها ولكنه لم يأت على

ذكرها في كتاباته المنشورة لأسباب مجهولة فقد توجه راكباً نحو الشمال إلى تدمر وزار شيوخ ولد علي والكواكبة وبعد أن ظفر بالتحاق خمسة وثلاثين رجلاً من ولد علي توجه إلى بعلبك حيث نسف جسراً صغيراً يمر عليه القطار القادم من رياق ثم تابع سيره إلى مسافة تبعد عن دمشق خمسة أميال حيث اختبأ في القابون وهي قرية آل البكري التي كثيراً ما أقام فيها فيصل ومن هناك أوفد أحد الأتباع إلى رضا باشا الركابي وهو فريق عربي في الجيش التركي ومن كبار أعضاء (العهد) وكان الخطر المحيط بالركابي كبيراً لأنه محط الأنظار بوصفه قائداً لموقع دمشق ومع ذلك فانه حين علم بأن الذي يدعوه هو رسول فيصل خرج سراً إلى القابون حيث التقى بلورنس وفهم منه الرسالة التي يحملها والتي تقول بأن فيصلاً صمم على التقدم نحو الشام في مراحل وان المرحلة القادمة هي الهجوم على العقبة وان كل ما يطلبه في الوقت الحاضر من الزعماء المقيمين في دمشق حمل الجنود العرب في الجيش التركي على الفرار والالتحاق بجيشه في العقبة وانه لا يرغب في قيام الثورة في الوقت الحاضر .

تمت هذه المقابلة يوم ١٣ يونيو وما حل يوم ١٨ منه حتى كان لورنس قد عاد إلى معسكر الشريف ناصر في كاف بعد أن التقى في طرق العودة ببعض المشايخ ومنهم الزعيم الدرزي حسين الأطرش وشيخ مشايخ عشائر الرولة الكبيرة نوري الشعلان فبلغهم الرسالة ذاتها واستفهم منهم عن القوة التي يستطيعون تقديمها وبعد ذلك قام ناصر ولورنس برحلة دامت عشرة أيام زارا فيها مشايخ آخرين . وأخيراً بدأ الهجوم على العقبة .

جمع عودة ٥٠٠ رجل من عشيرته في بير (١) حيث وافاه ناصر ولورنس وفي يوم ٣٠ يونيو توجهت هذه القوة نحو الجنوب فاجتازت الجفر (١) حيث انحرفت

(١) بئر في الصحراء تقع إلى شرق الخط الحجازي بين عمان ومعان .

نحو الغرب حتى بلغت الخط الحجازي فبقيت قربه مدة قصيرة تكفي لنسف بعض الجسور وتخريب القضبان على طول كيلو متر واحد ومن ثم قطعت الخط وتابعت سيرها حتى يوم ٢ يوليـة إذ هاجمت القوة التركية التي تحرس موقع أبي الأيث على الطريق بين معان العقبة وكان عددها ٦٠٠ رجل فتغلبت عليها وأزالتها عن بكرة أبيها إما بالقتل أو بالأسر وكان هـذا الانتصار من المواقع التي تمثلت فيها أساليب عودة في القتال وفيما يلي وصف المعركة (١) :

« جمع عودة عند شروق الشمس خمسين خيالاً في بطن واد يبعد عن موقع الترك مسافة مائتي ياردة وأجهز عليهم فجأة فتشتت شملهم وعندئذ انحدرت نحوهم بقية القوة العربية على الجمال من أعلى التل فانتهت المعركة في خمس دقائق. وكان عدد القتلى من الأتراك الذين أحصاهم الرئيس (الكبتن) لورنس في الميدان ثلاثمائة وبذل هو والشريف ناصر جهوداً جبارة حتى أنقذا مائة وستين تركياً من القتل وأخذاهم أسرى أما خسائر العرب فكانت قتيلين وعدداً ضئيلا من الجرحى » .

كان الغذاء ينقص العرب وكانت الشمس حادة بما يفوق المعتاد فأخذت أصوات المحاربين المتعبين ترتفع طالبة فترة من الراحة ولكن عودة رفض تلبية الطلب قائلاً إن التأجيل قد يؤدي إلى وقوع المجاعة ولهذا دفع برجاله لمتابعة السير بعزم لا يلين . وبقيت للأتراك أربعة مراكز بين أبي الأيث والعقبة تم الاستيلاء عليها في أربعة أيام فبلغ مجموع القتلى من العدو ٦٠٠ قتيل وبلغ مجموع الأسرى ٧٠٠ وفي يوم ٦ يولية دخلت القوى العربية العقبة ورجالها يشكون العطش وقلة الغذاء والاعياء وقد ساقوا أمامهم شرذمة من الأسرى تفوقهم عدداً .

(١) تاريخ الحرب الرسمي — الحركات العسكرية في مصر وفلسطين — الجزء الأول ص ٢٤٠

- ٤ -

يعد سقوط العقبة نقطة التحول في سير الثورة التي كان نشاطها حتى ذلك الوقت محصوراً في ميدان الحجاز كما كانت قوتها المادية مؤلفة من ابناء العشائر دون سواهم اما الآن فقد انتقل المشهد الى بلاد الشام وطرأ تغيير على جيش فيصل في مهمته وتشكيله اذ اصبح الجناح الايمن لجيش الغزو القادم من مصر ويضم قوة صغيرة مؤلفة من جنود نظاميين مدربين كما اصبحت مهمته تنفيذ خطط الجنرال ألنبي في حرب الشام .

كان السير ارشيبالد موراي يرغم الترك على التراجع ببطء عبر شبه جزيرة سيناء حتى بلغ تخوم فلسطين في اوائل عام ١٩١٧ وقد استغرقت هذه العملية سنة واحدة تقريباً ثم قام في شهري مارس وابريل بهجومين على غزة اصاب فيهما فشلاً مريعاً أدى الى سحبه وتعيين السير ادموند ألنبي خلفاً له فوصل من القاهرة لتولي القيادة في اواخر يونيو وكان اول نبأ ذي قيمة عسكرية تلقاه عند قدومه هو نبأ سقوط العقبة .

ادرك ألنبي بسرعة معنى احتلال العقبة والفائدة التي قد يجنيها في هجومه المقبل من وجود جناح عربي سريع الحركة لجيشه فأعلن ان فيصلاً يستطيع الاعتماد على معونته ونفذ هذا التعهد بكل سخاء . دخل فيصل العقبة في شهر آب فما لبثت تلك القرية الصغيرة ان تحولت الى مركز حربي كبير ومتنوع يعج بما حواه من مراكز اللاسلكي ومطار ومسنيات لانزال المؤن وفيها تكونت نواة جيش نظامي مؤلفة من الوحدات العربية التي شكلت في الوجه ثم انضم اليها حول ٦٠٠٠ رجل من الجيش العربي المؤلف من المتطوعين في معسكرات الاسر في مصر . ولما كانت العقبة واقعة خارج الحدود التاريخية للبلاد المقدسة فقد سمح لغير المسلمين بالمجيء اليها بلا قيد فجاءها عدد من الضباط الانكليز والفرنسيين ليعملوا كمستشارين ملحقين

بالقيادة العربية أو كقادة لوحدات خاصة من السيارات المصفحة او الطيارات أو الهجانة . اما في ارض الحجاز نفسها فقد كان على اخوان فيصل المثابرة على عملياتهم الحربية في جوار المدينة حتى نهاية الحرب باستثناء الامير زيد الذي توجه في السنة التالية شمالاً نحو ميدان الحرب في الشام .

صرف فيصل همه الاول خلال الاشهر الستة التي اعقبت سقوط العقبة الى انجاز عمله المزدوج : تهيئة قواته للقتال وزيادة عدد القبائل المتحالفة معه وكان في ذلك الوقت على بعد ١٥٠ ميلاً عن مراكز ألنبي الامامية وكان الاتصال بينه وبين القيادة العامة متيسراً بالطائرات وبالبرق وكانت معان اكبر مركز حشد له فيه العدو ففدت لذلك هدفه العسكري الاول . وما حلت نهاية السنة حتى توصل في تحالفه مع القبائل الى ضم جميع العربان في منطقة معان الى حركته وحتى نما جيشه المدرب من نواة قوامها فيلقان الى قوة مجهزة تجهيزاً حسناً قوامها لواء من المشاة فيلقان من الخيالة على البغال والجمال .

وبينما كان فيصل غارقاً في وضع هذه الاسس السياسية والعسكرية قام ناصر وعودة ولورنس بحملات مختلفة هاجموا فيها السكة الحديدية وخربوا القضبان والجسور والقناطر وانزلوا بالعدو عدداً كبيراً من الضربات الصغيرة التي كان لها فيه أثر فعال . دامت هذه الهجمات طول فصل الخريف قبل اندفاع ألنبي شمالاً نحو فلسطين في نهاية اكتوبر وبعده وفي احدى هذه الهجمات قامت جماعة يقودها لورنس بنسف قطار فقتل فيه سبعون جندياً تركياً قرب المدورة في اواخر سبتمبر وعادت هذه الجماعة بعد ثلاثة اسابيع فاستولت على كمية كبيرة من المؤن مرسلة في هذه المرة ايضاً الى ابن الرشيد ذي الحظ المنكود . وقام الشريف ناصر في نهاية ديسمبر بهجمة جريئة على جرف الدراويش اسر فيها ٢٠٠ رجل ثم احتل الطفيلة وهي قرية هامة تقع في المنطقة المزروعة حنطة . فلما تقدمت قوة تركية مؤلفة من ٨٠٠ جندي لاسترجاعها دحرها وقتل منها ٣٠٠ وأسر ٢٠٠ جندي .

كان لاحتلال العقبة قيمة عسكرية كبيرة لانها سببت ارتباكاً بالغاً للقيادة التركية الالمانية في الشام وقد كانت في ذلك الوقت في اشد الحاجة الى توجيه كل ماعكنها جمعه من الرجال والمدافع لمقاومة التقدم البريطاني نحو القدس . على أن نتائج هذا الاحتلال السياسية كانت ذات اثر ابلغ وان لم يظهر في البداية، فقداصبحت العقبة رمز الثورة الحي والقاعدة التي تتوجه منها ضربات نافذة للقضاء على سلطان الترك في الشام من الناحيتين السياسية والعسكرية .

— ٥ —

كان للعمل السياسي مظاهره المختلفة ومؤداها كلها اضعاف تركية باستمالة عرب الشام الى صف الحلفاء وكان اول سلاح من اسلحة الدعاية المستعملة لتحقيق هذا الهدف القول بان قضية الحلفاء وقضية استقلال العرب اصبحتا متوافقتين بفضل الاتفاق المعقود بين مكماهون والشريف (الان الملك) حسين وان انتصار جيوش الحلفاء سيحقق للشعوب العربية حريتها .

نظم الضباط السياسيون المرافقون للجيش البريطاني القادم من مصر حملة سياسية بهذا المعنى في الشهور التي اعقبت الثورة وقد رافق تقدم القوات البريطانية شرقاً من قناة السويس في صيف عام ١٩١٦ ايفاد الرسل السريين الى شيوخ العشائر في جنوب فلسطين لاقناعهم بعدم مساعدة الترك ، ودعا الزعيم (الكولونيل) باركر، الذي ظفر بثقة واحترام عاميين بنتيجة خدماته في شبه جزيرة سيناء ، شيخ مشايخ منطقة بئر السبع الشيخ فريح المدين الى مؤتمر في العريش حيث سلمه كتاباً بخط الملك حسين وتوقيعه يناشد فيه العرب بمساعدة القوات البريطانية في مجهودها لانها تعمل على تحرير العرب، وامطرت الطائرات الخطوط التركية بمناشير طبع على وجهها صورة عن كتاب الحسين وبظهرها نداء موجه من القيادة البريطانية يدعو الضباط والجنود العرب في الجيش التركي الى تركه والالتحاق بالقوات البريطانية

لمواجهة ممثلي امير مكة وكان الحسين قد اوفد هؤلاء المندوبين تلبية لرغبة حلفائه البريطانيين وكان على رأسهم احد ابناء عمه الشريف عبد الله حمزة ومهمتهم افهام رؤساء العشائر في سورية الجنوبية الشروط التي قام عليها التعاون بين الانكليز والعرب واهداف هذا التعاون واقناعهم بضرورة عدم معونة الترك وتسهيل تقدم البريطانيين في فلسطين .

ولم تكن مساعي فيصل للتأثير من جهته على شيوخ منطقته لتقل عن ذلك فقد تغلغل رسله في داخل سورية واتصلوا بشيوخ المناطق المتحضرة تحضراً جزئياً والواقعة على طرفي نهر الاردن . على انه كان في ذلك الوقت مايزال غير راغب في قيام ثورة عامة في الشام لان استعداداته العسكرية لم تكن تامة وغايته المباشرة الاولى التوصل الى تفاهم سري مع كبار رؤساء العشائر وتشجيع فرار العرب من الجيش التركي .

اثرت هذه الدعاية من ناحيتها وان كان من الصعب معرفة مدى تأثيرها بشكل دقيق واكيد بسبب ماحاط نتائجها من الكتمان خوفاً من انتقام الترك من اقرباء الاشخاص الذين لبوا النداء واتباعهم وعلى كل حال فان ماعرف عنها سواء من اقوال الاشخاص ذوي العلاقة المباشرة ام بصورة غير مباشرة من التدابير التي اتخذتها القيادة التركية الالمانية لمقاومة الدعوة ، يكفي للدلالة على ان نجاح هذه الحملة كان كبيراً او متزايداً . من ذلك ان قبائل بئر السبع التي كانت تقاتل مع الترك في ربيع عام ١٩١٧ توارت عن الانظار باشارة من فريح المدين ثم عادت فظهرت الى الجنوب في الجناح الايمن للجيش البريطاني السائر على غزة وبنتيجة هذا التحول قرر الترك اخلاء العريش فاحتلتها فرقة بريطانية من الخيالة . وحاول الترك تنظيم جبهة للمقاومة في مغدبة ولكنهم ارغموا على التراجع فالتسليم بعد التحاق الجنود العرب دفعة واحدة بصفوف العدو واستمر التحاق مجموعات كبيرة من الجنود العرب اثناء تقدم ألنبي نحو القدس في خريف عام ١٩١٧ فكان بعضهم يسلم نفسه

الى الجيش البريطاني والبعض الآخر يذهب الى العقبة للانضواء تحت الراية العربية ولكن القسم الاعظم من هؤلاء الفارين من الجيش التركي اختفوا في الارياف .

ادركت القيادة الالمانية خطورة الحالة بنتيجة دعاية العرب والانكليز فاتخذت التدابير لمقاومتها واسست مكتباً عربياً في دمشق في شهر اكتوبر من تلك السنة تقوم عليه هيئة منتقاة من الخبراء الالمان في الشئون العربية وقد وضعت تحت تصرفهم مبالغ كبيرة للانفاق على الدعاية المعاكسة . وقد شددت العقوبات على الفارين واصدر جمال امراً وزع على الناس يقضي بانزال عقوبة الموت بكل عسكري وملكي يحتفظ بمنشور (١) من المنشورات التي كانت الطائرات البريطانية تلقيها في جبهة غزة بئر السبع . لم يحز جمال في وقت من الاوقات ثقة الالمان بصحة ادراكه السياسي ولهذا تدخلوا الآن لازالة بعض اثار سياسته فقام المارشال فون فالكنهاين المعين حديثاً قائداً اعلى في هذا الميدان بمساع شديدة في القسطنطينية ادت الى صدور نداء عام بتاريخ ١٤ نوفمبر وبتوقيع جمال يعلن فيه العفو العام بلا قيد عن جميع العرب الذين يقاتلون مع ملك الحجاز اذا سلموا انفسهم خلال ثلاثين يوماً .

على أن الفرار من الجيش التركي استمر كما استمر تبرم الناس بالترك رغم هذه الوعود وغيرها من التدابير حتى وجدت القوات البريطانية المتقدمة نحو القدس نفسها ، على حد تعبير ليمان فون ساندرس (٢) ، تحارب في بلاد صديقة بينما كان الترك وهم يدافعون عن بلادهم يقاتلون وسط شعب عداؤه شديد ومؤكد . وقد ذهب هذا المذهب أيضاً القائد محمد جمال باشا (٣) في حديث

(١) يمكن مطالعة نص هذا المنشور في عدد ٢٩ يناير عام ١٩١٧ من جريدة (البلاغ) وفي جرائد أخرى شامية .

(٢) ليمان فون ساندرس في كتابه (خمسة اعوام في تركية)

(٣) وهو غير سميه احمد جمال باشا وكان قائداً للجيش السابع ومقره معان —

لنا معه في القسطنطينية في ربيع عام ١٩٣٦ وقد أضاف أنه يرى بأن التذمر الذي ولدته الدعاية الانكليزية العربية في جميع أنحاء الشام كان له بالنتيجة أثر في ضعضعة سلطة الترك يفوق الأثر الذي تركته الخسائر العسكرية الناشئة مباشرة عن دخول العرب في الحرب .

يوجد من الأدلة ما يكفي لتأييد وجهة نظر كل من محمد جمال باشا وليمان فون ساندرس تأييداً لا يقبل الشك سواء اكان ذلك بشهادة اشخاص اطلعوا على الحالة بأنفسهم أم بقرائن أخرى موثوقة .

-٦-

كان للنتائج السياسية التي ولدتها هذه الفترة من الزمالة بين العرب والانكليز أهمية لا من الناحية التاريخية فحسب بل لعلاقتها بما ظهر في الاعوام التي أعقبت الحرب من خلافات شديدة في الرأي .

إننا سنرى فيما بعد كيف اثرت هذه الخلافات في مصير جميع المقاطعات العربية الواقعة خارج حدود الجزيرة فأعلن سكانها احتجاجهم على التسوية التي اجراها الحلفاء ورافق العنف هذا الاحتجاج في كل مكان فاتخذ شكل ثورات مسلحة أدت مع مرور الأيام الى إعادة النظر في أساس تلك التسوية الأصلية إلا بما يخص فلسطين وهي البلاد بعينها التي كانت أول منطقة استعملت فيها شروط التحالف العربي الانكليزي وحقائقه كأداة قاطعة وسريعة لمساعدة القوات البريطانية في تقدمها .

لقد فندنا مراسلات مكماهون في باب سابق وأثبتنا أن فلسطين لم تكن مستثناة من المناطق التي تعهدت بريطانية باقامة دولة عربية مستقلة فيها تعترف بها وتؤيدها . والذي يستدعي دقة الملاحظة هنا أن الحملة

ـــ طول مدة الحرب حتى اوائل عام ١٩١٨ حين خلف احمد جمال في قيادة الجيش الرابع فانتقل الى مقره في دمشق .

السياسية التي شنتها القيادة البريطانية عام ١٩١٦ هي بنفسها دليل ايجابي على أن فلسطين واقعة ضمن المنطقة المستقلة في نظر البريطانيين والعرب فان الجهود التي بذلت لاستمالة السكان لجانب الحلفاء بذلت باسم الملك حسين وفي سبيل حرية العرب لا في فلسطين وحدها بل في جميع انحاء الشام باستثناء جزء واحد فقط من أجزائها وهو لبنان حيث لم يستعمل اسم الحسين البتة بل حصرت الدعاية بفرنسة واهتمامها الخاص بمصالح لبنان وهذا الاستثناء يتفق تماماً مع التحفظات التي أوردها مكماهون باسم فرنسة كما أنه ذو قيمة تاريخية بما قدم من دليل على أن بريطانية العظمى وضعت فلسطين الى وقت متأخر ، وعلى الأقل حتى ربيع عام ١٩١٧ ، على قدم المساواة مع سائر الأجزاء العربية التي تعهدت باقامة دولة عربية مستقلة فيها تعترف بها وتؤيدها بدون أي تحفظ .

— ٧ —

أدى الهجوم الذي شنه ألنبي في نهاية أكتوبر الى احتلال القدس يوم ٩ ديسمبر وكانت غزة والخليل ويافا وبيت لحم قد سقطت قبل ذلك في حملة امتازت بما رافق تحضيرها من دقة كما امتازت بالجرأة والبسالة التي نفذت بها وقد أعقب ذلك عمليات حربية ثانوية بقصد تقوية مواقع الجيش بعد ظفره فلم تحل نهاية عام ١٩١٧ حتى كانت القوات البريطانية قد احتلت ذلك الجزء من الشام الذي كان يشكل سنجق القدس بكامله تقريباً دون ان تتعرض الى الخطر في مراكزها الجديدة .

لاقى البريطانيون صعوبة قصوى في تقدمهم بسبب وعورة الأراضي ورداءة الأحوال الجوية رداءة غير معتادة في خريف تلك السنة ولم يخفف عليهم وطأة هذه المصاعب إلا موقف السكان الودي منهم فقد كان الجنود يستقبلون في كل مكان بالترحاب كمحررين وحلفاء فتمد اليهم يد المساعدة فوراً

كما التحق بهم الضباط والجنود العرب في الجيش التركي فتبرعوا باعطاء معلومات عن خطط العدو ومراكزه الحربية ظهر أنها ذات قيمة كبيرة وفي القدس لاقوا ترحيباً صادقاً وان كان خافتاً بعض الشيء من جانب السكان الذين نقص عددهم الى النصف بسبب الجوع والنفي والابعاد ومع ذلك أقبلوا على التجند بحماس شديد لا يتناسب مع قلة عدد الأصحاء منهم عندما أسس البريطانيون مكتباً لتسجيل المتطوعين للخدمة في جيش فيصل. وقام أمين الحسيني (١) وهو شاب ينتمي الى أسرة من اكبر الأسر العربية بجولة في كافة أنحاء البلاد المحتلة فنظم حركة تجنيد واسعة واشترك عملياً في اعداد القوة التي لم تجاوز بمجموعها الألفين. ولم يكن هذا عجيباً بل العجيب ان استطاعت البلاد تقديم هذا العدد بعد الويلات التي نزلت بها.

وجه ألنبي هجومه في يناير عام ١٩١٨ عبر الأردن نحو الشرق محاولاً احتلال عمان وكان المتفق عليه ان يساند هجومه وحدات من العشائر تقاتل تحت امرة فيصل ولكن الصلة بين القوتين لم تتم قط إذ عجز العرب عن تنفيذ الخطة في وقتها المعين كما عجز البريطانيون عن الثبات في مواقعهم فانسحبوا إلى الضفة الغربية من نهر الأردن وأدرك فيصل استحالة الاتصال بحلفائه البريطانيين في ذلك الوقت فحصر أعماله الحربية بمنطقة معان وحاول عزلها تمهيداً لاحتلالها فيما بعد. ثم دهمهم شتاء شاذ ببرده القارس وثلوجه التي طال سقوطها مما لم يكن للعربان عهد به واعتياد عليه.

امتازت تلك الفترة بالحركات السياسية والعسكرية التي أخذت القيادة التركية الألمانية تقوم بها بنشاط كبير ومتجدد فقد عززت حامية معان

(١) الحاج أمين الحسيني الذي أصبح فيما بعد مفتي القدس ورئيساً للمجلس الاسلامي الأعلى في فلسطين.

بقوة إضافيـة -، وأرسل المكتب العربي في دمشق الذي أشرنا إلى تأسيسه الرسل مزودين بمقادير كبيرة من الذهب لبث روح النفرة بين أتباع فيصل، وأم عمان الهرنيدرماير وهو أقدر رجل بين جماعة من الألمان اتقنوا بدقـة للعمل السياسي في بلاد الشرق ومعه حاشية من الموظفين للاشراف على سير الدعاية بشخصه، وقامت القيادة التركية تدعمها الحكومة الألمانية صراحة بعرض الصلح على فيصل وسنأتي على ذكر هذا الأمر فيما بعد. على أن هذه المحاولات لم تأت بأية نتيجة من الناحية السياسية أما من الناحية العسكرية فكانت نتيجة التدابير التي اتخذها الترك زيادة خسائرهم زيادة كبرى.

فوجئت قوة تركية مؤلفة من ٨٠٠ جندي في سيل الحصى يوم ٢٦ يناير فلم يكد ينجو منها سوى خمسين جنديا إذ قتل ٥٠٠ وأسر ٢٠٠ وفي مارس خرجت مفرزة قوية من معان فأجلت العرب عن الطفيلة ولكنهم ما لبثوا أن عادوا إليها بعد معركة دامت عدة أيام ثم اشتد ضغط العرب على معان كما بلغ التخريب في الخط الحجازي حداً حال دون تسيير القطار أكثر من مرة في الأسبوع وأصبحت السفرة تستغرق خمسة أيام بينما كانت تستغرق ثماني عشرة ساعة في الأوقات الاعتيادية. وقرر الترك إخلاء المدينة بعد أن ظلوا محتفظين بها لأسباب سياسية لا عسكرية صيانة لسمعتهم اذ ضيعوا اثنتين من مدن الاسلام المقدسة وهما مكة والقدس، مع أن بقاءهم في المدينة كان مكلفاً للغاية.

بلغت الخسائر التي أنزلها العرب بالترك حتى ذلك الحين حداً لا قبل لهم به إذ وصل مجموعها حتى نهاية مارس عام ١٩١٨ بتقدير معتدل الى ٤٨٠٠ قتيـل و ١٦٠٠ جريح و ٨٠٠٠ أسير وهذا في المعارك مع العرب وحدهم ولا يدخل في هذا التقدير العرب الفارون من صفوف الترك. وبالاضافة إلى ذلك فقد عزلت حركة العرب حاميات كبيرة مؤلفة من ١٢٠٠٠ جندي في المدينة و ٧٠٠٠ في معان وحول ٣٠٠٠ في مواقع مختلفة على طول الخط الحجازى فبلغ مجموع كل

القوات التي شلتها الثورة العربية بالقتل والأسر والعزل حول ٣٥٠٠٠ جندي وكان ضغط العرب آخذاً بالاشتداد كما زادت العقبات القائمة في وجه الترك في محاولتهم تموين الحاميات المحصورة وتجهيزها.

تلقى فيصل نبأ عزم الترك على إخلاء المدينة في أواسط مارس فشرع باتخاذ إجراءات سريعة. لقد تبين له أن القيادة التركية الألمانية تنوي أولاً تأمين انسحاب حامية المدينة الكبرى والحاميات الصغيرة المنتشرة على طول الخط الحجازي بسلام وإيصالها جميعاً إلى معان وبعد ذلك توجه هذه القوات إما للقيام بهجوم فوري على قواته أو لتعزيز الجيوش المرابطة في طريق دمشق لمقاومة هجوم عربي وبريطاني قد يتوجه نحو الشمال. رسم فيصل الخطة بعد استشارة جويس ولورنس والحصول على موافقة ألنبي وهي ترمي إلى القيام بهجوم سريع غايته عزل معان وقطع المواصلات بينها وبين المدينة لاحباط مساعي الترك.

قضت خطة فيصل بتقسيم القوات التي يمكن حشدها إلى ثلاث وحدات مؤلفة من مجموعات مختلفة العدد ثم أرسالها لمهاجمة الخط الحديدي في ثلاث مناطق دفعة واحدة على أن عد كل واحدة منها بالرجال والمعدات التي تلائم مهمتها الخاصة مستفيداً في ذلك من السيارات المصفحة ومفرزة من فرقة الهجانة المصرية التي أعارتها له السلطات في القاهرة. بدأت الهجمات في الأسبوع الأول من أبريل فخربت الوحدة الشمالية الخط بين معان وعمان، وعملت الوحدة الجنوبية بقيادة نائب الزعيم (اللايوتنان كولونيل) الان دوناي في المنطقة الواقعة في جنوب معان حتى المدورة فخربت الخط بشكل لا يقبل الاصلاح، واحتلت الوحدة الوسطى بقيادة جعفر باشا مراكز الدفاع الخارجية في معان وخربت الخط في شمالها وجنوبها مباشرة. فلم يحل يوم ٢٠ ابريل حتى كانت معان منعزلة وقد خربت الوحدات الثلاث خلال عشرة أيام ما ينوف عن الخمسين جسراً وقنطرة و ٣٠٠٠ قضيب واسرت ٤٥٠ جندياً واستولت على كميات كبيرة من

العتاد . وقام الترك بعدد من الهجمات العكسية الشديدة على الوحدة الوسطى التي كانت تحتل السمنة ولكن الجيش النظامي العربي بقيادة جعفر ثبت في مكانه حتى اصبح إخلاء الترك المدينة مستحيلاً .

والى جنوب هذه المناطق جدد الاميران علي وعبد الله نشاطهما فقاما بالتخريب على مقياس واسع خلال شهري مايس ويونيو واوقع عبد الله هزيمة جديدة بابن الرشيد في تيماء فلما حارل الترك نجدة حليفهم بعدد خرج من المدينة في شهر يولية متجهاً نحو الداخل اجهز عبد الله على هذه القوة من المشاة فافناها عن بكرة ابيها بالقتل او الاسر .

واذا قارنا بين القوى المختلفة استطعنا ان نكون فكرة عن مدى فعالية العرب الحربية في عملياتهم في منطقة معان . اننا اذا استثنينا الحاميات التي اتخذت معان قاعدة لها والمعروفة بالفيلق الثاني وجدنا ان الترك وضعوا ثلاثة جيوش على ضفتي الاردن لمقاومة البريطانيين والعرب . فكان امام البريطانيين في غرب النهر جيشان مستقلان ، السابع والثامن ، يقود الاول مصطفى كمال باشا (١) ويقود الثاني جواد باشا ، ووقف الجيش الرابع ومقره عمان امام العرب في شرق النهر . وكانت قوة الجيشين الاولين ١٧٠٠٠ بندقية وقوة الجيش الثالث ١٤٠٠٠ بندقية (٢) بما في ذلك الفيلق الثاني وقاعدته معان . اما الحاميات التي حصرها العرب في المدينة

(١) رئيس الجمهورية الكمالية فيما بعد .

(٢) تمثل هذه الارقام حملة البنادق والسيوف ولا تشمل سواهم ممن يتناولهم التموين العسكري وقد ذكر الجنرال ألنبي نفسه هذه الارقام في تقاريره واخذناها نحن عن كتاب ويفل (حروب فلسطين) كما اخذنا عنه معلومات اخرى اوردناها في هذا الباب .

وعلى الخط الحديدي بينها وبين المدورة والبالغ مجموعها ١٢٠٠٠ فلا تدخل في هذا الحساب .

فلكي نقدر قيمة الحملة العربية حق قدرها من الناحية العسكرية وجب علينا ان نذكر بان قوات فيصل وحدها كانت تشغل عدداً من الجند الترك يكاد يساوي المدد الذي تشغله القوات البريطانية في غرب الاردن ، وان فيصلاً باحتلاله المنطقة الواقعة الى شرق معان قد حمى ميمنة الجيش البريطاني في فلسطين وحافظ على خطوط مواصلاته الطويلة بان حال دون هجمات الترك عليها في جوار بئر السبع والخليل ، وانه بالاضافة الى فيصل فقد قام علي وعبد الله بحصر قوة كبيرة للعدو وازعاجها ولولا ذلك « لكانت عوناً ذا قيمة لاتقدر بثمن لليمان (١) إما في اشد مرحلة مرت باللنبي او عند الهجوم الاخير (٢) » فكان عدد الجند الترك الذين يقاتلون العرب في منطقة معان وفي الحجاز يفوق في هذه المرة ، كما فاقه عام ١٩١٧ ، المدد المرابط في فلسطين لمقاومة التقدم البريطاني نحو الشمال .

— ٨ —

كانت خطط ألنبي للهجوم النهائي على وشك التمام عند حلول الصيف . كانت نيته في الاصل معقودة على الشروع به في الربيع ولكن هجوم الالمان الكبير في الجبهة الغربية ارغمه على التخلي عن اثنتين من فرقه السبع للعمل في فرنسة وانتظار وصول من يحل محلها من الهند والعراق واعادة تنظيم قواته من اساسها . فتمت استعداداته في سبتمبر وشرع ينفذ خطته بمهارة بالغة في ١٩ منه وقد دلت على عبقرية لامعة في فن الحركات الحربية ، فانجرف الترك امام الهجوم المشترك الذي شنه العرب والانكليز حتى اخرجوا من الشام مثلهم في ذلك مثل الريشة في مهب الريح .

---

(١) عين ليمان فون ساندرس خلفاً لفون فالكنهاين كقائد اعلى للقوات التركية الالمانية في اول مارس عام ١٩١٨ واتخذ الناصرة مقراً لقيادته .

(٢) هذه كلمات المؤرخ البريطاني الرسمي في (تاريخ الحرب الرسمي) .

كانت الخطة من عمل ألنبي ومعاونيه ويعدها الاخصائيون من النقاد خطة مثلى في تاريخ فن القيادة العسكرية ويتخذونها دليلاً على عبقريته الحربية . ذكرنا سابقاً ان جيشين تركيين ، الثامن والسابع ، كانا واقفين امامه بينما وقف جيش ثالث ، وهو الرابع ، امام العرب وكان وراء هذه الجيوش قوة تركية رابعة ، الجيش الثاني ، ترابط في شمال سورية بين حلب ودمشق وكانت قوات ألنبي نفسه تتألف من ثماني فرق من المشاة واربع فرق من الخيالة وتضمنها لواء فرنسي ومفرزة ايطالية صغيرة فقسمت كلها الى مجموعتين، الفيلق العشرين والفيلق الواحد والعشرين، وفيلق ثالث من الخيالة فكان بهذا متفوقاً في القوة المقاتلة على العدو بنسبة اثنين الى واحد، وبالرغم من هذا التفوق فما زال ظفر ألنبي معتبراً من العمليات الحربية اللامعة لا بسبب استفادته من تفوقه بمهارة فحسب بل أيضاً بسبب السرعة والبطش اللذين قضى بهما على عدوه قضاء مبرماً دون ان يتكبد خسارة تذكر .

كان من أهداف ألنبي قطع مواصلات الترك بين دمشق والجنوب قبل البدء بالهجوم فاستعان بالعرب على ذلك وكانت درعا المركز الهام لمواصلات العدو وهي محطة واقعة على خط الحجاز ومنها يتفرع خط حيفا عن الخط الرئيسي الذاهب الى المدينة فاذا عزلت لم يكن في امكان الترك جلب المدد على جناح السرعة بالقطار الى فلسطين وانشلت حركتهم في المؤخرة وقطع عليهم أسرع طريق للرجعة اذا أرادوا الانسحاب أمام هجوم العرب والبريطانيين المشترك . وبالاضافة الى ذلك فان تهديد الخط في درعا قد يحمل فون ساندرس — كما حمله بالفعل — على ارسال بعض قواته الاحتياطية من منطقة الناصرة لحماية ذلك المركز فتضعف مقاومته المحتملة للتقدم البريطاني .

اطلع فيصل على الخطة فنفذ القسم الخاص به بهمة فائقة وكانت قواته في ذلك الحين قد دربت وجهزت فتحسن حالها وبلغ مجموع جيشه النظامي

٨٠٠٠ رجل بذل فيه جعفر باشا وزملاؤه الضباط جهوداً جبارة حتى بلغ مستوى عالياً من الكفاءة وقد عززه انضمام وحدات بريطانية من السيارات المصفحة والرشاشات وجنود المخابرة . وقد ظفر فيصل كذلك بالتحاق عدد كبير من رجال العشائر بفضل دعايته الواسعة خلال عام ١٩١٨ التي أدت الى انضمام البقية الباقية من الشيوخ بين خليج العقبة والفرات . وقد حشد نوري الشعلان شيخ مشايخ عشائر الرولة رجاله للهجوم النهائي كما تعهد شيوخ حوران وجبل الدروز سراً بأن يحدثوا فتنة عند الشروع بالهجوم . ولم تنم قوات فيصل بالعدد فحسب بل أصبحت تتألف من عناصر جديدة غير عناصرها السابقة وهذا أمر هام أيضاً اذ توارت العناصر الحجازية توارياً يكاد يكون تاماً وأصبحت قواته العشائرية والنظامية تتألف في الوقت الحاضر بالدرجة الأولى من سكان سورية وفلسطين والعراق أي من الرجال الذين لهم مصلحة مباشرة في نجاح الثورة وكان للكثيرين منهم بيوت في البلاد التي وقفوا على أبوابها .

في أوائل سبتمبر نقل فيصل قاعدته الى الازرق الواقعة على بعد خمسين ميلاً تقريباً الى شرق عمان فاختارها لتكون مركزاً لحشده وفي يوم ١٦ منه أي قبل بدء الهجوم البريطاني بثلاثة أيام قام بهجمته الأولى فقطع الخط الحديدي بين درعا وعمان وفقاً لخطة ألنبي بشكل منع الاتصال بينهما وفي اليوم التالي قامت جماعات أخرى من العرب بتخريب الخط في نقاط تقع في شمال درعا وغربها وأوشكت هذه القوة أن تهاجم البلدة عندما وصلها مدد قوي من الالمان فتوقفت عن ذلك . لقد وقع فون ساندرس في الفخ المنصوب له واستمر العرب يتظاهرون بالتهديد لكي يجذبوا مدداً آخر من منطقة الناصرة ثم قاموا بتخريب جديد يوم ١٨ منه حتى غدت درعا في مساء ذلك اليوم معزولة عن

الخارج من جميع جهاتها وفي الصباح الباكر من اليوم التالي بدأ الهجوم البريطاني في جبهة فلسطين.

بدأ ألنبي حركته بخدعة أوهم فيها الترك أن هجومه الرئيسي موجه على جناحهم الأيسر أي شمالاً نحو جيشهم السابع وقاعدته نابلس وشرقاً نحو جيشهم الرابع وقاعدته عمان وقد سبق له أن خدعهم فحملهم على تقوية حشدهم في قلب خطوطهم فتابع هذه الخطة بأن أمر فيلقه العشرين بالقيام بهجوم عنيف على الجيش السابع ولكنه هجوم خادع أما الهجوم الحقيقي فقد قام به فيلقه الواحد والعشرون على جناح الترك الأيمن أي على جيشهم الثامن المرابط في المنطقة الواقعة بين الساحل وسفوح جبال السامرة وكان الهجوم شديداً فارغم قيادة العدو على التراجع بحركة محورية غير منتظمة تاركة السهل الساحلي بلا حماية وعندئذ قذف ألنبي بخيالته في تلك الثغرة فلم تمض أربع وعشرون ساعة حتى وصل لواء من الفرسان ضواحي الناصرة وكاد يأسر فون ساندرس وهيئة أركانه الذين كانوا منهمكين في معالجة الهجوم العربي على درعا بدرجة أنهاكهم في مقاومة تقدم ألنبي الذي لم يدركوا خطورته حتى ذلك الوقت. وبعد ساعات قليلة احتل لواء آخر العفولة وهي محطة واقعة على خط حيفا — درعا — دمشق، وفي عصر ذلك اليوم العشرين من شهر سبتمبر احتلت بيسان فرقة بريطانية فما غربت شمس اليوم الثاني حتى كانت قوات ألنبي مستولية على الأطراف الثلاثة لمستطيل حصر في داخله الجيشان الثامن والسابع بكاملها فلم يبق أمامها منفذ للخلاص الا في الشرق عبر الاردن ولكن الفرق التابعة للفيلق العشرين بادرت الى سد هذا المنفذ بتقدمها شمالاً نحو نابلس وشرقاً باتجاه عمان. أما في المنطقة الجبلية الواقعة وراء الاردن فقد أخذت القوات العربية تطبق على الفيلق الثاني في معان بعد أن حاصرت درعا. ومما زاد في

حراجة موقف الترك الذين فقدوا كذلك قوتهم المعنوية ان البلاد بأجمعها قامت في وجههم باشارة من فيصل .

لم يعرف التاريخ نصراً كاملاً كهذا إلا نادراً فقد زال الجيش الثامن من الوجود بقتل وأسر جميع أفراده خلا وحدة المانية وشرذمة من فلوله أما الجيش السابع فلم ينج منه الا بعض الطوابير المتفرقة التي تمكنت من الانسحاب نحو درعا وبقي الجيش الرابع مرابطاً في الجهة المقابلة من الاردن كما بقي الفيلق الثاني في معان والجيش الثاني في الشمال وقد لاقت جميع هذه القوات المصير ذاته بعد أيام قليلة .

— ٩ —

يحوي تاريخ الأيام القليلة المقبلة قصة انكسار الترك انكساراً نهائياً واحتلال دمشق ثم حلب .

بدأ الترك تراجعهم باخلاء عمان ومعان ولكنهم ما كادوا يشرعون به يوم ٢٢ سبتمبر حتى عبر الاردن لواء الخيالة البريطانية واحتل عمان يوم ٢٥ وكان الجيش الرابع يتراجع مشياً على الأقدام بسبب تخريب السكة الحديدية المؤدية الى درعا فتركه القائد البريطاني وشأنه وظل في عمان لكي يضمن استسلام الفيلق التركي الثاني المنسحب من معان بعد ان احتلها العرب يوم ٢٣ . وفي الشمال أطبق العرب على درعا فاحتلوها يوم ٢٧ بينما قامت وحدات أخرى يقودها عودة ونوري الشعلان باحتلال اذرع وخربة غزالة والاستيلاء على ٣٥٠٠ أسير في يومين . وفي الوقت نفسه كان الخيالة البريطانيون قد شقوا طريقهم عبر الاردن شمال بحيرة طبريا وجنوبها وأخذوا يقاتلون قتالاً عنيفاً وهم يسرعون نحو دمشق ، وكان الجيش العربي النظامي يحمي ميمنتهم مقتفياً أثر الجيش الرابع بينما قامت قوات العشائر التي تبرع دوماً في القتال المتحرك

بالاجهاز على الجيوش التركية المنسحبة فانجزت عملها بسرعة خاطفة وهي هائجة وقد أخذت تتسابق تسابقاً جنونياً لبلوغ هدف الثورة .

كان الشريف ناصر ونوري الشعلان ومعهما قواتهما أول من بلغ الهدف اذ قطعا سبعين ميلاً في أربع وعشرين ساعة على ظهور الخيل حتى وصلا ضواحي دمشق مساء يوم ٣٠ سبتمبر ولكنهما لم يدخلاها تلك الليله نزولاً عند رغبة القائد الأعلى واكتفيا بارسال مفرزة قوية لابلاغ السكان النبأ ومطالبتهم باقامة حكومة عربية ولكن المدينة سبقتهم الى ذلك اذ ما كاد رسل ناصر يبلغون ميدانها الرئيسي حتى رأوا العلم العربي يخفق أمامهم . لقد انتهى الحكم العثماني وأصبحت سيطرته التي دامت أربعة قرون في ذمة التاريخ .

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي وهو الاول من شهر اكتوبر دخل المدينة فصيل من الخيالة البريطانيين وفي اثره الشريف ناصر ونوري الشعلان وقواتهما وبعد يومين اتى النبي بالسيارة من القدس في الوقت الذي دخل فيصل عاصمة الامبراطورية العربية القديمة على رأس ١٢٠٠ فارس وقد اطلقوا لخيولهم الاعنة .

بلغ ابتهاج دمشق بالقادمين حد الجنون اذ لم تستطع ان تكبح جماح عاطفتها واننا لنترك لاقلام غير قلمنا مهمة وصف المشاهد الحماسية التي استقبل بها الفاتحون العرب والانكليز على حد سواء والتي يقول عنها كل من رآها انها لاتنسى لانهـا كانت افراح شعب مشهور بقوة اندفاعاته العاطفية فاطلق لها العنان في فورة محمومة من الشعور بالشكر والامتنان وخيل للناظر كأن إحساس الناس ، الذي رق بنتيجة الآلام البشعة التي تحملوها خـلال السنوات الأربع حتى غدا سريع التأثر ، قد تحول إلى هيجان جارف وان كابوس جمال وفظائعه قد حرك غرائزهم . وبلغت الأفراح ذروتها بدخول فيصل لأنه كان رمزاً حياً يمثل الحرية في نظر شعب لم يعد الحرية مخلصاً له فحسب بل رأى فيها ما يحقق امانيه التي طالما حلم بها .

- ١٠ -

تم احتلال الأجزاء الباقية من سورية قبل نهاية اكتوبر في حركتين عسكريتين منفصلتين : الواحدة تستهدف التقدم على طريق الساحل نحو صور فصيدا إلى بيروت وطرابلس والثانية تتجه في الداخل نحو حمص وحماة فحلب . ولم يشترك العرب في الحركة الأولى ولكنهم لعبوا دوراً كبيراً في الثانية .

بدأ التقدم الساحلي من حيفا وعكا يوم ٣ اكتوبر وكان ألنبي قد احتلها بعد اختراقه الجبهة بقليل فسارت فرقة بريطانية على الطريق الجميل والتاريخي الذاهب شمالاً من عكا فاحتلت صور يوم ٤ وصيدا يوم ٦ وكان هذا التقدم بمثابة نزهة عسكرية إذ لم يلق المهاجمون مقاومة وكان الأهلون يستقبلونهم في كل مكان بمظاهر الترحيب حتى دخلوا بيروت في يوم ٨ بينما تابع أحد الفصائل سيره إلى طرابلس فاحتلها بعد خمسة أيام .

وخلال ذلك اصدر النبي الامر بالسير شمالا من دمشق نحو حلب وقد ظن انه سيلاقي هنا صعوبة اكبر من الساحل . كانت القوات البريطانية تعاني آثار حرب الشام العنيفة ولا سيما بعد انتشار المرض بين الجنود بشكل مفزع وما واجههم من صعوبات فى جلب المؤن من قاعدتهم التي باتت بعيدة جداً وبالاضافة الى ذلك فقد كان للعدو مجموعات كبيرة مرابطة على الطريق كما علم أنه يقوم بحشد كبير لقواته في الشمال للدفاع عن حلب ولكن هذه العقبات كلها ذللت ونجحت الحملة هذه المرة ايضاً بفضل التعاون بين القوات البريطانية والعربية .

تقدمت فرقة بريطانية على الطريق الرئيسي بينما قام لواء من الجيش العربي النظامي بحماية ميمنتها كما توجه الشريف ناصر على رأس قوة غير نظامية لمهاجمة حمص من الشرق فبلغها يوم ١٥ اكتوبر قبل وصول البريطانيين بيوم واحد فوجد أن الترك قد انسحبوا وبعد يومين احتل حماه دون ان يلقى مقاومة ما فيها أيضاً على أن المقاومة العنيفة بدأت في ضواحي حلب من قوة تركية قوامها فرقتان كبيرتان مجهزتان تجهيزاً حسناً وعلى رأسها مصطفى كمال باشا . فوضعت خطة لهجوم مشترك

تقوم به الخيالة البريطانية والجيش العربي النظامي يوم ٢٦ منه الا ان بعض القوات المؤلفة من رجال العشائر العربية نفذت الى داخل المدينة عصر يوم ٢٥ واجهزت على الحامية بقوة اضطر معها قائدها الى الانسحاب واصدار الامر للفرقتين اللتين تحميان حلب من الجنوب بالانسحاب ايضاً وفي صباح ٢٦ منه دخلت الخيالة البريطانية والجيش العربي النظامي المدينة بينما صد لواء من الهنود ببسالة فائقة هجوماً شديداً شنه مصطفى كمال باشا على بعد أميال قليلة من حلب الى الشمال وفي يوم ٢٩ قامت وحدة تابعة للشريف ناصر باحتلال المسلمية وهي مركز للسكة الحديدية ينشطر فيه الخط القادم من القسطنطينية الى فرعيه العراقي والشامي فكانت أقصى حدوسله الحلفاء في الشمال اذ وقعت تركية في اليوم التالي هدنة مدروس .

— ١١ —

استقبل الجيش المحرر في بيروت وحلب وفي جميع المدن السورية تقريباً بمظاهر الابتهاج ذاتها التي لاقاها في دمشق اذ تهيج شعور سكان تلك المدن ، كما حدث في دمشق ، لما رأوا أمانيهم في الحرية السياسية وشيكة التحقيق ووصل بهم الابتهاج لخلاصهم من الآلام حد الجنون . ولئن كانت الافراح في بيروت ولبنان اقل بهجة فما كان ذلك الا لأن ما عاناه السكان من الحرمان والمجاعة فاق المناطق الاخرى بكثير .

ان الاحصاء لا يصور الحقيقة بكاملها عندما يتناول آلام الافراد ومع ذلك فان الاحصاء الذي جرى للوفيات في بعض انحاء سورية يكشف النقاب عن مبلغ الفظائع التي فرض على السكان تحملها . لقد وصفنا في باب سابق احوال المجاعة في عام ١٩١٦ ولا نبالغ اذا قلنا ان المصائب الناشئة عن الجوع خلال السنتين اللتين اعقبتا ذلك قد زادت عشرة أضعاف وبالرغم من التباين الكبير بين الارقام المقدرة الا انه من المؤكد ان عدد الذين ماتوا بنتيجة الجوع او المرض الناجم عن سوء التغذية لا يقل عن ٣٠٠٫٠٠٠ .

كانت المجاعة على اشدها في لبنان حيث زالت بعض القرى بكاملها بينما نقص سكان بعضها الاخر الى أقل من النصف وقد روي عن بعض القرويين انهم كانوا يهجرون قراهم ويتنقلون في الارياف لكي يموتوا دون أن تراهم عيون نسائهم وأطفالهم الجائعين ويكفي ان ننقل فيما يلي وصف الحالة اخذاً عن تقرير كتبه احد المقيمين الامريكيين ذوي المكانة : (١)

« قمت بجولة في لبنان استغرقت يومين بصحبة رئيس جمعية الصليب الاحمر الامريكي في بيروت فزرنا جميع البيوت في عدد من القرى . وانا عاجز عن وصف ما شاهدناه اذ كانت عائلات بكاملها تتضور جوعاً وهي ملقاة على الارض العارية في أكواخها البائسة فكانت اناتها تسمع على بعد عدد من الابنية . كانت العائلة قد باعت كل قطعة من أثاثها ولوازمها البيتية لشراء الخبز وفي بعض الاحوال بيعت قطع الآجر التي تغطي السطح للغاية نفسها وكانت مئات من البيوت خالية وصائرة بسرعة الى الخراب بعد وفاة أصحابها . ويقدر المعتدلون عدد الذين ماتوا فعلاً من الجوع في لبنان وحده بما لا يقل عن ١٢٠٠٠٠ خلال العامين الاخيرين ... »

كتب هذا التقرير في يوليـة عام ١٩١٧ وقد ساءت الاحوال كثيراً بين هذا التـاريخ واحتلال بيروت بعد خمسة عشر شهراً . تشمئز النفس في احوال كهذه من الاتيان على ذكر حوادث فردية ومن مزايا الاحصاء انه على الاقل لا يدع مجالا لوصف عذاب فرد واحد من بني الانسان ولا يمكن الشك في ان عدد الذين ماتوا جوعاً في سورية بلغ ٣٠٠٠٠٠ خلال الحرب ولعل العدد الحقيقي

(١) لم تكن الولايات المتحدة في حرب مع تركية من النـاحية الحقوقية فقد قطعت العلاقات السياسية بينهما ولكن واحداً من الطرفين لم يعلن الحرب . وقد ترك المقيمون الامريكيون في سورية احراراً فقاموا بالكثير من اعمال الاسعاف الجليلة ولاسيما الجالية الامريكية في بيروت .

يبلغ ٣٥٠٫٠٠٠ وكان عدد المنفيين والمبعدين لا يقل عن ٣٠٠٠ مات الكثيرون منهم بنتيجة المعاملة السيئة فاذا أضفنا كذلك الخسائر في الارواح بسبب الخدمة العسكرية وجدنا أن ما قدمته بلاد الشام من الضحايا في مجزرة الحرب لا يقل كثيراً عن نصف مليون في الارواح واذا ذكرنا ان مجموع عدد سكان البلاد لا يكاد يبلغ اربعة ملايين ترجح لدينا ان نسبة التضحية تفوق جميع البلاد المحاربة .

لم يكن من شك في ان الالآم التي تحملها السكان كانت ذات علاقة بامانيهم السياسية او بصورة خاصة بشعورهم الودي نحو الحلفاء . لقد رأينا كيف ادى اكتشاف الوثائق التي تدين بعض الافراد ذوي المكانة في القنصليتين الفرنسيتين الى محاكمتهم واعدامهم والى نفي وابعاد المئات غيرهم ، وفي معظم الحوادث كان الحكم يصدر ومن حيثياته اتصال الشخص ذي العلاقة باحدى دول الحلفاء اتصالاً حقيقياً او وهمياً او لمجرد عطفه المزعوم على قضية الحلفاء . ونحن نذكر كيف نشأت المجاعة عن عدد من العوامل ولكن اساسها كلها عامل مقصود وهو عامل الحقد والانتقام فقد قضت تعليمات جمال بمنح التسهيلات لشراء الحبوب او منعها لاسباب سياسية فسخر هذا السلاح في لبنان بشكل مشين دون الالتفات الى نتائجه اذ كان معروفاً عن عدد كبير من سكانه انه متبرم بالحكم التركي كما كان يشتبه في عطف هؤلاء على الحلفاء اذا لم يكونوا متصلين بهم بالفعل .

كانت آثار هذه المصائب بادية للعيان عند دخول القوات البريطانية بيروت ويستحق هؤلاء الجند اكبر الثناء لانهم بادروا الى توزيع الغذاء والكساء فوراً وبشكل فعال من مستودعات مؤنهم وقام بحارة السفن الحربية الفرنسية التي دخلت ميناء بيروت في مساء يوم وصول البريطانيين بمساعدات مماثلة على ان الثناء الاعظم يجب ان يكال الى مراكز الاسعاف الفرنسية والبريطانية والامريكية التي شكلت حالاً واخذت تبذل الجهود خلال الاشهر المقبلة لتزويد سكان المناطق الداخلية المحرومة بما يلزمها على مقياس اوسع وكانت تتنافس فيما بينها تنافساً انسانياً وشريفاً .

الباب الثالث عشر

عهود متناقضة

— ١ —

كان قلق الدول الحليفة على مصير تركية بعد انهيارها المنتظر يزداد كلما تقدمت الحرب. لقد احتفظت المملكة العثمانية حتى ذلك الوقت بكيانها الاساسي بفضل التحاسد القائم بين الدول المعظمة نفسها وهذا بالرغم من النقص الكبير الذي منيت به في اراضيها، واعتنق بالمرستون وجهة نظر المجمع الاوربي في موضوع تركية بقوة حتى اتخذتها الدول المعظمة اساساً لسياسة متفق عليها ترمي الى الحيلولة دون تفكك المملكة العثمانية وقد طبقت هذه السياسة خلال القرن التاسع عشر واستمرت حتى قيام الحرب العامة فامتازت بمظهر الايثار الذي ظهرت فيه الدول دون ان تحتاج الى تحمل حقائقه اذ حققت هذه السياسة بالفعل غايتها المزعومة وفي الوقت ذاته اتاحت المجال لكل واحدة من الدول المعظمة بدورها لتجريد السلطان من واحدة او اكثر من مقاطعاته المشتهاة، وفي فترة لم تتجاوز الاربعين عاماً بين اعتلاء عبد الحميد العرش ووقوع حرب عام ١٩١٤ ارغم السلطان على التنازل لروسية عن عدد من المقاطعات الغنية في آسية الصغرى ولبريطانية العظمى عن قبرص ومصر ولفرنسة عن تونس ولايطالية عن ليبية وللنمسة عن البوسنة والهرتزك وهذا بالاضافه الى المقاطعات البلقانية التي تخلصت من النير التركي بمساعدة روسية.

اما الآن وقد دخلت تركية الحرب فقد اخذت الرغبات التي كانت مكبوتة حتى ذلك الوقت تنكشف ويسعى اصحابها الى تحقيقها. كانت روسية تريد القسطنطينية والمضايق وطالبت فرنسة بسورية كحق من حقوقها واخذت بريطانيا تشعر بضرورة ايجاد طريق يؤدي الى الشرق والاستيلاء على اية منطقة اخرى بغية ابطال مفعول

الاطماع الروسية والفرنسية وكان لايطالية مطامع في آسية الصغرى كما اخذت حكومة الهند تلقي نظرات الشوق واللهفة نحو العراق . ولهذا جرت مفاوضات بين الدول في اوائل عام ١٩١٥ مالبثت ان عقدت بنتيجتها عدداً من المعاهدات بتواريخ مختلفة خلال السنوات الثلاث الاولى من الحرب ادت الى تناول الحلفاء بسخاء مالذ لهم وطاب من اجزاء المملكة العثمانية .

وفي اثناء عملية التقطيع هذه وجدت بريطانية نفسها مضطرة الى الدخول في التزامات جديدة بعضها يناقض تعهداتها التي قطعتها للعرب عام ١٩١٥ بواسطة مكماهون وبعضها الآخر يؤيد تلك التعهدات

— ٢ —

كان اول هذه الالتزامات الاتفاق المعروف باسم (اتفاق سايكس بيكو) . وقد عقدته بريطانية العظمى مع فرنسة وروسية في ربيع عام ١٩١٦ . ما كاد مكماهون ينجز صفقته مع الحسين حتى شرعت وزارة الخارجية البريطانية بمباحثات في لندن مع الحكومة الفرنسية للوصول الى التوفيق بين الحقوق التي تدعيها فرنسة في سورية وبين العهود التي قطعتها بريطانية للعرب . ورأت الخارجية البريطانية لاسباب مختلفة الا تطلع الحكومة الفرنسية على شروط الاتفاق مع الحسين ويظن أنها أخفت عنها تماماً نبأ عقد اتفاق كهذا من اصله فقامت المفاوضات منذ البدء على اساس فاسد بسبب هذا التصرف البعيد عن الصراحة والذي اعربت فرنسة بحق عن استنكارها الشديد له فيما بعد . فلما انتهت المباحثات الاولية انتدبت كل من الحكومتين ممثلاً عنها ليتداولا في الامر . كان المندوب الفرنسي المسيو جورج بيكو وكان قنصلاً عاماً لدولته في بيروت خلال الاعوام التي سبقت الحرب وكان زميله البريطاني هو السير مارك سايكس الذي اكتسب شهرة واسعة كبحاثة في شؤون الشرق بفضل كتاباته ورحلاته البعيدة في جميع انحاء المملكة العثمانية .

اعد الممثلان مشروعاً عينا فيه مصير الاجزاء العثمانية التي ترغب بريطانية وفرنسة الحصول عليها وبعدذلك صدرت اليها الاوامر بالتوجه الى بتروغراد لمباحثة الحكومة الروسية في مشروعها فبدأت مفاوضتها معها في أواسط مارس عام ١٩١٦ وانتهت باعداد مشروع لمذكرات ثلاث تتبادلها الحكومات الثلاث . فتبادلتها بالفعل في تواريخ مختلفة في ابريل ومايس وحددت هذه المذكرات المناطق العثمانية التي تعدها كل دولة منطقة نفوذ خاصة بها وترغب في ان تعترف لها بها زميلتاها كما حوت مواد مختلفة تحفظ حقوق كل دولة في المناطق التي منحت لزميلتيها .

أما من جهة تخصيص المناطق فكانت الدول سخية بما قررت ابتلاعه من الاراضي الخاضعة لحكم السلطان فقد حددت روسية حصتها بالقسطنطينية مع عدد من الاميال الى الداخل على ضفتي البوسفور وبقطعة كبيرة من شرق الاناضول تضم تقريباً كامل الولايات الاربع المجاورة للحدود الروسية التركية ، واحتفظت فرنسة(١) لنفسها بالقسم الاكبر من بلاد الشام مع جزء كبير من جنوب الاناضول ومنطقة الموصل في العراق ، أما حصة بريطانية(٢) فتتألف من المنطقة الضيقة الممتدة من طرف سورية الجنوبية حتى العراق حيث تتوسع بشكل مروحة لتضم بغداد والبصرة وجميع البلاد الواقعة بين خليج فارس والمنطقة الفرنسية وهي تضم كذلك ثغري حيفا وعكا مع جزء صغير من ساحلها . واحتفظ بمنطقة اخرى (٣) تضم جزءاً من فلسطين كما هي اليوم لاقامة ادارة دولية خاصة .

إن المناطق المخصصة لروسية لاتهمنا لانها تقع خارج بلاد العرب اما المنطقتان المخصصتان لفرنسة وبريطانية وكذلك المنطقة الدولية فانها تضم سورية والعراق

(١) ان لون المنطقة الفرنسية على المصوَّر ازرق .
(٢) ان لون المنطقة البريطانية على المصوَّر أحمر .
(٣) ان لون المنطقة الدولية على المصوَّر بني .

بكاملها وقد نص الاتفاق (١) على لزوم خضوعها لنوع من الوصاية الاوربية . وتتألف كل من المنطقتين الفرنسية والبريطانية من قسمين بالنسبة الى شكل الحكم في كل منها فقسمت المنطقة الفرنسية الى القسم الازرق والقسم المشار اليه بحرف (آ) وقسمت المنطقة البريطانية الى القسم الاحمر والقسم المشار اليه بحرف (ب) وترك لفرنسة وبريطانية الحرية في اقامة ادارة خاصة في القسمين الازرق والاحمر . ومع أن الاتفاق لم يذكر الالحاق صراحة الا انه لم يمنعه بل ترك للدولتين الخيار في أن تستلحقا ماتشاء ان من الاقسام الحمراء والزرقاء كلاً أو جزءاً، اما في القسمين المشار اليهما بحرفي (آ) و(ب) فقد نص الاتفاق على اقامة ادارة يشرف عليها العرب وتعترف بها وتؤيدها الدولة صاحبة العلاقة مع تمتع تلك الدولة ، فرنسة أو بريطانية ، بالافضلية في المسائل الاقتصادية واحتفاظها لنفسها دون سواها بحق تزويد الحكومة العربية العتيدة بما قد تحتاجه من الموظفين والمستشارين الاجانب .

اما النصوص الخاصة بالمنطقة الدولية اي فلسطين فقد وضعت بنتيجة اختلاف الغايات التي تستهدفها الدول الثلاث . فقد ابدت فرنسة رغبتها في ان تكون سورية بكاملها وبضمنها فلسطين في منطقة نفوذها فعارضتها بريطانية لسببين رئيسين : الاول رغبتها في ان يكون لها في خليج عكا ميناء تتخذها منفذاً للعراق على البحر الابيض المتوسط ، والثاني عدم ارتياحها لاحتمال استقرار فرنسة اوغيرها من الدول المعظمة في جوار قناة السويس مباشرة .

اتخذت بريطانية هذا الموقف كنتيجة لاتجاه جديد ظهر في سياستها الشرقية وهو ناشئ عن ادراك اولي الامر بصورة اوضح من السابق قيمة المواصلات البرية

(١) يحوي الملحق (ب) من هذا الكتاب نصوص الاتفاق الخاصة بالاجزاء العربية من المملكة العثمانية وبالرغم من انها نشرت كثيراً في السابق الا اننا اعدنا نشرها لتسهيل المراجعة على القراء.

بين اجزاء الامبراطورية من الناحية الحربية حتى أن كتشنر قام بمساع عديدة لدى الحكومة البريطانية عندما كان في مصر لفت نظرها فيها الى اهمية سورية الجنوبية من خليج عكا وحيفا على البحر الابيض المتوسط الى خليج العقبة على البحر الاحمر جغرافيا كدعامة تحمي قناة السويس وكطريق بري الى الشرق ، وهناك ادلة على ان الزعيم (الكولونيل) نيوكومب وهو من فرقة المهندسين الملكيين حين قام بمسح شبه جزيرة سيناء عام ١٩١٤ فعل ذلك بدافع من كتشنر، ومهما يكن من الامر فان نتيجة عمل نيوكومب اقنعت كتشنر بصحة رأيه وساعدته على بسطه بقوة اشد من السابق عند ما دخل الوزارة بعد اعلان الحرب وقد استصوبت آراؤه ثم عمل بها بالفعل عند ما شكل رئيس الوزارة لجنة رسمية لدراسة مطالب روسية وفرنسة في المملكة العثمانية بالنسبة الى مصالح بريطانية . وفي يونيو عام ١٩١٥ رفعت اللجنة تقريراً قالت فيه انها ترى بانه يمكن التساهل مع فرنسة بمنحها شمال سورية فقط وان جنوبها الذي يتألف من كل فلسطين تقريباً يجب أن يستثنى من منطقة النفوذ الفرنسي ويعمل له ترتيب خاص ولعل هذا التقرير هو الذي أوحى بالتعليمات التي تلقاها مكماهون اثناء مفاوضاته مع الحسين والتي قضت بان يجري بعض التحفظات المتعلقة بالجهات الشمالية من سورية لصالح فرنسة والا تتناول هذه التحفظات فلسطين .

واما الحجة التي استند اليها في معارضة مطامع فرنسة في فلسطين فهي ان وجود الاماكن المقدسة في القدس وحولها يستلزم اقامة نوع خاص من الادارة فرد الفرنسيون على ذلك بان اقترحوا اقامة ادارة خاصة تحت اشراف دولي في منطقة تضم القدس وبيت لحم والاراضي الواقعة بجوارها مباشرة بسبب صفتها الدينية على أن تظل باقي جهات فلسطين جزءاً لايتجزأ من سورية .

وتقدمت روسية بمطالبها الخاصة عندما استؤنفت المباحثات في بتروغراد . فقد ادعت أن ماتشرف عليه من المدارس والاديرة والبقاع المقدسة في سائر انحاء

البلاد المقدسة ولا سيما مايقع منها في الناصرة ونابلس والخليل يمتد بعيداً الى ماوراء حدود المنطقة الصغيرة التي اقترحتها فرنسة ، وقد حاولت روسية في البداية ان تطالب فرض حمايتها على البلاد المقدسة ولكن اعتراض بريطانية وفرنسة معاً جعلها تقنع بحكمة الرجوع عنه ولو الى حين فاعلنت استعدادها للموافقة على اقامة ادارة دولية شريطة ان تضم جميع البلاد المقدسة وتضم كذلك جميع المؤسسات والبقاع المقدسة الروحية . وايدت بريطانية هذا الاقتراح فاضطرت فرنسة الى الموافقة وهكذا خلقت المنطقة الدولية ذات اللون البني على المصوَّر .

— ٣ —

ان اتفاق سايكس بيكو وثيقة مشينة لا لأنها وليدة الاطماع وهي في ابشع صورها فحسب ، تلك الاطماع التي ترافقها الريبة فتوقع اصحابها في حماقة ، بل ايضاً لانها مثال بارز للمخاتلة .

ان نظرة تلقى على المصوَّر لتكشف من فورها الاخطاء التي وقع فيها الاتفاق من اساسه . فان سورية والعراق والمناطق الصحراوية غير لآهلة بالسكان والواقعة بينها تشكل شبه مستطيل اطرافه الثلاثة في الشمال والشرق والجنوب متصلة بالبر وطرفه الرابع يتألف من ساحل البحر الابيض المتوسط في الغرب، ويقطن هذا المستطيل سكان يتكلمون العربية وقد بلغوا درجات متفاوتة من النمو وسكان الطرفين الشرقي والغربي . أي البلاد الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط وعلى حوض دجلة والفرات الاسفل، متقدمون من الناحية الفكرية والسياسية على سكان المناطق الداخلية واكثرهم من البدو، وبالرغم من بعض التباين في الناحيتين الاجتماعية والدينية فان هؤلاء السكان يشكلون بصورة عامة وحدة منسجمة يزيد في تماسكها اشتراكهم في اللغة والثقافة حتى أن الوعي القومي فيهم قد نما نمواً محسوساً

إن اول ماعمله اتفاق سايكس بيكو هو تقطيع اوصال ذلك المستطيل العربي باقامته العقبات المصطنعة في طريق الوحدة، ولعل هذه كانت الغاية التي سعى اليها موجدوه ولعلها كانت نتيجة لتأثرهم عن طريق اللاشعور بعداء بالمرستون لقيام دولة عربية على طريق الهند البري، ومهما يكن من الامر فان هذا الاتجاه الذي سار فيه الاتفاق اتجاه رجعي وبناهض القوى الطبيعية المتفاعلة فقد تمت اليقظة بعد ايام بالمرستون وكان في مقدمة اهدافها تحقيق الوحدة العربية واستقلال العرب ومهما بلغت المغانم التي قد تغنمها الدول الحليفة من هذا التقسيم فان املها في أن تؤدي هذه التسوية الى اقامة سلم دائم ليدل على عدم تبصرها بالامور .

ومن صفات الاتفاق البارزة اقامته بناءً سياسياً مشوشاً يتبوأ فيه المتأخرون المكان الاول ويتبوأ المتقدمون المكان الأخير، فان أهل سورية والعراق كانوا من الناحية السياسية اكثر نمواً ونضجاً من سكان المناطق الداخلية ومع ذلك فقد فرض الاتفاق وضع سورية والعراق تحت حكم اجنبي مباشر بينما سمح للمناطق الداخلية بتشكيل دول عربية مستقلة. ويتضح سخف هذه الحلول بصورة خاصة في المنطقة التي ستخضع للنفوذ البريطاني حيث وضع القسم الاحمر الذي يضم بغداد والبصرة، وهما المركزان اللذان تنبعث منهما الحركات الفكرية والسياسية في العراق، تحت الوصاية وحرم حتى من مظاهر الحكم الذاتي بينما اعترف بالقسم المشار اليه بحرف (ب) بانه اهل للاستقلال مع ان ثلثيه يتألفان من مناطق قاحلة وصحراوية وسكانه متأخرون كثيراً عن سكان القسم الاحمر في الخبرة والنضج السياسيين. فكان هذا العمل بمثابة وضع من بلغ الرشد في المدارس والقذف بتلامذة الصفوف الابتدائية الى الحياة .

على ان مانطوي عليه هذا الاتفاق من نكوث بالعهد لاخطر بكثير من هذه الاخطاء في التقدير، فلقد تمت المفاوضات وعقد الاتفاق دون علم الحسين مع انه ينص على شروط تتناقض تناقضاً تاماً مع شروط اتفاق مكماهون. وكأن هذا لم يكف

فاخفي عنه نبأ عقد ذلك الاتفاق اخفاء مشيناً لعلم اولي الامر بأنه لو اطلع عليه لنبذ حلفه مع بريطانية فوراً بلا تردد. ولكنه لم يسمع بالاتفاق الا بعد مضي ثمانية عشر شهراً تقريباً في ظروف سنأتي على ذكرها عما قريب.

ان الامر الذي يثير الدهشة في هذا الاتفاق اكثر من أي شيء آخر هو اشتراك سايكس في وضعه اذ يستحيل على من يعرف الرجل أن يقرن اسمه باي عمل يمكن وصفه بالحماقة والاحتيال فقد كان من صفاته المميزة صدقه الذي لا يشك فيه وتفانيه المتناهي في سبيل المبادىء التي يعتنقها، اما من جهة العلم فلا نبالغ اذا قلنا ان اطلاعه على القضية العربية يفوق اطلاع جميع السياسيين الذين تعاون معهم. وعليه فان الطريقة التي أقنع نفسه فيها بان هذا الاتفاق صالح وشريف ستبقى لغزاً من الالغاز.

على أننا نستطيع تفسير موقف سايكس تفسيراً جزئياً اذا نظرنا اليه من ناحية نفسية. لقد كان فكره مدركاً وحاداً ولكنه كان في الوقت ذاته عجيباً في عدم انتباهه وعدم تميزه، وكان في طبعه شيء من غفلة المتحمس ممزوجاً بحرارته كلها. كان مطلعاً بنفسه على أحوال العرب اطلاعاً كبيراً ولكنه اطلاع يمتاز بما يتخلله من فجوات كما يمتاز بسمته وكانت احكامه على الاشياء تدل تارة على تبصر وطوراً على عدم الفهم كأن مخيلته رقعة شطرنج تمثل مربعاتها البيضاء بعد نظره وتمثل السوداء الغموض والشك وهما وليدا المعرفة المكتسبة على عجل فجملته هذه الصفات غير صالح للمساومات الدبلوماسية ولا سيما اذا كانت هناك افكار يجب تبنيها الى جانب المصالح الواجب تأمينها. فلما وقف امام بيكو وسازانوف وكلاهما متشبث وعازم على تناول كل ما يمكنه تناوله اخذ يتحول بالتدريج من عالم افكاره الخاصة الى تلك الجنة الوهمية التي خلقتها اطماع الدول المعظمة الثلاث وتحاسدها.

ومع تقدم الحرب نما احساس سايكس بالقوى المتفاعلة في العالم العربي

ولهذا شرع يبتعد عن موقفه الذي وقفه عام ١٩١٦ . ومما عرف عنه حتى في خريف عام ١٩١٧، انه بدأ يرتاب بقيمة اتفاق سايكس بيكو من الناحية العملية وحتى من الناحية الخلقية فقد جاء الى الشرق مرة ثانية لزيارة الحسين في جدة وتحدث الى بعض زعماء العرب في القاهرة فبدأ يشعر برغبة العرب الاكيدة في الاستقلال والوحدة فادرك ، مع نمو هذا الشعور فيه ، ان التقسيم الذي اوجده الاتفاق انما هو ظلم وحماقة . لقد ثابر على اعتقاده بان التفاهم بين فرنسة وبريطانية يجب ان يبقى حجر الزاوية في سياسة بريطانية في الشرق ولكنه بعد ان انقلبت بعض المربعات السوداء في رقعة ذهنه فصارت بيضاء ثار شعوره السياسي والخلقي في وجه تلك الضربة الصاعقة التي اوقعت بالحركة العربية ولا سيما اثر اكتشافه بانها حركة قوية ومتماسكة خلافاً لما كان يتوقعه . ولم تنقض سنة اخرى حتى اجتاز مرحلة جديدة في ابتعاده عن الافكار الضيقة التي اعرب عنها الاتفاق فكتب الى اللورد روبيرت سسيل في اكتوبر عام ١٩١٨ يحضه ، في سبيل صيانة مصالح البشر عامة ، على ان تفرغ بريطانية العظمى كل جهدها « لتمهد المدنية العربية وبعثها وتحقيق الوحدة العربية بقصد اعدادهم (١) للوصول الى غايتهم المثلى في الاستقلال (٢) » .

— ٤ —

نرجح ان هذا التطور لم يكن قد طرأ على فكر سايكس في مايس عام ١٩١٧ حين ذهب الى جدة لمباحثة الحسين . كان المسيو بيكو قد جاء الى القاهرة على رأس بعثة مهمتها ترويج مصالح فرنسة في سورية ببذل المساعي السياسية مع الزعماء العرب في القاهرة فأثارت هذه الزيارة والشائعات التي رافقتها مخاوف الحسين فطلب من وينغيت الذي خلف مكماهون كمندوب سام ان يعطيه التأكيدات المطمئنة عن

(١) أي الشعوب الناطقة بالضاد في آسية .

(٢) من كتاب شين لزلي (حياة مارك سايكس ورسائله) — لندن عام ١٩٢٣

حركات البعثة فاوفدت وزارة الخارجية البريطانية سايكس الى جدة بناء على اقتراح ونغيت وكلفته بتبديد مخاوف الحسين بقدر الامكان وبان يمهد للزيارة التي أرادت الحكومة الفرنسية ان يقوم بها بيكو للحسين .

كان من الممكن انتهاز هذه الفرصة لبسط القضية بصراحة امام الحسين لا لسبب سوى اخلاصه في تنفيذ الشق العائد اليه من الاتفاق العربي البريطاني ولكنها لم تنتهز فقد ذهب سايكس الى جدة في أوائل مايس وقابل الملك ثم عاد بعد خمسة عشر يوماً تقريباً ومعه بيكو لمقابلة الملك ثانية وقد مثلا بين يديه في مقابلة طويلة يوم ١٩ مايس ثم في مقابلة اخرى في اليوم التالي فبحثا مطولا مستقبل البلاد العربية وعلاقته بمصالح بريطانية وفرنسة . ولم تذع جميع الاحاديث التي جرت في هاتين المقابلتين ولكن الثابت ان الرجلين غادرا جدة دون أن يطلعا الحسين على نصوص اتفاق سايكس بيكو كما أن الحوادث التي وقعت فيما بعد دلت على انهما لم يذكرا له حتى وجود هذا الاتفاق واكتفيا بالاشارة الى التفاهم والتضامن بين بريطانية وفرنسة بصورة عامة .

كان الحسين في الاعوام التي اعقبت الحرب يؤكد بالحاح شديد أنه لم يسمع باي تفاق عقده الحلفاء يتعلق بالبلاد العربية في تلك المقابلات او في غيرها وان اول من اطلعه عليه هم الترك كما أكد ان مباحثات جدة في مايس عام ١٩١٧ دارت بالدرجة الاولى حول قبول العرب بالاعتراف لفرنسة بمنطقة نفوذ في سواحل سورية الشمالية اي في لبنان والظاهر أنه ثبت في تلك المباحثات في موقفه كناطق باسم الحركة القومية لا يملك صلاحية اقرار أي مشروع يستهدف التعدي على سيادة العرب وان اقصى ما يمكنه التعهد به هو البحث مع زعماء الحركة والسعي لاقناعهم باجراء تسوية لموضوع لبنان مع فرنسة تشبه التسوية التي اجريت مع بريطانية في موضوع العراق في مراسلات مكماهون اي ايجاد تعاون بين فرنسة والحكومة العربية العتيدة في لبنان يحدد بزمان معين تقوم خلاله فرنسة بمساعدة الحكومة العربية المذكورة

باعانة مالية تقدمها وتعمل على ترويج مصالحها ضمن نطاق السيادة العربيـــة .

لم يسمع الحسين بوجود نصوص اتفاق سايكس بيكو الا بعد مرور ستة أشهر اي في ديسمبر عام ١٩١٧ وذلك عن طريق العدو اذ كان الحزب البلشفيكي قد استولى على الحكم في روسية قبل شهر من ذلك التاريخ فكان من أعماله الاولى اذاعة بعض الوثائق السرية المحفوظة في وزارة الخارجية القيصرية وبضمنها نصوص اتفاق عام ١٩١٦ الذي بادر الترك الى ارساله للحسين فوراً مع عرض شروط صلح منفرد يعقد بين الترك والعرب .

— ٥ —

صدر هذا العرض عن جمال باشا في الاسابيع الاخيرة من عهده في سورية وقد قدمه باسم الحكومة العثمانية وقال ان حليفتها المانية تؤيدها فيه . بعث جمال في الاسبوع الاخير من نوفمبر عام ١٩١٧ برسول سري الى العقبة ومعه رسالة منه الى الامير فيصل واخرى الى جعفر باشا والرسالتان مؤرختان في ٢٦ نوفمبر ومؤداهما واحد وإن اختلفا في اللهجة والنص اختلافاً مقصوداً وبارعاً غايته ملاءمة نفسية المرسل اليه .

صيغت رسالة فيصل بشكل نداء موجه من مسلم تفكيره جدي الى اخيه المسلم يعلمه فيه ان واجب الاشخاص الذين يهتمون بالاسلام يدعوهم الى تكريس نشاطهم وحتى حياتهم لخدمته وان استقلال العرب الذي وعد فيصل وابوه بتحقيقه كان خدعة دفعتهما الى الثورة على سلطة الاسلام العليا وان الدليل القاطع قد قام الآن على ان هذه الوعود كاذبة وان نوايا الحلفاء الحقيقية متجهة الى تقسيم البلاد العربية وتنصيب اسياد من الاجانب عليها ، فرنسيين في سورية وبريطانيين في العراق ودوليين في فلسطين ، وان الطريق الوحيد المفتوح امام العرب هو العودة الى الحظيرة العثمانية وضمانة حقوقهم المشروعة بالتفاهم مع الترك . وختمت الرسالة بدعوة

فيصل الى الحضور بشخصه لدمشق مع وعده باعطائه الامان للشروع بالمفاوضات .
وحوت الرسالة كذلك ورقة مستقلة تتضمن مجمل الشروط التي يقبل الترك باتخاذها اساساً للمفاوضة وهي ترمي الى اعطاء العرب اكبر قسط من الحكم الذاتي في جميع الاجزاء العربية من المملكة ليحققوا امانيهم القومية كاملة ، وتشير الشروط الى ان المفاوضات اذا انتهت بعقد اتفاق كما يؤمل فان تنفيذه يتم لا بتصديق السلطان فحسب بل أيضاً بضمانة مماثلة من جانب الحكومة الالمانية .

استند جمال في رسالتيه ، الطويلة الى فيصل والقصيرة الى جعفر ، الى اتفاق سايكس بيكو لاقامة البرهان على ان الحلفاء قد خدعوا العرب وتعارف في معالجة هذه الناحية اذ قال ان وعود بريطانية لو كانت صادقة لفهم معنى الثورة العربية وحتى لعذرها وهذا بالرغم من انها حركة طائشة اما الآن وقد ثبت بشكل لا يقبل الشك ان للحلفاء اطماعاً اخفوها وهي تتناقض تماماً مع استقلال العرب فان واجب العرب يدعوهم الى الرجوع عن الخطأ الذي اوقعتهم فيه خدعة الحلفاء والحذر من الاستعباد الذي ينتظرهم على يد فرنسة وبريطانية العظمى وروسية بنتيجة تعاونهم مع الحلفاء تعاوناً ظنوا انه سيجلب لهم الاستقلال .

كانت الحكومة التركية ، ومعها حليفتها المانية ، حريصة كل الحرص على ضمان نجاح العروض التي قدمتها للعرب ودفعها هذا الحرص الى اعلان هذا النبأ على الملأ في يوم ٤ ديسمبر اقيمت مأدبة رسمية في بيروت على شرف جمال باشا القى فيها خطاباً قال فيه بصراحة انه عرض الصلح على الشريف فترك خطابه الذي كان اصرح خطاب القاه في سورية أثراً عميقاً . وبالاضافة الى استعراضه الموقف الحربي بقصد تبرير فشله وصف جمال لسامعيه الضرر الذي اوقعته الثورة العربية لا في وحدة الاسلام فحسب بل أيضاً في تلك المصالح ذاتها التي يدعي زعماء الثورة انهم ساعون لتحقيقها . تستحق بعض مقاطع هذا الخطاب ان تنقل بكاملها فيما يلي لأنها توضح

حرص الترك على مصالحة العرب وقد القى جمال هذا الخطاب قبل سقوط القدس بقليل اذ كان عارفاً بقرب استدعائه فكان كلامه مزيجاً من الدعاية وتبرير النفس(١):

« كنت حريصاً على ان اعلم كيف استمال الانكليز الشريف حسيناً اليهم ولكن بعض القادمين اخيراً من تلك الجهات قد ازالوا الستار عن وجه الحقيقة واعان على ذلك أيضاً ما ورد في متن العهود الخفية التي نشرت اخيراً في بطرسبورج. وذلك ان انكلترا وفرانسا وروسيا وايتاليا (٢) عقدن بينهن معاهدة خفية على اثر دخولنا في الحرب بمدة قليلة أي في اوائل عام ١٩١٥ قررن فيها تأسيس سلطة عربية مستقلة تؤلف من جميع الولايات العربية العثمانية تحت رعاية دول اوربا وحمايتهم . . . وفي الحقيقة ان هذا القرار كان عبارة عن خدعة لايجاد الثورة العربية التي كانت مطمح نظر الانكليز فانهم كانوا يسعون لجعل ثوار العرب آلة خاصة لتحقيق آمالهم فيعدونهم الوعود الكاذبة ويمنونهم الاماني الباطلة . . .

« فالشريف حسين باشا المسكين وقع اخيراً في احبولة الانكليز وانخدع باقوالهم واخل بوحدة الاسلام وشرفه . ان الانكليز بعد ان اخذوا وعداً من الشريف حسين بالعصيان قرروا المدافعة عن الترعة ضمن شبه جزيرة سيناء . . . ان الانكليز لم يجتازوا الترعة الا بعد تأمين خروج

(١) ذكر المؤلف ان النص الكامل لهذا الخطاب منشور في عددي جريدة (الشرق) رقم ٤٦٤ و ٤٦٥ والواقع ان الرقمين هما ٤٩٤ و ٤٩٥ وقد اثبتنا اعلاه النص العربي للمقاطع المأخوذة من هذا الخطاب على علاتها كما عربتها (الشرق) حرفياً .

(٢) لم تشترك ايطالية في الواقع باتفاق عام ١٩١٦ ولم تعلمها الدول الثلاث الاخرى بوجوده وما تقدمت الحكومة الايطالية بطلب حصة لها في آسية الصغرى الا في ربيع عام ١٩١٧ حين افتضح امر هذا الاتفاق فاعترفت لها كل من فرنسة وبريطانية رسمياً بهذا الحق في مؤتمر سان جان دوموريين .

الشريف وعصيانه فاذا كانوا اليوم اصبحوا امام القدس فذلك نتيجة عصيان الشريف حسين في مكة .

« لو لم يكن الاستقلال الذي وعد به الانكليز الشريف حسين باشا سراباً خادعاً او لو كان امل الاستقلال والسلطنة الذي يحلم به الشريف حسين باشا ممكن الحصول ولو امكاناً بعيداً لأمكنني ان أرى في عصيان الحجاز ذرة من التعقل ولكن سرعان ماصرح الانكليز بمرادهم ... وعليه فالشريف حسين باشا بنفسه فضلاً عن تسببه بوصول الاعداء الى امام قلعة القدس سيشعر بالتعاسة التي جلبها لنفسه بابدال شرف الامارة الممنوح له من الخلافة الاسلامية بالعبودية للانكليز . . .

«بعثت اخيراً الى الشريف حسين باشا كتاباً صورت له فيه هذه الحقائق وافهمته حرج مركزه الحاضر وخطره فاذا كان مسلماً حقيقياً وكان جامعاً لمزايا العرب وخصائلها واحساساتها يقلب للأنكليز ظهر المجن ويؤول راجعاً الى خليفة الاسلام والمسلمين . انني قد قمت بواجباتي الدينية راجياً من الله جل وعلا أن يلهمه طريق الرشد والصواب والهداية . فان لم يرجع فالويل له ! . . . »

القى جمال الخطاب بالتركية واعقبه مفتي الجيش الرابع بتلاوة ترجمة عربية دقيقة عنه وقد اوعز الى جميع الصحف في سورية بنشر نص الخطاب كاملاً وارسلت بعض النسخ الى المدينة وهربت منها الى مكة . لقد دل الخطاب على ان الترك كانوا يتوقعون نجاح عروضهم نجاحاً فائقاً وقد أيدت شهادات بعض المعاصرين هذا البرهان .

— ٦ —

لم يرسل فيصل جواباً ولكنه اكتفى بارسال الرسالتين الى أبيه على جناح السرعة اما الحسين فقد اقلقته الرسالتان ولكنه رفض الاتصال بالعدو رفضاً باتاً وطلب الى فيصل ان يسطر الى جمال رداً مختصراً وجافاً يبلغه هذا الرفض ثم بعث بجميع هذه المراسلات الى المندوب السامي في مصر مع رجائه تفسير الاتفاق السري الذي أشار اليه جمال .

شعر ونبغيت بحرج شديد فاحال الامر الى وزارة الخارجية، وكانت هذه فرصة سانحة امام الحكومة البريطانية للتخلص من موقف زائف بمبادلة الحسين اخلاصاً باخلاص وهذا امر سهل ولكنها أضاعت الفرصة ولم تفعل شيئاً سوى ابراق نص رسالة موجهة من وزير الخارجية المستر بلفور الى الملك حسين لاتوصف الا بانها قطعة من التضليل المقصود اذ لم تعترف بصحة ماذيع في بتروغراد ولا انكرته بل البست الاتفاق ثوباً كاذباً في حقيقته ومداه واشارت على الحسين بان يعد نسخة الاتفاق التي ارسلها له جمال مثالاً جديداً للدسائس التركية. فبعث ونبغيت ببرقية الى الحسين ضمنها هذه الرسالة ثم اعقبها مذكرة رسمية رفعها المعتمد البريطاني في جدة الى ملك الحجاز.

تضمنت برقية ونبغيت مايلي :

« لاتمثل الوثائق التي وجدها البلشفيك في وزارة الخارجية في بتروغراد اتفاقاتم عقده بالفعل بل هي سجل لمذاكرات ومباحثات موقتة بين بريطانية العظمى وفرنسة وروسية جرت في الايام الاولى للحرب وقبل الثورة العربية ويقصد منها تجنب الصعوبات بين الدول في حربها مع تركية.

« لقد شوه جمال صورة التفاهم الاصلية بين الدول واهمل مانصت عليه من لزوم الحصول على موافقة السكان ذوي الشأن وصيانة مصالحهم ولا ندري هل فعل ذلك عن جهل ام عن خبث وقد اهمل كذلك ماعقب تاريخ تلك الوثائق من قيام الثورة العربية ونجاحها الباهر ثم انسحاب روسية وقد اوجد ذلك كله موقفاً جديداً مختلفاً تمام الاختلاف ».

أما المذكرة المؤرخة في ٨ فبراير عام ١٩١٨ فقد اثبتنا نصها الاصلي كما تلقاه الحسين في الملحق (ج) وهي تبدأ بالثناء على الملك العربي لامانته في اطلاع حلفائه على عروض الصلح التي قدمت له ولحكمته في رفضها ولكنها لاتذكر اتفاق عام ١٩١٦ الذي خلق للترك مناسبة لعرض الصلح بل تحاول بعث الطمأنينة في نفس

الحسين بوصف العرض التركي بانه دسيسة تركية غايتها اثارة النفور بين العرب والحلفاء. وتختتم المذكرة بتجديد بريطانية تعهدها السابق بشكل أكيد لالبس فيه ، وهو تعهدها بان تقف الى جانب العرب في نضالهم من اجل الحرية وان تساعدهم في الحصول على تلك الحرية .

ان الوقائع التي عرفت فيما بعد تجعل الرسالة التي بعثت باسم المستر بلفور وثيقة خزي وعار . لقد اثارت عروض الترك الشكوك في ذهن الحسين ولما اراد الاستيثاق من الامر سلك السبيل الوحيد الذي يسلكه الرجل الشريف فوضع تلك العروض امام حلفائه فقصدوا تضليله في جوابهم لا بتجنبهم التعرض للموضوع الاساسي فحسب ، وهو هل عقد الحلفاء اتفاقات سرية تعين مصير البلاد في المستقبل ام لم يعقدوها ، بل ايضاً بلجوئهم الى عبارات يفهم منها ان اتفاقات كهذه لم تعقد البتة فصدق الحسين هذه الرساله الماكرة وأخذها على ظاهرها فتبددت مخاوفه . وما فعل ذلك إلا لأن ايمانه بالعدالة البريطانية لم يكن قد تزعزع حتى ذلك الحين .

— ٧ —

تم خلال هذه المدة تعهد الحكومة البريطانية بالتزام جديد يناقض التزامها السابق للعرب وذلك بعد مفاوضات حثيثة دامت عدداً من الشهور مع الزعماء اليهود في انكلترة . اما هذا الالتزام فهو وعد بلفور المشهور وفيما يلي وصف مختصر للشكل الذي منح فيه .

عملت جماعة من الزعماء الصهيونيين على الفوز بعطف الحكومة البريطانية على قضيتهم بعد اعلان الحرب بقليل وكانت جهود الصهيونية حتى ذلك الحين موجهة نحو حمل حكام تركية باساليب شتى على السماح للاستعمار اليهودي بالتوسع في فلسطين ولكنهم لم يلقوا نجاحاً اذ أثبط عبد الحميد عزائمهم بصراحة ثم أتى رجال تركية الفتاة فكانوا ميالين في أول الامر الى الاصغاء لمطالب الصهيونيين بفضل نفوذ اليهود

القوي في داخل جمعية الاتحاد والترقي ولكنهم ما لبثوا ان وجدوا بان الحكمة تقضي برد تلك المطالب ولا سيما بعد المشادة العنيفة التي جرت في البرلمان العثماني في ربيع عام ١٩١٢ حين احتج المبعوثون العرب على تملك اليهود لمساحات كبيرة من الاراضي الزراعية الواقعة في مرج ابن عامر وما يؤدي اليه من نزوح الفلاحين العرب وفي بدء الحرب كانت برلين مركزاً للنشاط الصهيوني فلما دخلت تركية الحرب الى جانب الدول الوسطى رأى الزعماء الصهيونيون في تنمية الصلة بالحلفاء مصلحة لهم حتى اذا ما ادت الحرب الى انهيار المملكة العثمانية وجدت القضية آذاناً صاغية .

لم تكن المهمة التي نهض بها زعماء الصهيونية في انكلترة وعلى رأسهم الدكتور حايم وايزمن سهلة لأن اكثر اليهود الانكليز ذوي النفوذ وقفوا من الصهيونية ، او بالأصح من الفكرة القومية التي ينطوي عليها المذهب الصهيوني السياسي ، موقف المعارضة . وكان للصهيونية نصيران قويان خارج الدوائر اليهودية وهما المستر سكوت رئيس تحرير جريدة (مانشستر غارديان) والمستر بلفور ولم تحظ بتأييد أشخاص آخرين من ذوي المكانة الى أن أعرب المستر لويدجورج عن استعداده لسند الحركة فوراً حين فاتحه وايزمن في الأمر وبعد ذلك بذلت المساعي للظفر بتأييد الوزارة فتباحث المستر (وهو الآن اللورد) هربرت صموئيل في الموضوع مع رئيس الوزارة وبعض زملائه في وزارة اسكويث فلم تقترن هذه المساعي بنتيجة إيجابية لأن المستر اسكويث لم يكن ميالاً الى تأييد القضية (١) ولكن

(١) ايد المستر هربرت صموئيل مساعيه بمذكرة طالب فيها بالحاح ان تستلحق بريطانية العظمى فلسطين لكي تعدها لاقامة عدد من اليهود يتراوح بين ثلاثة ملايين وأربعة ولم « تجذب » هذه المقترحات المستر اسكويث على حد تعبيره هو. وقد كتب بعد عشر سنوات على اثر زيارة قام بها لفلسطين فقال : «ما زلت أعتقد الآن الشيء الذي اعتقدته دوماً وهو أن التحدث في موضوع جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود هو وهم من الأوهام » — من كتابه (ذكريات وتأملات) — الجزء الثاني (١٩٢٨) .

بعد مضي سنتين تقريباً عند ما خلف لويد جورج اسكويث في رئاسة الوزارة وتولى بلفوروزارة الخارجية جرت مفاوضات للمرة الأولى بين الزعماء الصهيونيين وبين مندوب معتمد من الحكومة .

لقدوقعت قبل ذلك العهد أمور كثيرة كان من شأنها أن تغل يد الحكومة البريطانية وتجعلها غير حرة في اتخاذ أي قرار يمس مستقبل فلسطين وكان أول هذه الامور تلك الصفقة التي عقدتها بريطانية مع الحسين في عام ١٩١٥ وتعهدت فيها بالاعتراف بدولة عربية مستقلة في منطقة تضم فلسطين كما رأينا ، كما تعهدت بتأييدها. ومن هذه الأمور أيضاً اتفاق سايكس بيكو الذي نص على اخضاع البلاد المقدسة الى نوع من الادارة الدولية يشترك في وضعه فرنسة وروسية والحلفاء الآخرون ومعهم الحسين. ومن جهة ثالثة فقد كان تخاصم الصهيونيين في مساعيهم قسم متنفذ من اليهود الانكليز وقد بلغت هذه الخصومة حداً حملهم على اعلان رأيهم النهائي وهو معارضة انشاء الدولة اليهودية التي يدعو اليها الصهيونيون . وقد شرع هؤلاء المعارضون بحملة قادتها (لجنة مندوبي اليهود البريطانيين) و (الاتحاد الانكليزي اليهودي) وهما الهيئتان اللتان تمثلان يهود انكلترة احسن تمثيل وكان هدف الحملة اقناع الحكومة بعدم تحقيق رغبات الصهيونيين (١) وكان للهيئتين المذكورتين صوت قوي يؤيدهما في الوزارة نفسها وهو صوت المرحوم ادوين مونتاغو الذي كان يشغل منصب وزير الهند .

على أن هذه العقبات لم تثن المستر لويد جورج عن عزمه فكلف سايكس بمفاوضة الصهيونيين . أما غايته من هذه الرغبة في التفاهم مع زعماء الصهيونيين، واما

(١) اذا اراد القارئ الاطلاع على تفاصيل اوفى من ذلك فليراجع التقارير التي رفعتها الهيئة التنفيذية للجمعية الصهيونية الى المؤتمر الصهيوني الثاني عشر — الجزء الاول : التقرير السياسي (مطبعة العمال القومية — لندن — عام ١٩٢١) وقد اعتمدناها في الحصول على مواد هذا الباب .

العوامل التي حملت الحكومة البريطانية بالنتيجة على اصدار وعد بلفور، فقد اكتنف تفسيرها ضباب كثيف من الخرافة والدعاية حجب حقيقتها. ومن جملة الشائعات مثلا ان اليهود بذلوا نفوذهم السياسي والاقتصادي لادخال الولايات المتحدة في الحرب الى جانب الحلفاء وان وعد بلفور كان مكافأة لهم على هذه الخدمات الفعلية. ولكن كل ما انتشر من البراهين يدل على فساد هذه الشائعة ولا يبقى على المرء الا ان يستنتج انها لا تستند الى اساس من الصحة او انها اذا صحت فهي تعني ان خدمات اليهودية العالمية كانت خفية الى حد انها حتى الآن لم تلفت نظر المؤرخين الذين بحثوا قضية التدخل الامريكي. ومن الشائع ايضاً ان وعد بلفور صدر لقاء وعود تعهد اصحابها فيها بتقديم اعانات كبيرة يعد بها اليهود القرض الحربي وهذه الشائعة فاسدة ايضاً لان ما يمكن جمعه من الادلة على هذا الامر قليل وجزئي ولا قيمة له ولئن دل على شيء فهو ان اكبر عدد من سندات القرض الحربي التي ذهبت الى يد يهودية هو تلك التي اشتراها اليهود المعارضون للسياسة التي انتهجها وعد بلفور. ومن الخرافات التي تحيط بهذا الموضوع أيضاً أن الحكومة البريطانية أعطت الوعد رغبة منها في مكافأة الدكتور وايزمن على اختراعه نوعاً جديداً من المواد المتفجرة وفي وقت الحاجة اليها.

وواقع الامر ان العوامل التي دفعت بالحكومة البريطانية الى السير في سياستها اليهودية يمكن ارجاعها الى أصلين: الاول سياسي وهدفه استمالة العناصر الصهيونية الهامة في المانية والنمسة التي كانت تفاوض الدول الوسطى بالفعل للحصول على وعد من تركية مماثل لوعد بلفور فينصرف هم تلك العناصر الى الاهتمام الايجابي بظفر الحلفاء، ويستهدف هذا العامل في الوقت نفسه التخفيف من حدة عداء اليهود نحو روسية في بلاد الحلفاء وتزويد اولئك اليهود الذين عملوا بنشاط على قلب النظام القيصري بما يغريهم بالعمل على ابقاء روسية في الحرب. وأما الاصل الثاني فهو ذو علاقة بالمصلحة الامبراطورية ويرمي الى تحقيق الغاية التي كان كتشنر اول من

دعا اليها وهي جعل فلسطين أو جزء منها حصناً يحمي مركز بريطانية في مصر ويؤمن الاتصال البري مع الشرق . ان هذا هو الدافع الرئيسي ، ولا شك انه كان بمفرده كافياً لحمل الحكومة البريطانية على اصدار وعد بلفور مهما كان الدور الذي لعبته العوامل الاخرى المالية والسياسية والدينية والانسانية ومما لاشك فيه ، وهذه فرضية صحيحة ، ان الحكومة البريطانية لو لم تتفق مع الصهيونيين لبذلت أقصى جهدها لعقد اي اتفاق آخر يضمن استيلاء بريطانية العظمى على فلسطين كحصة لها من أسلاب الحرب .

ومع تقدم الحرب توضحت قيمة فلسطين للامبراطورية البريطانية وذلك بالدرجة الاولى لمجاورتها مصر التي تفصلها عنها شبه جزيرة سيناء وهي منطقة تكاد تكون صحراوية بكاملها . كان من القواعد الثابتة في العلوم العسكرية قبل الحرب ان الصحراء تشكل حداً منيعاً ولهذا ، ولما كانت الحدود التركية المصرية تمتد على طول الطرف الشرقي لصحراء سيناء ، فقد اعتبرت مصر امينة من الغزو . ولكن تجارب الحرب زعزعت هذا الاعتقاد من أصله ففي عام ١٩١٥ اجتازت الصحراء قوة تركية كبيرة مجهزة تجهيزاً حسناً فبلغت ضفة قناة السويس وفي الصيف الذي أعقب ذلك عبر موراي سيناء على رأس جيش كبير وقام أثناء تقدمه ببناء خط حديدي وأنبوب للنفط حتى احتل العريش وكان على وشك مهاجمة غزة فلم تعد القاعدة القديمة لتستقيم بعد أن فتح العلم الحديث أبواب الصحراء وأثبت أن قناة السويس لم تكن أمينة من الغزو بحيث تظل بريطانية قلقة ولو بقيت تركية هي المسيطرة على فلسطين . أما الآن وقد طالبت فرنسة بسورية كمنطقة خاصة بها وأوضحت بشكل لا يقبل الشك انها تعد فلسطين داخلة في تلك المنطقة فقد أصبح من المتحتم على بريطانية العظمى ، في سبيل سلامتها إن لم يكن لسبب آخر ، أن تقيم سداً منيعاً بين موقعها في قناة السويس وموقع فرنسة المستقبل في سورية على أن يكون هذا السد أكثر متانة من

المنطقة الدولية التي أوجدها اتفاق سايكس بيكو ، وإذا أمكن فليكن سدا بريطانياً . لهذا السبب ظهر إلى الوجود وعد بلفور الذي مهد السبيل أمام بريطانية بعد تحقيق النصر للمطالبة بأن تكون فلسطين من حصتها لكي تتمكن من تنفيذ الوعد الذي قطعته لليهود رسمياً وتعهدت فيه بأن تنشيء لهم وطناً قومياً في فلسطين .

— ٨ —

كان أول واجب يترتب على الحكومة البريطانية هو التأكد من ترحيب الصهيونيين بقيام حكم بريطاني في فلسطين وتأييدهم الفعلي لبريطانية في تحقيقه فيما إذا أصدرت تصريحاً من جانبها في صالح الأماني الصهيونية فلما أتى المستر لويد جورج إلى الحكم في ديسمبر عام ١٩١٦ كان هناك مشروع أعده زعماء الحركة الصهيونية يحوي برنامجاً لادارة فلسطين في حالة انتصار الحلفاء مفترضاً قيام إدارة فرنسية أو بريطانية أو مشتركة بينهما في تلك البلاد بعد الحرب . ولم يكن الزعماء الصهيونيون على علم بوجود اتفاق سايكس بيكو آنئذ ولكنهم توقعوا أن تنجح فرنسة في الحصول على فلسطين كجزء من سورية فلم يحز هذا المشروع قبولاً عند المستر لويد جورج لأنه يضع الفرنسيين والانكليز على قدم المساواة في حكم فلسطين في المستقبل فأدرك الزعماء الصهيونيون ، على أثر محادثات تمهيدية قامت بينهم وبين رجال الحكومة البريطانية ، رغبة هؤلاء وقرروا حالاً حذف اسم فرنسة تماماً من المشروع وتوجيه تفكيرهم نحو إقامة حكم بريطاني في فلسطين . وفي تلك الفترة كلف المستر لويد جورج السير مارك سايكس بالدخول في مفاوضات مع الصهيونيين فعقد أول مؤتمر بينهما يوم ٧ فبراير عام ١٩١٧ في لندن وفيه قدم الزعماء الصهيونيون لسايكس تأكيداً رسمياً بأنهم يعترضون بشدة على إقامة إدارة دولية في البلاد المقدسة مهما كان نوعها حتى ولو كانت إدارة مشتركة بين بريطانية وفرنسة وحدهما

وانهم سيعملون من الآن فصاعداً على وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية إذا أيدتهم بريطانية في تحقيق أمانيهم القومية . هذا هو أساس الصفقة التي أدت الى إصدار وعد بلفور بعد تسعة شهور حين ذاع بين الناس أن المستر لويدجورج وزملاءه قدموا للعالم دليلاً جديداً على المثل العليا الانسانية التي يعتنقونها بتبنيهم قضية اليهود المضطهدين بجرأة .

صدرت في السنوات الأخيرة تصريحات عن المستر لويدجورج والدكتور وايزمن غايتها تصوير العوامل التي أدت إلى صدور وعد بلفور بغير صورتها التي وصفناها أعلاه فقد قال الدكتور وايزمن في خطاب ألقاه في المعهد الملكي للشئون الدولية في لندن يوم ٩ يونيو عام ١٩٣٦ :

« إن القول الذي ردد كثيراً بأن وعد بلفور صدر . . . لأسباب استعمارية ولغيرها من الأسباب الحقيرة هو قول مكذوب وأعتقد أن حقيقة واحدة تستطيع محو هذه الخرافة وهي أن الحكومة البريطانية عندما وافقت على إصدار وعد بلفور المشهور وضعت شرطاً واحداً : أن لا تلقى مهمة حكم فلسطين على كاهل بريطانية العظمى » .

لا يتفق هذا التصريح مع الواقع ولا مع التقرير الذي نشرته عام ١٩٢١ الهيئة التنفيذية للجمعية الصهيونية وقالت فيه إن الاعتبارات الناشئة عما لفلسطين من قيمة للامبراطورية كمركز حربي هي التي أثرت في توجيه الاشخاص المسئولين عن إصدار وعد بلفور وإن الزعماء الصهيونيين وضحوا لسايكس في أول اجتماع رسمي لهم معه أن هدفهم الأول بسط الحماية البريطانية على فلسطين وكان الدكتور وايزمن حاضراً ذلك الاجتماع . ويتناقض تصريحه كذلك مع ما نشره اسكويث من وصف للمساعي التي بذلت معه عندما كان رئيساً للوزارة في أوائل عام ١٩١٥ ، ومن هذه المساعي التي سبقت الاشارة اليها ، المذكرة التي رفعها المستر هربرت صموئيل طالباً أن تستلحق بريطانية العظمي فلسطين

لتسكن فيها عدداً من اليهود يتراوح بين ثلاثة ملايين وأربعة وكان هـذا الاقتراح الذي رفضه المستر اسكويث قد سبق له أن لاقى قبولاً حسناً عند المستر لويد جورج وفيما يلي نص ما كتبه اسكويث في مذكراته ليوم ١٣ مارس عام ١٩١٥ :

« ... سبق لي أن أشرت إلى مذكرة هربرت صموئيل التي تشبه في حماسها وتطرفها أناشيد قدماء اليونان في تمجيد باخوس وهو يطالب فيها بان نأخذ نحن فلسطين عند توزيع مخلفات الترك في آسية وذلك لكي تعود اليها مع مرور الأيام جموع اليهود المتدفقة من كافة أنحاء العالم الذي بعثرت فيه على أن يتمتعوا بالحكم الذاتي عندما يحين الوقت الملائم . ومن العجيب انهذا الاقتراح لم يجد من يؤيده سوى المستر لويد جورج الذي لا احتاج أن اؤكد بانه لا يكترث باليهود بتاتاً ولا بماضيهم ولا بمستقبلهم ولكنه يعتقد ان العار يلمس بريطانية اذا هي سمحت لفرنسة ، حيث تسود الفلسفة المادية واللادينية ، بالاستيلاء على الأماكن المقدسة أو بسط حمايتها عليها (١) » .

كان من المقرر أن يصدر وعد بلفور قبل تاريخ صدوره الفعلي لو لم تلاقه بعض العقبات السياسية ومنها معارضة اليهود غير الصهيونيين الذين أقلقتهم كثيراً الأفكار القومية التي تنطوي عليها عقائد الصهيونية السياسية فأعلنوا معارضتهم في بيان يلفت النظر بما امتاز به من صدق في اللهجة ونفوذ في البصر أيدته الأيام . وقد نشر البيان في عدد ٢٤ مايس عام ١٩١٧ من جريدة (التايمز) مذيلاً بتوقيع دافيد الكساندر رئيس (لجنة مندوبي اليهود البريطانيين) وتوقيع كلود مونتيفيوري رئيس (الاتحاد الانكليزي اليهودي) فأكدا فيه تعلقهما

(١) اللورد اكسفورد واسكويث في كتابه (ذكريات وتأملات) — عام ١٩٢٨ .

بالصهيونية من ناحيتها الفكرية التي ترمي إلى جعل فلسطين مركزاً روحياً قد تجد فيه العبقرية اليهودية مجالاً للنمو بالشكل الذي يلائمها ، وأعلنا احتجاجها الشديد والصادق على الصهيونية السياسية وغايتها : الاعتراف بأن المستعمرات اليهودية في فلسطين تشكل مجموعة قومية بالمعنى السياسي ، ومنح اليهود المقيمين في تلك المستعمرات بعض الحقوق على أساس من الامتياز السياسي والتفضيل الاقتصادي ؛ وتنبأ بأن انشاء قومية يهودية في فلسطين سيؤدي حتماً « الى اعطاء اليهود في جميع أنحاء العالم صفة الغرباء في ديارهم وإلى تهديد مركزهم الذي فازوا به بعد جهاد طويل كمواطنين ورعايا في تلك البلاد » . وقد دلت الوقائع فيما بعد على صحة هذه المخاوف اذ لا يمكن انكار ان نمو الصهيونية بعد الحرب كان من أكبر العوامل النفسية المؤثرة في نمو اللاسامية المؤسف .

ومن العقبات التي جابهت وعد بلفور تردد الحكومة الفرنسية في التنازل عما ادعته لنفسها من حقوق في فلسطين فقد كانت هناك جماعات فرنسية ، ذات نفوذ متغلغل في حياة بلادها السياسية وفي دوائرها التجارية والمالية وفي عالمها الكهنوتي ، تنفر من أي اقتراح غايته اخراج فلسطين من دائرة النفوذ الفرنسي فكان من الصعب على الحكومة الفرنسية وعلى رأسها رجل شديد الحرص كالمسيو ريبو أن تقبل باقتراح كهذا ، الأمر الذي حمل الحكومة البريطانية وزعماء الصهيونية على السير بيقظة متناهية فرسموا خطتهم وراحوا ينفذونها على مراحل . وكانت المرحلة الأولى الحصول على قبول الحكومة الفرنسية بمبدأ إنشاء الوطن الصهيوني في فلسطين دون التعرض بصورة صريحة إلى ذكر صاحب السيادة المستقبلة فيها ، فلما جرى الاتصال الأول تبين ان موقف الحكومة الفرنسية لا يشجع بتاتاً . وفي ذلك الوقت سمع زعماء الصهيونية للمرة الأولى وعن طريق الصدفة بوجود اتفاق سايكس بيكو وما يتضمنه من اقامة ادارة دولية في فلسطين فشعروا بأنهم ذهبوا ضحية الخداع واحتجوا بشدة لدى

الحكومة البريطانية ولكن الظاهر أنها توصلت إلى إرضائهم بدليل ان المفاوضات استمرت كأن اتفاق سايكس بيكو لم يكن في الوجود .

وأخيراً وبعد مفاوضات طويلة قبلت الحكومة الفرنسية بأن يصدر تصريح في صالح الصهيونية. وفي الولايات المتحدة سخر القاضي برانديس نفوذه في البيت الابيض بمهارة تامة حتى حصل على موافقة الرئيس ويلسون على نص هذا التصريح . وقد تعرقل سير المفاوضات في فترة من الفترات بسبب انقسام الرأي بين الوزراء البريطانيين وبسبب المعارضة العنيفة التي ابداها ادوين مونتاغو للفكرة وهو اليهودي الوحيد في الوزارة . وكان هناك أيضاً اختلاف اساسي في الرأي حول الشكل الذي سيتخذه الوطن اليهودي في المستقبل فكان الصهيونيون يطالبون ببيان يوضح سياسة الحكومة في قبول مبدأ « الاعتراف بفلسطين كوطن قومي للشعب اليهودي » ولكن الحكومة البريطانية التي لم تشأ ان تلزم نفسها بتعهد متطرف الى هذا الحد رفضت ان تعد بشيء اكثر من النظر بعين الارتياح « الى انشاء وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي » والفارق بين الفكرتين هو الفارق بين وطن قومي يهودي محدود في فلسطين ووطن قومي غير محدود . وأخيراً قبل الصهيونيون بالامر ووافقوا على صيغة التصريح النهائية وهي :

« ان حكومة جلالته لتنظر بعين الارتياح الى انشاء وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي وستبذل اطيب مساعيها لتسهيل بلوغ هذه الغاية. وليكن معلوماً بجلاء انه لن يعمل شيء من شأنه ان يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين او بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر والمركز السياسي الذي حصلوا عليه فيه » .

صدر هذا التصريح الذي اشتهر باسم (وعد بلفور) عن وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٢ نوفمبر عام ١٩١٧ وأذيع على الجمهور بعد يومين أي بعد مرور

عامين على صدور مذكرة مكماهون المؤرخة في ٢٤ اكتوبر عام ١٩١٤ وثمانية عشر شهراً على نشوب الثورة العربية حين انضم الشريف حسين علناً الى صف الحلفاء معتمداً على عهود بريطانية بتأييد استقلال العرب ، تلك العهود التي قامت جميع البراهين الموجودة لديه على انها تشمل فلسطين .

— ٩ —

اثار وعد بلفور حيرة وفزعاً يائساً في البلاد العربية المتصلة بالحلفاء اتصالاً مباشراً وحتى بين اولئك الذين كانوا يجهلون حقيقة تعهدات بريطانية للعرب ففسر الوعد على انه انكار لحرية العرب السياسية في فلسطين . كانت مصر اول من تلقى النبأ فثارت فيها عاصفة من الاحتجاج على لسان الزعماء العرب المجتمعين في القاهرة فاضطرت السلطات البريطانية فيها الى بذل الجهود مدة من الزمن بمساعدة الرقابة الصارمة والدعاية الفعالة لتبديد مخاوف العرب والحيلولة دون توقف الثورة العربية وقد حاولت القيادة البريطانية اخفاء النبأ في أجزاء فلسطين التي احتلتها كأن ضميرها انبها على تلك الفعلة .

قلق الحسين كثيراً حين تلقى النبأ وطلب تفسيراً لمعنى الوعد ومداه فلبي طلبه بايفاد القائد هوغارث (١) احد رؤساء المكتب العربي في القاهرة الذي وصل الى جدة في الاسبوع الاول من يناير عام ١٩١٨ فجرت له مقابلتان مع الملك .

ابلغ هوغارث الحسين رسالته فاطمأن باله تماما وهذا امر هام لما له من صلة بقوة الثورة المعنوية ويساويه في الاهمية من وجهة نظر المؤرخ ان تلك الرسالة التي ابلغها للملك باسم الحكومة البريطانية حوت تأكيداً صريحاً ه بانه لن يسمح باسكان

---

(١) وهو المرحوم دافيد جورج هوغارث العالم البحاثة والمتخصص بالآثار الذي كان في وقت من الاوقات اميناً لمتحف (اشموليان) وكان في عصره من اكبر الثقاة في التاريخ العربي .

اليهود في فلسطين الا بالقدر الذي يتفق مع (حرية السكان العرب السياسية والاقتصادية») . بلغت هذه الرسالة شفوياً ولكن الحسين [١] دونها فوراً بالعربية ومن الواضح ان الجزء الاخير منها وهو الذي اثبتناه بين قوسين يختلف عن نص وعد بلفور اختلافاً اساسيا لان هذا الاخير لايضمن سوى (الحقوق المدنية والدينية) التي يتمتع بها السكان العرب والفرق بين العبارتين هو الفرق بين التعاون السلمي القائم على رضاء الطرفين ، اليهود والعرب ، في فلسطين وبين النزاع الرهيب الذي امتد خلال العشرين سنة الاخيرة . اذ لا يشك مطلقاً في ان وعد بلفور لو حفظ بالفعل حرية العرب السياسية والاقتصادية كما اكد هوغارث رسمياً للحسين لما عارضه العرب ولرحبوا باسكان اليهود في فلسطين اذا تم على مقياس معتدل ولدوافع انسانية .

كان الحسين صريحاً جداً في جوابه اذ ابلغ هوغارث ان وعد بلفور اذا كان يستهدف ايجاد ملجأ لليهود من الاضطهاد فانه يبذل كل نفوذه لتحقيق هذه الغاية كما انه يقبل باي تدبير ملائم يضمن للطوائف المختلفة التي لها اماكن مقدسة في فلسطين حقوقها فيها واشرافها عليها ولكنه أوضح بشكل لا يقبل الشك انه لن يتنازل عن حق العرب في السيادة وان كان يقبل عن رضى بالتفكير باتخاذ التدابير المقتضاة في الوقت المناسب لتزويد الحكومة العربية العتيدة في سورية (وبضمنها فلسطين)بالخبراء الاداريين والفنيين .

أقام الحسين الدليل خلال الشهور المقبلة على اخلاصه في موقفه اذ ارسل الرسل الى أنصاره في مصر وبين قوات الثورة يعلمهم بان الحكومة البريطانية اكدت له ان اسكان اليهود في فلسطين لن يتعارض مع استقلال العرب فيها ويحثهم على الثبات في ايمانهم بصدق بريطانية في تحقيق وعدها وبصدق عزائمهم هم في الفوز بحريتهم .

---

(١) وقد اطلع عليها المؤلف بنفسه .

وامر أولاده ببذل المساعي الممكنة لتبديد المخاوف التي ولدها وعد بلفور في نفوس اتباعهم كما ارسل رسولا الى فيصل في العقبة مزوداً بتعليمات مماثلة. واوعز بكتابة مقالة في الصحيفة (١) التي كانت لسان حاله الرسمي يذكر السكان العرب في فلسطين بان كتبهم المقدسة وتقاليدهم تفرض عليهم القيام بواجب الضيافة والتسامح ويحثهم على الترحيب باليهود كاخوان لهم يتعاونون معهم لتحقيق صالحهم المشترك. ويظن ان الحسين كتب هذا المقال بنفسه وهو مقال له قيمته التاريخية لا لأنه يحوي البرهان على بعد الحسين عن التحامل والتعصب الديني فحسب بل أيضاً لانه يوضح موقف العرب من القضيـة اليهودية بصورة عامة قبل ظهور الصهيونية السياسية على المسرح .

لاقت المساعي التي بذلتها السلطات البريطانية لصرف الأذهان عن التفكير بما انطوى عليه وعد بلفور من معان سياسية بعض النجاح في مصر ، وفي شهر مارس وصلت القاهرة لجنة صهيونية برئاسة الدكتور وايزمن وهي في طريقها الى فلسطين فبذلت جهوداً كبيرة لتبديد مخاوف العرب . من ذلك ان الدكتور وايزمن الذي يمتاز بمقدرته العظيمة على الاقناع اجتمع الى عدد من رجال العرب فلاقى بينهم نجاحاً موقتاً وكان المقدم (الميجر) اورمزبي غور (٢) يساعده في ذلك باقتدار واندفاع وكان مرافقاً للجنة كضابط سياسي موفد من وزارة الخارجية فكان للوصف المطمئن الذي وصفا به اهداف الصهيونية وميولها اثر في ازالة مخاوف سامعيها والحصول على موافقتهم على فكرة التعاون بين الصهيونيين والعرب ، فنظمت اجتماعات التقى فيها زعماء العرب بزعماء الصهيونية ، وقد اثرت تأكيدات وايزمن

(١) جريدة (القبلة) في عددها رقم ١٨٣ الصادر في ٢٣ مارس عام ١٩١٨
(٢) وهو الآن اللورد هارليك

اليهود في فلسطين الا بالقدر الذي يتفق مع (حرية السكان العرب السياسية والاقتصادية ») . بلغت هذه الرسالة شفوياً ولكن الحسين [١] دونها فوراً بالعربية ومن الواضح ان الجزء الاخير منها وهو الذي اثبتناه بين قوسين يختلف عن نص وعد بلفور اختلافاً اساسياً لان هذا الاخير لايضمن سوى (الحقوق المدنية والدينية) التي يتمتع بها السكان العرب والفرق بين العبارتين هو الفرق بين التعاون السلمي القائم على رضاء الطرفين ، اليهود والعرب ، في فلسطين وبين النزاع الرهيب الذي امتد خلال العشرين سنة الاخيرة . اذ لا يشك مطلقاً في ان وعد بلفور لو حفظ بالفعل حرية العرب السياسية والاقتصادية كما اكد هوغارث رسمياً للحسين لما عارضه العرب ولرحبوا باسكان اليهود في فلسطين اذا تم على مقياس معتدل ولدوافع انسانية .

كان الحسين صريحاً جداً في جوابه اذ ابلغ هوغارث ان وعد بلفور اذا كان يستهدف ايجاد ملجأ لليهود من الاضطهاد فانه يبذل كل نفوذه لتحقيق هذه الغاية كما انه يقبل باي تدبير ملائم يضمن للطوائف المختلفة التي لها اماكن مقدسة في فلسطين حقوقها فيها واشرافها عليها ولكنه أوضح بشكل لا يقبل الشك انه لن يتنازل عن حق العرب في السيادة وان كان يقبل عن رضى بالتفكير باتخاذ التدابير المقتضاة في الوقت المناسب لتزويد الحكومة العربية العتيدة في سورية (وبضمنها فلسطين) بالخبراء الاداريين والفنيين .

أقام الحسين الدليل خلال الشهور المقبلة على اخلاصه في موقفه اذ ارسل الرسل الى أنصاره في مصر وبين قوات الثورة يعلمهم بان الحكومة البريطانية اكدت له ان اسكان اليهود في فلسطين لن يتعارض مع استقلال العرب فيها ويحثهم على الثبات في ايمانهم بصدق بريطانية في تحقيق وعدها وبصدق عزائمهم هم في الفوز بحريتهم .

---

(١) وقد اطلع عليها المؤلف بنفسه .

وامر أولاده ببذل المساعي الممكنة لتبديد المخاوف التي ولدها وعد بلفور في نفوس اتباعهم كما ارسل رسولا الى فيصل في العقبة مزوداً بتعليمات مماثلة . واوعز بكتابة مقالة في الصحيفة (١) التي كانت لسان حاله الرسمي يذكر السكان العرب في فلسطين بان كتبهم المقدسة وتقاليدهم تفرض عليهم القيام بواجب الضيافة والتسامح ويحثهم على الترحيب باليهود كاخوان لهم يتعاونون معهم لتحقيق صالحهم المشترك . ويظن ان الحسين كتب هذا المقال بنفسه وهو مقال له قيمته التاريخية لا لأنه يحوي البرهان على بعد الحسين عن التحامل والتعصب الديني فحسب بل أيضاً لانه يوضح موقف العرب من القضيـة اليهودية بصورة عامة قبـل ظهور الصهيونية السيـاسية على المسرح .

لاقت المساعي التي بذلتها السلطات البريطانية لصرف الأذهان عن التفكير بما انطوى عليه وعد بلفور من معان سياسية بعض النجـاح في مصر ، وفي شهر مارس وصلت القاهرة لجنة صهيونية برئاسة الدكتور وايزمن وهي في طريقها الى فلسطين فبذلت جهوداً كبيرة لتبديد مخاوف العرب . من ذلك ان الدكتور وايزمن الذي يمتاز بمقدرته العظيمة على الاقناع اجتمع الى عدد من رجال العرب فلاقى بينهم نجاحاً موقتاً وكان المقدم (الميجر) اورمزبي غور (٢) يساعده في ذلك باقتدار واندفاع وكان مرافقاً للجنة كضابط سياسي موفد من وزارة الخارجية فكان للوصف المطمئن الذي وصفا به اهداف الصهيونية وميولها اثر في ازالة مخاوف سامعيها والحصول على موافقتهم على فكرة التعاون بين الصهيونيين والعرب ، فنظمت اجتماعات التقى فيها زعماء العرب بزعمـاء الصهيونية ، وقد اثرت تأكيدات وايزمن

(١) جريدة (القبلة) في عددها رقم ١٨٣ الصادر في ٢٣ مارس عام ١٩١٨

(٢) وهو الآن اللورد هارليك

واورمزبي غور في صاحب احدى الصحف الكبيرة (١) الى حد انه سخر اقلام صحيفته القوية للقضاء على شكوك العرب فيما يتعلق بمستقبلهم السياسي وللدعوة الى التفاهم بين الملتين .

— ١٠ —

الف سبعة من العرب المقيمين في القاهرة هيئة منهم للقيام بعمل مشترك في ربيع عام ١٩١٨ حين هاج شعور العرب على أثر صدور وعد بلفور واذاعة اتفاق سايكس بيكو حتى تزعزعت اركان الحلف العربي البريطاني . وكانوا جميعاً من ذوي المكانة والنفوذ الذين اطلعوا على مضمون اتفاق الحسين ومكماهون في حينه فراحوا يعملون بحماس منذ ذلك الوقت على تأييد الثورة العربية اما الآن فقد تملكتهم الشكوك والمخاوف الخطيرة بنتيجة القلق الشديد الذي ساد العالم العربي وما انتاب اعتقادهم بصدق الحلفاء من وهن عظيم فكتبوا تصريحاً في شكل مذكرة موجهة للحكومة البريطانية شرحوا فيها الموقف كما تراءى لهم من ناحيتيه الخارجية والداخلية وطلبوا من بريطانية العظمى تعريف سياستها المتعلقة بمستقبل البلاد العربية بمجموعها في بيان واضح وشامل وقد اعربوا بصورة خاصة عن قلقهم على شكل وطبيعة الحكومات العربية العتيدة في سورية وفلسطين والعراق بعد الحرب. وكان من اهداف المذكرة معرفة موقف بريطانية والحلفاء من الفكرة التي نسبت الى الحسين (وتبين فيما بعد خطأ هذه النسبة) والتي جعلت الناس يعتقدون بانه اذا انتصر على الترك فهو ينوي اقامة حكومات تابعة له في تلك البلاد مركزها مكة ، وكان قد صرح بهذه الفكرة اشخاص من حاشية الحسين .

---

(١) وهو فارس نمر باشا احد مؤسسي جريدة (المقطم) اليومية المشهورة والتي تصدر في القاهرة ولعل القارئ يذكر ان الدكتور نمراً كان احد الاعضاء المؤسسين لجمعية بيروت السرية (انظر الباب الخامس)

سلم السوريون السبعة المذكرة للمكتب العربي في القاهرة لكي ترسل الى لندن وطلبوا ان تغفل اسماؤهم حتى يجيء الوقت الذي تذاع فيه المذكرة وجوابها على الجمهور . لقد عرف الناس اليوم اسماء هؤلاء السبعة كما علموا بان رغبتهم في اغفال اسمائهم كانت ناشئة عن تخوفهم من استياء الحسين من المقارنة التي اجروها بين الحجاز والبلاد العربية الواقعة في الشمال بقصد اثبات تأخر الحجاز عنها .

وبعد مضي مدة من الزمن اي بتاريخ ١٦ يونيو عام ١٩١٨ ورد جواب وزارة الخارجية البريطانية فكان على جانب كبير من الاهمية في مضمونه وفي الأثر الذي تركه وقد سلمه الى السبعة احد كبار موظفي الاستخبارات واسمه المستر والروند في اجتماع رسمي عقد لهذه الغاية في مقر قيادة الجيش كما اعلمهم ان صورة عن التصريح الموجه للسوريين السبعة ، وهو الاسم الذي اصطلح الناس عليه ، قد ارسلت الى الحسين . وتلي التصريح في تلك الجلسة باللغة الانكليزية ثم عربه احد الحاضرين لكي يطلع عليه من لا يعرف الانكليزية وقد اثبتنا صورة عنه في الملحق (د) .(١)

كان التصريح الموجه للسوريين السبعة اخطر بيان اصدرته بريطانية العظمى لتوضيح سياستها نحو الثورة العربية ومن العجيب انه بقي مجهولاً خارج العالم العربي بالنسبة الى غيره ، وتعود قيمته الى انه يؤكد تعهدات بريطانية القديمة للعرب بصراحة فاقت كل ما اذيع على الناس في السابق وانه يعطي ايضاحاً رسمياً بالمبادىء التي ارتكزت عليها تلك التعهدات ـ وهذه اهم نقطة .

بحث التصريح في مجموع المساحة التي طالب الحسين بحق ان تكون منطقة عربية مستقلة وحدد سياسة الحكومة البريطانية نحو مستقبل تلك المنطقة التي قسمها لتسهيل هذا التحديد الى اربعة اقسام بالاستناد الى الوضع العسكري القائم في ذلك الوقت .

(١) يقول المؤلف انه يعتقد بان ترجمته لنص هذا التصريح الكامل هي ـ على حد علمه ـ الاولى من نوعها باللغة الانكليزية او بأية لغة اخرى غير العربية .

ضم القسمان الاولان (١) الاجزاء العربية التي كانت حرة ومستقلة قبل الحرب و (٢) الاجزاء التي حررها العرب انفسهم من الحكم التركي ، وقد اعترفت الحكومة البريطانية في هذين القسمين اللذين يحويان بلاد الجزيرة العربية من عدن الى العقبة [١] « للعرب الذين يقطنون هذه البلاد بالسيادة والاستقلال التام » .

وضم القسم الثالث (٣) الاجزاء العربية التي حررها الحلفاء من حكم الترك وتتألف من العراق بين خليج فارس وشمال بغداد ومن فلسطين بين حدود مصر وشمال القدس ويافا وقد صرحت الحكومة البريطانية ان سياستها نحو سكان هذه البلاد تستهدف « ان يكون الحكم فيها في المستقبل متفقاً مع رغبات المحكومين » واكد التصريح بان هذا هو المبدأ الذي تسير عليه سياسة الحكومة البريطانية دوماً .

ضم القسم الرابع (٤) الاجزاء العربية التي ما تزال تحت الحكم التركي وتتألف من القسم الاكبر من سورية ومنطقة الموصل في العراق وقد أكد التصريح بان الحكومة البريطانية ترغب في « ان يحصل السكان المضطهدون في تلك البلاد على حريتهم واستقلالهم » وان غاية السياسة البريطانية هي المثابرة على السعي لتحقيق ذلك الهدف .

يحوي التصريح ضمانتين لهما اهمية اساسية فيما يخص سورية وفلسطين والعراق : الواحدة ان بريطانية كانت تعمل وستظل تعمل لا لتحرير تلك البلاد من الحكم التركي فحسب بل ايضاً لتحقيق حريتها واستقلالها ، والثانية انها تعهدت بعدم إقامة أي نوع من انواع الحكم فيها ما لم يكن متفقاً مع رغبات السكان . ومما زاد في قيمة هاتين الضمانتين انها اعطيتا بعد اذاعة اتفاق سايكس بيكو وبعد صدور وعد بلفور فزاد هذا الامر في قوة الاثر الذي تركتاه في اذهان زعماء العرب كما زاد في تحمس العرب للاشتراك في الهجوم النهائي لان الناس نظروا الى تعهد كهذا على انه نتيجة طبيعية

(١) هذا مع العلم بان عدن لا تدخل في هذه المنطقة بينما تدخل العقبة التي كان العرب قد حرروها في ذلك الوقت .

لمبدأحق الشعوب في تقرير مصيرها الذي اعرب عنه الرئيس ويلسون قبل شهور قليلة فرحبوا به كدليل على ان بريطانية العظمى عازمة على الاخذ بهذا المبدأ في التسوية التي ستجري بعد الحرب للاجزاء العربية المنسلخة عن تركية .

سرت في العالم العربي موجة من الابتهاج على اثر اذاعة تصريح الخارجية البريطانية وتلقى الامير فيصل صوراً عنه في معسكره في العقبة فتحول القنوط الذي كان مستولياً على جنود الثورة الى فورة جديدة من الحماس . ويمتاز التصريح الموجه الى السوريين السبعة على اتفاق الحسين ومكماهون بأنه كان قاطعاً اكثر منه لأنه كان شاملاً ومجرداً من التحفظات الاقليمية، وهو تصريح علني وهذه ميزة كبرى . وفي الشهر التالي أي بعد صدور التصريح باسابيع قليلة حملت الانباء فحوى خطاب الرئيس ويلسون الذي القاه في (ماونت فرنون) بتاريخ ٤ يولية عام ١٩١٨ والذي حوت النقطة الثانية منه عين المبدأ الوارد في التصريح الموجه للسبعة وهو المبدأ القائل بان التسوية التي ستعقب الحرب ستقوم على اساس « قبول الشعوب التي تمسها التسوية مساً مباشراً قبولاً حراً ». وإذا نظرنا الى التصريحين البريطاني والامريكي معاً وجدنا ان اثرهما كان قاطعاً في إزالة الشكوك والمخاوف التي اثارها اتفاق سايكس بيكو ووعد بلفور فانعشت هذه الضمانة الجديدة لحرية الشعوب نفوس العرب المشتركين بالثورة فانصرفوا بنشاط متجدد الى تنفيذ مهمتهم فلما تلقوا نداء النبي الذي يحثهم على بذل الجهد الاخير لبوه بلا تردد او تأخر .

— ١١ —

وأخيراً وقبل اعلان الهدنة بأيام قليلة ظهر تصريح جديد مشترك صادر في هذه المرة عن بريطانية العظمى وفرنسة معاً وقد حوى تعهدات موجهة للعرب وذات صلة بمستقبل البلاد العربية الواقعة في شمال الجزيرة .

في ٧ نوفمبر عام ١٩١٨ أصدرت القيادات العسكرية البريطانية في كل من فلسطين وسورية والعراق بلاغاً رسمياً يحوي بياناً بسياسة الحكومتين الفرنسية

والبريطانية في تلك البلاد والاهداف الكبرى التي ترميان الى تحقيقها فيها وقدوزع اكبر عدد ممكن من هـــذا البلاغ ولم يكتف بتزويد جميع الصحف بنسخ عنه ومطالبتها بنشره في مكان بارز بل لجيء الى اساليب مختلفـة اخرى ، كتعليقه على لوحات الاعلانات وغيرها ، لاذاعته في المدن والارياف . كما أن الموظفين العرب في الدوائر العسكرية راحوا يتلونه على السكان في الاماكن التي تسود فيها الامية .

لقد اثبتنا في الملحق (هـ) نص هذا التصريح المعروف بالتصريح البريطاني ــ الفرنسي . إنه يعلن وحدة الاهداف الحربية بين فرنسة وبريطـانية في الشرق ويحدد هـذه الاهداف بانها تنطوي على تحرير الشعوب الرازحة تحت مظالم الترك تحريراً تاماً ونهائياً وإقامة حكومات وطنية يختارها الاهلون انفسهم بمحض ارادتهم الحرة ثم يوضح أن الدولتين المعظمتين مجمعتـــان على الرغبة في إقامة حكومات كهذه وتأييدها والاعتراف بها عند ما تؤسس بالفعل . ويختم البلاغ بمقطع تؤكد الدولتان فيه عدالتهاونبل غايتها وان همها الوحيد هو القيام بدور المرشد المجرد لهذه الدول العربية التي ستختار الحكم الذي تريده وتحكم نفسها بنفسها .

صدر هذا التصريح كنتيجة للحالة الحرجة التي نشأت فجأة في البلاد العربية المحتلة من الحلفاء وكان الباعث الاول لها حادث العلم العربي في بيروت .

كان شكري باشا الايوبي قد اعلن قيام السيادة العربية باسم الامير فيصل في بيروت حيث رفع العلم العربي يوم ٣١ اكتوبر اي قبل دخول طـلائع الجيشين البريطاني والفرنسي بعدة ايام فاستاء الفرنسيون من هذا العمل استياء كبيراً وحملوا الجنرال النبي على ان يأمر بانزال العلم فولد ذلك هيجاناً عنيفاً في دمشق حيث عمل فيصل كل ما في وسعه على اخماد فتنة عسكرية ظهرت بوادرها بين جنده .

ومما زاد في شدة الهياج علم النـاس بأن فرنسة ستحتل بيروت والموانيء الاخرى الواقعة على ساحل سورية ، وكذلك اطلاع اهالي دمشق على نشاط الصهيونيين في فلسطين . ثم ان احتلال دمشق وحلب قد ادى الى التقاء الزعماء السوريين

والعراقيين المشتركين في الثورة بزملائهم الذين اضطروا الى البقاء في بيوتهم أو في المنفى وتحملوا وطأة الارهاب التركي فتبادل الطرفان الرأي بحرية وأطلع القادة العرب ،الذين بقوا في البلاد العثمانية ،اخوانهم على أمور كثيرة حملتهم على الشك في صدق نوايا الحلفاء

وهكذا اجتاحت البلاد موجة من الارتياب بما تخفيه الحكومات الحليفة من دوافع سرية والتخوف منها فاحتج فيصل لدى النبي معلناً عجزه عن كبح جماح القوات العربية ما لم يصدر الحلفاء على الفور بياناً يوضحون فيه نواياهم بشكل رسمي وصريح ،والا فان شعور العرب الهائج قد يبلغ حد الانفجار . ولهذا سارع الحلفاء الى اصدار التصريح البريطاني الفرنسي الذي كان له تأثير آني فلم تمض ايام قليلة حتى هدأ الغليان . لقد اعلن هذا التصريح ـ كما اعلن التصريح الموجه الى السبعة ـ مبدأ قيام الحكم على رغبة المحكومين وعمل مثله على ازالة خطر القطيعة بين بريطانية العظمى وحلفائها العرب في مرحلة دقيقة من مراحل علاقتها المشتركة .

الباب الرابع عشر

التسوية التي اعقبت الحرب

– ١ –

ربح الحلفاء الحرب فوقفت حركة العرب القومية لاول مرة في تاريخها وجهاً لوجه أمام مصيرها المقرر. لقد سارت راياتها على اجنحة الظفر شمالا حتى بلغت الحد الذي كانت تحلم به وهو حد مملكتها وتحررت بلاد الشام من سيناء الى طوروس وتحرر العراق حتى الموصل ولم يبق من سلطة للترك في داخل الجزيرة نفسها سوى حاميات مبعثرة لا حول لها ولا طول واستسلامها محتم. وأخيراً تخلصت المقاطعات العثمانية التي يتكلم سكانها العربية والواقعة في آسية من الحكم الاجنبي الذي رزحت تحته اربعة قرون خانقة. لقد خيل للناس ان اله الحرب نفسه اراد ان يمجد الدور الذي لعبته اللغة في تاريخ الحركة العربية فاوقف تقدمها الشمالي عند الحد الفاصل ما بين الناطقين بالعربية والناطقين بالتركية. ان المناطق التي شاهدت اندحار الترك هي بذاتها المناطق التي كان العرب يتطلعون الى تحقيق أمانيهم فيها وحدودها مطابقة تماماً للحدود الطبيعية التي عينها الشريف حسين للمنطقة العربية المستقلة.

لقد زاد في ابتهاج العرب وزعمائهم ان الثورة لعبت دوراً حاسماً في تحقيق النصر المشترك لأن القوات العربية الثائرة قامت بالمهمة الملقاة على عاتقها – وا كثر – على وجهها الا كمل في جميع الميادين باستثناء عدن، حيث كانت مساهمتها غير مباشرة ولكنها ذات اثر ملموس، والعراق حيث انفردت الجيوش البريطانية في طرد الترك. ولم يكتف العرب بحرب الترك بل قاتلوا كذلك ابناء جنسهم الذين أيدوهم بالفعل، وشعر قادتهم انهم نفذوا تماماً الجزء العائد لهم من الصفقة التي عقدها مكماهون مع الحسين فراحوا يترقبون قيام بريطانية من جهتها بتنفيذ الجزء العائد لها.

على أنه اتضح حين طرحت المسألة على بساط البحث في مؤتمر الصلح ان هناك اختلافاً كبيراً بين ما ادعاه العرب وما كانت بريطانية العظمى مستعدة للاعتراف به كجزء خاص بها من الصفقة. سنتحدث في هذا الباب عن سبب نشوء هذا النزاع والمواضيع المختلف عليها وكيف انه أدى الى وقوع سلسلة من الاصطدامات الدامية بين العرب وحلفائهم السابقين الانكليز والفرنسيين جرى اولها ولما يمر عامان على اعلان الهدنة ، وانه لعمر الحق حديث يمجه العقل والذوق .

سوف نرى كيف فرضت بريطانية العظمى وفرنسة على العرب (تسوية) تناقض العهود التي قطعت لهم بصراحة كما تناقض المبادىء التي وضعها الحلفاء كأساس للسلم المقبل . وبالنظر لما حدث فيما بعد من تطورات يطيب للباحث ان يتخيل الاتجاه الذي كانت تسير فيه الامور فيما لو اختارت بريطانية العظمى وفرنسة المحافظة على عهودهما في مؤتمر الصلح . لا يعدو التفكير بفرضيات كهذه عادة ان يكون تمريناً فكرياً لا صلة له بالواقع التاريخي ولكن مما لاشك فيه البتة في هذا الموضوع ان الطريقة التي عولجت بها القضية العربية بعد الحرب أدت بصورة مباشرة واكيدة الى حدوث انفجارات ما كانت لتحدث قط لو لا تلك (التسوية) المزعومة التي كانت سبباً لضياع الالوف من الارواح والملايين من المال وما لا يمكن حصره من المصائب والآلام، وكان تلافي ذلك ممكناً . إن تلك (التسوية) هي التي سببت الثورة العراقية عام ١٩٢٠ والثورة السورية عام ١٩٢٥ والفتن المتكررة في فلسطين ، وكانت جميع هذه الاضطرابات النتيجة المباشرة لأشكال الحكم المختلفة التي فرضت خطأ وبالقوة على العرب في العراق وسورية وفلسطين والتي كانت بحد ذاتها خرقاً للعهود التي دخلوا الحرب على اساسها . ومهما يكن الدور الذي لعبته الاسباب الثانوية في هذه الثورات فان اساسها الوحيد وأساس غيرها من الحوادث الكثيرة التي عكرت صفو الصداقة الطبيعية التي تربط العربي بالانكليزي والانكليزي بالعربي

قائم على خيبة الامل والاشمئزاز الذي ولدته حلول ما بعد الحرب . لقد أحس العرب انهم غدروا وان الذي خانهم هو اعز صديق لهم .

— ٢ —

وصل الامير فيصل باريس في يناير عام ١٩١٩ على رأس الوفد الحجازى في مؤتمر الصلح فوجد ثلاثة عناصر تبذل نفوذها لمعارضة العرب في تحقيق امانيهم . أما العنصر الاول فهو المصالح الامبراطورية البريطانية في فلسطين والعراق ، واما الثاني فهو المصالح الامبراطورية الفرنسية في سورية ، واما الثالث الذي كان يعمل بالاتفاق مع الاول فهو المصالح الصهيونية القومية في فلسطين . فكان الخلاف الذي نشب في مؤتمر الصلح قائماً على مصير تلك المقاطعات العربية الشمالية ، وبقيت الجزيرة العربية نفسها خارجة عن موضوع النزاع لان مناعتها في وجه الاستعمار الاجنبي كانت من الامور المسلم بها بالرغم من اهتمام بريطانية بالاحتفاظ بمحمياتها ومناطق نفوذها وبالرغم من محاولة ايطالية الحصول على قاعدة بحرية على الشواطيء الشرقية للبحر الاحمر . فظلت تلك المنطقة العربية الواقعة ضمن المستطيل الممتد من البحر الابيض المتوسط الى خليج فارس هي السبب الوحيد للنزاع الشديد الذي نشب في مؤتمر باريس وهي المنطقة التي تضم سورية وفلسطين والعراق والتي لبريطانية وفرنسة فيها مطامع استعمارية .

كانت هذه المنطقة بكاملها تدار في عام ١٩١٩ بوصفها بلاد العدو المحتلة فكانت لذلك خاضعة لاحكام القانون العسكري موقتاً ريثما يبت في مصيرها عند عقد الصلح فقامت في كافة انحاء هذه المنطقة إدارات تستمد سلطتها المباشرة من القائد الاعلى البريطاني ومع ذلك فكانت هناك بعض الفوارق البارزة في شكل تلك الادارات وقوامها والموظفين المشرفين عليها بين العراق من جهة وسورية وفلسطين من جهة ثانية .

اما في العراق فقد وحدت الادارة كلها ووضع على رأسها مفوض ملكي

بريطاني وكانت الكثرة الساحقة من كبار موظفيه بريطانيين ومعظم صغار موظفيه من الهنود . واما في سورية وفلسطين فقد قسمت البلاد الى ثلاث مناطق ووضعت كل منها تحت ادارة تختلف تماماً عن ادارة صاحبتيها فعرفت الاولى باسم المنطقة الجنوبية من بلاد العدو المحتلة وضمت فلسطين بحدودها الحاضرة تقريباً وكانت ادارتها بريطانية ، وعرفت الثانية باسم المنطقة الشرقية من بلاد العدو المحتلة وضمت سورية الداخلية من العقبة الى حلب وكانت ادارتها عربية، وعرفت الثالثة باسم المنطقة الغربية من بلاد العدو المحتلة وضمت لبنان وسواحل سورية من صور الى حدود كليكية وكانت ادارتها فرنسية (١) .

واما الجزيرة العربية فقد تركت على حالها فكان الملك حسين يحكم بلاد الحجاز التي كانت مقاطعة تابعة للمملكة العثمانية ثم اصبحت دولة عربية مستقلة وكان مركز الحسين قوياً من حيث اعتراف الحلفاء به ولكنه محفوف بالاخطار التي قد تنشأ عن الخلاف بينه وبين ابن السعود. وكان ابن السعود سلطان نجد وعاصمته الرياض وهو بهذه الصفة السيد غير المنازع في وسط الجزيرة ويمتد سلطانه من حدود الحجاز في الغرب حتى الخليج الفارسي في الشرق . وكانت بلاد شمر تقع الى شمال بلاده حتى حدود العراق ويحكمها ابن الرشيد الذي تصدع نفوذه وسلطته على أثر اندحار الترك . وفي الجنوب بسط الادريسي سيطرته على عسير بينما راح الامام يحيي يعلن سيادته في اليمن بعد استسلام الترك الى القيادة البريطانية في عدن . ولم يطرأ تعديل يذكر على وضع صغار الحكام في الكويت ومسقط وحضرموت الاهم الا بانفصالهم نهائياً عن تركية . وصفوة القول في بلاد الجزيرة بصورة عامة ان المركز الذي احتله كل حاكم انما كان تثبيتاً للمركز الذي استولى عليه او احتفظ به خلال الحرب .

(١) كانت هناك ادارة فرنسية ثانية في كليكية عرفت باسم المنطقة الشمالية من بلاد العدو المحتلة ولكنها تقع خارج حدود المناطق العربية .

ان هذه الفوارق ذات مغزى كبير لما دلت عليه من نوايا خفية بينها الحلفاء . فقد تركوا معظم البلاد الواقعة في داخل الجزيرة العربية وشأنها كما ان بعض الاعتبارات الفعلية والسياسية حالت دون تسرب الاجانب اليها ، واما في البلاد العربية الواقعة في الشمال والتي كانت رغبة بريطانية وفرنسة متجهة الى الاستيلاء عليها فيخيل لنا ان التنظيمات الادارية التي وصفناها وضعت لتلائم التسوية النهائية التي كان الحلفاء يعدونها في السر بالرغم من انهم اعلنوا بلا خجل انها تنظيمات موقتة ولا تؤثر البتة في مصير تلك البلاد النهائي الذي لا يمكن تقريره الا في مؤتمر الصلح .

وبالرغم من الصفة الموقتة التي البست لهذه التنظيمات فانها كانت من مسببات ذلك القلق العام الذي أدى إلى اصدار التصريح البريطاني الفرنسي في ٧ نوفمبر ١٩١٨ . لقد احتج فيصل على تقسيم سورية ولو كان تقسيما موقتاً لضرورات ادارية مزعومة فطمأنه النبي بقوله ان مستقبل سورية سيقرر وفقـاً لرغبات اهلها وكان النبي مثلاً أعلى للشرف فلا يشك في أنه كان قانعاً بصدق هذه التأكيدات التي أمر باعطائها الى فيصل وقد صاغها بعبارات توحي الثقـة على عادته اذا قنع بامر من الامور فكانت نتيجة هذا التأكيد ومعه التصريح البريطاني الفرنسي ان حمل فيصلا على ان يقبل بالتقسيم الاداري موقتاً وأن يقنع أنصاره بعدم التعرض له . وبعد مرور ما يقارب الاسبوعين على صدور التصريح المذكور توجه فيصل الى لندن ليطالب بتحقيق وحدة العرب واستقلالهم ومعه توكيل من والده لتمثيله في مؤتمر الصلح .

—٣—

ان هذه الزيارة التي قام بها فيصل لأوربة كانت من احدى نواحيها مغامرة مربكة . فقد وصل مرسيلية يوم ٢٦ نوفمبر عام ١٩١٨ على ظهر البارجة البريطانية (غلوستر) فاستقبله ضابطان فرنسيان وكان موقفهما منه مرآة لموقف الحكومة الفرنسية الرسمي اذ قالا له ان الحكومة ترحب به كزائر لفرنسة ولكنها لا تستطيع

أن تعترف بانه ذو صفة تمثيلية او رسمية ودعواه بلطف الى زيارة ميادين القتال في الجبهة الغربية فما كان منه إلا أن قابل مجاملتهم بمثلها وقبل الدعوة . وفي يوم ١٠ ديسمبر وصل الى لندن .

استقبل فيصل في لندن بترحاب ودي ومغر ولكن بعض المفاجآت غير السارة محت اثر هذا الاستقبال . لقد علم بان الاتفاقات السرية المعقودة بين الحلفاء والتي فضح امرها في بتروغراد لم تكن من صنع خيال بلشفيكي خبيث ، وان اتفاق سايكس بيكو كان وثيقة راهنة ، وان كليمنصو ولويد جورج كانا في ذلك الوقت بعينه يناقشان هذا الاتفاق باسلوبهما المعتاد والمحبب لديهما وهو المفاحزة المنطوية على مبلغ كبير من الكر والفر . وعلم كذلك ان فرنسة استاءت كثيراً لتعيينه على رأس ادارة المنطقة الشرقية لبلاد العدو المحتلة وانها الآن تعارض الاقتراح القاضي بتسميته ممثلاً للحجاز في مؤتمر الصلح ، كما انه وجد نفسه هدفاً مقصوداً لهجوم عنيف في موضوع فلسطين . لقد كان من شأن هذه الامور بمجموعها ، التي لمسها فيصل خلال إقامته في لندن ثلاثة اسابيع ، ان تولد في نفسه الحيرة والقنوط لانه لم يكن في ذلك العهد قد تجاوز الخامسة والثلاثين من عمره وكان يجهل اللغتين الانكليزية والفرنسية جهلاً يكاد يكون تاماً ولم يسبق له ان زار انكلترة كما لم يسبق له أن اطلع على الدبلوماسية الاوربية في اشنع صورها (١) .

كان اتفاق سايكس بيكو من المواضيع المطروحة على بساط البحث في تلك الايام فقد زار كليمنصو لندن وجرت مناحرة بينه وبين لويد جورج حول بقاء

---

(١) سمح لنا المغفور له الملك فيصل خلال إقامتنا في بغداد في ربيع عام ٩٣٣ بمراجعة المفكرة التي دون فيها بخط يده الحوادث التي مرت به في زيارته هـذه لاوربة والانطباعات التي تركتها في نفسه بما في ذلك إقامته في باريس اثناء انعقاد مؤتمر الصلح فاخذنا عنها بعض المعلومات المثبتة في هذا الباب .

مفعول هذا الاتفاق او بطلانه اذ اراد لويد جورج إبطاله بداعي ان احد الاطراف فيه وهو روسية قد نقضه بينما أصر كليمنصو على أن ذلك لا يحول دون تقيد الطرفين الباقيين باحكامه .

أدرك ساسة فرنسة وبريطانية مدى الاختلاف الكبير بين أهداف ومصالح البلدين في بلاد العرب وذلك في الفترة التي انقضت منذ عقد هذا الاتفاق. ولم تكتف وجهة النظر البريطانية بالاشارة الى أن الاتفاق غير قابل للتطبيق عملياً فحسب بل راحت تقيم البرهان على انه يعارض المصالح البريطانية في ناحيتين هامتين : الاولى باعطائه ولاية الموصل وما تحويه من آبار للنفط غزيرة لفرنسة ، والثانية بوضعه فلسطين تحت إدارة دولية تحول دون حصول بريطانية على تلك الدرجة من الاشراف على شئونها التي كان لويد جورج مصمما عليها أو هي على الاقل تعرقل هذا الاشراف. أما وجهة نظر فرنسة فهي ان الاتفاق هو الصك الوحيد الذي يحوي اعترافاً صريحاً وواضحاً من جانب بريطانية بحصة فرنسة في المخلفات العثمانية ولما كانت الحكومة الفرنسية قد اتخذت موقفاً عدائياً من النهضة العربية بصورة عامة (١) وكانت ترتاب في امر رعاية بريطانية للعرب رأت وزارة الخارجية الفرنسية ان لا خلاص لها إلا بالتمسك بالاتفاق كاملاً وعدم الموافقة على ادخال اي تعديل عليه إلا لقاء منافع اخرى يمكن المساومة عليها .

غير لويد جورج خطته حين وجد كليمنصو عنيداً في موقفه فطلب اليه الموافقة على اقتراح معين يقضي بوضع الموصل وفلسطين ضمن المنطقة البريطانية لقاء

---

(١) لم يكن عداء فرنسة للنهضة العربية ناشئاً عن رغبتها في أن تكون سيطرتها كاملة غير منقوصة في المناطق المخصصة لها في سورية والعراق فحسب بل ايضاً عن تخوفها من الاثر الذي قد يولده نهوض العالم العربي الشرقي في السكان العرب الذين تضمهم الامبراطورية الفرنسية في شمال افريقية .

بعض التعويضات التي تمنح لفرنسة ومنها حصة كبيرة لها في نفط الموصل فوافق كليمنصو على درس الاقتراح ولكنه عاد الى باريس دون ان يلزم نفسه بأي موافقة. وبعد شهرين قبلت فرنسة رسمياً بالاقتراح في مذكرة مؤرخة في ١٥ فبراير فوجدت بريطانية نفسها عندئذ حرة في العمل دون ان تمس مصالح حليفتها فرنسة في فلسطين وولاية الموصل على حد تعبير مكماهون (١).

اطلع فيصل خلال اقامته في لندن على فحوى المحادثات البريطانية الفرنسية بصورة عامة بدون ان يطلع على كل ما تضمنته وقد بذلت الحكومة البريطانية المحاولات الكثيرة للحصول على تأييده المبدئي لغاياتها وكان الحاحها شديداً في موضوع فلسطين حتى انها امرت لورنس بان يعمل ، بما له من تأثير كان في ذلك الوقت بالغاً ، على حمل فيصل على الاعتراف رسمياً باسم العرب الذين يمثلهم بأماني الصهيونيين في فلسطين ، وأخذ الصهيونيون من جهتهم يبذلون المساعي الحثيثة لحمل فيصل على توقيع اتفاق رسمي يعقد بينه بصفته ممثلاً لملك الحجاز وبين الدكتور وايزمن ممثلاً للجمعية الصهيونية والقصد منه جعل ذلك الاعتراف نهائياً وملزماً.

وجد فيصل نفسه في موقف حرج فان المقترحات التي كان اصدقاؤه في الحكومة البريطانية يلحون عليه بقبولها لم تكن خارجة عن نطاق مهمته فحسب ، تلك المهمة التي حددها له الحسين في تعليمات مختصرة لا تتجاوز الاسطر المعدودة ، بل كانت كذلك تتعارض مع الشعور العام الهائج في بلاد العرب الشمالية فحاول الحصول على تعليمات مفصلة من الملك حسين فلم يحظ من والده المستبد والمتشبث إلا بامر جديد يفرض عليه المطالبة بتحقيق تعهدات بريطانية المتعلقة باستقلال العرب كاملة غير منقوصة أي أن هذا الامر لم يترك له أي خيار في الموضوع.

---

(١) وذلك في مذكرته الثانية الموجهة للحسين بتاريخ ٢٤ اكتوبر عام ١٩١٥ — انظر الملحق (آ).

وبدأ هذا الضغط الذي تعرض له فيصل في لندن يحز في نفسه لأنه كان يشعر شعوراً دقيقاً بان العدة المجهز بها غير صالحة لمعالجته فقد كان يجهل اللغة الانكليزية ولم يألف اساليب السياسة الاوربية. على ان اكبر نقص شعر فيه هو عجزه عن الانتفاع من وجوده في لندن بسبب رفض والده منحه صلاحيات مطلقة. ومما زاد في إحساسه بضعفه وعزلته علمه بعداء الفرنسيين لشخصه ولمهمته فانه، بصرف النظر عن المجاملة القليلة التي لمسها اثناء مروره بفرنسة، وجد امامه ادلة كثيرة على انهم يبادلونه شكا بشك في صراحة تامة وقد حمل نفسه على الاقتناع بان قدرته على اتقاء شر فرنسة تزداد فيما إذا وجد طريقة لتحقيق رغبات بريطانية الى أقصى حد ممكن. لم يكن له من الاصدقاء في اوربة غير الانكليز وكان اكثر هؤلاء من الذين قاتلوا مع الجيوش العربية فأقاموا الدليل على اخلاصهم للقضية المشتركة فكان طبيعياً ان يلتفت اليهم — وبصورة خاصة الى لورنس — ويطلب نصحهم.

كان فيصل ميالاً الى عدم البت في شيء قبل انعقاد مؤتمر الصلح سواء في ذلك ما يتصل باتفاق سايكس بيكو بمجموعه وما لاقاه من مشاكل خاصة نشأت عن أمر فضح هذا الاتفاق، ولكن وزارة الخارجية كانت تلح عليه طالبة إعطاءها جواباً على الفور عن فلسطين وكانت تفعل ذلك بتأثير الضغط الصهيوني من جهة ومن جهة ثانية لرغبتها في مواجهة مؤتمر الصلح بالامر الواقع فكانت تطلب منه التعاقد مع الصهيونيين قبل المؤتمر. أدرك فيصل عدم لياقة محاولات الحكومة البريطانية واخذ يوازن ما بين الاخطار الناجمة عن قبوله بالاتفاق المقترح او أي اتفاق كان قبل مراجعة والده، والاخطار التي يتعرض اليها فيما اذا أثار تلك الحكومة ضده برفضه فلم يشعر انه قوي الى حد يستطيع معه الجواب برفض بات وكان اصدقاؤه الذين استشارهم يرددون حجج وزارة الخارجية بينما اخذ لورنس يسعى سعياً حثيثاً لاقناعه بأن لا ضرر يفتج عن تعاقده مع الصهيونيين شريطة الحصول على الاعتراف التام بحق العرب في الاستقلال.

لم تكن آراء فيصل في مستقبل فلسطين لتختلف عن آراء أبيه وهي نفسها الآراء التي اعتنقها الكثرة الغالبة من العرب المشتغلين بالسياسة في ذلك الوقت وقد أوضحها الحسين للحكومة البريطانية عن طريق القائد هوغارث في المقابلة التي تمت بينهما في جدة في يناير عام ١٩١٨(١). كانت فلسطين في نظر العرب إقليماً عربياً هو جزء لا يتجزأ من سورية فوجب ان تبقى ضمن المنطقة العربية المستقلة، واما كونها بلداً تقدسه ثلاثة من أديان العالم ويضم الاماكن المقدسة فانه يعطيها صفة خاصة يحرص العرب على احترامها والمحافظة عليها بالشكل الملائم على أساس يتفق عليه مع جميع الطوائف ذات العلاقة، والعرب يرحبون بقدوم اليهود وباقامتهم في فلسطين اما كانت هجرتهم نتيجة لدوافع انسانية وعلى شرط التقيد بما تفرضه مصلحة السكان الحاليين وحقوقهم السياسية والاقتصادية. هذه باختصار آراء الكثرة من العرب.

تطورت هذه الفكرة بالتدريج في ذهن فيصل حتى تحولت الى عقيدة ثابتة بامكان التعاون بين العرب واليهود في فلسطين. وقد اطلع في حينها على التأكيدات التي قدمها هوغارث للحسين كما أنه تأثر بالرسائل المطمئنة التي تلقاها من أبيه في معسكره بالعقبة في ربيع عام ١٩١٨ وفي وقت متأخر من السنة ذاتها اجتمع بالدكتور وايزمن بناء على طلب الحكومة البريطانية فتمت المقابلة في الاسبوع الاول من شهر يونيو في معسكر فيصل القائم في ذلك الوقت فوق رابية تقع على مسافة عدد من الاميال شمال العقبة فاكد له وايزمن بانه لم يكن في نية الصهيونيين العمل على اقامة حكومة يهودية في فلسطين وان غايتهم القصوى هي تنمية موارد البلاد ما دام ذلك لا يمس حقوق العرب المشروعة. فتولد الاعتقاد في نفس فيصل

(١) أنظر الفصل التاسع من الباب العاشر أعلاه.

بنتيجة هذه التأكيدات كلها بان أماني الصهيونيين نفسها وسياسة الحكومة البريطانية الموجهة لتحقيقها لا تحوي في طياتها ما يتعارض مع حريات العرب السياسية والاقتصادية في فلسطين .

تلك كانت حالة فيصل الفكرية اذ كان موزعا بين رغبته في عدم الزام أبيه بشيء قبل استشارته وبين رغبته في ارضاء وزارة الخارجية البريطانية فشعر بان هذه الظروف لا تفتح أمامه الا طريقاً وحيداً للسير فيه فقبل بتوقيع الاتفاق ولكنه علقه على وفاء بريطانية بعهودها الخاصة باستقلال العرب وقد كتب هذا الشرط بخط يده في ذيل النص الاصلي الموقع وصاغه بعبارات قاطعة وشاملة صانت الموضوع الاساسي وجردت الاتفاق فيما بعد من قيمته الفعلية لان الشرط لم يحقق قط . وتبقى قيمة هذا الاتفاق منحصرة في ما قدمه من دليل على المدى الذي كان فيصل مستعداً لبلوغه في موضوع التعاون بين العرب واليهود ما دام هذا التعاون لا يمس استقلال العرب (١) .

– ٤ –

انتقل فيصل الى باريس في أواسط يناير عام ١٩١٩ فوجد الحكومة الفرنسية عازمة على عدم منحه صفة مندوب في مؤتمر الصلح مدعية بان الدول لم تعترف بالحجاز رسمياً كدولة حليفة محاربة ولكنها ما لبثت ان تراجعت عن موقفها هذا بتوسط وزارة الخارجية البريطانية فنال وفد الحجاز مقعدين في مؤتمر الصلح بدلاً من مقعد واحد . على ان عداء الحكومة الفرنسية لم يقف عند هذا الحد بل لاقى فيصل منها معارضة عنيدة للقضية التي أتى الى باريس للدفاع عنها ودامت

(١) اثبتنا نص اتفاق فيصل – وايزمن والشرط الذي وضعه فيصل في الملحق (و).

هذه المعارضة خلال الاشهر الثلاثة التالية اي حتى نهاية ابريل حين أبحر عائداً الى سوريــة .

عرضت القضية العربية لاول مرة يوم ٦ فبراير في الكاي دورساي حيث دعي الوفد الحجازي لحضور جلسة رسمية للمؤتمر وكان فيصل قبل ذلك بايام قد قدم الى المؤتمر المذكرة التالية (١) المؤرخة في ٢٩ يناير عام ١٩١٩ باسطاً فيهـــا باختصار حق العرب في الاستقلال :

« لقد أتيت باسم والدي ، الذي لبى دعوة بريطـانية وفرنسة فقـاد الثورة العربية على الترك ، لاطالب بان يعترف بالسيادة والاستقلال القـائمين على ضمانة عصبة الامم للشعوب الناطقة بالعربية والقاطنة في ذلك الجزء من آسية الممتد من خط الاسكندرون ـ ديار بكر جنوباً الى المحيط الهندي ويستثنى من هذا الطلب مملكة الحجاز التي هي دولة ذات سيـادة وعدن التابعة لبريطانية (٢) . إن هناك أموراً يمكن تقريرها بعد التأكد من رغبات كل بلد ، من ذلك تثبيت كيان الدول القائمة في تلك المنطقة وتعديل الحدود فيما بينها او بينها وبين الحجاز او بينها وبين البريطـانيين في عدن وتشكيل دول جديدة بحسب الحاجة وتعيين حدودها . وستتقدم حكومتي بمقترحاتها المفصلة حول هذه الامور الثانوية عندما يحين الوقت . إنني استند في طلبي هذا الى المبادىء المرفقة (٣) التي أعلنها الرئيس ويلسون

(١) وقد أخذناها عن كتاب دافيد هنتر ميلر (مذكراتي عن مؤتمر باريس) الجزء ٤ .

(٢) استثنى الشريف حسين عدن من المنطقة العربية المستقلة منذ البداية .

(٣) حوت الوثيقة المرفقة نص النقطة الثانية من خطـاب ويلسون في ماونت فرنون يوم ٤ يولية عام ١٩١٨ .

وانا واثق من ان الدول المعظمة ستهتم بروح الشعوب الناطقة بالعربية وجسدها اكثر من اهتمامها بالمصالح المادية العائدة لها نفسها » .

وعالج فيصل الموضوع ذاته بشيء من التوسع الحكيم في الخطاب الذى القاه في اجتماع ٦ فبراير فأكد حق الشعوب الناطقة بالعربية والقاطنة في آسية في الاستقلال والوحدة موضحاً بصورة خاصة العوامل الثقافية والجغرافية والاقتصادية التي توجد الانسجام بينها. واشار الى الدور الذي لعبه العرب في الحرب والتضحيات التي قاموا بها وندد باتفاق سايكس بيكو بعبارات مهذبة ولكنها صريحة وختم كلامه بشكر بريطانية وفرنسة على المساعدة التي قدمتاها للعرب في نضالهم من اجل حريتهم وطالبها بتحقيق الوعود التي قطعتاها لهم .

ثم تقدم فيصل باقتراح لا يبديه إلا من كان قانعاً بعدالة قضيته وذلك في النقاش الذي اعقب خطابه اذ طلب ان تتخذ التدابير اللازمة للتأكد من رغبات السكان ذوي العلاقة لكي تكون التسوية عند تقريرها عادلة وثابتة . لقد رأى ان يستند الى خطاب ما ونت فرنون والى التصريح البريطاني الفرنسي لا الى تعهدات مكماهون حين اصر على لزوم الاخذ بمبدأ (قبول المحكومين) في مذكرته المؤرخة في ٢٩ يناير وفي خطابه امام المؤتمر ، ويتلخص اقتراحه في ان يعين مؤتمر الصلح لجنة تحقيق تزور سورية وفلسطين حيث تقوم ببحث محلي شامل للتأكد من رغبات السكان .

اعجب الرئيس ويلسون بهذا الاقتراح فايده على الفور ولكن المستر لويد جورج لم يكن ميالاً الى الأخذ به وإن قبله في بداية الأمر بكياسة ظاهرة اما المسيو كلمنصو فقد تناوله بروح العداء وبذل جهده للحط من شأنه . على ان البحث الرسمي في هذا الاقتراح واعلان ويلسون تأييده المطلق له لم يجر الا يوم ٢٠ مارس اذ عقد اجتماع سري في منزل المستر لويد جورج في شارع نيتو نشر حضرة المستر

بيكر (١) فاقترح ويلسون ارسال لجنة تحقيق الى سورية والبلاد المجاورة لهـا اذا لزم على ان تؤلف من عدد متساو من الاعضاء يمثلون فرنسة وبريطانية وايطالية واميركة ومهمتهم التحقق من الوقائع وتقديم تقرير الى مؤتمر الصلح فاقر هـذا الاقتراح في ذلك الاجتماع وتعهد ويلسون باعداد التعليمات التي تسير عليها اللجنة العتيدة .

وأقر الاقتراح رسمياً في اجتماع ثان لمجلس الاربعة عقد بتاريخ ٢٥ مارس كما اقرت التعليمات التي قدمها ويلسون لتوجيه اللجنة وتقرر كذلك ان تعين كل من الدول المعظمة ذات العلاقة ممثلين في اللجنة فاختار ويلسون الدكتور هنري كنغ عميد كلية اوبرلين والمستر تشارلز كراين الذي اهلته تجاربه الكثيرة وتفكيره المستقل للاضطلاع بهذه المهمة على وجهها الاكمل وعينت الحكومة البريطانية مكماهون وهوغارث اما الحكومة الفرنسية فلم تعجل في اختيار ممثليها .

يقال إن فيصلاً حين تلقى نبأ القرار شرب الشمبانية لاول مرة في حياته وشربها كأنها الماء القراح ثم استقل عربة مر بها امام مقر الوفدين الامريكي والبريطاني واخذ يقذف الكاي دورساي وتزلي الكريون والماجستيك بالوسائد معلناً أن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع الاعراب بها عن شعوره ما دام لا يوجد في حوزته قنابل .

ثم أبحر فيصل الى سورية في الاسبوع الاخير من شهر أبريل ليستأنف ادارة الامور في دمشق بانتظار وصول اللجنة التي عينها الحلفاء .

— ٥ —

كانت خصومة الفرنسيين لاقتراح فيصل ناشئة عن علمهم بان الرأي متفق ضدهم في سورية بصورة عامة وفي الوقت نفسه كان ارتيابهم بحلفائهم البريطانيين شديداً وزادت مخاوفهم بنتيجة ظفر النبي وما بني عليه من علو شأن بريطانية حتى

(١) من كتاب ري ستانارد بيكر (ويلسون والتسوية العالمية) الجزء الثالث .

جنح المتطرفون في وزارة الخارجية الفرنسية الى الاعتقاد بان اقتراح اجراء تحقيق محلي انما هو دسيسة دبرتها وزارة الخارجية البريطانية للقضاء على حق فرنسة في بسط حمايتها — أو بالاصح انتدابها اذا أردنا استعمال الاصطلاح الحديث — على سورية .

كان موقف البريطانيين مختلفاً بعض الشيء فان مصالحهم في سورية لم تكن كبيرة الى حد يبرر إحداث مشكلة من أجلها وهذا بالرغم من وجود ميل قوي في الدوائر البريطانية لحمل فرنسة على ترك سورية لقاء تعويض ما ، ولا سيما عند أولئك الذين شاهدوا أحوال الشرق بانفسهم وعلى هذا فلا يشك مطلقاً في ان البريطانيين كانوا صادقين في تأكيداتهم المتكررة للفرنسيين بانهم خالون من الغرض في هذا الموضوع . ومن جهة ثانية فقد كان يحتمل ان تبدو معارضة عنيدة لرغبة بريطانية في فرض انتدابها على العراق وفلسطين فيما اذا جرى التحقيق فيها ولهذا اتخذت الخارجية البريطانية موقفاً من الاقتراح اقل ما يقال عنه انه فاتر وان لم تعارضه صراحة .

يمكننا ادراك التباين القائم بين الدولتين من الرجوع الى محاضر الجلسة السرية التي عقدت بتاريخ ٢٠ مارس اذ اوضح المستر لويد جورج اثناء المناقشة موقف بريطانية بالشكل التالي وهو منقول عن المحاضر نفسها :

« قال المستر لويد جورج إنه يخيل لمن يطلع على موقف المسيو بيشون ان مسألة الانتداب على سورية هي مشكلة قائمة بين بريطانية وفرنسة والواقع ان هذه المسألة لا تشكل قضية بالنسبة لبريطانية وهو يود أن يقول على الفور باننا خالون من الغرض الآن في عام ١٩١٩ كما كنا خالين منه عام ١٩١٢ (١) فاذا طلب الينا المؤتمر أخذ سورية اجبنا بالرفض ...

(١) انظر الفصل الثالث من الباب الثاني من اعلاه.

إن عزم الحكومة البريطانية معقود بصورة نهائية على الا يكون لها اي علاقة بسورية وأشار إلى انه أوضح الحدود التي تقف عندها المصالح البريطانية في علاقاتها مع فرنسة حين طلب الحصول على الموصل وبعض الاقاليم المجاورة لها وفلسطين في اجتماع بينه وبين المسيو كليمنصو في لندن .

« . . . قال المسيو كليمنصو إنه يؤيد فكرة اجراء التحقيق من حيث المبدأ ولكن الامر يحتاج الى ضمانات معينة فلا يجوز أن يقتصر التحقيق على سورية لان هناك ضرورة لفرض الانتداب على فلسطين و بلاد ما بين النهرين (العراق) وارمينية وعلى اجزاء أخرى من الامبراطورية التركية بالاضافة الى سورية . . .

« . . . قال المستر لويد جورج إنه لا يمانع في اجراء التحقيق في فلسطين و بلاد ما بين النهرين وهما الاقليمان اللذان تهتم بهما الامبراطورية البريطانية اهتماماً رئيسياً كما انه لا يمانع في اجراء التحقيق في ارمينية واهتمام الامبراطورية بها أقل » .

اظهر المستر لويد جورج بعض مخاوفه في مرحلة تالية من هذه المناقشة اذ قال « اذا أتى التحقيق بدلائل مفحمة كأن يثبت مثلا بان الامبراطورية البريطانية غير مرغوب فيها في بلاد مابين النهرين فانه يظن بان الحكومة تحتفظ لنفسها بحرية التفكير في قبول الانتداب على جزء آخر من تركية أو رفضه » ، ولا يفهم من هذا الكلام ما اذا كان المستر لويد جورج يقصد جزءاً آخر من الامبراطورية العثمانية بعينه ام لا ومهما يكن من الامر فانه لم يقصد سورية .

لقد أثارت فكرة التحقيق كذلك مخاوف الصهيونيين وأشياعهم الذين خشوا استحالة تحقيق آمالهم بنتيجته الا باللجوء الى القوة فقد عاد السير مارك سايكس الى باريس في أوائل فبراير يحمل أنباء مقلقة بنتيجة رحلته التي استغرقت اكثر من شهرين قضاهما في سورية وفلسطين فان الامور التي شاهدها في هذه

الرحلة فتحت عينيه الى بعض الحقائق التي غابت عن ذهنه في السابق وقد تأثر بصورة خاصة بالفارق العظيم الذي اكتشف وجوده ما بين الصهيونية كما فهمها آنفاً والصهيونية التي شاهد تطبيقها في فلسطين ولمس أثرها في اذهان العرب .

« . . . عاد الى باريس ونفسه مشمئزة من البغضاء الشديدة التي اثارتها الصهيونية في البلاد المقدسة بعد أن كان خلال الحرب داعية لها ، لان الامور تطورت حتى اتخذت شكلا يختلف تماما عن الشكل الذي كان يتصور الصهيونية فيه . وقد نبهت زيارته الاخيرة لفلسطين بعض الشكوك في نفسه ولم تمح هذه الشكوك بزيارته رومة حيث اعترف للكاردينال غاسكيه انه عدل آراءه في الصهيونية وانه مصمم على ان يتناول الحالة الخطرة التي أخذت تنمو بسرعة بتعريف الناس عليها وبالارشاد والعمل على ازالة خطرها ان امكن . » (١)

لقد أصاب آراء سايكس تحول مماثل في موضوع اتفاق سايكس بيكو اذ قنع بانه لا يتفق وحقيقة الاوضاع القائمة وان السعي الى تطبيق احكامه عبث ولهذا استعجل العودة الى باريس، بالرغم من شعوره بالاعياء الذي ولدته الرحلة ، وعزمه معقود على بذل قصارى جهده لتصحيح الآمال الكاذبة وايقاف الاطماع التي خيل اليه الآن انها جنونية ولكنه مرض ثم توفي بعد عودته بايام قليلة . ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان وفاته في تلك المرحلة تكاد تعتبر كارثة حلت باليهود والعرب والبريطانيين وحتى الفرنسيين على السواء ومما لا شك فيه انه لو عاش لتمكن من ملء السياسيين بالقلق الذي هو في كثير من الاحيان بداية الحكمة في السياسة وذلك بنقله الحقائق

---

(١) من كتاب شين لزلي (حياة مارك سايكس ورسائله) — ١٩٢٤ .

وتقديره للنتائج . نقول هذا معترفين باننا لا نقصد الادعاء بان فرداً واحداً ، مهما كان صادقاً وذا دراية وقوة ، كان يستطيع تلقيح عمال السلم في فرساي بما تجيش به نفسه من الشعور بالحق .

قابل سايكس لويد جورج وبلفور والكثيرين من اصدقائه الفرنسيين والصهيونيين وشرع بحملته لاعادة الناس الى الصواب وهي الحملة التي وطد العزم على القيام بها وقد بذل هذا النشاط كله في الايام القليلة التي سبقت مرض موته . لم يُعرف الاثر المحتمل الذي تركته تحذيراته في حينها ولكن المعروف ان قلقاً شديداً ومتزايداً اخذ يسود الدوائر البريطانية والفرنسية والصهيونية عندما شرعت تفكر جدياً بتنفيذ اقتراح فيصل لاجراء التحقيق في البلاد صاحبة العلاقة وكان ذلك بعد وفاة سايكس باسابيع قليلة حتى أن بلفور رفع مذكرة إلى رئيسه حثه فيها على عدم إجراء أي تحقيق في فلسطين بينما راح كليمنصو يصر على أن فرنسة لا ترضى باجراء التحقيق ما لم يتناول العراق وفلسطين بالاضافة إلى سورية .

— ٦ —

عاد فيصل إلى دمشق في أوائل مايس عام ١٩١٩ فوجد أن الأفكار ما زالت مضطربة والقلق على مستقبل البلاد سائداً وقد أخذت الجمعيات السياسية والزعماء السياسيون يستوضحونه الأمر ويلحفون كما أخذ الناس يطالبونه بتنوير الجمهور ببيان يطلعهم فيه على حقيقة الموقف فيما يتصل بتحقيق الأماني القومية فقابل ذلك كله بالتحفظ ولم يطلع أحداً ، غير عدد محدود من أعوانه القريبين ، على خيبة أمله ومخاوفه بينما راح في خطبه العامة يؤكد الآمال المعقودة على مجيء لجنة التحقيق التي تمثل الحلفاء .

ومع ذلك فقد انتشر الاحساس بالذعر بين الناس وبذلت المساعي المنظمة لاهاجة الجمهور ضد فيصل بسبب تكتمه الذي وصف صراحة بانه موضع الشك

لعدم وجود مبرر له وفي هذا الوقت تقدمت جماعة من الزعماء المسئولين باقتراح تشكيل مجلس وطني وكان على رأسهم أعضاء حزب شكل مؤخراً باسم (حزب الاستقلال العربي) الذي كان في الواقع صورة جديدة لجمعية (الفتاة)(١) فأيد فيصل الحركة وحاول توجيهها في طريق دستوري ونظامي فأجريت انتخابات سريعة للضرورة ولم تقتصر على ذلك الجزء من سورية الواقع تحت الادارة العربية (أي المنطقة الشرقية من بلاد العدو المحتلة) بل تجاوزته الى المنطقة الغربية التي يديرها الفرنسيون والمنطقة الجنوبية التي يديرها البريطانيون وفي اليوم الثاني من شهر يولية التأم في دمشق المجلس الوطني الذي أصبح من ذلك التاريخ معروفاً باسم المؤتمر السوري العام .

كان المفروض أن يمثل كل جزء من أجزاء سورية عدد متساو من المندوبين ولكن السلطات الفرنسية منعت بعض ممثلي المنطقة الغربية من السفر الى دمشق فحضر جلسة الافتتاح تسعة وستون مندوباً من مجموع خمسة وثمانين انتخبوا لتمثيل سورية وفلسطين وبينهم عدد من المندوبين النصارى تفوق نسبته المجموع العددي لسكان النصارى في البلاد وانتهت أبحاث المؤتمر باتخاذ عدد من المقررات ، باجماع يكاد يكون منقطع النظير ، عرّفت الأهداف القوميـة في سورية وفلسطين والعراق .

---

(١) رأت هيئة (الفتاة) أن الحاجة الى الكتمان قد زالت فأذاعت سر وجودها في دمشق بتاريخ ٥ فبراير عام ١٩١٩ وأعلنت أنها ستستمر في عملها السياسي بصورة علنية وباسم (حزب الاستقلال العربي) فزاد عدد الأعضاء زيادة كبيرة في الشهور التي أعقبت هذا الاعلان وامتد نشاط الجمعية ونفوذها الى العراق بالاضافة الى سورية وفلسطين ، وكثيراً ما يطلق على أنصارها اسم (الاستقلاليين) للتفريق بينهم وبين أعضاء الجمعيات الأخرى التي ترمي إلى أهداف مماثلة .

لقد أثبتنا نص هذه المقررات في الملحق (ز) وتعود قيمتها إلى أنها تحوي إيضاحاً موثوقاً لموقف العرب من القضايا القائمة وبالرغم من أن انتخاب الأعضاء تم على عجل[١] مما حال دون اتباع الأصول الانتخابية المتادة بكاملها وفي كل الجهات فانه لايشك أن المؤتمر كان يمثل الأمة تمثيلاً صحيحاً وبكل معنى الكلمة كما أثبتت الوقائع فيما بعد، وان مقرراته كانت انعكاساً فعلياً لآمال الكثرة الغالبة من الناس ومخاوفها، وان هذه المقررات تعتبر مفصحة عن الآراء والأحاسيس المنتشرة بين السكان انتشاراً واسعاً وعلى هذا فكان نص المقررات مقياساً صحيحاً للهوة السحيقة الفاصلة بين اماني العرب وبين مطامع الحلفاء التي انكشفت للملأ في باريس.

تقع المقررات في عشر مواد وتتضمن مطالب يمكن تلخيصها بما يلي:

(آ) الاعتراف باستقلال سورية وبضمنها فلسطين كدولة ذات سيادة وتنصيب الأمير فيصل ملكاً عليها والاعتراف باستقلال العراق.

(ب) نقض اتفاق سايكس بيكو ووعد بلفور وكل مشروع يرمي الى تقسيم سورية وإنشاء دولة يهودية في فلسطين.

(ج) رفض الوصاية السياسية التي ينطوي عليها نظام الانتداب المقترح، وقبول المعونة الاجنبية لمدة محدودة على شرط الا تتعارض مع الاستقلال والوحدة القومية، وتفضل معونة الولايات المتحدة على سواها فان لم تكن فمعونة بريطانية.

(د) رفض معونة فرنسة مهما كان شكلها.

اتخذت المقررات في جو من الحماس الوطني الشديد الذي يلفت النظر ولم يرتفع صوت بالمخالفة إلا من جماعة من النواب اعترضوا على المادة التي تقول بقبول المعونة الاجنبية اما المواد الأخرى فقد اقرت كلها بالاجماع التام واخذت البلاد من اقصاها

(١) كان سبب الاستعجال اعتقاد فيصل بان مجيء لجنة التحقيق التي تمثل الحلفاء لن يتأخر.

الى اقصاها تردد صدى الرغبات التي اعرب عنها المؤتمر فقامت المظاهرات في جميع اجزاء سورية التي لم يكن للفرنسيين سيطرة عليها وأخذت الوفود تؤم العاصمة وتهتف باسم الامير فيصل وتحيي المؤتمر .

— ٧ —

ان اقتراح ارسال لجنة تحقيق تمثل الدول الاربع لم ينفذ قط وان القرار الذي اتخذ يوم ٢٥ مارس كان في الاسابيع التي اعقبت صدوره هدفا لحملة شديدة من التشويه والدس ادت الى تحطيم المشروع الاصلي وكانت وزارة الخارجية الفرنسية تقود هذه الحملة بينما تذرعت الحكومة البريطانية بعداء الفرنسيين والصهيونيين للفكرة لكي تتراجع عن تأييدها الاول ، والواقع انها لم تتحمس لها في وقت من الاوقات وقد زاد في فتور موقفها الآن تقرير امتداد التحقيق الى فلسطين والعراق . واتخذت ايطالية موقف عدم الاكتراث اذلم يكن لها مصلحة مباشرة فظل الرئيس ويلسون وحده متمسكا بتأييده . وقد عارض بعض اعضاء الوفد الامريكي في اجراء التحقيق مدفوعين لا بعوامل المصلحة القومية بل لاعتقادهم بان في باريس مايكفي من الوسائط لاثبات الوقائع فان لم توجد امكن جلبها وان مجيء لجنة كهذه الى سورية قد يزيد في الغليان وينمي الآمال الجسام التي يصعب تحقيقها فيما بعد ، ولكن الرئيس ويلسون اصر على اجراء التحقيق المحلي ولو قام به الممثلون الامريكان بمفردهم .

وجهت التعليمات الى الممثلين الامريكيين اللذين انتقاهما الرئيس بان يختارا معاونيهما ويستعدا للسفر وقد أطلق عليهما رسميا اسم (القسم الامريكى من لجنة الانتدابات الدولية في تركية) (١) ولكن الاسم الذي شاع بين الناس هو (لجنة

(١) «American Section of the InternationalCommission On Mandates in Turkey » .

كنغ - كراين) وهو الاسم الذي سنطلقه عليها هنا (١) .

وصلت اللجنة الى يافا يوم ١٠ يونيو وقضت ستة أسابيع في فلسطين وسورية فتوسعت في التحقيق الى أقصى حد ممكن في ذلك الوقت وقابلت عدداً كبيراً من الوفود في ما يقارب الاربعين مدينة ومركزاً في الارياف وتلقت ما ينوف عن ١٨٠٠ عريضة وعملت على فسح المجال أمام الجميع للاعراب عن آرائهم بانواعها المختلفة دون قيد . ثم قامت اللجنة بزيارة قصيرة لكيليكية ذهبت بعدها الى القسطنطينية حيث كتبت تقريرها وعادت الى باريس في الاسبوع الاخير من شهر آب فسلمت صورة عن التقرير الى امانة سر وفد الولايات المتحدة بتاريخ ٢٨ منه وبعد فترة وجيزة أبحر الدكتور كنغ الى نيويورك حيث عمل على ارسال التقرير الى الرئيس ويلسون باقرب الطرق .

اصبح تقرير كنغ — كراين اليوم ملكاً للجمهور ولكن جميع من لهم صلة به ومنهم الرئيس عدوه وثيقة سرية في البداية ولا يعرف ما اذا كان الرئيس اتخذ أي اجراء أم اكتفى بارسال صور التقرير الى الحكومات الحليفة لأن كنغ حين وصل الى نيويورك وأرسل التقرير الى واشنطن في اواسط ايلول كان ويلسون قد بدأ رحلته الخطابية التي انتهت بمرضه الخطير ولهذا فانه يشك في ما اذا طالع التقرير كله وان كان مطلعاً على اتجاهاته العامة من الخلاصة التي كان المضوان قد ابرقاها له . وفي عام ١٩٢٢ لما استؤذن باذاعة التقرير أذن بنشره دون تردد فظهر نصه الكامل في واحدة على الاقل من صحف امريكة (٢) .

---

(١) كانت اللجنة مؤلفة من عضوين هما الدكتور هنري كنغ والمستر تشارلز كراين ، وثلاثة مشاورين هم الاستاذ البرت لايبر والدكتور جورج مونتغوميري والرئيس (كبتن) ويليام ييل والرئيس (الكبتن) دونالد برودي الذي قام بوظيفة امين السر وامين الصندوق . (٢) ان النص الذي اعتمدناه هو الذي نشر في صحيفة (المحرر والناشر — Editor and Publisher) الصادرة في نيويورك بتاريخ ٢ ديسمبر عام ١٩٢٢ وهي صحيفة موثوقة ومعتمدة .

ان تقرير لجنة كنغ — كراين يعتبر وثيقة ذات أهمية بالغة لأنه المصدر الوحيد الذي يجد فيه المؤرخ تحليلاً خالياً من الغرض وذا نظرة لاترى غيرالناحية الموضوعية (١) وهو تحليل للشعور السائد في الدوائر السياسية العربية بعد الحرب مباشرة فكان تحقيق اللجنة المحاولة الوحيدة التي بذلها مؤتمر الصلح لمعرفة حقيقة اماني العرب والتأكد منها محلياً ولو لم تفعل اللجنة غير ذلك لاستحقت ابحاثها اهتماماً خاصاً . وقد زاد كثيراً في قيمة التحقيق ان الهيئة التي قامت به لم تكن ذات اطماع قومية تود تحقيقها، وانها تناولت مهمتها بتفكير واسع، وان الشخصين القائمين عليها معروفان بتفكيرهما المستقل وقد اجتمعت فيها بشكل عجيب خصائص التعمق والحكمة وهي من الخصائص التي حوى التقرير كله دلائل كثيرة على وجودها. ولعل ابرز صفاته اعتدال استنتاجاته وتواصيه التي لا يشك في صدقها(٢) .

حبذ التقرير بسط الانتداب على سورية وبضمنها فلسطين وعلى العراق ، شريطة أن تكون مدته محدودة وان يكون هدفه الوحيد ايصال البلاد الى الاستقلال بما يمكن من السرعة وبحسب الظروف والاحوال . وقد أوصى بمعاملة بلاد العراق على انها قطر واحد والمحافظة على وحدة سورية وبضمنها فلسطين مع الاحتفاظ بالحكم الذاتي في لبنان داخل اطار الوحدة السورية وأن تكون الدولة المنتدبة على كل العراق واحدة وكذلك الدولة المنتدبة على سورية ومعها فلسطين وأن يقوم الحكم في كل منها على أساس الملكية الدستورية فيولى الأمير فيصل ملك سورية ويولى ملك عربي آخر عرش العراق على أن يجري استفتاء بشأنه .

---

(١) أي (objective) .

(٢) لقد اثبتنا في الملحق (ح) نص التواصي المتعلقة بسورية وفلسطين والعراق وبالرغم من ان اللجنة لم تزر العراق إلا ان التقرير بحث في مصيره بالاستناد للمعلومات التي جمعت في سورية .

أما فيما يتعلق باختيار الدولة المنتدبة فقد وجدت اللجنة ان الرأي متفق في سورية على رفض الحماية في ثوب الانتداب وانه ميال ميلاً قوياً نحو قبول المعونة التي تقدمها الولايات المتحدة فان لم تكن فبريطانية العظمى وأما فرنسة فان وجودها غير مرغوب فيه بأي شكل من الاشكال . وبعد ان حللت اللجنة الوقائع كما وجدتها اوصت في تقريرها بأن يعهد الى الولايات المتحدة بمفردها بالنهوض بمهمة الانتداب على سورية كلها والى بريطانية بالانتداب على العراق واضافت بان امريكة اذا لم تتمكن من القيام بمهمة الانتداب على سورية وجب على بريطانية أن تتولاه . ووجدت اللجنة انها لاتستطيع الايصاء بالانتداب الفرنسي الذي اذا وقع نشبت الحرب بين العرب والفرنسيين واضطرت بريطانية الى تحمل نتائجها ذات الخطر الشديد .

افرزت اللجنة مكاناً كبيراً في تقريرها لتحليل المشكلة الصهيونية فقالت ان العضوين شرعا بدراسة الصهيونية وفكرهما متجه سابقاً الى تأييدها ولكنهما اصبحا يوصيان بلزوم كبح جماح الطموح الصهيوني بعد الذي شاهداه من الحقائق الراهنة في فلسطين حيث استمعا الى اقوال ممثلي اليهود فقنعا بأن هدف الصهيونية هو تجريد السكان غير اليهود في فلسطين من كل مايملكونه سالكين مختلف الطرق لتحقيق ذلك وهذا ما دعاهما الى القول في التقرير ان عملاً كهذا هو تعد شنيع على حقوق الشعب وشذوذ عن المبادئ التي أعلنها الحلفاء والرئيس ويلسون ولو تم تحقيقه في حدود القانون . وقد اجمع الضباط البريطانيون الذين باحثهم اللجنة على ان المشروع الصهيوني لايمكن تنفيذه إلا بقوة السلاح ولهذا أدركت اللجنة الواجب الملقى عليها فاوصت بلزوم اختصار هذا المشروع الى حد بعيد وبأن تحدد هجرة اليهود نهائياً وتنبذ فكرة جعل فلسطين دولة يهودية .

كان من المتوقع ان تقريراً كهذا ينطوي على الصراحة والقوة لايروق قط لرجال السلام الجالسين في فرساي وهذا ما حدث بالفعل اذ أمروا بحفظه وأهملوه ولم

يأخذ به أحد حتى في واشنطن . وفي أثناء السنوات الثلاث التي سبقت نشر التقرير على الجمهور كانت فرنسة وبريطانية قد وجدتا (تسوية) من صنعها وبدأتا بفرضها على البلاد وقد أهملتا فيها رأي لجنة كنغ — كراين اهمالاً تاماً تبين فيما بعد انه لاينطوي على شيء من الحكمة .

— ٨ —

دعا المستر لويد جورج الامير فيصلاً في آب لزيارة انكلترة ثانية وكان التوتر بين بريطانية وفرنسة حول القضية العربية آخذاً بالازدياد بشكل خطير فمن الجهة الفرنسية شن الساسة من المدرسة الاستعمارية حملة ادت الى اجتماع قسم من الرأي العام المتنفذ حولهم كما اخذت تصيح وهي توجه في بعض الاحيان اشنع التهم للاعمال التي وصفتها للجمهور بأنها دسائس بريطانية فظيعة وفي شهر يولية قام المسيو روبير دوكاي وهو من الكتاب المعروفين ومن الثقاة في السياسة الفرنسية الاستعمارية بكتابة مقال في (نشرة آسية الفرنسية) (١) هاجم فيه بريطانية بشدة فاثار ضجة كبيرة لا تتناسب مع قيمته الحقيقية لانه كتب بلغة مثيرة وجمع بين العلم والحماس وقد جنح الكاتب الى القول بان بريطانية تحاول التخلص من التزاماتها الناشئة عن اتفاق سايكس بيكو وانها لذلك عمدت الى الاساليب الملتوية ومنها تشجيع العرب على معارضة « حقوق » فرنسة في سورية .

ولم تهمل بريطانية شأن هذه الحملة واخذت صحافتها نفسها بصد بعض الهجوم على ان الذي اثر في توجيه السياسة هو عامل آخر : زيادة نفقات الجيوش البريطانية في سورية وكيليكية وكلاهما واقع خارج البلاد التركية التي ترغب بريطانية اخذها فلم يكن لها مصلحة في ابقاء جنودها في تلك البلاد حتى يعقد الصلح . عندئذ ادرك المستر لويد جورج ان الفرصة سانحة فعمل فوراً على انتهازها اذ تقدم من كليمنصو باقتراح له فائدة مزدوجة لانه يرضي فرنسة ويخفض النفقات التي تتكبدها بريطانية .

(١) Buleltin de l'Asie Française

ولم يكن ارضاء فرنسة ممكناً الا باعطائها حصتها من سورية كما نص عليها اتفاق سايكس بيكو . لقد اوضح المسيو دوكاي القضية بجلاء تام في مقاله اذ قال ان اتفاق سايكس بيكو، بالرغم من انه وثيقة مزورة لانه مسبوق باتفاق مكماهون مع الحسين، الا ان « حقوق » فرنسة في الانتداب على سورية انما هي وليدة لتقاليد قديمة فلا يمكن ان ينازعها احد عليها والرأي الفرنسي يحتم اعتراف بريطانية بهذه الحقوق كشرط اساسي لايجاد التفاهم بينها . ولم ينطو اقتراح لويد جورج على اعتراف تام بتلك الحقوق بل جاء بنصف اعتراف وعمل على تخفيف عبء المكلف البريطاني ، ولم يبق امامه الا ان يعرف ماذا كان العرب يقبلون به ولهذا دعي فيصل لزيارة اوربة .

قام الاقتراح على اساس جلاء الجيوش البريطانية عن سورية وكيليكية لكي تحل محلها الجيوش الفرنسية في المنطقة الشمالية اي كيليكية وفي المنطقة الغربية من سورية والجيوش العربية في المنطقة الشرقية من سورية فينفرد العرب باحتلال العقبة وعمان ودمشق وحمص وحماه وحلب وتوابعها بينما وضع الساحل السوري بكامله الواقع غرب خط سايكس بيكو (١) تحت الاحتلال الفرنسي وحدد اول نوفمبر للشروع بالجلاء على ان تبقى فلسطين اي المنطقة الجنوبية الواقعة الى غرب نهر الاردن في عهدة الجيش البريطاني .وحوى الاقتراح كذلك مايحفظ للحكومة البريطانية حق بناء سكة حديدية وانبوب للنفط لربط العراق بالبحر الابيض المتوسط عند حيفا « وفقاً للمبادىء التي قررها اتفاق سايكس بيكو ».(٢)

شرح المستر لويد جورج اقتراحه في اجتماع المجلس الاعلى في باريس بتاريخ

(١) ان لون هذه المنطقة على المصور ازرق .

(٢) نشر دافيد هنترميلر في الجزء السادس عشر من كتابه (مذكراتي عن مؤتمر باريس) نص المذكرة البريطانية التي تضمنت اقتراح المستر لويد جورج .

١٥ سبتمبر فوافق كليمنصو حالاً على البنود المتعلقة باحلال الجيوش الفرنسية محل الجيوش البريطانية واشترط الا تؤثر موافقته هـذه في التسوية النهائية المتعلقة بالانتدابات والحدود وكان قصد كليمنصو من وراء هذا القيد تحقيق رغبة فرنسة في نيل حق جديد هو الانتداب على سورية الشرقية عندما يحين الوقت لان حكومته لم تكن راضية قط عن قيام حكومة عربية فيها مستقلة عن اشراف فرنسة.

وصل فيصل الى لندن في ١٩ سبتمبر وقابل رئيس الوزراء ووزير الخارجية بالوكالة في اليوم نفسه فلما اطلع على ماحدث في باريس اعترض على اقتراح لويد جورج بشدة وبعد اجتماعات كثيرة وعقيمة بينه وبين الرئيس وبعض الوزراء قدم مذكرة احتجاج رسمية مؤرخة في ١١ اكتوبر اوضح فيها الاسباب التي تدعو العرب الى عدم القبول بالتدابير المقترحة في المذكرة البريطانية.

قال فيصل في المذكرة (١) انه لم يسحب قواته الى داخل سورية بعد اعلان الهدنة بقليل الا على اثر تلقيه تأكيداً صريحاً من اللنبي بان الجيوش البريطانية ستحافظ على مواقعها حتى تتم التسوية النهائية في مؤتمر الصلح فهو لا يقصر احتجاجه على التدابير المقترحة نفسها بل يحتج كذلك على ايرادها كنتيجة طبيعية لاتفاق سايكس بيكو الذي لم يكن العرب طرفاً فيه. وقد استند الى التأكيدات التي تضمنها التصريح الموجه الى السبعة (١٦ يونيو عام ١٩١٨) والتصريح البريطاني الفرنسي (٧ نوفمبر ١٩١٨) حين بين عدم امكان قبول الاقتراح البريطاني ثم اورد حجة قوية لطلبه عقد مؤتمر يضم الدول المعظمة الثلاث بريطانية وفرنسة والولايات المتحدة لبحث قضية البلاد العربية وتقرير مصيرها بالاستناد الى العهود التي قطعها الحلفاء والمبادئ التي اعلنوها.

كان الاحتجاج الذي وجهته المذكرة شديداً في حكمه وكانت القضية

(١) تكرر نشر هذه المذكرة كثيراً في الصحف العربية ولا سيما في العدد المؤرخ في ١٤ سبتمبر عام ١٩٣٤ من جريدة (الجامعة الاسلامية) التي تصدر في يافا.

المطروحة عادلة وكانت الحكومة البريطانية تعلم بأنها لا تستطيع التعرض لها ، ومما زاد في حراجة موقف البريطانيين ما ترجح لديهم من أن نية فرنسة معقودة في النهاية على احتلال سورية الشرقية فدفعهم علمهم بهذا الأمر الى الضغط على فيصل لكي يدخل في مفاوضات مباشرة مع كليمنصو وكان أملهم كبيراً في أن اتفاقاً يعقد بين الفرنسيين والعرب يخلصهم من ورطتهم ويبدد شكوك حلفائهم الفرنسيين .

وتوصل فيصل الى الاتفاق مع الفرنسيين . لقد أدرك أن دعوته الى عقد مؤتمر بين الدول على الفور قد لاقت آذاناً صماء فانحنى أمام الضغط البريطاني وذهب الى باريس حيث اجتمع بكليمنصو يوم ٢٧ نوفمبر وتباحثا في وضع اسس الاتفاق موقت بين الفرنسيين والعرب ثم اقراها وهي تقضي بان تحترم المملكة العربية في الداخل احتلال فرنسة لبنان وسائر المناطق الساحلية لسورية حتى الاسكندرون في الشمال على ان لا يمتد هذا الاحتلال الى البقاع[١] الذي يصبح منطقة حياد ما بين الادارتين الفرنسية والعربية ، وقضت كذلك بان الدولة العربية بعد الان تعتمد على فرنسة للحصول على اية معونة قد تحتاجها واعتبر الاتفاق موقتاً ريثما تقرر التسوية النهائية في مؤتمر الصلح .

يظهر من قبول فيصل بهذا الاتفاق أنه سلم بأمور لا يملك حق التنازل عنها بحكم التعليمات التي زوده بها والده وبسبب الشعور السائد في العالم العربي والذي يعارض تقسيم سورية وفرض أي نوع من انواع الوصاية الاجنبية ، أدرك فيصل كل ذلك ولكنه أدرك ايضاً انه ان لم يتفاهم مع كليمنصو لم يبق امام العرب الا ان يقطعوا علاقاتهم بالحلفاء ، وكان مما يجعل الاتفاق مقبولا في نظره انه موقت وعرضة للتعديل عند البحث في ايجاد حلول نهائية للقضية العربية بفضل التأييد الذي ما زال يمني النفس به من جانب الحكومة البريطانية والولايات المتحدة .

(١) وهو السهل الواقع ما بين سلسلتي لبنان الغربية والشرقية وتقع بعلبك في وسطه .

ان الكثيرين من مادحي فيصل وقادحيه يتهمونه بالضعف ،ويضرب نقاده اتفاقه مع كليمنصو مثلا لذلك . ان هذا الانتقاد جائر من حيث انه يهمل الميل المستقر في نفس فيصل للاخذ بالحلول السلمية كما يهمل صفة بارزة فيه وهي سرعة اعتقاده بصدق مخاطبه في تلك الايام التي مازالت أساليب الدبلوماسية الاوربية واحابيلها غريبة عليه . لقد بلغ اعتقاده بعدالة القضية العربية وقوة سندها حداً حمله على اقناع نفسه بانه لاينقصها لكي تتحقق امانيها سوى فسح المجال لبسطها امام محكمة للدول تجلس الولايات المتحدة فيها مع القضاة ، ثم ان عزم الحكومة البريطانية على الجلاء عن سورية يؤدي الى اصطدام محتم بين القوات الفرنسية والعربية ما لم يتوصل الطرفان الى عقد اتفاق موقت ريثما تتوطد دعائم السلام الدائم ، وكان فيصل حكيما بعزمه على تجنب الاصطدام.فاذا فكر الباحث في هذا المزيج العجيب من الحكمة وسلامة النية فقدت تهمة الضعف المجرد الشيء الكثير من قوتها .

بقي فيصل في أوربة لظنه بان مؤتمراً للدول المعظمة وشيك الانعقاد اخيراً واما ادارة شئون سورية فقد عمل كل ما في وسعه لضمان سيرها الحسن عن طريق الاتصال المستمر بينه وبين أخيه الامير زيد الذي انابه عنه في دمشق .

— ٩ —

بدأت الاستعدادات للجلاء البريطاني في الاسبوع الاول من نوفمبر ففسر ذلك في سورية ،كما كان منتظرا ، بانه مقدمة لتسليم فرنسة لبنان والمناطق الساحلية الواقعة في شماله بصورة نهائية ولم يمض طويل وقت حتى أخذ التذمر يظهر في شكل أعمال عدائية وتلقت البلاد نبأ اتفاق فيصل كليمنصو بالاستهجان الذي ما لبث ان تحول الى هجوم علني اذ اخذ الناس يشعرون بان فيصلاً باع البلاد الى الفرنسيين فاخذت الحوادث تقع في اماكن مختلفة وقد بدأت بمناوشات بسيطة بين القوات العربية والفرنسية ولكنها سرعان ما انقلبت الى اصطدامات عنيفة وخطيرة

ومتزايدة ولاسيما بالقرب من طرابلس وفي بعلبك وفي الجنوب في منطقتي مرجعيون واعالي نهر الاردن .

قرر فيصل العودة الى سورية في زيارة قصيرة يحاول فيها تخفيف حدة التوتر والحصول على تفويض صريح من المؤتمر السوري يخوله صلاحيـة متابعة المفاوضات في باريس فوصل الى بيروت يوم ١٤ يناير عام ١٩٢٠ وتابع سيره الى دمشق حيث استقبل بشيء من الفتور لمسه كذلك في حلب حين زارها بعد اسبوعين وقد وجد الزعماء في حالة من اليأس والفزع الناشيء عن تقديرهم للنتائج التي قد تترتب على تفاهمه مع كليمنصو وانعكس موقف الزعماء هذا في المظاهرات الصاخبة التي سارت في الشوارع وهي تنادي مطالبة بالوحدة والاستقلال فبذل جهده لاقناع الزعماء بالموافقة على عودته الى باريس ومعه وفد منهم ولكن ابحاثه التي ثابر عليها بصبر وتحمل وحججه الدامغة كانت تلقى على الدوام جواباً واحداً ومتكرراً وهو أن مفاوضات باريس لاتصلح أساساً للبحث مادامت تهدف الى تقسيم سورية الى فلسطين ولبنان وسورية الشرقية ومادامت تقر احتلال الجيوش الاجنبية لبعض أجزائها .

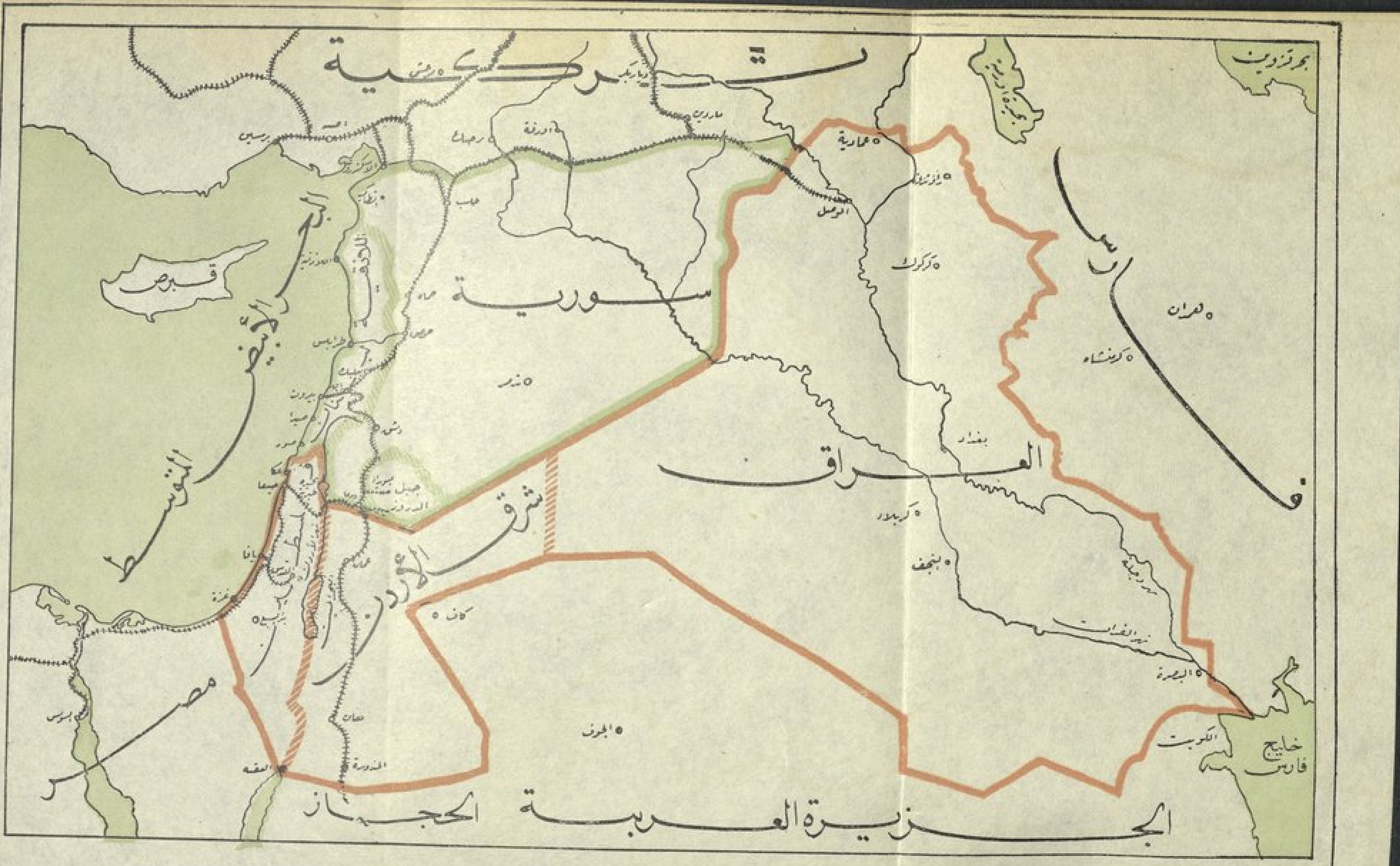
لم يسبق للعرب ان اعربوا عن رغبتهم في الوحدة ، وهي الفكرة المتأصلة في الحركة العربية نفسها ، بهذه القوة التي زاد من شأنها كون المنادين بهـا من الذين اشتركوا عملياً بالثورة العربية فضمت دمشق في ذلك الوقت وهي قلب العالم العربي عدداً كبيراً من الزعماء السياسيين وضباط الجيش والتلامذة وكلهم من ابناء فلسطين والعراق وسائر انحاء سورية وكانوا فيما بينهم يمثلون أفكار واحاسيس الكثرة الغالبة من الناس في موضوعي الوحدة والاستقلال . ولئن كان الكثيرون يرغبون في دعم الاستقلال بمعونة أجنبية ويطالبون بهـا فلم يكن هناك فرد واحد مستعد للتساهل في مبدأ الوحدة ، وحاول فيصل عبثاً ان يقنع الناس بان تجزئة سورية التي

نص عليها اتفاقه مع كليمنصو لم تكن نهائية وانه بقبولها كتدبير موقت قد قبل بما لا مفر منه. ولكن مرت الاسابيع فالشهور دون أن ينجح في تشكيل وفد يرافقه او الحصول على تفويض من المؤتمر.

اجتمع المؤتمر السوري في دمشق يوم ٨ مارس وقرر اعلان استقلال سورية وبضمنها فلسطين ولبنان كدولة ذات سيادة شكل الحكم فيها ملكي دستوري والمناداة بالامير فيصل ملكا ثم اجتمع الزعماء العراقيون واتخذوا قراراً مماثلا بشأن العراق الذي انتخبوا الامير عبد الله ملكا عليه وقد اضيف على قرار المؤتمر تحفظ يبقي للبنان حقه المكتسب في الحكم الذاتي ضمن نطاق الوحدة السورية وتقرر كذلك ان تقوم الادارة في سورية والعراق على أساس اللامركزية وهي الفكرة التي كانت موضوع الخلاف القديم بين الترك والعرب.

لم تكن هذه المقررات لتأتي بنتائج فورية وعملية مادامت بريطانية تحتل العراق وفلسطين وفرنسة سواحل سورية ولكنها على كل حال تمثل رأي الامة لانها اعلنت مبادىء الحركة العربية القومية ورغبات الشعوب صاحبة العلاقة بحيث لم يبق في نفوس مصدري التصريح الفرنسي البريطاني اي شك في حقيقة الاماني القومية. وما كان باستطاعة فرنسة وبريطانية اهمال هذا الاتجاه في الرأي العام لو شاءت حكومتاهما النظر الى مصالحهما شيء من التفكير الواسع يدفعها الى تنفيذ احكام ذلك التصريح ولكنهما لم تفعلا ذلك بل اعلنتا عدم اعترافهما بشرعية مقررات دمشق واتخذتا الاجراءات اللازمة لعقد اجتماع قريب للمجلس الاعلى ووجهتا الدعوة الى فيصل لزيارة اوربة ولم يعن استنكارهما لقرارات المؤتمر نقضاً لعهودهما قائماً على تفكير ضيق فحسب بل كان كذلك خطأً فادحاً إذ وضع العقبات مجدداً أمام فيصل في سبيل الحصول على تفويض من ممثلي الأمة.

اجتمع المجلس الاعلى في سان ريمو واتخذ مقرراته بتاريخ ٢٥ ابريل وهي



مناطق الانتداب البريطاني والفرنسي

في سورية وفلسطين والعراق

الرقم ٥

تقضي بوضع المستطيل العربي كله الممتد من البحر الابيض المتوسط الى حدود فارس تحت الانتداب ، وتقسيم سورية الى ثلاثة اقسام مستقلة هي فلسطين ولبنان وما تبقى من سورية بعد ان تقلص حجمها ، وعدم تجزئة العراق . اما الانتدابات فقد وزعت بشكل يتفق مع مطامع كل دولة فوضعت سورية ولبنان معاً تحت الانتداب الفرنسي ووضعت فلسطين والعراق منفصلين تحت الانتداب البريطاني واضيفت عبارة تقول بأن الدولة المنتدبة على فلسطين ملزمة بتنفيذ وعد بلفور ، ولم يذكر شيء عن التناقض المفضوح بين هذه المقررات وبين الرغبات التي اعلنتها الشعوب صاحبة العلاقة .

اعلنت مقررات سان ريمو يوم ٥ مايس فولدت في العالم العربي شعوراً جديداً هو احتقار دول الغرب المعظمة ولم يكن هذا الشعور ناشئاً عن انكار هدفي الوحدة والاستقلال المرموقين فحسب بل أيضاً عن النكوث بالوعد الذي كان أثره أعمق وذا قيمة اكبر لأنه يدل على التطور الذي حدث فيما بعد والانتقال من خيبة الأمل الى اليأس كما يحوي سر الاضطرابات التي اعقبت ذلك فلم تكن مقررات سان ريمو في نظر العرب سوى خيانة بغيضة ودنيئة واشتد كرههم لها واحتقارهم اياها لانها انطوت على نقض لعهد سطرته الدماء .

لا شك ان التاريخ سيؤيد وجهة نظر العرب تأييداً تاماً فان مقررات سان ريمو كيفما اريد تفسيرها انما هي نقض للمباديء العامة التي اعلنها الحلفاء والوعود الخاصة التي قطعوها ، ولا سيما بريطانية . لقد اصبح مضمون العهود التي قطعت بالسر معروفاً فاذا أضفنا الى ذلك التأكيدات التي ذكرت علناً وجدنا ان لدى الباحث من المواد الاولية ما يكفي لتكوين رأي صحيح في الموضوع . لقد دخل العرب الحرب وساهموا في كسبها وضحوا معتمدين في ذلك على تلك العهود وهذا وحده كاف لجعل الالتزامات الناشئة عنها في مقام دين الشرف ولكن مؤتمر سان ريمو انكر هـــذا الدين في الواقع وأتى بمقررات تناقض رغبات السكان في جميع النقاط الرئيسية .

— ١٠ —

ساءت العلاقات بين الفرنسيين والعرب في سورية فور انفضاض مؤتمر سان ريمو . ان الانتداب الذي سلم إلى فرنسة قد أعطاها الحرية لفرض إرادتها على فيصل وهو الأمر الذي كان بعض ساستها وموظفيها ينتظرونه من زمن بعيد أما العرب الذين ولدت مقررات سان ريمو في نفوسهم اليأس فراحوا يضغطون على فيصل لاعلان الحرب على فرنسة .

كان فيصل ممزقاً بين رسائل الوعيد الموجهة اليه من الجنرال غورو(١) وبين مطالب أعوانه الحماسية فأخذ يتردد ويحاول التوفيق . لقد رفض إعلان الحرب على الفرنسيين ولكنه تغاضى عن — ولعله شجع — الهجمات التي كان يشنها بعض الضباط الشباب من العرب على مواقع الفرنسيين قرب حدود لبنان إلا انه حين علم ان الفرنسيين أرسلوا عصابات إلى المنطقة العربية لاثارة القلاقل لم يفعل شيئاً سوى مراجعة غورو بالطرق الدبلوماسية بينما بلغ الشعور السائد بين أعوانه منتهى الغليان . وبالرغم من أن مقررات سان ريمو زعزعت ثقته من أساسها فانه لم يفقد كل الأمل في التوصل الى بسط القضية بحرية أمام مؤتمر يجمع بين فرنسة وبريطانيا وأمريكة ولم يكن مدركاً في ذلك الوقت المغزى الحقيقي للتحول الذي طرأ على شعور الأمريكان نحو شئون العالم القديم السياسية وما زال يتوق الى انتهاز المناسبة لزيارة أوربة ثانية في أقرب وقت .

على أن الأمور تطورت تطوراً خطيراً في يولية فقد كتب فيصل في أوائل الشهر الى غورو يعلمه بعزمه على زيارة أوربة فأبلغه غورو بأنه كان على وشك أن يبعث له برسالة هامة تلقاها من حكومته ، وقد أرسلها بالفعل يوم ١٤ تموز فوصلت الى يد فيصل في اليوم نفسه وكانت انذاراً يتضمن خمسة

(١) عين الجنرال غورو قائداً أعلى في نوفمبر عام ١٩١٩ ثم سمي مفوضاً سامياً في البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسي .

طلبات يلزم تحقيقها في أربعة أيام وإلا فان الحكومة الفرنسية تهدد بأن تستأنف حريتها التامة في العمل .

ان نص الانذار(١) معروف وهو يعدد سلسلة من التهم الموجهة ضد الادارة العربية في دمشق وبعضها يتعلق بالتدابير التي اتخذتها الحكومة العربية اثناء ممارستها سلطتها والبعض الآخر يتعلق بالدعوة القائمة ضد فرنسة والاعمال العدائية التي تجري بعلم تلك الحكومة ويعقب ذلك الشروط الخمسة التي يتوجب على الحكومة العربيـــة تحقيقها وهي : وضع سكة حديد رياق ــ حلب تحت ادارة الفرنسيين العسكرية ويستلزم هذا الأمر إحتلال الجيوش الفرنسية لمدينة حلب ومحطات : رياق وبعلبك وحمص وحماه، الغاء التجنيد الاجباري وتخفيض عدد الجيش العربي، والقبول بالانتداب الفرنسي قبولا مطلقاً، الأخذ بالنظام النقدي الذي فرضته الادارة الفرنسية ، معاقبة الأشخاص الذين اشتهر أمرهم باعمال العداء التي قاموا بها ضد فرنسة . وقد تضمن الإنذار ما يدل على وجود النوايا المخيفة وراءه مثله في ذلك مثل إنذار النمسة والمجر الموجه إلى العرب في يولية عام ١٩١٤ .

إن في هذا الإنذار وفي الحوادث التي أعقبته مايثبت بدون شك أن الفرنسيين كانوا عازمين على كل حال على احتلال باقي سورية وإن الإنذار ما كان إلا خطوة سياسية مقصودة لبلوغ هذا الهدف .

قرر فيصل قبول الشروط كلها بلا مناقشة فأثار بذلك دهشة أعوانه ثم غضبهم وعرض نفسه ، وهو عالم ، إلى أخطر أنواع الكراهية في نظر الجمهور ولكنـه شعر ان الفرنسيين وقد بينوا ما ينوه سيتذرعون برفضه الانذار لاحتلال دمشق ففضل أن يكون بعيد النظر ويخضع للأمر الواقع ثم يسافر الى لنـدن على الفور لاثارة الموضوع بكامله في جو مختلف . وكان الاعتماد على الحكومة البريطانية ما يزال عنصراً من عناصر سياسته وقد شجعه على المضي في تنفيذ قراره استلامه برقية من اللورد كورزون يشير عليه فيها بتجنب الاصطدام مهما كلف الامر .

(١) نشرت جريدة « النهار » الصادرة في بيروت تعريباً لهذا الانذار بكامله .

تقدمت الجيوش الفرنسية نحو دمشق واحتلتها بعد مرور عشرة أيام على تقديم الانذار بالرغم من قبوله رسمياً والشروع بتنفيذ شروطه . لم تنفع مرونة فيصل ولا تضحيته بكرامته في سبيل تحقيق الحرية فيما بعد ولا نفعت شجاعته التي جابه بها غضب أنصاره وثارت ثائرة سكان العاصمة عند ما بلغهم نبأ تقدم الفرنسيين فاتخذ التدابير لاعادة النظام فأدت الى قتل مائة من أتباعه برصاص شرطته في شوارع دمشق وقتل آخرون في محاولة باسلة للوقوف في وجه الجيش الفرنسي فلما اقترب من ممر ميسلون خالفت جماعة من الوطنيين يبلغ عددها الالفين أوامر فيصل والتقت بالقوة النظامية الصغيرة التي كانت تحمي الممر فوقفوا جميعاًفيه وقفة الأبطال ولكن بلاجدوى إذ أفنتهم الطائرات وتفوق الفرنسيين في العدة والعدد وقد قتل يوسف العظمة وزير الحربية الشاب وهو يقود وحدة صغيرة من الجند النظامي في وجه الرشاشات الفرنسية . ولما كان فيصل قد سرح القسم الاعظم من الجيش في العاصمة تنفيذاً لشروط الانذار فلم يقف أمام الفرنسيين شيء بعد ميسلون في طريق دمشق.

لا حاجة بنا الى سرد وقائع تلك الايام العشرة بالتفصيل فقد كانت ملأى بالحوادث المتعاقبة سراعا والاقوال فيها متناقضة الى حد يصعب معه الوصول الى فهم الحقيقة بخطوطها العامة الا بعد فحص طويل ودقيق . وقد أتى أنصار كل من الفريقين بالبراهين التي اقنعوا بها أنفسهم ان كل ماوقع كان نتيجة لعمل الطرف الثاني وقد ساعد تعقد الامور على نشوء نظريات متعددة . وكل ما يهمنا توضيحه هنا هو أن احتلال دمشق لم يتم كنتيجة لحوادث معينة بل تنفيذاً لخطة مقررة وأن الانذار ما كان إلا مقدمة سياسية لتنفيذ تلك الخطة وأن الطريقة الوحيدة التي كان فيصل يستطيع بواسطتها عرقلتها أو وقف تنفيذها هي اعلان الحرب على فرنسة واثارة البلاد والعشائر ضدها . أما الذين يلتمسون لفرنسة الاعذار فيقولون إنها لم تحتل دمشق وباقي سورية الادفاعا عن نفسها مثلهم في ذلك مثل الدعاة اليابانيين الذين يفسرون احتلال شانغهاي ونانكين كتدبير واقارغموا على اتخاذه للتخلص من خطر العدوان الصيني الذي يهددهم .

كان من أول اعمال الفرنسيين في دمشق دعوة فيصل الى مغادرة البلاد ففعل ذلك يوم ٢٨ يوليةومعه زملاؤه المقربون فاستقل القطار الى درعا مخترقاً ذلك السهل نفسه الممتد في أعالي حوران والذي اكتسحته قوات الثورة العربية ومعها حلفاؤها البريطانيون في موكبها المظفر المسرع نحو دمشق . وبعد درعا ذهب الى حيفا ومنها أبحر الى ايطالية حيث اقام في عزلة على شواطيء بحيرة ماجيورس حتى شهر ديسمبر التالي اذ زار لندن بدعوة من الحكومة البريطانية .

-١١-

لم يكن اعتقاد فيصل بصداقة البريطانيين له وهماً من الأوهام فان التهمة التي توجهها الدوائر العربية كثيراً لبريطانية والقائلة بانها بعد ما سخرت العرب لتنفيذ مآربها انقلبت عليهم عن عمد بعد أن ربحت الحرب . ان هذه التهمة يعوزها الدليل فإن هناك أشخاصاً داخل الحكومة وخارجها شعروا بانهم مرتبطون بعهد يلزمهم لحرصوا على السعي الى البر به بكل صدق كما كان هناك عطف صادق على فيصل وعلى القضية التي يدافع عنها ولهذا لا نخطيء اذا قلنا إن البريطانيين كانوا أصدقاء العرب الوحيدين في فرساي اللهم باستثناء الامريكان الذين عطفوا على العرب ولكن عطفهم لم يتعدالنظريات. وعليه فاذا كان فيصل ماانفك يرجع الى الانكليز ويطلب مساعدتهم مخالفاً في ذلك نصح الكثيرين من أنصاره فلأنه كان يعلم ما لايعلمون وهو انه يستطيع الاعتماد على درجة من المساعدة لشخصه وللقضية العربية عامة من جانب انكلترة مما لم يكن في مقدور دولة اخرى ابداءه .

وقد أيدت بريطانية حق العرب في الاستقلال ولا سيما في سورية وذلك في مؤتمر الصلح على الأقل . قد يجاب على ذلك بأن بريطانية لم ترغب في أخذ سورية

فلا تخسر شيئاً اذا أيدت استقلالها ومع ذلك فهناك حقيقة ثابتة وهي أن رئيس وزرائها كاد في الموقف الذي اتخذه في الشهور الاولى من عام ١٩١٩ أن يصطدم مع فرنسة من أجل سورية . ان المقطع التالي (١) المأخوذ عن محاضر المؤتمر السري الذي عقده الاقطاب الاربعة في باريس بتاريخ ٢٠ مارس عام ١٩١٩ هام جداً لأنه يكشف لنا الفارق ما بين موقف الفرنسيين والبريطانيين .

« ... قال المستر لويد جورج : إن انكلترة كانت تستطيع عقد الاتفاق (بين مكماهون والحسين) بمفردها وانها هي التي نظمت حملة سورية بكاملها فلولا انكلترة لما كانت سورية . لقد حشدت انكلترة ضد تركية جيوشاً يتراوح عددها بين (٩٠٠,٠٠٠) و(١٠٠٠,٠٠٠) من الجنود ولكن مساعدة العرب كانت ضرورية . ويستطيع الجنرال اللنبي الكلام عن هذه الناحية .

« قال الجنرال اللنبي : إن المساعدة التي قدمها العرب لاتقدر بثمن .

فاستأنف المستر لويد جورج الحديث قائلاً إن الملك حسيناً اعتمد على مضمون الرسالة المنقولة أعلاه (أي مذكرة مكماهون المؤرخة في ٢٤ اكتوبر عام ١٩١٥) حين نزل بجميع ما يملك الى الميدان فكان لمساعدته أثر مادي كبير في تحقيق نصرنا وإذا نظرنا الى الأمور من ناحيتها التطبيقية عددنا فرنسة قابلة بتعهدنا للملك حسين بتوقيعها اتفاق عام ١٩١٦ (سايكس بيكو) وكان ذلك في عهد اسلاف المسيو

(١) من كتاب ريس استانا ديكر (ويلسون والتسوية العالمية) — الجزء الثالث .

بيشون . فهو مضطر الى القول بان الحكومة البريطانية اذا قبلت الآن بضم دمشق وحمص وحماة وحلب الى منطقة النفوذ الفرنسي المباشر خانت العرب وهذا ما لا قبل لها به . انه يطلب بصورة خاصة من المسيو كليمنصو بان ينتبه الى ذلك فان اتفاق عام ١٩١٦ تم بعد كتاب الملك حسين وفي المقطع التالي من اتفاق عام ١٩١٦ اعترفت فرنسة باستقلال العرب :

« . . . وعلى هذا فان الحكومتين الفرنسية والبريطانية متفقتان على : (١) ان فرنسة وبريطانية العظمى مستعدتان للاعتراف بدولة عربية مستقلة أو باتحاد للدول العربية في المنطقتين المشار اليها بحرفي (آ) و (ب) في الخريطة المرفقة (٢) وتأييدهما على أن يتولى أمرها حاكم عربي »

« وعليه فإن فرنسة بعملها هذا! قد اعترفت عملياً باتفاقنا مع الملك حسين إذ رضيت بخروج دمشق وحمص وحماة وحلب من المنطقة الزرقاء الموضوعة تحت الادارة المباشرة ومن الواضح بالرجوع الى الخريطة المرفقة بالاتفاق ان دمشق وحمص وحماة وحلب داخلة لا في منطقة الحكم المباشر بل في المنطقة العربية المستقلة .

« قال المسيو بيشون : ان هذه النقطة لم تكن قط محل شك ولكنه تساءل كيف تعد فرنسة ملزمة باتفاق كانت تجهل وجوده عندما وقعت اتفاق عام ١٩١٦ ؟ فلم تكن فرنسة عام ١٩١٦ قد اعترفت بالحجاز بتاتاً (٢) وقد تعهدت بتأييد (دولة

---

(١) انظر الفصل الثاني من الباب الثالث عشر اعلاه .

(٢) لا يتفق هذا الزعم مع الحقيقة . والواقع أن المادة الثالثة من اتفاق سايكس بيكو اعترفت بحق شريف مكة في أن يكون له رأي في مصير البلاد العربية وقد أشير بصورة خاصة الى مستقبل فلسطين وبالاضافة الى ذلك اعترفت فرنسة رسمياً بالشريف حسين ملكاً على الحجاز — انظر الفصل السابع من الباب الحادي عشر أعلاه .

عربية مستقلة أو اتحاد للدول العربية) ولم تتعهد بتأييد ملك الحجاز . فاذا وُعدت فرنسة بالانتداب على سورية فانها تتعهد عندئذ بألا تقدم على عمل الا بالاتفاق مع الدولة العربية أو اتحاد الدول العربية. وهذا هو الدور الذي تطلب فرنسة الاضطلاع به في سورية . فاذاوعدتها بريطانية ببذل مساعيها الطيبة في هذا الامر فانه يعتقد بأن فرنسة تستطيع التوصل الى التفاهم مع فيصل » .

إن موقف المستر لويد جورج في هذا الاجتماع يدل على أن الحكومة البريطانية كانت قانعة بحق عرب سورية في الاستقلال وانها ايدته تأييداً تاماً في مؤتمر الصلح كما يقضي على التهمة الموجهة لبريطانية بأنها لم تحاول الوفاء بعهودها للعرب خارج الجزيرة . ولكنه يدل كذلك على أنها كانت شاعرة بالتناقض القائم بين رغبة فرنسة في احتلال مناطق دمشق وحمص وحماه وحلب وبين تعهداتها هي للعرب لقدقال المستر لويد جورج بالفاظ ذات معنى صريح : إن الحكومة البريطانية إذا قبلت بادخال المدن الاربع في منطقة النفوذ الفرنسي المباشر خانت العرب واضاف بأن « هذا مالا قبل لها به » هذا هو أساس الخيانة : فقد احتل الفرنسيون المدن الاربع وأدخلوها في نطاق نفوذهم المباشر بينما وقفت بريطانية موقف المتفرج المحبذ . وعلى هذا فان التهمة التي سيوجهها التاريخ لبريطانية ليست في أنها لم تبذل المساعي في مؤتمر الصلح للقيام باي واحد من التزاماتها بل في أنها لم تبذل هذا المسعى الا من أجل سورية — دون فلسطين والعراق — وانها حتى في موضوع سورية انتهت الى الموافقة على عمل اغتصابي يشكل خيانة للعرب كما اعترف رئيس الوزارة نفسه.

— ١٢ —

كان عام ١٩٢٠ شؤماً على العرب لما تم فيه من مقررات في مؤتمر سان

ريمو ، واحتلال الفرنسيين سورية بكاملها ، وتثبيت اقدام البريطانيين في العراق على أساس الحكم المباشر الذي أهمل العنصر الوطني ولو بالمظهر ، وانكشاف سياسة دعم الصهيونية بقوة في فلسطين ، فأصبح اسمه في تاريخهم (عام النكبة) وفيه أيضاً قامت اول ثورة مسلحة ضد الحلول التي فرضها الحلفاء على العرب بعد الحرب فقد وقعت اضطرابات خطيرة في تلك السنة في سورية وفلسطين والعراق حتى مر وقت كان فيه المستطيل العربي بكامله يغلي بفورة الاستياء التي كانت تعرب عن نفسها بأعمال العنف .

وقع أول واحد من هذه الاضطرابات في عيد الفصح حين ذعر عرب فلسطين من أعمال زعماء الصهيونية واقوالهم فاخذوا يهاجمون اليهود بشكل عنيف ولم تعرف الأسباب المباشرة لهذه الفتنة لأن تقرير لجنة التحقيق التي كلفت بالبحث لم ينشر قط وما زال حتى اليوم سراً مكتوماً الا في ماذهب إليه من استنتاج قبله الجميع وهو أن اللجنة ترى ان أسباب الاضطرابات سياسية وناشئة عن المخاوف التي يشعر بها السكان العرب حول مستقبل البلاد .

اما في سورية فإن المناوشات التي كانت تجري بين الفينة والفينة في النصف الأول من تلك السنة مالبثت أن تحولت عند احتلال دمشق الى سلسلة من الهجمات المنظمة في انحاء مختلفة من البلاد ففي المنطقة الواقعة بين حلب وانطاكية نجح بعض الزعماء في تشكيل قوة كبيرة من المتطوعين التحمت مع الجيوش الفرنسية التي وجهت لقتالهم على ان القوات الثائرة لم تستطع التغلب على الامداد الكبيرة التي حشدها الفرنسيون في البلاد فلم ينقض العام الا وهي مهزومة في كل مكان ولكن فشلها لم ينجح في حمل السكان على القبول بمصيرهم بل جعل الانتداب الفرنسي في

نظرهم بغيضاً اكثر من الاول كما زاد في استياء الناس وقوّى روح المقاومة فيهم .

كانت أخطر ثورة تلك التي قامت في العراق . فان الحكم البريطاني المباشر ولّد الاستياء فأخذت أعراضه تظهر طول الربيع في حركة هياج قائمة من تلقاء نفسها . ولم تكن هذه الحركة وليدة الشعور المرير بالعداء لبريطانية بل كانت ثورة في سبيل الاستقلال المسلوب وعلى الانتداب المفروض ظلماً إذ وجد الناس أنفسهم خاضعين للحكم البريطاني ترافقه مساعدة عربية اسمية بدلاً من تمتعهم بالحكم العربي يرافقه شيء من المساعدة البريطانية . ومما ساعد على اشتداد الهياج تشجيع الزعماء العراقيين المقيمين في دمشق ولا سيما فرع (جمعية العهد (١)) وهي الجمعية التي ألفها الضباط العرب في الجيش العثماني قبل الحرب والتحق معظم اعضائها بالثورة العربية . وعالج الزعيم (الكولونيل) ويلسون الحاكم المدني بالوكالة هذا الهياج بتدابير زجرية لم يكن موفقاً في اللجوء اليها وراح ينفذها بشدة واصرار عنيدين ناشئين عن اعتقاده القوي بضرورة ايجاد حكم صالح دون الالتفات الى ماقام من دلائل على رغبة العرب في الحكم الاستقلالي وتحمسهم له فاعتقل عدداً كبيراً من الزعماء وأوقع العقوبات الجزائية وعقوبة الابعاد الامر الذي زاد في استياء الناس ولم يزله لانه لم يستأصل اسبابه الحقيقية .

ثم اعلنت مقررات سان ريمو فكانت اقوى العوامل المثيرة فاشتد الهياج وصمم اليائس على الثورة وأذاعت لجنة (العهد) بياناً نددت فيه بالمقررات ودعت اهل العراق الى مجابهة استبداد الدول الحليفة بالقوة وفي يوم ١٧ يونيو اذيع على الناس أن الحكومة البريطانية قد صرحت بالدعوة الى انتخاب جمعية عمومية لسن

---

(١) انظر الفصل السادس من الباب السادس اعلاه .

قانون اساسي للعراق ولكن الاذاعة جاءت متأخرة ولم تسكن الخواطر ولا سيما انها لاتؤثر في مقررات سان ريمو . وفي أواخر يونيو وقع حادث أدى الى اشتداد الازمة وبلوغها حدها فثارت قبائل الفرات الاوسط .

لقد وصف الكثيرون حوادث الثورة العراقية ولعل الوصف الذي يمكن اعتماده اكثر من غيره هو الذي ورد في كتاب (١) ظهر مؤخراً ويمتاز بقيمته العلمية الفائقة . إن قصة الثورة العراقية هي قصة محزنة لقتال وقع بين الاصدقاء ولا يفوق فظائعه في الشدة الا الحماقة التي سببته وقد دام من يونيو الى اكتوبر فبلغ مجموع الخسائر حتى نهاية ذلك الشهر (١٠٠٠٠) اما عدد القتلى من العرب فلم يعرف بالضبط وان كان يظن انه بلغ (٤٠٠٠) واما البريطانيون فقد قتل منهم (٤٠٠) بالاضافة الى الاصابات الاخرى التي بلغ مجموعها (١٨٠٠) وكلفت الثورة الخزانة البريطانية (٤٠٠٠٠٠٠) من الجنيهات الاسترلينية وهذا المبلغ هو ثلاثة اضعاف المبلغ الذي انفقته بريطانية في الثورة العربية ثمناً للذهب والاسلحة والمؤن من أولها الى آخرها . وكانت الخسائر في الأملاك وفي موارد الثروة كبيرة جداً .

ومما زاد في خطورة الثورة انها ارتدت طابع الجهاد الديني ففي بداية الامر أي حتى أواخر يولية كان شيوخ العشائر والضباط الذين ساهموا في الثورة العربية هم قادتها ولكن بعد أسابيع قليلة وعلى أثر رجحان كفة الثوار التحق رؤساء الشيعة الدينيون بالحركة صراحة وكانوا يأملون أن يكسبوها بذلك قوة الجهاد وفي نهاية

---

(١) وهو كتاب (العراق : دراسة في النمو السياسي) الذي نشر عام ١٩٣٧ لمؤلفه فيليب ويلارد آيرلند وهو كتاب يثير الاعجاب بانصافه ودقته في اثبات الوقائع وقد اخذنا عنه بعض هذه الوقائع المتصلة بالثورة العراقية .

يولية عندما وصل نبأ سقوط دمشق بيد الفرنسيين شعر قواد الثورة أن الوقت قد حان للقيام بعمل حاسم فنشرت الدعوة العامة الى الجهاد واعلنت في أوئل اغسطس في النجف و كربلاء وهما أقدس مدن الشيعة في العراق ثم في جميع انحاء الفرات الاوسط والجنوبي وامتدت الثورة الى جهات كانت هادئة حتى اجتاحت نارها كل مكان وفي وقت من الأوقات خلال أسابيع عديدة من اغسطس وسبتمبر كانت الغلبة للثوار في جميع المناطق خلا المدن الثلاث الرئيسية بغداد والبصرة والموصل فلم يبق للادارة الانكليزية سلطة في الأرياف حيث أقام الزعماء المحليون عدداً من الحكومات الموقتة .

وفي أوائل اكتوبر وصل السير برسي كوكس العراق لتقلد مهام الحاكم المدني وكانت السلطة البريطانية قد ضعضعت كيان الثورة في ذلك الوقت ولكن الاضطراب ما زال منتشراً فاتخذ فور وصوله التدابير اللازمة لتنفيذ قرار الحكومة البريطانية المنشور في شهر يونيو السابق والقاضي بانتخاب هيئة تمثل العراق لتسن قانونه الأساسي وشكل حكومة عربية موقتة عرفت باسم مجلس الدولة وكانت مؤلفة من وزراء عراقيين ومعهم مستشارون بريطانيون لكل دائرة وكانت السلطة العليا في يد كوكس الذي أصبح لقبه الآن المندوب السامي . كانت هذه الحكومة بريطانية في حقيقتها وعربية في ظاهرها فلم تنجح في التخفيف من حدة شعور الناس ضد الانتداب كما أنها لم تقنع أهل العراق بقبول الحكم الانتدابي ومع ذلك كانت هذه الحكومة صلة الوصل بين السلطة البريطانية والسكان المتذمرين كما أنها مهدت الطريق لحدوث سلسلة من التطورات أدت مع مرور الايام الى الغاء الانتداب ومنح العراق استقلاله السياسي .

— ١٣ —

قامت في بريطانية حملة بسبب الخسائر التي منيت بها في الثورة العراقية طالب فيها أصحابها بتخفيض النفقات الناجمة عن الالتزامات الخارجية فاضطرت الحكومة البريطانية بنتيجة حاجتها للاقتصاد الى العمل فوراً فقبلت اقتراح المستر تشرشل وزير المستعمرات ودعت الى عقد مؤتمر في القاهرة في شهر مارس عام ١٩٢١ غايته دراسة الحالة في البلاد العربية واتخاذ التدابير لمعالجتها وبنتيجة مقررات المؤتمر طرأ تبدل أساسي في السياسة المتبعة في العراق كما طرأت تعديلات تقل عنه في الأهمية في ذلك الجزء من سورية الواقع شرق نهر الاردن .

دارت أحاديث كثيرة بين فيصل والسياسيين البريطانيين في الحكومة وخارجها ولا سيما مع تشرشل ولورنس الذي كان يعمل بصفة مستشار شخصي لوزير المستعمرات في الشؤون العربية وذلك خلال الأسابيع التي سبقت المؤتمر فانتجت هذه الأحاديث تفاهماً على أمر خلاصته أن الحكومة البريطانية تسلم ادارة العراق الى سلطة عربية وانها تبذل نفوذها لتضمن انتخاب فيصل ملكاً على العراق وان تدخل في مفاوضات معه لعقد معاهدة تحالف تحل محل الانتداب .

عقد المؤتمر في القاهرة يوم ١٢ مارس وكان مقتصراً على البريطانيين من موظفين وعسكريين وبينهم السير برسي كوكس المندوب السامي في العراق والسير هربرت صموئيل المندوب السامي في فلسطين فقرر المؤتمرون التوصية بلزوم وضع المسائل التي تم التفاهم عليها بين فيصل وتشرشل في لندن موضع التنفيذ في اقرب وقت ، كما اقترحوا أن يذهب فيصل الى العراق كمرشح لعرشه على أن ينصب ملكاً بعد استفتاء الشعب وأعربوا عن أملهم في ان قيام حكومة عربية في العراق تمهد السبيل لالغاء الانتداب سيؤدي الى توفير المبالغ الكبيرة بنتيجة تخفيض عدد الجيش الموجود في العراق تخفيضاً كبيراً . لقد أقنعت ثورة عام ١٩٢٠ المؤتمرين بأنه يمكن تجنب

الاسراف في النفقات بالمحافظة على العهود فكانت سياستهم « التوفير مع المحافظة على الشرف » .

وزار المستر تشرشل القدس في ٢٤ مارس حيث انصرف كذلك الى بحث التدابير التي من شأنها تخفيف الأعباء ولم تكن المشكلة التي عالجها متصلة بفلسطين اتصالاً مباشراً إلا من حيث ان الوضع الذي نشأ في البلاد الواقعة الى شرق نهر الاردن يهدد سلامة المنطقة الموضوعة تحت الانتداب البريطاني والتي شرع فيها باجراء تجربة تأسيس وطن قومي لليهود. فقد كان الامير عبد الله قد وصل بصورة غير منتظرة الى معان في نوفمبر عام ١٩٢٠ على رأس عدد من الاتباع ورجال العشائر وقد قيل ان في نيته تشكيل قوة أكبر لمهاجمة سورية والثأر لأخيه الذي أخرج من دمشق ومع أنه لم يعمل شيئاً في غضون الشهور التي اعقبت حضوره لتنفيذ نواياه فقد كانت السلطات في فلسطين قلقة لوجوده ولما يحتمل أن ينشأ عن حالة الاستياء العامة ، كانت المنطقة الواقعة في شرق نهر الاردن تابعة للادارة العربية الفيصلية في دمشق ولكن الفرنسيين لم يحتلوها واقنعت بريطانية فرنسة بالموافقة على ادخالها في نطاق الانتداب البريطاني فدعا المستر تشرشل الامير عبد الله الى القدس حيث جرت بينهما سلسلة من المباحثات حضرها لورنس وانتهت بعقد اتفاق موقت .

كان لابد من أن يكون الاتفاق مع عبدالله موقتاً اذ لم يكن باستطاعته الموافقة على أي اتفاق نهائي قبل الرجوع الى أبيه . لقد طلب عبد الله تأليف حكومة عربية تضم فلسطين وشرق الاردن (وهو الاسم الذي اصبح يطلق على المنطقة الممتدة شرقي نهر الاردن من جنوب درعا الى العقبة) فرفض تشرشل هذا الطلب لانه يتعارض مع وعود بريطانية لليهود كما انه لم يقبل بحلول عبد الله الأخرى ومنها ضم شرق الاردن الى العراق ولهذا تم الاتفاق بينهما على ان تبذل بريطانيا المساعي الطيبة مع فرنسة لاعادة الحكم العربي الى سورية وعلى رأسه الامير عبد الله على أن يبقى

هو خلال ذلك في شرق الاردن للوقوف في وجه جميع الحركات العدائية وبهذا يمهد سبيل المصالحة مع فرنسة وكانت مدة الاتفاق ستة اشهر يتلقى عبد الله فيها مساعدة مالية من الحكومة البريطانية لانشاء وابقاء قوة عربية تجند محلياً للمحافظة على الامن في شرق الاردن .

لقد قيل عن مؤتمر القاهرة أنه عمل الى حد بعيد على الوفاء بالعهود التي قطعت للعرب اثناء الحرب ولكنه ادعاء باطل إلا فيما يتعلق بالعراق الذي انتجت السياسة المرسومة في القاهرة عام ١٩٢١ الاعتراف باستقلاله في السنة التالية كما ادت فيما بعد الى عقد معاهدة تحالف بين بريطانية ودولة العراق المستقلة حلت محل الانتداب .

اما في النصف الغربي من المستطيل العربي فقد ظلت الوعود غير محققة وساءت الأمور بالمصادقة على تجزئة سورية بعد حرمانها كلها من الاستقلال اذ تركت سورية الشمالية وشأنها تحت الاحتلال الفرنسي وضعت فلسطين تحت الحكم البريطاني المباشر وأخذت دولة شرق الاردن الجديدة التي ساحت عن المنطقة الشرقية السابقة تدخل في نطاق الادارة البريطانية الانتدابية . لا يسهل ايجاد مثيل لهذا الانكار المفضوح للوعود التي قطعت وأما الادعاء بأن مؤتمر القاهرة قد بر بهذه الوعود فلا يستقيم أمام أدنى تدقيق ولو أيده لورنس بكل ما يتمتع رأيه من وزن .

كتب لورنس في هامش الصحيفة ٢٧٦ من كتابه (اعمدة الحكمة السبعة) الذي نشر عام ١٩٣٥ ما يأتي :

« ... كلفت وزارتنا المضطربة المستر تشرشل بايجاد تسوية لمسائل الشرق الاوسط فلم تمض أسابيع قليلة حتى استطاع في المؤتمر الذي عقده في القاهرة أن يسوي المشكلة كلها بايجاد الحلول التي أرى انها تفي بوعودنا في نصها وروحها حيثما كان ذلك ضمن حدود الامكان البشري ، وهذا دون ان يضحي بمصالح امبراطوريتنا أو مصالح السكان أصحاب العلاقة

فتخلصنا من مغامرتنا الشرقية التي دخلناها بسبب الحرب فخرجنا منها ويدنا نظيفة وان تأخرنا ثلاث سنوات عن الوقت الذي كنا نظفر فيه بعرفان الشعوب — بله الدول — لجميلنا — » .

ان هذا الادعاء من جانب لورنس لا يستقيم أمام أقل تدقيق فهو لذلك يحمل على الشك في صحة فهمه للقضايا المطروحة على بساط البحث. وواقع الامر أن المستر تشرشل لم ينفذ الوعود إن في نصها أو روحها الا فيما يتعلق بالعراق وان فشل مساعيه في « أن يسوي المشكلة كلها » امر ثابت بدليل التدابير القمعية التي عمدت اليها بغير جدوى كل من فرنسة في سورية وبريطانية في فلسطين لفرض الانتداب على شعب لايريده والأغرب من ذلك ادعاء لورنس بان هذه الحلول لم تضح بمصالح الشعوب صاحبة العلاقة ومع ذلك فان لملاحظة لورنس قيمة من حيث انها تكشف صفحة من صفحات علاقته بالقضية العربية ولن نهمل هذه الناحية عندما يحين الوقت، في سبيل استكمال البحث التاريخي، لتقدير مساهمته في حركة العرب القومية حق قدرها .

— ١٩ —

لم يحن بعد الوقت الذي يمكن فيه تقدير ذلك نهائياً لأن جميع الدلائل الموجودة ما زالت في الغالب تمثل طرفاً واحداً لأنها تستند الى أقوال لورنس نفسه او الى شهادة اصدقائه والمعجبين به من البريطانيين وما تزال معظم آراء الجهات العربية ذات العلاقة في الموضوع مجهولة فلا بد اذن من أن يبقى تقديرنا للدور الذي لعبه لورنس في تقدير مصير العرب محاولة موقتة حتى تعرف تلك الآراء وتقابل بما هو مطروح بين الايدي من مواد البحث في الوقت الحاضر . انه يستحق الاعجاب العظيم الذي أثارته مغامراته وكذلك الشهرة التي اكتسبها كتابه ولكن الكتاب والاعمال يحتاج كل منها لأن يتناوله المؤرخ الناقد بدرسه المتزن والهادئ وان

صفحات (اعمدة الحكمة السبعة) نفسها لتؤكد الحاجة الى مزيد من البحث والاستقصاء .

انا توصلنا خلال بحثنا وتنقيبنا إلى الحصول على مواد جديدة من مصادر عربية وقد اعتمدناها في أبواب هذا الكتاب السابقة ولكنها ليست كاملة في موضوع لورنس إلى حد يسمح لنا بابداء رأي نهائي فيه وان كان ما وقع في يدنا من الدلائل يكفي لأظهار التباين بين رأي العرب في لورنس وبين صورته المعروضة للملأ بالرغم من وجود الكثير من نقاط الاتفاق بين الجهتين اللتين اجمعتا على امور كثيرة كنبوغ لورنس في حرب العصابات ، والبراعة والإقدام اللذين امتازت بها أعماله الباهرة ، وقدرته الخارقة على التحمل ، وعظمة خدماته العسكرية ، ونجد لقاء هذه الأمور ان الكثير من أقوال العرب الموثوقة يناقض الصورة التي شاهدها لورنس نفسه وعرضها على الناس .

ان هناك حقيقة ظاهرة وهي ان ادراك لورنس للقوى العاملة في الأدوار الاولى من حركة العرب القومية كان ناقصاً وخاطئاً لا لوجود عوامل غامضة ومعقدة في الاتجاهات الخارجية للحركة غابت عن فهمه وهو ذو الفكر الحساس والحاد ، بل لقيام حواجز اللغة واختلاف الطباع التي لا يذللها أو يزيلها الاحساس المرهف والذكاء المتقد وحدهما بل ان ذلك يحتاج الى أساس من العلم مفقود عند لورنس لأن معرفته باللغة العربية لم تكن كافية وكذلك اطلاعه على الأصول التاريخية للثورة العربية . كان لورنس يعتمد على ابحاثه الشخصي اكثر من اللازم وإن جاء تقديره صحيحاً في الغالب شأنه في ذلك شأن جميع الاشخاص ذوي المشاعر الدقيقة . إن الاخطاء التي يحويها كتاب (أعمدة الحكمة السبعة) في الوقائع وفي تفسيرها لتدل على درجة بعده عن فهم سر نشوء الثورة العربية والحوادث التي أدت

الى وقوعها فيها صحيحاً وهذا بالرغم من اتصاله بالعرب اتصالاً وثيقاً مدة عامين . ان مبلغ العلم الذي يظهره ليبهر الناظر لأول وهلة ولكنه ما يلبث ان يتبين نقصه وخطأه بعد البحث والتدقيق .

انه يشك في ما إذا كان لورنس قد شعر شعوراً تاماً بجميع نواقصه وإن أشار اليها كثيراً في أقواله وكتاباته ومن ذلك انه كان عالماً بمبلغ ضعفه في اللغة العربية ومع ذلك كان يعتقد ان معرفته بها كافية لجعل العرب يظنون انه واحد منهم اذا تحدث إليهم ويدل اعتقاده هذا على ثقته بنفسه اكثر من دلالته على قوة ملاحظته لأن أمره لم يخف قط على كل من استمع إلى نطقه . وكان من المحتمل أن ينجح بين آن وآخر في اخفاء حقيقته عن أفراد التقى بهم صدفة أما أن تكون لهجته والألفاظ التي يختارها — إذا لم نشأ أن نضيف مظهره — قد خدعت أحداً في الجزيرة لمدة طويلة فهو أمر بعيد الاحتمال ، وقد قص حكاية في (أعمدة الحكمة السبعة) ذكر فيها انه حاول اتخاذ شخصية العربي أمام رجل غريب شك في أمره وأخذ يفحصه ويستجوبه فأقام البرهان على درجة مبالغته في تضليل نفسه . لقد التقينا به للمرة الاولى في سبتمبر عام ١٩٢١ فابتدرنا بالتأكيد التام على ضآلة المامه بالعربية ولكننا شعرنا بانه انما اعترف بذاك عن عمد بقصد إيراد دليل محمود على فضيلة التواضع التي يتصف بها ، وقد أضاع أثر هذا الاعتراف على كل حال بما أبداه بعد ذلك من ملاحظات فقد دام حديثنا آنئذ ثلاث ساعات تقريباً كان كلامه خلالها ، الذي تناول مواضيع متنوعة ، يفيض بالحيوية والمتعة إلا عندما شرع يتحدث عن الجملة العربية فقد كان يجيب عن اسئلتنا بفتور ناشيء لا عن عدم الرغبة بل عن عدم الاهتمام كأنه قطع كل صلة له بالموضوع ولكن ادهشتنا الآراء التي دفعته ثقته بنفسه إلى ابدائها في بعض الأمور كما أدهشنا التناقض الظاهر بين

مالدعاه من ضعف في لغته العربيـة وما رواه من حوادث تدل اذا صحت على اتقانها اتقاناً تاماً .

لعل السر في ما يحيط بلورنس من امور تبعث على الحيرة يعود الى هذا التناقض الذي يسود أقواله عن نفسه والذي يخرجـه من عالم الحقيقة فيظهر تارة كرجل من أصحاب الرؤيا وطوراً كضحية لغروره وهومتردد بين الصراحة والتكلف ويسمو أحياناً فلا يتدنى الى الاعلان عن النفس وأحياناً نراه وقد ملأ حب الظهور عليه نفسه . قد يأتي اليوم الذي يتولى فيه مؤرخ كفء إصـدرا طبعة من (أعمدة الحكمة السبعة) وقد علق عليها بملاحظاته ونقـداته معتمداً المصـادر العربية الهامة لـكي يضع أثر لورنس في موضعه الحقيقي ولا يكفي من أجل ذلك القيام بتحليل الكتاب وان كان لابد منه في أول الأمر لأنه يحوى من الأخطاء والمغالطات ما لا يمكن إرجاعه الى الذهول أو النقص في المعلومات بل هو دليل على استقرار بعض الصفات الغريبة في نفسـه كأنه وهو ذو الاستعداد للنظر الى الحياة على انها سلسلة من الصور المتعاقبة ، قد شعر بضرورة صب تجاربه في قالب واحد اجزاؤه مترابطة وقريب من المعقول ولكنه خلال ذلك سمح للاحاسيس بان تصطدم بالوقائع وكلاهما متلون بلون ميوله الخاص . ويظهر ان هذا السعي وراء قالب معين كان صفته البارزة وقد استولى عليه خياله فكان موجهاً صالحاً لافكاره دون أعماله ولعله بلغ القمة في هذا التوجيه الخيالي عندما كان يجد الوقت ملائماً لسرد تجاربه بشكل تدفعه اليه نفسه التواقة الى الابداع الادبي .

اننا نضرب مثلاً لذلك وصفه احتلال العقبة والدور الذي لعبه في رسم الخطة وتنفيذها . لقد انتهى من هذا الوصف الى القول : « سـقطت العقبة وفقاً

لخطتي «بجبودي» وهو زعم مربك للمؤرخ بسبب قيام الدلائل من جانب العرب التي يظن انها تبلغ درجة مماثلة من الاعتماد والتي تثبت العكس إذ تقول إن أول من اقترح هذه الخطة على فيصل هو عودة أبو تايه في اجتماعهما الأول في الوجه وان لورنس لم يطلع عليها إلا بعد أن أقرها فيصل وان الذي نفذها هو عودة على رأس عشيرة الحويطات ولم يساعدهم أحد من الخارج لأن هذه الخطة، وهي خطة تقليدية ويتقنها العرب اتقاناً تاماً، لم تكن بحاجة الى مساعدة خارجية لقد رافق الحملة كل من الشريف ناصر ولورنس واشتركا في القتال اشتراكاً جزئياً لا كقواد أو مستشارين بل كان ناصر ممثل فيصل الشخصي وكان لورانس صديقاً أميناً وزميلاً في الحرب أبدى الرغبة في حضور المعركة بعد تقرير الخطة في الوجه. ومع ذلك راح لورنس فيما بعد يصف نفسه بانه كان المحرك الأول للحملة وقائدها الحقيقي.

ان في أبواب الكتاب المختلفة التي تبحث في مقدمات الثورة أمثلة أخرى على ذلك فان وصفه للجمعيات السرية العربية في الباب الرابع ينطوي على أخطاء في التفسير وفي الوقائع وأما ماذكره في الباب الخامس فانه يعطي فكرة باطلة تماماً عن منشأ المفاوضات التي أدت في النهاية الى اعلان الثورة اذ لايشير قط الى عروض كتشنر التي بعث بها الى شريف مكة ولا الى أثرها في توجيه اعمال الحسين كما انه يصف المفاوضات بين الانكليز والعرب ومهمة فيصل في سورية وصفاً مشوشاً لا ينطبق على الترتيب الزمني للحوادث، ويقول عن فيصل انه كان قبل الحرب عضواً في احدى الجمعيات السرية لا بل رئيساً لها وهو قول باطل ينكر التبدل الذي طرأ على موقف فيصل عام ١٩١٥ كما ينكر قيمة هذا التحول الذي اقنع أباه بلزوم استئناف المفاوضات المعلقة. وليس ضرورياً ان تدل هذه الاخطاء على اهمال

من جانب لورنس فقد حصل على معلوماته والحرب قائمة وفي وقت مازال فيه تلك المعلومات مجزأة ولا يكاد يوجد الوقت الكافي لفحص القليل منها الذي وصل الى يده ومع ذلك فلا بد من اثبات حقيقة راهنة وهي أن المعلومات التي اوردها في الكتاب عن بعض الامور الهامة كانت خاطئة وان فهمه للقوى التي أثرت في أصول الثورة كان ناقصاً نقصاً فاحشاً .

كانت مساهمة لورنس في توجيه حركة العرب القومية ذات وجهين : عسكري وسياسي ، أما الناحية العسكرية فان العالم العربي بأسره يذكر له خدماته فيها مقرونة بالاعجاب وعرفان الجميل الصادقين وأما من الناحية السياسية فهناك شك في قيمة الدور الذي لعبه ، والانتقاد الموجه اليه يعود بالدرجة الاولى الى مساهمته في ايجاد التسوية التي اعقبت الحرب فانه متهم بتأييد ، وحتى تشجيع ، بعض التدابير التي تنطوي على انكار ما دعا اليه هو نفسه في السابق كما تناقض المصالح الحقيقية للشعوب صاحبة العلاقة . وتوجه اليه كذلك تهمة الموافقة على فرض التجزئة والاستعباد اللذين فرضا على بعض المقاطعات العربية بعد ان كان يؤكد لاصدقائه العرب دوماً اثناء الحرب ان أمراً كهذا لن يتم . وترد هذه التهم عادة بالقول بان آراء لورنس ومعتقداته لم تكن قائمة على مبادئ ثابتة بل كانت تتأثر بما يحيط به من أشياء واشخاص في وقت معين ! فانه عندما كان في الجزيرة العربية شجع العرب في آمالهم لأنه كان يشاركهم فيها عن صدق وأماني وايت هول[١] فان مصالح الامبراطورية كانت فوق كل مصلحة ولهذا عاق آماله على المستر تشرشل . كان لتلك التهم أساس من الصحة وأما هذه التفاسير فهي واهية وغير مقنعة لانها تنكر جهود لورنس في مؤتمر الصلح في سبيل انصاف العرب وقضيتهم وتنكر الدور الحاسم الذي لعبه في تبديل الاتجاه السياسي نحو العراق كما انها تهمل عامل الشك

(١) مقر دوائر الحكومة البريطانية في لندن .

الذي كانت معتقدات لورنس مبنية عليه والضغط الفكري الشديد الذي انتابه بعد ما بذل من جهود لا تكل دامت سنتين والالم الذي حز في نفسه بسبب المنازعات الدنيئة في فرساي ، وبالاضافة الى ما تقدم فان تلك التفاسير تتجاوز عن حقيقة واقعة وهي ان اهتمامه بالقضية العربية أخذ يتناقص مع مرور الأيام حتى بلغ درجة العدم وانه حين حضر مؤتمر القاهرة عام ١٩٢١ كان مشتاقاً الى « التخلص من المغامرة الشرقية التي دامت مدة الحرب » ويستطيع المرء أن يستنتج بان لورنس وزملاءه العرب في الثورة لا يفهم واحدهما الآخر وكما رسم هو صورة ناقصة للعوامل السياسية التي ارتكزت عليها الثورة واحتفظ بها حتى النهاية كذلك عجزوا هم عن فهم مايفيض به قلبه من الالم الناشيء عن الحالة التي أطلق عليها اسم (الخيانة) أو عن تمايل شكوكه والتباساته أو حتى عن ضجره النفسي الذي حمله على ان ينسجم مع الأفق الضيق بمؤتمر القاهرة وان يجد في مقرراته العزاء بعد التجربة المرة التي مرت به في فرساي .

الباب الخامس عشر

الجزيرة العربية بعد الحرب

— ١ —

لن نأتي هنا على ذكر تاريخ البلاد العربية بعد الحرب بالتفصيل لا لعدم اتساع المكان فحسب بل لأن قوى وميولاً جديدة أخذت تظهر في العالم العربي ولم تكن قبل ذلك متصلة بأسس الحركة الوطنية واتجاهاتها فاذا وضمناها اتسع معنا الموضوع وحملنا على أن نتجاوز الحدود التي وضعناها له . كما أننا لن نحاول استعراض درجة تأثير الحركات الفكرية التي ظهرت في النصف الغربي من بلاد العربية أي في سلسلة البلاد الممتدة من مصر الى شواطيء المحيط الاطلنطي لأن قصتنا مقتصرة على الاهتمام بالنصف الشرقي من العالم العربي ومنحصرة في استعراض تلك التطورات وحدها التي كانت نموذجاً لما نشأ عن يقظة العرب في القرن التاسع عشر من قوى دفعت بها في ميادين نشاطها وانتشارها الرئيسية .

تجابهنا على الفور صعوبة وهي أن دنيا العرب الشرقية كانت في ذلك الوقت ، باستثناء بعض البلاد الواقعة على امتداد ساحل الجزيرة ، جزءاً من المملكة العثمانية وكانت بهذه الصفة منقسمة الى مقاطعات تتساوى في درجة ارتباطها بالادارة المركزية فكانت تتمتع جميعها بأوضاع سياسية من نوع واحد ثم زالت السيادة العثمانية بعد الحرب فنشأت دول جديدة واشكال جديدة للحكم واختلفت الاوضاع السياسية فكان بعضها مستقلاً استقلالاً تاماً وبعضها الآخر خاضعاً لحكم دولة اجنبية خضوعا فعلياً وكان لا بد لهذا التباين من ان يؤدي الى وقوع تنوع مماثل في اهداف الحركة القومية وخططها في كل بلد . واذن فان المشكلة التي تجابهنا في هذه الأبواب الأخيرة من كتابنا هي : كيف يمكن تتبع الظواهر البارزة

للمجهود الوطني في كل واحدة من الدول الجديدة دون اغفال سير الحركة بمجموعها في كافة انحاء البلاد العربية .

ان الدول التي تشكلت فور انتهاء الحرب تقع بصورة عامة في فئتين كما رأينا وهي الدول الواقعة داخل الجزيرة نفسها والدول الواقعة في المستطيل العربي شمالها وقد رأينا كذلك ان الحرية والاستقلال اللذين سمح للفئة الأولى ان تتمتع بهما مناقضة تماماً لما فرض على الفئة الثانية من لزوم الخضوع للحكم البريطاني الفرنسي كانت هناك عوامل مثل الاختلاف في التكوين الاجتماعي والنمو السياسي تحول بنفسها دون تطبيق نظام واحد في جميع اجزاء العالم العربي ولكن العامل الاساسي الذي حمل الحلفاء على التفريق هو انهم عدوا الجزيرة بلاداً لا ترحب بمقدم الاجنبي وفي كل الاحوال غير نافعة له على عكس المستطيل العربي .

انه لمن المناسب عند وصف التطورات التي حدثت بعد الحرب أن نتناول كل واحدة من هاتين الفئتين على حدتها بدلاً من أن نتمسك تمسكا دقيقاً بالترتيب الزمني للحوادث في البلاد كلها .

— ٢ —

ان التبدل الأساسي الذي تم في الجزيرة هو احلال السيادة العربية محل السيادة العثمانية بنشوء خمس دول جديدة مارس الحكم المستقل الفعلي فيها اشخاص كانوا من أتباع سلطان تركية مثل الحسين في مملكة الحجاز وعبدالعزيز ابن السعود في سلطنة نجد وتوابعها والامام يحيى في اليمن ومحمد الادريسي في عسير وابن الرشيد في امارة شمر وتضم هذه الدول الخمس بمجموعها كل المنطقة الآهلة في الجزيرة خلا الامارات الصغيرة الواقعة على سواحل خليج فارس والمحيط الهندي وقد عد كل واحد من هؤلاء الحكام الخمسة نفسه صاحب السيادة في بلده .

وبظهور هذه الدول الجديدة فتحت صحيفة جديدة في تاريخ الجزيرة كتب لها أن تكون مقدمة لعدد من التبدلات الاخرى وبالاضافة الى الصلات التي نشأت بين بعضها وبريطانية كانت هناك مسائل شائكة تستلزم الحل وتتعلق بصلاتها بعضها بالبعض الآخر فكان الثأر القائم بين آل السعود وآل الرشيد على أشده وراح الامام يحيى ينظر شزراً الى جاره الادريسي ويعد وجوده في عسير تطفلاً عليه وتعدياً على بلاده . وابلغ من هذا وذاك الخلاف القائم بين الحسين وابن السعود حول ملكية منطقة صغيرة واقعة على الحدود والذي انذر بوقوع حرب خطيرة بين زعيم الثورة العربية المعترف به وبين أمير بعث الحركة الوهابية مجدداً بمقدرته وعزمه ودعمها بالقوة العسكرية واذن فمهما كانت النعم التي أتى بها السلم الى جزيرة العرب فمن الواضح ان السلام نفسه لم يكن من ضمنها .

كان يعتري موقف الحسين شيء من الضعف في وسط هذه الشبكة من الخلافات فان صفته المزدوجة كحاكم لبلاد الاسلام المقدسة وناطق باسم العرب للافصاح عن أمانيهم القومية قد رفع شأنه وقدمه على سواه ولكنه في الوقت نفسه أثقل كاهله باعباء خطيرة ومحرجة . فكان عليه من جهة أن يتحمل عداء مسلمي الهند المستحكم اذ لم يغفروا له ثورته على الخليفة واخذوا يوجهون الرأي العام نحو الاعتراف بسلطان تركية وحده دون سواه بالمقام الاول في الاسلام ولكنه من جهة ثانية لمجرد اعلانه الثورة قد سبب قطعاً نهائياً لصلة الترك بالديار المقدسة وقد حرم بنجاح الثورة الخليفة من احد الشروط الأساسية للخلافة وهو السيطرة على مكة والمدينة الامر الذي اوجد الخصام لا بين الحسين وبين مسلمي الهندفحسب بل كذلك بينه وبين بعض العرب المسلمين الوهابيين في نجد الذين لم تكن الاماني القومية التي يمثلها في شخصه قد خففت من شدة تعلقهم بالقديم الى حد يجعلهم راضين عن قيام حكم غير وهابي في الديار المقدسة .

كانت الاعباء الملقاة على عاتق الحسين بوصفه مفصحاً عن أماني العرب مصدراً آخر من مصادر ارتباكه فقد كان عليه أن يلح في المطالبة بتحقيق وعود الحلفاء وكلما اتضح ان بريطانية وفرنسة مصممتان على تفسير تلك العهود تفسيراً غير مشرف لهما تحرج موقفه في صلته بأبناء جنسه العرب وبحلفائه البريطانيين . لقد وجد نفسه مرغماً على السير في طريق تثير عليه النقمة ولا توصله الى شيء وذلك بمضايقة الحكومة البريطانية للحصول على حقه دون أن يكون حائزاً على أي مورد من موارد القوة التي لا بد منها في الأمور الدبلوماسية اذ كانت قوته الوحيدة معنوية ومستمدة من عدالة قضيته ولكنها لم تكن لتؤثر في جو فرساي أو سان ريمو . ومما زاد في ارتباكه علمه بأن قوته الحربية أضعف من قوة ابن السعود وانه مضطر الى الاعتماد على مساعدة بريطانية فيما اذا نشب قتال بين الحجاز ونجد . لقد كان في صلاته مع بريطانية مرغماً على أن يكون من جهة لجوجاً في المطالبة بحقه ومن جهة ثانية معترفاً بضعفه حين يدعوها الى مساعدته في نزاعه مع جاره الوهابي وهذا تناقض قتال لم يتمكن من التغلب عليه حتى أدى الى سقوطه عام ١٩٢٤

ان الحسين لو نجح في تسوية الخلاف مع ابن السعود لاستطاع في الغالب تجنب الكارثة ولكن عندما حان الوقت لتأسيس عهد جديد في الجزيرة تبين أن الصفات التي يجب أن يتحلى بها الحاكم تعوزه بالرغم من المقدرة وبعد النظر اللذين اظهرهما عند استعداده للثورة وكانت أولى خطيئاته اعتقاده بأن قيادته الثورة قد منحته سلطاناً سياسياً على جيرانه . لقد رحب كل من الادريسي وابن السعود بحلفه مع بريطانية وخصومته مع الترك وقبلا بدون تردد أن يتولى الثورة ولكنهما لم يفكرا قط في أن يكونا من أتباعه أو أن يتنازلا عن حقوقهما في التمتع بالسيادة التامة في اراضيهما فاستاءا منه حين اتخذ لنفسه لقب (ملك العرب) الذي ضمناً

معنى السيادة الشاملة (١) ومما زاد في توتر العلاقات مع ابن السعود أنه زعيم حركة البعث الوهابي التي تمتد الدعوة لها خارج حدود نجد في مناطق يعدها الحسين تابعة له فنشأ عن ذلك خلاف بينهما على الحدود حاول الحسين خلال الحرب ان يوجد له حلاً يلائم مصلحته جارياً في ذلك على اسلوب عنيف يرافقه التظاهر بشيء من العطف المقصود نحو ابن السعود وحتى الاحتقار في بعض الاحيان فأثبت بعمله هذا ان البصيرة والحكمة السياسية من الصفات التي تعوزه اذ مهما كانت الاسس التي يستند اليها في اتهام جاره بالرغبة في السيطرة والاستيلاء فقد كان عليه ان يدرك النتائج المثيرة التي تترتب على موقفه منه وهو ذو جيش تفوق قوته جيش الحسين الموجود، وما يمكن ضمه اليه من جند.

وقع أول اصطدام خطير في ١٩ مايس عام ١٩١٩، قرب تربة الواقعة على حدود الحجاز الشرقية اذ أجهزت قوات ابن السعود على جيش يقوده الاميرعبدالله وكانت تفنيه فكان هذا الانتصار حاسماً الى درجة ان القوات الوهابية كانت تستطيع لو شاءت أن تدخل الحجاز دون مقاومة ولكن الحكومة البريطانية في هذه المرة وقفت الى جانب الحسين وانذرت ابن السعود بانها لن ترضى عن نشوب القتال بينها فاحجم ابن السعود لانه كان في ذلك الوقت يتلقى اعانة مالية من بريطانية مثل الحسين لم يكن لهذه الحادثة نتائج فورية ولكنها اوجدت الحقد الكمين في نفس الحسين

(١) انظر الفصل السابع من الباب الحادي عشر اعلاه إن الحسين، بالرغم من اعتراف الحلفاء به كملك على الحجاز ونصحهم له بطرح اللقب الآخر الذي ينطوي على طموح كبير، فقد استمر بتسمية نفسه (ملك البلاد العربية) أو (ملك العرب) في علاقاته مع جيرانه ورعاياه.

وابنه ونبهتها الى عدم صلاح قواتها الحربية وقد حاوات الحكومة البريطانية تشجيع الحسين للسير في طريق حكيم وهو طريق المصالحة مع ابن السعود ولو ضحى في سبيل ذلك بشيء من كبريائه وبعض ارضه ولكنه لم يكن ذا حكمة من هذا النوع ولجأ الى سياسة عقيمة بتحالفه مع ابن الرشيد خصم ابن السعود التقليدي ومع غيره من شيوخ العشائر المقيمة في اطراف نجد وحاول كذلك ان يوجد علاقات ودية مع امام اليمن .

كان امام اليمن في خصام مستمر مع الادريسي على ثأر بينهما وما لبث هذا الخصام ان اتخذ شكلاً حاداً بسبب تطور الحوادث فقد جلا البريطانيون عن ميناء الحديدة الواقعة على البحر الاحمر في ينار عام ١٩٢١ وكانوا قد احتلوها في نهاية الحرب بعد استسلام القوات التركية في اليمن فسمحوا للادريسي بدخولها والحاقها ببلاده وكانت ثغر اليمن اثناء الحكم التركي فلما احتلها الادريسي حرمت تجارة تلك البلاد من منفذ طبيعي وضروري كانت تستعمله لاجيال خلت فخلق الحاقها حركة انضمام جديدة في الجزيرة وقف فيها الحسين الى جانب الامام يحيى تنفيذاً لسياسة التحالف ضد ابن السعود والادريسي التي جرى عليها .

طرأ تعديل فجائي في توازن القوى في الجزيرة في خريف تلك السنة حين وضع ابن السعود حداً لعدائه القديم مع آل الرشيد باستيلائه على منطقة حكمهم التقليدية بكاملها بنتيجة حملة جزئية فأدى الحاق بلادشمر كلها بنجد الى وصل حدود ابن السعود بحدود العراق كما ازال من الميدان بيتاً حاكماً كان الحسين يعتمد عليه كحليف سياسي يناهض جاراً لم ينجح في استمالته واخذ سكان الجزيرة يلهجون باسمه لما اثبت من عبقرية في القيادة الحربية وفي الحكم الصالح .

- ٣ -

شرعت الحكومة البريطانية بفتح مفاوضات مع الحسين في صيف عام ١٩٢١ أي بعد اربعة شهور تقريباً من اختتام مؤتمر القاهرة وغايتها المزعومة حل جميع القضايا المعلقة بين الطرفين ووضع تحالفها على اساس رسمي ومرضي وكان لورنس مندوبها في هذه المهمة فوصل الى جدة في نهاية اغسطس وحاول اقناع الحسين بقبول مشروع المعاهدة الذي يحمله ولم يتوقع احد من المطلعين على حقائق القضية ان يقبل الحسين او أي عربي مسؤول غيره بتوقيع معاهدة تحوي شروطاً تتضمن بالاضافة الى بعض الاحكام البغيضة للغاية والتي تحدمن سيادة ملك الحجاز في داخل بلاده ، شرطاً عدته الحكومة البريطانية اساسياً وهو بمفرده يكفي لجعل المعاهدة غير مقبولة : وهو الشرط الذي طلب من ملك الحجاز بموجبه الاعتراف بما سمي بصورة غير واضحة « المركز الخاص » لبريطانية في العراق وفلسطين ومعنى ذلك بالكلام الصريح الاعتراف بالانتدابات التي وزعها مؤتمر سان ريمو اي التجاوز عن نكوث بريطانية بعهودها المتصلة بهذين البلدين . ويكاد المرء لا يصدق ان تبلغ البساطة بوزارة الخارجية البريطانية حداً تعتقد معه ان بنداً كهذا يقبل بسهولة ولكنها كانت تعلم بان مقررات مؤتمر سان ريمو لا يمكن الدفاع عنها من الناحية الخلقية فدفعها ضميرها الذي يؤنبها الى اسكات معارضة العرب بالتلويح للحسين بمعاهدة تحالف رسمية تؤمن الحجاز ضد كل اعتداء ويرافقها عرض مغر وهو استمرار الخزانة البريطانية في دفع المساعدة المالية دون تحديد مدة لها فجاء رفض الحسين صريحاً وقد أثارته هذه العروض التي عدها لعبة صبيانية تخرج عن مجاملته المعتادة وكان جافاً مع لورنس .

كان لهذا الحادث أثر عميق في نفس الحسين فقد صدمه موقف الحكومة البريطانية التي ما اعتقد انها جادة حين عرضت أمام ناظريه هذه الصورة الممسوخة لوعودها ومما زاد في قوة الصدمة التي أصابت فكره أن اكتشافه الحقيقة فسر له معنى بعض الدلائل التي رآها في السابق ولكنه لم يشأ فهمها بسبب اعتقاده بصدق كلمة البريطانيين بكل بساطة . لقد كان باستطاعته في السابق ان يحاسب حلفاءه على بعض المتناقضات البادية في عهودهم التي قطعوها أثناء الحرب ولكن التأكيدات التي كان يتلقاها كل مرة طمأنته الى حد كان يدفعه الى عدم الشك مطلقاً في شرف الحكومة البريطانية حتى في أوقات شكه في حكمتها . كان ايمانه بمقاييس العدالة البريطانية ناشئاً عن تجارب فردية وقد تمسك به تمسكا أعمى دون سؤال أو جواب ودون أن يخطر في باله لحظة واحدة أن السياسيين البريطانيين لا يحافظون دوما في أعمالهم على المقاييس التي يراعيها الافراد الانكليز . وكان من القواعد الثابتة في مذهبه السياسي أن العرب والبريطانيين حلفاء طبيعيون بالمعنى البسيكولوجي والجغرافي وان مصالحهم مشتركة واحسن واسطة لصيانتها هي خلق عدد من الدول العربية المستقلة ترتبط بأوثق الروابط فيما بينها نفسها ومع بريطانية فجاءت المعاهدة التي عرضها لورنس منافية لمعتقداته ولما كان يتوقعه فتزعزع ايمانه بمقاييس العدالة البريطانية وبمستقبل الحلف العربي البريطاني كما بعثت في نفسه مجدداً الذعر الذي شعر به عام ١٩١٧ بسبب اتفاق سايكس بيكو ووعد بلفور ونبهته الى مستقبل حافل بالآمال الضائعة والمهاترة البغيضة بينه وبين حلفائه والاضطراب الذي يسود قومه إن هذه الصدمات لم تهد الحسين الى الصواب بل ولدت في نفسه الألم والحيرة كما يحدث دوماً حين تتزعزع في نفس الانسان عقيدة محببة لديه . ان الواجب يدعو ناحين

نقد الاخطاء التي ارتكبها الحسين فيما بعد ان نذكر الاثر العنيف الذي تركته قوة الصدمة في رصانته الفكرية .

استؤنفت المفاوضات في ربيع عام ١٩٢٣ وغايتها عقد معاهدة بين بريطانية والحجاز فدامت في ما تبقى من تلك السنة وامتدت الى صيف عام ١٩٢٤ دون أن تنتهي الى اتفاق ما اذ كانت العقبة الكأداء في هذه المرة كما كانت عام ١٩٢١ مسألة اليهود ولكن الخلاف كان في هذه المرة منحصراً في مستقبل فلسطين ولم يجر البحث في العراق وشرق الاردن لانها معترف بها كدولتين عربيتين مستقلتين وبالرغم من أن استقلالهما لم يصبح بعد حقيقياً فان الحسين كان ميالا في ذلك الوقت الى الاكتفاء بمبدأ استقلالها وأما سورية فان قضيتها من اختصاص فرنسة ولم يرد ذكرها في بحث خاص بها . ونشأت بعض الصعوبات بسبب عدم رغبة الحسين في الاعتراف بفتح ابن السعود لبلاد شمر أو للادريسي بالحاق الحديدة ولكن العقبة الرئيسية كانت فلسطين. وكلما تقدمت المفاوضات وسويت الخلافات الاخرى اتضح أن الاتفاق حول قضية فلسطين مستحيل وان موقف العرب والبريطانيين من القضية الصهيونية اصبح جلياً لا يقبل الشك .

قام الخلاف في الرأي على مسألة الضمانات فقد رغبت الحكومة البريطانية في أن يعترف الحسين بالانتداب على فلسطين وبالسياسة التي رسمها وعد بلفور في حين أن الضمانة الوحيدة لحقوق العرب فيما هي التي تتعلق بحقوقهم المدنية والدينية في فلسطين فطلب الحسين أن تتوسع الضمانة لتضم لحقوقهم السياسية والاقتصادية ولم يختلف موقفه في ذلك الوقت عن موقفه الذي أوضحه للقائد هوغارث في جده في يناير ١٩١٨[1] فلم يكن معارضاً لمقدم اليهود بشكل منظم وعلى اساس انساني ولكنه لم يكن ليقبل به الا على شرط احترام جميع الحقوق المشروعة للعرب فتقدم

---

(١) انظر الفصل التاسع من الباب الثالث عشر أعلاه

بمشروع مقابل اقترح فيه جعل فلسطين دولة مستقلة تديرها حكومة وطنية تمثل جميع السكان بما فيهم اليهود وأن يسمح لها اذا شاءت بان تنضم الى اتحاد الدول العربية وان تتمتع بحرية سياسية واقتصادية لا تقل عن سائر الدول العربية باي شكل من الاشكال . ومما يلفت النظر في المشروعين البريطاني والحجازي انهما اعتمدا وعد بلفور وتأكيدات هوغارث الشفوية للحسين اعتماداً حرفياً فاستند الانكليز الى الاول واستند العرب الى الثانية وكان الفرق بين المشروعين اساسيا فالواحد يوجد تعاوناً بين الانكليز والعرب بينما يوجد الآخر نزاعا ومعنى ذلك اما انتشار السلام في فلسطين أو قيام الاضطراب . كان الحسين على صلة بسكان فلسطين فكان يدرك صدق تخوفهم على مستقبلهم وعمقه وهذا ما دفعه الى السعي الحثيث لاقناع الحكومة البريطانية بان الضمانات التي تقدمت بها غير كافية للقضاء على مخاوف العرب ولكن مساعيه ذهبت أدراج الرياح .

ثابر الحسين على تزويد الحكومة البريطانية برسائله المتعاقبة التي يحتج فيها قائلاً بأنه لم يكن مدفوعاً بدوافع الخسة أو الأثرة وان موقفه لم يمله عليه شيء سوى اقتناعه بان السلام لن يسود البريطانيين واليهود والعرب في فلسطين ما دام لدى العرب ما يحملهم على الظن بان هدف الصهيونية الاخير هو انشاء دولة يهودية في وسطهم على حساب أمانيهم القومية وقد انتهى تشبثه في هذا الأمر بازعاج وزارة الخارجية البريطانية التي طالبها باعطاء ضمانة صريحة لحقوق العرب المشروعة لا بعبارات وعد بلفور المبهمة بل بالعبارات التي تضمنتها التأكيدات القطعية التي تلقاها في يناير عام ١٩١٨ بواسطة القائد هوغارث ، ولكن المعقدة لم تحل قط فلم تجب الحكومة البريطانية رجاءه إما لأنها استخفت بما ذهب اليه من الانذار بوقوع الاضطراب وإما لارتباطها الوثيق مع الصهيونيين

بالتزامات لم تشأ أن تعترف بمداها الحقيقي وإما لأنها أرادت أن توجه سياستها بحيث يصبح كل من العرب والصهيونيين يعتمد على عطف بريطانية وقد البست الحكومة رفضها ثوباً من التأكيدات الغامضة التي لم تكن لتتفق مع طلباته ولم تحققها على كل حال .

كانت هذه حالة المفاوضات عندما وقعت الكارثة وكان آخر ما حاوله الحسين قبل سقوطه ارسال كتاب شخصي الى رئيس الوزارة رامزي مكدونالد مؤرخ في ٤ أغسطس عام ١٩٢٤ يناشده فيه مرة أخرى بتحقيق الوعود التي قطعت اثناء الحرب ولكنه لم يتلق جواباً عنه اذ لم يكد ينتهي الشهر حتى كانت القوات الوهابية تسير على الحجاز وفي أوائل اكتوبر فقد الحسين ملكه .

— ٤ —

وجد الحسين نفسه بلا معين عندما وقعت به الضربة وكان هو نفسه المسئول عن ذلك فانه وهو قائم على الأمر أثبت عجزه عن وضع الأساس لحكم صالح وولد استياء كبيراً لا في نفوس أبناء شعبه فحسب بل أيضاً في نفوس جموع الحجاج الذين كانوا يفدون كل سنة على الحجاز كما أنه أظهر حماقة غريبة في تصرفاته مع جيرانه أدت الى نشوب الخلاف بينه وبين الحكومة المصرية والادريسي وابن السعود فقطع كل منهم بدوره علاقاته معه . ولم يعمل الحسين على استرضاء مسلمي الهند بل كانت القصص التي يحملها الحجاج معهم الى بلادهم عن الاستغلال وسوء المعاملة تزيد في كره الناس له ولعل اسوأ خطيئاته قبوله بالخلافة التي سمي لها بشكل فيه تسرع وارتجال حيث اعلنتها بعض الهيئات الاسلامية في الحجاز وفلسطين وسورية والعراق دون السعي الى التأكد من

موقف الرأي العام في كافة انحاء العالم الاسلامي فلاقى هذا الأمر استنكاراً اجماعياً في باقي أجزاء البلاد الاسلامية واتخذه ابن السعود ومسلمو الهند سلاحا مفيداً أشهروه في وجهه وطعنوا به صدق نيته وسمعته فأخذ الناس يقولون ان غاياته الحقيقية قد انكشفت أخيراً وهي تنحصر في تحقيق أطماعه الشخصية على حساب الاسلام ووحدته ولم تكن هذه التهمة منصفة لأن الحسين كان قبل كل شيء ذا عقيدة راسخة ومؤمناً تقياً كأي واحد من خصومه . ولكن قبوله الخلافة وإن رافقه شيء من التردد والتلكؤ فقد ثبت التهمة في الظاهر وطعن سمعته .

توجهت أنظار الحسين في وحدته الى انكلترة فلم يحظ من جانبها برد وكان الشعور السائد في الحكومة البريطانية في ذلك الوقت هو شعور العداء نحوه اذ كان موضع سخريتها وتبرمها به ودرجت الدوائر البريطانية على نشر القصص المضحكة عن غرائب هذا الرجل الطاعن في السن فكان بعضها مضحكا بلا شك فأخذت الألسن تتناولها وتضيف اليها وتخلق في نفوس سامعيها ميلاً الى الاستزادة منها شأن القصص المضحكة دوماً وفي وقت من الاوقات بلغ الأمر بالتقارير الدورية التي يبعث بها المعتمد البريطاني عن الموقف في الحجاز انها كانت مملوءة بالامور التي تثير الضحك والتي جعلت موظفي الحكومة البريطانية يقبلون على مطالعتها أكثر من غيرها بالنظر الى قيمتها الهزلية . لقد أصبح الحسين أضحوكتهم ولم يعودوا يتلقون ما يأتي منه باحترام فلما استؤنفت المفاوضات عام ١٩٢٣ وقفوا منه في أول الأمر موقف التسامح الناشيء عن ميلهم الى التسلي به ولكنهم ما لبثوا أن أخذوا يضجرون منه ويتحملونه على مضض وأخيراً وبعد أن مرت الشهور وهو ما يزال متمسكاً بوجهة نظره تمسكاً تاماً ثارت نفوسهم عليه وشعروا انهم ما عادوا يستطيعون سماع ما يصدر عنه .

بدأ هجوم الوهابيين في الاسبوع الاخير من شهر آغسطس ولما وصلت الانباء بدخولهم الطائف دون مقاومة وتذبيحهم الناس انتشر الذعر في الحجاز وتشكل وفد من وجهاء البلاد ناشد الحسين بأن يتنازل عن العرش أملاً في ارضاء ابن السعود ولم تجد توسلات الحسين بأن تتدخل الحكومة البريطانية لوقف المغير عند حده كما فعلت في المرة الأولى اذ اجابت بأنها تعد الخلاف بينهما دينياً فلا يمكنها التدخل الا اذا احتكم اليها الطرفان صراحة . ولما كان ابن السعود واثقاً من ظفره فانه لم يكن في حاجة الى التحكيم وأخذ يتابع تقدمه بالرغم من تنازل الحسين عن العرش لاكبر أبنائه علي فاحتل مكة يوم ١٣ اكتوبر وانتقل الملك علي الى جده حيث أقام اكثر من سنة أبدى خلالها مقاومة ضعيفة بينما أخذ ابن السعود يتقنص الفرص . لقد كان باستطاعته خرق خطوط الدفاع الحجازية بسهولة ولكنه فضل أن ينتظر التسليم الذي لامفر منه والذي تم في ديسمبر عام ١٩٢٥ اذ استسلم الملك علي وغادر البلاد الى بغداد حيث عاش لاجئاً في بلاط أخيه . وفي ٨ يناير عام ١٩٢٦ نصب ابن السعود رسمياً ملكاً على الحجاز باتفاق عام في الرأي أجمع عليه سكان المدن الرئيسية .

أما الحسين فقد أبحر بعد ايام من تنازله ولجأ الى العقبة حيث بقي حتى شهر يونيو التالى إذ اعلمته الحكومة البريطانية بأن ابن السعود اعترض على بقائه هناك وان وجوده فيها لم يعد مرغوباً فيه فاختار الذهاب الى قبرص حيث بقي حتى عام ١٩٣٠ وفي نهايته ارداه المرض وهو في الخامسة والسبعين من عمره ولما كان يظن انه مرض الموت سمح له بالذهاب الى عمان لقضاء أيامه الاخيرة بين ابنائه وقد توفي في شهر يونيو التالي ونفسه تفيض بمرارة ألمه وان لم يحد قيد شعرة عن آرائه

حتى النهاية . ولعل الناس بعد وفاته يكونون اكثر اشفاقاً عليه وتسامحاً معه من معاصريه بعد أن تنكشف أمامهم الحقائق لأنه بالرغم من نقائصه وعيوبه كان يتحلى بتلك القوة الروحية والاستقامة النفسية اللتين هما من الصفات الملازمة للرجل العظيم وإذا كان المقياس الذي يقاس به الرجال هو القيمة الروحية لادرجة الفشل الذي يلحق بهم فان الحسين يستحق اعجابنا وعطفنا ومهما كانت أسباب سقوطه الاخرى فان هناك سببين هامين الواحد ناتج عن تعلقه بآماله ومعتقداته تعلقاً شديداً والثاني ناشيء مباشرة عن رفضه القبول بحلٍ عدّه خيانة لأمته ولاشك انه لو قبل بتوقيع المعاهدة بالشروط التي عرضت في الادوار الاخيرة من المفاوضات لاحتفظ بعرشه ولربما ختم ايامه وهو آمن ومطمئن ولكنه لم يستطع مخالفة قناعته وضميره فتمسك بوجهة نظره في سبيل انصاف الامة التي يمثلها فنفّر حلفاءه بسبب ذلك وعندما وقعت الواقعة وجد نفسه وحيداً وبلا معين وان عليه أن يقف في وجه العاصفة منفرداً .

— ٥ —

دفع فتح الحجاز بابن السعود الى مقعد أمامي على المسرح العربي فاصبح من ذلك الوقت مهيمناً على سير الامور في الجزيرة بالدور الذي لعبه في توجيه تاريخها كان الانقلاب الذي حدث ينطوي على اكثر من تغيير مجرد في الحكم لانه بدّل شكل الحياة في غرب الجزيرة تبديلاً أساسياً في نواحيها الخاصة والعامة بما أوجده من نظام للحكم وما ذهب إليه من فهم للواجبات المدنية فقضى على العادات الشائعة منذ قرون كما انه عاد فأعطى المقام الاول للشرع الاسلامي والتقاليد العربية في تسيير امور الدولة وفي القواعد الموضوعة لتصرفات الفرد والجماعة ، وقد يكون هذا التطور أعمق ، ولعل الايام تثبت انه انفع ، تطور حدث في الجزيرة منذ الدعوة

الى الاسلام ويعود الفضل الاول في اقامة النظام الجديد بهذا الشكل الى جهود رجل عبقري كما حدث في القرن السابع بالرغم من الاثر الملموس للعوامل الاجتماعية والاقتصادية السائدة في ذلك الوقت .

واجهت ابن السعود في الحجاز مشاكل متعددة ومعقدة فعالجها بذلك المزيج من الجرأة والحكمة الذي هو عنصر جذاب من عناصر شخصيته ولم تكن هذه المشاكل داخلية فحسب بل تضمنت مسائل ذات قيمة دولية تستلزم حلاً سريعاً ومن اهمها مركزه كحاكم فعلي لديار الاسلام المقدسة بالنسبة الى باقي اجزاء العالم الاسلامي وكذلك المسألة المتصلة بذلك والناشئة عن اصطدام العقائد الوهابية مع المذاهب الدينية والاتجاهات الفكرية الاخرى . ومن هذه المسائل أيضاً تعيين حدود الاراضي التي فتحها وهو أمر يتعلق بجيرانه في الجزيرة وبالدول المعظمة المنتدبة على بلاد المستطيل العربي . وكانت هناك مسألة ثالثة وهي علاقته ببريطانية العظمى وبالدول الاجنبية الاخرى .

هذه هي المشاكل الخارجية التي واجهته في البداية اما في الداخل فكان عليه أن يعالج بقوة الوضع الناشئ عن احتكاك انصاره الوهابيين ذوي الغيرة الدينية الشديده بأهل الحجاز المتراضين والمتسامحين في امور دينهم فحاول ان يحد من تطرف الفقهاء الوهابيين ويعد له لا من حيث اصرارهم على اقامة الشعائر الدينية فحسب بل ايضاً من حيث موقفهم من استعمال وسائط النقل الحديثة كالهاتف واللاسلكي التي كانوا يندِّدون بها لانها من وسائل الكفرة ومن صنع الشيطان . وكان من اكبر مشاكله الداخلية العمل على التخفيف من اثر الآلام والمجاعة التي حلت بالسكان بسبب الغزو ونقص موارد الحج وغوامض ادارة الحسين فنهض ابن السعود بهذه الاعباء وبغيرها من مهام الحكم بتفكيره الهادئ والمتزن المقرون بارادته الحديدية فاصاب في حلها مبلغاً كبيراً من النجاح .

كان ابن السعود في علاقاته مع عالم الاسلام الخارجي هدفاً لكثير من الانتقاد في أول الامر بسبب تطرف اتباعه الجامح ولانه قبل بعرش الحجاز دون الالتفات الى رغبات كافة المسلمين وكان النقاد على حق في ذلك ولا سيما ان ابن السعود اعلن باستمرار قبل انجاز الفتح انه سيخضع امر انتخاب حاكم الحجاز في المستقبل الى قرار يتخذه المسلمون جميعاً وكان غرضه الظاهر من هذه التصريحات ان يبر بها ولكن عندما أزفت ساعة العمل اعلن ان التباين المظيم بين المذهب الوهابي وسائر مذاهب اهل السنة لايسمح بالشروع فوراً بالتعاون بين الطرفين في صعيد واحد وانه يشعر بان الواجب يقضي عليه بالتمسك باعنة الحكم في يده ودعوة مؤتمر اسلامي عام للبحث في المسائل الاخرى المتصلة بالادارة في الحجاز فاجتمع المؤتمر في يونيو عام ١٩٢٦ ولم يكن ممثلاً للعالم الاسلامي تمثيلاً كاملاً . كما ان ابحاثه لم تتناول جميع المسائل المختلف عليها ولكنه كان بالغ النفع اذ اوجد صلة مباشرة بين فقهاء الوهابيين والافكار السائدة في سائر انحاء الاسلام فأتيحت الفرصة امام ابن السعود للشروع بالتوفيق بين اتجاهات الطرفين الفكرية فانتهزها بحكمته وتابع سيره نحو هذا الهدف حتى فقد الخلاف حدته بالتدريج مع مرور السنين فلا يكاد يسمع به اليوم مطلقاً .

— ٦ —

تطورت سياسة ابن السعود مع جيرانه في مراحل فكانت مشكلته الاساسية تعيين الحدود واقامة العلاقات الحسنة ولاسيما مع حاكمي عسير واليمن وبالرغم من أنه كان خالياً من الاطماع في أخذ أرض جديدة الا أن النزاع القائم بين هذين الحاكمين وتقلباته دفعه الى اتخاذ اجراءات فورية . ساءت حالة عسير بعد وفاة السيد محمد مؤسس البيت الادريسي ودعامته الاولى في أوائل عام ١٩٢٣ فنشب الخلاف بين

خلفه وغيره من أعضاء الاسرة ووقعت حرب أهلية استغلها الامام يحي واحتل المناطق الجنوبية من عسير مع جزء كبير من الساحل وبضمنه الحديدة فلما ظهر ابن السعود في الميدان استنجد به الامير الادريسي القائم وعرض شروطاً تجعله الحاكم الحقيقي لعسير ولكنه غلب الحكمة وامتنع عن التدخل حتى اذا ماوجد الامام يحي عازماً على الحاق جنوب عسير بكامله لاستمرار الفتنة تدخل وعقد اتفاقاً مع الادريسي[١] وضعت بمقتضاه عسير نفسها طائفة في حمى ملك الحجاز ولكن تبين انه الخطوة الاولى نحو الحاقها نهائياً لأن خلفاء السيد محمد كانت تعوزهم مقدرته ونفوذه فلم يقفوا في وجه الانحلال الذي ظهر بعد وفاته او في وجه ضغط الامام الشديد فكان على حاكم عسير ان يختار بين ان يكون خاضعاً لأمام اليمن او تابعاً لملك الحجاز فاختار الامر الثاني لاسباب كثيرة وفي عام ١٩٣٠ عقد اتفاقاً آخر وضع فيه عسير رسمياً تحت حماية ابن السعود فاصبحت من كل الوجوه تابعة لمملكته وترتب على ذلك انه لم يبق في الجزيرة سوى دولتين مستقلتين لهما شأن يذكر وان امر تسوية الحدود بينهما بشكل منظم ونهائي اصبح من خصائص ابن السعود والامام يحي وحدهما لان مملكتيهما اصبحتا متصلتين من البحر الاحمر في الغرب الى نهاية المناطق المأهولة في الشرق .

لم يكن من المنتظر ان تتم تسوية كهذه بدون نزاع فان الامام يحي الذي كان في ذلك الوقت في أواسط العقد السادس قضى حياته كلها ساعياً لتحقيق استقلال اليمن اولا ثم الى التوسع حتى تبلغ بلاده الحدود التي ادعى هو واتباعه انها حدودها التاريخية وادخل في ضمنها مساحات كبيرة من عسير وكان قد استرجع الحديدة

(١) معاهدة مكة المؤرخة في ٢٢ اكتوبر عام ١٩٢٦ .

وسهول تهامة ومنطقة جبلية وساحلية كان الادريسي يحتلها فلما استنجد الحاكم الادريسي بجاره الوهابي كان الامام سائراً في سياسة الضم والتوسع فتعهد ابن السعود بحماية عسير من كل اعتداء جديد أي أنه فرض على الامام اختيار واحد من أمرين : فاما الا كتفاء بما ظفر به او اعلان الحرب على ابن السعود وكان الامر الثاني محتمل الوقوع اكثر من الاول بسبب النزاع القائم بين الطرفين على بعض المناطق الواقعة في اطراف الحدود التي لم تعين بعد وهو نزاع مستقل عن التوتر الذي أحدثته مسألة عسير فاتضح ان الاصطدام لا بد واقع اما عاجلاً أو آجلا بالرغم من محاولة الاثنين الصادقة لحل الخلاف بالمفاوضة .

وقعت الحرب اخيراً عام ١٩٣٤ بعد مفاوضات دامت ثلاث سنين فكانت نتيجتها نصراً مبيناً للوهابين بعد قتال لم يدم شهرين اذ اجتاحوا سهول تهامة واحتلوا الحديدة فطلب الامام الصلح واظهر ابن السعود اخلاصاً وبراعة في السياسة اذ عقد الهدنة بالشروط نفسها التي اقترحها قبل وقوع القتال فأثبت بذلك صدق تصريحاته المتكررة بانه تولى حماية عسير لا بقصد استرجاع ما فقدته بل للاحتفاظ بما بقي ولم يطالب باي نوع من انواع التعويض ولم يطلب تسليم سلاح او ارض وبالرغم من ان صبره نفذ من اعمال الامام الذي كان البادي في قطع المفاوضات واللجوء الى القوة الا انه تعاقد معه كأن لم يكن اعتداء ولا حرب وتدل معاهدة الطائف المعقودة بتاريخ ٢٠ مايس عام ١٩٣٤ على اعتدال ابن السعود وحكمته وبما انها لم تمح اي أثر من آثار الحقد او الطمع او الادعاء الفارغ بالباطل فقد منحت الجزيرة نعمة السلام الحقيقي

— ٧ —

كان تعيين حدود ابن السعود الشمالية متوقفاً على التفاهم مع بريطانية لانها الدولة المنتدبة على البلاد المتاخمة للمناطق التي استولى عليها بعد الحرب فعقد اتفاقاً

عام[(١)] ١٩٢٢ اي بعد ضم جبل شمر بقليل عين فيه الحدود مابين هذه المنطقة ودولة العراق المنتدب عليها ولم تنقض سنتان على ذلك حتى سيطر ابن السعود على الجزء الاكبر من وادي سرحان الممتد من الجوف نحو الشمال الغربي تقريباً حتى يصل الى مناطق الانتداب الفرنسي والبريطاني في سورية وشرق الاردن فاضطرت الحكومة البريطانية بسبب ذلك ولوقوع اضطرابات خطيرة بين القبائل ناشئة عن انقلاب الحكم الى فتح المفاوضات مع ابن سعود قبل انتهاء حرب الحجاز فأوفدت السير غلبرت كلايتون الذي عقد اتفاقين معه بعد زيارة قصيرة له في مخيمه في (بحرة) الواقعة في منتصف الطريق بين جدة ومكة وقد عين أحد هذين الاتفاقين ، وهو اتفاق جدة المؤرخ في ٢ نوفمبر عام ١٩٢٥ ، الحدود بين نجد وشرق الاردن بحيث ترك الجزء الاكبر من وادي سرحان لابن السعود ووضع قطعة من الأرض الخاضعة للانتداب البريطاني بينه وبين منطقة الانتداب الفرنسي . ونص الثاني ، وهو اتفاق بحرة المؤرخ في ١ نوفمبر عام ١٩٢٥ ، على تنظيم هجرة القبائل من نجد الى العراق وشرق الاردن وبالعكس بشكل يضمن ترضية جميع قبائل تلك المنطقة ونشر السلام والوئام بينها وترك أمر تحديد الحدود بين الحجاز وشرق الاردن حتى تنتهي الحرب بين نجد والحجاز .

ما كاد ابن السعود يعقد الاتفاق الذي ثبت حدوده الشمالية حتى أثار مسألة المعاهدات القديمة بينه وبين بريطانية التي كانت علاقته معها ما تزال خاضعة لاحكام الاتفاق المعقود مع حكومة الهند عام ١٩١٥[(٢)] والذي جعله في وضع التابع

---

(١) اتفاق المحمرة .

(٢) انظر الفصل الخامس من الباب الثامن أعلاه .

للبريطانيين ولم يكن هذا الاتفاق محدداً بمدة وكان ابن السعود حريصاً على ابداله بعقد يتلاءم والوضع الاستقلالي الحقيقي الذي يهدف اليـــه فانتظرت الحكومة البريطانيـة حتى انجز فتح الحجاز وأقام حكمه على دعائم قوية ففتحت معه باب مفاوضة انتهى الى عقد معاهدة جدة في الربيع المقبل (٢٠ مايس عام ١٩٢٧) فاعترفت فيها رسمياً بابن السعود ملكا على الحجاز ونجد وتوابعهـا وهو اللقب الذي اتخذه لنفسه كما اعترفت بانه يتمتع بالسيادة والاستقلال وابرمت المعاهدة بعد ذلك ونشرت وهي تختلف من نواح عديدة عن مشاريع المعاهدات التي قدمت في السابق للحسين على أن أهم ما تختلف به هذه عن تلك هو عدم اشارة معاهدة جـــدة « للمركز الخاص » لبريطانية في البلاد الموضوعة تحت انتدابها أو لتنفيذ وعد بلفور في فلسطين وكانت الحكومة البريطانية قد جعلتها شرطاً أساسياً للاتفاق مع الحسين ومدة هذه المعاهدة سبع سنوات تجدد باتفاق الطرفين وقد جددت بالفعل عام ١٩٣٤ بعد ادخال بعض التعديلات البسيطة . وقـد ثبت أنها عقد حكيم وقابل للتطبيق يستحق من اجله المرحوم كلايتون أبلغ الثناء لما أظهر فيه من براعة في سياسة الانشاء ولانه كان بالدرجة الأولى من عمله .

بعد أن أقام ابن السعود علاقاته مع بريطانية على أساس جديد ومرض راح يعمل على تقوية مركزه الدولي بعقد معاهدات مع الدول الاجنبية التي تعد المسلمين من رعاياها وهي هولندة وفرنسة وروسية وايطالية كما أنه عقد معاهدات مع تركية وفارس ولكن الذي يهمنا أكثر من ذلك هو سلسلة الأحلاف والمعاهدات التي أصبحت تربط المملكة العربية السعودية[1] بجيرانها في اليمن والعراق ومصر بالنظر

(١) هذه هي التسمية الرسمية للبلاد التي كانت معروفة سابقاً باسم مملكة الحجاز ونجد وتوابعها .

لأثرها في حركة العرب القومية فان عقدها لم يضع حـــداً للمنازعات والمخاصمات فحسب بل فعل أكثر من ذلك بكثير اذ فتح الابواب التي كانت في ذلك الوقت موصدة في وجه التبادل الثقافي والاقتصادي وفي وجه القوى العاملة بالتدريج على توجيه مصير العرب .

— ٨ —

لم يكن نجاح ابن السعود المدهش في ادارة مملكته ليقل عن نجاحه في الحرب والسياسة فان مهمة توطيد الأمن ونشر العدالة ووضع أسس التقـدم كانت شاقة في تلك المسافة الواسعة من البلاد التي فتحها والتي تعود اهلها الرحل منذ قرون ان يتحدوا كل سلطة خلا سلطة شيوخهم والا يتقيدوا بشيء سوى قانون القبيلة . ومما زاد في تلك الصعوبة فقدان الموارد المحلية الصالحة للعمل الاقتصادي فهي لم تكد تكفي لتأمين سير الحكم الصالح ومع ذلك فقد تكون اشد المصاعب التي لاقاها ابن سعود في البادية هي التي نشأت عن تعصب اتباعه اذ أن اهل نجد قد تحولوا بفضل الدعوة الملحة التي وجهتهم مدة عشرين سنة الى امة سلفية تتمسك بأصول الدين تمسكا صادقا فلا تسمح بالشذوذ عن الشرع ولا بالتجديد الذي يدخل على ما كان يجري في صدر الاسلام وكان دعاتهم قد حملوهم على ان يعدوا الحجاز بؤرة الالحاد يحملهم واجبهم الديني على فتحها من أجل تطهيرها فجاؤوا ليقوموا بهذا الواجب بالقسوة الناشئة عن طبيعة اتجاههم القائم على تمسك شديد بحرفية النصوص وكان حماسهم من النوع الذي لا يقبل الاعتدال ولا يوقفه حاجز خارجي أو ريبة داخلية وقد زاد في حراجة موقف ابن السعود ان هذا الحماس لم يقتصر على دفع جنده الى فرض النظام بانفسـهم بل حمل الفقهاء على أن يغفروا للجنود إفراطهم ويشجعوهم عليه .

قام الجنود الوهابيون بتخريب القبور والمقامات بدون تمييز لاعتقادهم انهم بذلك انما يناهضون الوثنية (١) وقد بلغ الامر ان حاولوا تخريب القبة القائمة فوق قبر النبي واخذوا على عاتقهم مهمة ارغام أهل الحجاز بالقوة على الاخذ بأسلوبهم في الحياة القائم على الزهد والتقشف فأخـذوا يلاحقونهم حتى في المسائل الصغـيرة كالتدخين والآلات الموسيقية وقد ورطوا ابن السعود في نزاع مع حكومة مصر يتعلق ببعض المراسم الشكلية وذلك في أول موسم للحج بعد فتح الحجاز فلما استفتى علماء نجد ايدوا الجنود بشدة فلم يبق أمامه إلا قطع العلاقات مع مصر ثم تحين الفرص بعد ذلك . لقد رأى ببصره الثاقب ان اتصال الوهابيين وهم ذوو العقائد السلفية المتطرفة بالعالم الواقع خارج الجزيرة لا بد من أن يخفف حدتهم ولـكنه أدرك كذلك ان استعجال هـذه النتيجة ضرب من الجنون مهما بلغت حاجته الى اخضاعهم فاختار الانتظار حتى يجيء الوقت الذي يكتسبون فيه الخبرة الـكافية ويتسع افقهم الى حد يستطيع معه حملهم بالتدريج على الاهتمام بروح الشرع بالاضافة الى حرفيته والتمييز بين المخالفات الحقيقية والظاهرية . لم تكن مهمته هذه سهلة وقد تعرض اثناء قيامه بها الى تهمة الالحاد ومواجهة التمرد الصريح ومع ذلك فان التطور الذي حدث في موقف الوهابيين بصورة عامـة خلال سنوات معدودة سمح لابن السعود بنشر السلام بين اتباعه وغيرهم من المسلمين وبان يضع حـداً للاصطدامات التي تعكر صفو الحج وأن يسوي الخلاف مع مصر ويعقد المعاهدات مع فارس واليمن

(١) يعتقد الوهابيون ان بناء القبب وسائر انواع النصب فوق القبور مكروه لانها تشـجع الناس على توجيه صلواتهم الى الولي المدفون بدلاً من ان يتوجهوا الله رأساً كما فرض القرآن .

وهما دولتان شيعيتان وذلك كله دون ان يسمح لنفسه بالشذوذ ولو قيد انملة عن طريق السنة ولو انجز ابن السعود هذه الامور قبل سنوات للاقى مقاومة من علماء الوهابيين الذين كانوا يعدونها اعمالاً إلحادية وصلات بالكفرة .

كان أمر تحسين حالة العشائر من المسائل الداخلية التي جابهت ابن السعود في ادارة مملكته فكان عليه اولاً ان يوطد النظام وينشر العدل ولا سيما بين قبائل الحجاز الذي كان بعضها كبيراً وقوياً ولا يخضع إلا لسلطة المشايخ فقد كانت تعد نفسها طوائف مستقلة فنجحت في الخلاص من التجنيد الاجباري والضرائب والواجبات الاخرى التي تفرض على شعب متحضر وكانت تتمتع بالسيادة المطلقة في مناطقها حتى انها كانت تجبر القوافل على دفع اتاوة (خاوة) ولم تستثن من ذلك القوافل الرسمية المرفقة بحرس مسلح ولم تحو قوانينها إلا القليل من الاحكام الواردة في القوانين العامة والجزائية كما أنها لم تهتم بالفارق الخلقي بين تربية المواشي وسرقتها ولما كانت قاسية في مواضيع الشرف الشخصي فانها كانت تضع ثارات الدم في المقام الاول حتى انها في بعض الظروف توجب القتل صيانة للشرف . وقد اعتادت بعض القبائل مخالفة قوانينها وعمدت الى انواع واشكال من السلب والنهب وراحت تتعدى حتى على المسافرين الذين يحملون وثيقة الامان بعد دفع الاتاوة . لقد استمرت هذه الحالة قروناً كثيرة ولم تنجح محاولات الترك للقضاء عليها .

يكاد المرء لايصدق لأول وهلة عظم الفارق بين تلك الحالة والوضع الحاضر فان الغزو اليوم عمل غير مشروع واصبحت الاتاوة من قصص الماضي وقد وضع نظام موحد للضرائب كما فرضت تعرفة لاجور نقل الحجاج وحصر حق معاقبة المذنبين بالدولة حتى أمست جميع قبائل الحجاز والمملكة كلها خاضعة لقوانين البلاد

من كل الوجوه بالرغم من تمتعها بحرياتها القبلية ومما يثير العجب انها تطيع تلك القوانين فقد بطلت عادة الغزو بالفعل ولم تعد القبائل تعرف معنى الاتاوة والحكومة سائرة في جباية الضرائب بلا معارضة حتى اصبح من النادر اليوم أن يتعرض أحد على مسافر أو أن يسرق حاج أو يستثمر وعم احترام القوانين الارياف والبوادي فاصبحت في ذلك كالمدن ولا نبالغ اذا قلنا ان المملكة العربية السعودية قد بلغت في حفظ الامن العام درجة قد تفوق كافة دول العالم ولا يستثني من ذلك اعرقها في الحضارة .

احدث ابن السعود هذا التطور بفضل سلطته المؤيدة بقوة جيشه . لقد اظهرت القبائل في أول الامر شيئاً من الاحجام والتحدي بالرغم من انذاراته الشديدة اذ حاول جهده أن يسيرها بالطوع لا بالكره فاخذ يتباحث مع شيوخها بصبر واناة ويورد لهم الحجج المقنعة متمثلاً بقبائل نجد وماجنته من خير بخضوعها للنظام فلما ادرك ان اقناعهم عبث صرفهم بعد ان انذرهم جميعاً وزودهم بالهدايا ليخفف من اثر كلماته الشديدة ولكن التروي لم يثمر ثمرته فقد وافته الاخبار مسرعة تنبيء بغزو قام به بنو حرب وامتاز بما رافقه من قسوة ونهب. فحشد ابن السعود قوة من اتباعه وأمرهم بتأديب المذنبين بلا هوادة فاجهز الجنود الوهابيون على مضارب بني حرب وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً افنوا فيه مايقارب المائتين فسرى الخبر في الحجاز وحمل باقي الشيوخ على أن يقلبوا الامر من جديد ويفكروا ملياً في سرعة هذا العقاب وشدته ثم أعقب هذا الحادث حادثان مماثلان ولكن على مقياس اصغر حتى استقر في ذهن القبائل بعد ذلك ، كرهاً لا طوعاً ، ان لا مفر لها من تقبل النظام الجديد والاخلاص له .

- ٩ -

لقد افاد ابن السعود من النظام الجديد اذ جعله أساساً لمشروعه الرامي الى الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي والذي اختمر في ذهنه منذ زمن بعيد وهو يرتكز على نقطة واحدة : استقرار العرب الرحل على الارض . فقد كان يقطع مجموعة من القبائل مساحة من الارض في جوار بئر اونبع لتتخذه موطناً ثابتاً لها تقيم فيه وتشتغل بالزراعة وتربية المواشي وتقدم لها المساكن وتزود بالادوات والارشاد اللازم في فن الزراعة وتربية الماشية . وكان الهدف الذي تسعى اليه كل واحدة من هذه الهجر (١) هو ان تتحول مع الايام الى قرية تكفي نفسها بنفسها من كافة النواحي المتصلة بالادارة المحلية وبالاقتصاد .

بدأ تطبيق هذه الفكرة في نجد عام ١٩١٠ إذ أنشئت أول هذه الهجر وسار المشروع بعد ذلك في خطوات سريعة . فلما دخل ابن السعود الحجاز كان عدد الهجر في سائر أنحاء نجد يتجاوز السبعين وعدد سكان كل منها يتراوح بين (٤٠٠ و ٦٠٠٠) . كان هذا المشروع محاولة لمعالجة داء الجزيرة الدفين وهو الفقر المزمن في حياة البداوة ويحتمل أن تأتي هذه التجربة في التنظيم الاجتماعي بنتائج ثابتة لأن هدفها روحي ومادي . وكانت الفكرة ترمي أيضاً إلى تحقيق نتيجة سريعة وهي تأمين مورد جديد ومعتمد للعشائر يغنيها عن السلب والنهب فيما بينها وبهذا يزول سبب الغزو الاساسي. ومن أهداف الفكرة أيضاً — على الأقل في الحجاز — ايجاد معاش للعربان الذين كانوا

(١) وهو الاسم الذي أطلق على المجموعة الزراعية التي من هذا النوع والذي يقابله في القاموس الغربي اسم (المستشق — Colony)

حتى ذلك الحين يتعيشون من نقل الحجاج فلما حلت السيارة محل الجمل أصبح هذا المورد عرضة للزوال . ولكن ابن السعود الذي يفهم نفسية البدوي فهماً عميقاً كان يرمي إلى أهداف أبعد من هذه وهي صرف العرب الرحل عن حياة التنقل ودفعهم الى حياة الاستقرار في مركز ثابت بما يرافق هذا التحول من خلق لميول جديدة وتبعات جديدة وقيم جديدة . لقد اخترقت نظرته الحادة البذرة التي كونتها القرون في داخل النفس البدوية ونفذت منها الى ماهو اعمق اي الى غرائزها البشرية فخرج من ذلك وهو قانع بأن الاعرابي اذا ماأصبح صاحب مسكن ومرتبطاً بالارض نبذ تلك البذرة المكتسبة واطاع غريزة الرحل فيه التي تدفعه الى الاستيطان . انا اذا نظرنا الى فكرة ابن السعود من هذه الناحية الفيناها تجربة في البعث الروحي يجب ان تحتل مكانها بين الاعمال الباهرة التي يخلقها الخيال السياسي المبدع . واذا امكن تعميمها في باقي الجزيرة كما عمت في نجد وعلى مقياس اصغر في الحجاز بدلت خلق البدو وعاداتهم تبديلاً عميقاً يؤدي الى تغيير وجه الجزيرة .

ان هذا التطور الذي قطع حتى اليوم شوطاً بعيداً سيتم بسرعة أكبر بانتشار وسائل النقل والمواصلات الحديثة في الجزيرة وبنمو مواردها المادية ، لقد كان الجمل واسطة النقل للجميع عندما دخل ابن السعود الحجاز ومنذ ذلك الحين تغلغلت السيارة في كل مكان تقريباً ومع أن استعمالها لم يصبح بعد عاماً الا انها فتحت الباب لاحتمالات كبيرة . وتعمل الحكومة الآن على جعل طرق القوافل القديمة صالحة لاستعمال السيارات واصبح في مكنة المسافران يسير بسيارته براحة من البحر الاحمر الى خليج فارس ومن جدة الى المدينة فبغداد وفي مدة لا تكاد تتجاوز الاعوام العشرة اصبح نقل الحجاج آلياً فينتقل الحجاج الذين يبلغ عددهم

كل سنة مائة الف أو أكثر من مكة الى المدينة بقوة النفط . وقد انشئت في المدن الرئيسية مراكز للاسلكي بحيث يظل ابن السعود أثناء انتقاله من أقصى مملكته الى أقصاها على اتصال دائم بموظفيه في كل مكان بفضل أجهزته المتنقلة للأخذ والبت وقد أمر كذلك باجراء بحث منظم عن المياه التحتية أدى الى فتح عدد من الآبار الارتوازية كما كشف التنقيب عن المعادن وجود منابع غزيرة للنفط وقليل من الذهب وأنواع مختلفة من المعدن الخام . وفي الوقت الذي لا ينتظر أن يؤدي اكتشاف النفط والمعادن الاخرى الى شيء أكثر من زيادة الوارد فان ينابيع الماء الجديدة والاخذ بوسائل الانتقال السريعة سيعجل في انجاز الانقلاب الذي تسير نحوه الجزيرة وذلك في أمرين خطيرين هما استقرار القبائل على الارض وازدياد الاختلاط بين الاجزاء المختلفة والمتفرقة من الاسرة العربية — ويشع من جوانب كل واحد منها الامل في ان يقوم بعث الجزيرة العربية على أساس الاستقرار .

الباب السادس عشر

العراق وسورية وفلسطين بعد الحرب

— ١ —

كانت الاعوام التي اعقبت الحرب اعوام اضطراب ونزاع في البلاد العربية التي يتألف منها المستطيل العربي في شمال الجزيرة كما كانت في الجزيرة نفسها ولكن بينما كانت اسباب النزاع في الثانية ناشئة عن عدم استقرارها السياسي وعن التنافس بين حكامها كان سبب الاضطراب في الاولى من عمل الدول الاوروبية التي جعلت وقوعه محتماً كنتيجة طبيعية لمقررات سان ريمو وللتدابير التي اتخذتها بريطانية وفرنسة لتنفيذ « المهمة » التي أخذتا على عاتقيها النهوض بها في العراق وسورية وفلسطين .

لم تمنح عصبة الامم الانتداب بل منحه المجلس الاعلى المؤلف من ممثلي فرنسة وبريطانية وايطالية وكان لكل منها مطامع خاصة في الاجزاء المنسلخة عن المملكة العثمانية. ولما كانت الولايات المتحدة غائبة ومعها اعتراضات وودرو ويلسون الشائكة والمربكة توصل رئيسا وزارتي فرنسة وبريطانية أخيراً الى الاتفاق على توزيع الغنائم واقتسام الانتداب على البلاد التي كانت من حصتها . وقد حوى ميثاق عصبة الامم(١) الذي كان نافذاً آنئذ احكاماً خاصة بتعيين الانتدابات ومداها كما نص في ما يعود الى

(١) إننا نقصد المادة ٢٢ من الميثاق في كل ما نورده عنه في هذا الباب .

البلاد العربية على أن تسمية الدولة المنتدبة يجب أن يستند بالدرجة الاولى الى رغبة الشعوب ذات العلاقة فاهمل مؤتمر سان ريمو هذا النص وجاءت مقرراته مناقضة له . لقد كانت رغبات السكان معروفة عند ممثلي الحلفاء ولا سيما تقرير لجنة كينغ كراين ومقررات المؤتمر السوري ولكن الاطماع الخاصة هي التي اثرت في توجيه الانتدابات ولم تمدل الا حين قضت الضرورة بالتوفيق بين مرامي فرنسة وبريطانية المتضاربة فاستولت كل منها على المقدار الذي سمحت لها به صاحبتها وراحت منذ ذلك الوقت تصف هذا الاستيلاء على حصتها من الغنائم بانه واجب فرضته عليها التزاماتها الدولية المقدسة .

وخالفت الدول الميثاق من ناحية ثانية . فقد نص في القسم العائد الى الاجزاء المنسلخة عن المملكة العثمانية على ان بعض الجماعات قد بلغت درجة من الرقي يمكن معها الاعتراف بوجودها كدول مستقلة بصورة موقتة على ان توضع تحت وصاية الانتداب لتظفر بالمشورة والمساعدة الاداريتين حتى يجيء اليوم الذي تستطيع فيه ان تقف بمفردها ، وليس معنى ذلك تأجيل الاعتراف بالاستقلال حتى يحين وقت انهاء الانتداب بل الامر على العكس اي ان هذه الجماعات تستحق ان تنال الاستقلال على ان يكون الانتداب قيداً موقتاً قيدت فيه حريتها في التمتع بميزات الاستقلال . وقد احترمت مقررات سان ريمو هذا النص رسمياً فيما يخص العراق وشمال سورية فاعترفت بهاتين المنطقتين كدولتين مستقلتين بالاسم ان لم يكن بالفعل واما فيما يخص فلسطين فقد خالفت المقررات النص بالاسم وبالفعل اذ منحت بريطانية حق الانتداب عليها بشروط تعمدت الا يكون الاعتراف باستقلال تلك المنطقة من ضمنها ، وسبب ذلك التزام بريطانية الناشيء عن وعد بلفور .

كان القصد مما نصت عليه بعض احكام الميثاق التي وضعت بعض السكان تحت الانتداب الاجنبي تطبيق مبدأ جديد اعلن الحلفاء اعتناقهم له في الكثير من تصريحاتهم اثناء الحرب وبعدها وقد عرف الميثاق هذا المبدأ بانه يتوخى « ازدهار هذه الشعوب ونموها الذي هو وديعة مقدسة في ذمة المدنية، ويجب ان ينص الميثاق على الضمانات اللازمة للمحافظة على هذه الوديعة » . ولعل اول ما يلفت نظر الباحث هو ان مؤتمر سان ريمو عقد في ابريل عام ١٩٢٠ بعد ابرام معاهدة فرساي التي اصبحت نافذة في اليوم العاشر من يناير عام ١٩٢٠ وان الميثاق الذي هو جزء من المعاهدة كان في ذلك الوقت وثيقة ملزمة للحلفاء . لقد اتخذت مقررات مؤتمر سان ريمو في وقت كان فيه الميثاق الصك القانوني الوحيد الذي يعرف المبادىء الناظمة لتوجيه الانتدابات وقبولها بحيث تكون هذه الانتدابات مشروعة او غير مشروعة تبعاً لانطباقها على هذه المبادىء او شذوذها عنها . ان مؤتمر سان ريمو قد خالف احكام الميثاق واتخذ قرارات لم تتناقض مع تبعات الحلفاء الادبية فحسب بل ايضاً مع مسؤولياتهم الحقوقية وذلك بتعيينه الدول المنتدبة وبتفريقه بين فلسطين وسائر المناطق العربية .

ذهب الحلفاء في سورية شوطاً ابعد في اهمالهم « ازدهار ونمو » شعبها اذ قرروا تقسيمها الى ثلاث دول مختلفة بالرغم من انها مرتبطة بوشائج الوحدة من وجوه عديدة : فانها من الناحية الجغرافية تؤلف وحدة قائمة بذاتها لها حدودها الطبيعية الواضحة وإن تنوعت المعالم الطبيعية على سطحها تنوعاً كبيراً . واما من الناحية الاقتصادية فقد كانت حياتها الزراعية والتجارية قائمة على مواردها الطبيعية وكانت تغطي البلاد كلها شبكة من المصالح والاعمال المتساندة والتي تربط منطقة

باخرى فتصل ما بين الريف والمدن وما بين الساحل والداخل . واما من الناحيتين الثقافية والتاريخية فكانت حائزة على اسباب التوحيد لانها منذ الفتح العربي وباستثناء فترة الحكم الصليبي كانت تشكل وحدة سياسية محافظة على اللغة والعادات التي اكتسبتها منذ القرن السابع . وعليه فاننا اذا نظرنا الى هذا الامر من جميع نواحيه الاساسية ادركنا ان تجزئة تلك البلاد تؤدي الى تأخير ازدهارها ونموها في المستقبل ولم يخف اهل البلاد شدة تمسكهم بالوحدة بل اظهروا دلائل كثيرة عليه . ومع ذلك فقد ضرب بهذه الاعتبارات كلها عرض الحائط ولم يلتفت مجلس الحلفاء الاعلى الا الى اطماع اعضائه فوجد ان الوسيلة الوحيدة لارضاء جشع بريطانية وفرنسة هي تقسيم سورية بينهما ، فتمت التجزئة على اساس قريب من الاساس الذي استند اليه اتفاق سايكس بيكو في وضع الحدود مع مراعاة فارق واحد عظيم وهو ان المنطقة الموضوعة تحت الادارة الدولية والتي اشير اليها باللون البني اصبحت من حصة بريطانية وحدها وهو الامر الذي كان المستر لويد جورج وبعض زملائه يسعون اليه كل الوقت بينما كانوا يتظاهرون بانهم انما يعطفون على الصهيونية لدوافع انسانية وايثارية . (١)

اما العراق فقد وضع تحت انتداب دولة واحدة على عكس سورية ومع ان اتفاق سايكس بيكو نص على تقسيمه الى منطقتين فرنسية وبريطانيه الا ان فرنسة سحبت ترشيحها عندما عقد مؤتمر سان ريمو ، فان المفاوضات التي بدأت في لندن في ديسمبر عام ١٩١٨ والتي طلب فيها لويد جورج من كليمنصو الموافقة على ادخال شمال العراق بالاضافة الى فلسطين ضمن المنطقة البريطانية لم تؤد الى تسوية نهائية في

(١) altruistic

ذلك الوقت ولكن بعد سقوط كليمنصو في يناير عام ١٩٢٠ توصل الطرفان الى الاتفاق على ان تتنازل فرنسة عن كل مطامعها الاقليمية في العراق لقاء تركها حرة تعمل ما تشاء في سورية ولقاء منحها حصة كبيرة في نفط الموصل . وقد تم عقد هذه الصفقة الانكليزية الفرنسية (١) بالفعل اثناء انعقاد مؤتمر سان ريمو فما ان انتهت الدولتان منها حتى منح المجلس الاعلى بريطانية العظمى الانتداب على العراق كله .

— ٢ —

بهذا الشكل أوجدت الانتدابات التي من نوع (آ) والتي ضمت فيما بينها المستطيل العربي بكامله فاصبح العراق المؤلف من ولايات البصرة وبغداد والموصل دولة واحدة وضعت تحت الانتداب البريطاني . أما سورية فقد قسمت إلى ثلاث دول جديدة تقسيما يكاد ينطبق تماماً على المناطق الثلاث التي أوجدها فيها الحلفاء بعد احتلالها فاصبحت المنطقة المعروفة حتى ذلك الوقت باسم المنطقة الجنوبية من بلاد العدو المحتلة تعرف باسم فلسطين ووضعت تحت الانتداب البريطاني بينما أصبحت المنطقتان الشرقية والغربية تعرفان باسم دولتي سورية ولبنان وقد وضعتا تحت الانتداب الفرنسي وعوملتا فيما عدا ذلك كوحدتين سياسيتين منفصلتين انفصالاً تاماً . وبعبارة أخرى فان ما عملته مقررات سان ريمو بالفعل هو أنها أيدت توزيع الغنائم الذي تم بعد الحرب بابتداع هذا الشكل من المصادقة الدولية وأنها أضفت على الادارات التي سميت حتى ذلك الوقت بالادارات العسكرية الموقتة في بلاد العدو المحتلة رداءً شرعياً ودعمتها بوثيقة ضمنت دوامها وبذلك حققت الاهداف الخفية التي

(١) وذلك في وثيقة عنوانها (مذكرة عن الاتفاق بين المسيو فيليب برتلو والسير جون كادمان) مؤرخة في ٢٤ ابريل عام ١٩٢٠

لا يشك في أن كلاً من فرنسة وبريطانية كانت تفكر فيها عند إقامة تلك الادارات الموقتة .

افتتحت مقررات سان ريمو عهداً جديداً في تاريخ الحركة العربية وهو عهد ثورة على دولتي الغرب المعظمتين ولهذا وجب دراسة معانيها الخلقية بالاضافة إلى مراميها السياسية . أما من الناحية السياسية فلم يكن في المقررات شيء من التبصر لانها خالفت أعز أماني الشعوب ذات العلاقة ووقفت في وجه تيار الوعي القومي الذي بلغت شدته بنتيجة الحرب واندحار الترك حداً لا يمكن التراجع عنه مطلقاً فكان لا بد لتنفيذها من الالتجاء باستمرار إلى القوة وإلى غيرها من وسائل القمع ، واما من الناحية الخلقية فانها من أبرز الامثلة المفضوحة للاعمال الشنيعة والقاسية التي تضافرت جهود الدول على تحقيقها والتي تنطوي على نقض للعهد مشين ويزيد في شرها أنها لا بد من أن تثير مقاومة مسلحة تجر وراءها الموت والالم على مقياس لا يمكن حصره .

يقول الذين يلتمسون الاعذار لمؤتمر سان ريمو إن المصاعب التي لاقتها بريطانية في علاقتها مع فرنسة كانت عظيمة جداً وان المقررات ما كانت إلا حلاً وسطاً ان جاء ناقصاً فهو الحل الوحيد الذي يحول دون وقوع الحرب بين الدولتين . ويميل بعض المؤرخين ، ومنهم من كان ذا مكانة مرموقة ، إلى أن يسندوا هذه المصاعب إلى تطرف فرنسة واصرارها بالدرجة الاولى على تنفيذ اتفاق سايكس بيكو الذي كانت بريطانية مستعدة لتمزيقه . ويستنتج من هذه الاقوال ان فرنسة لو وقفت من النهضة العربية موقف التأييد بدلا من موقف العداء وأنها لو نظرت إلى احتمال تعاونها مع العرب نظرة واسعة بدلا من نظرتها الضيقة وأنها لو وافقت على ابدال اتفاق سايكس بيكو باتفاق آخر قابل للتطبيق وتشترك في وضعه الدولتان مع العرب —

إن فرنسة لو فعلت شيئاً من هذا لامكن تفادي أسوأ ما جاء في مقررات سان ريمو.

إننا اذا أمعنا النظر في الوقائع وجدنا ان هذا الاستنتاج لا يستقيم او على الاقل لا يستقيم بكامله لان الحجة التي يستند اليها تهمل الجزء العائد لبريطانية من التبعة كما تهمل المشكلة التي أوجدتها اذ اعربت فور عقد الهدنة عن رغبتها في جعل الموصل وفلسطين من حصتها في الغنائم فخافت فرنسة على مركزها في الشرق الادنى خوفاً شديداً وعارضت الطلب لانه مخالف لاتفاق سايكس بيكو ولانه يعطي بريطانية نفوذاً كبيراً في البلاد العربية . فلم يكن الفارق بين الدولتين ، كما قال البعض، ان وزارة الخارجية البريطانية كانت ذات نظرة بعيدة وواسعة وتتنازل بكل نبل عن حقوقها التي نص عليها ذلك الاتفاق المخزي بينما كانت وزارة الخارجية الفرنسية متعصبة لرأيها وطامعة في الحصول على حقها كاملاً ، بل واقع الامر ان بريطانية هي التي كانت تطالب لا بكامل المنطقة التي خصها بها الاتفاق فحسب بل ايضاً بفلسطين وولاية الموصل وهذا في الوقت الذي راح ساستها يعلنون بطلان اتفاق سايكس بيكو ، الامر الذي حمل الفرنسيين على اتخاذ موقف الدفاع ؛ فكان اصرارهم على تنفيذ الاتفاق الذي يعده بعض المؤرخين اساساً للمشاكل القائمة بين فرنسة وبريطانية بمثابة رد فعل سياسي للاطماع البريطانية الجديدة .

إن القول بان الحكومة الفرنسية كانت بصورة عامة معادية للنهضة العربية وان عداءها كان عميقا وان سياستها كانت مستوحاة من رغبتها في وقف نمو تلك النهضة لكيلا تصبح قوة سياسية — ان هذا القول صحيح تمام الصحة كالقول بان البريطانيين كانوا صادقين في عطفهم على أماني العرب وحق في رغبتهم تحقيق بعضها شريطة تحقيق الاماني البريطانية معها . ولكن لايجوز وصف مقررات سان ريمو

بانها كانت النتيجة المحتمة لتطرف فرنسة لان مطالبة بريطانية بالحصول على أقاليم اضافية هي التي أدت مباشرة الى أسوأ نتائج مؤتمر سان ريمو .

• كان القرار القاضي بوضع حكومة فيصل في دمشق تحت رحمة الفرنسيين اقل تلك المقررات انصافاً فلو نظرنا الى تعهدات مكماهون واردنا أن نفسرها بأضيق التفاسير وجدنا أن لا مفر لبريطانية من التزامها بان « تعترف » بالحكومة العربية في سورية الداخلية و « تؤيدها » . ان هذا الالتزام صريح ولا يقبل الشك وقد اعترفت بريطانية بوجوده علناً وكان أفصح معبر عنه كلمات المستر لويد جورج نفسها .(١) ومع ذلك فقد تراجع في سان ريمو امام طلب الفرنسيين منحهم حق الانتداب على سورية الداخلية بالاضافة الى الساحلية وكان هذا الطلب ثمناً لقبول فرنسة بادخال فلسطين والموصل ضمن المنطقة البريطانية وقد دفع المستر لويد جورج هذا الثمن من حساب الدين الذي اعترفت بريطانية بانها ملزمة به للعرب فوافق على اعطاء حق الانتداب هذا الى فرنسة دون الحصول على ضمانة مقابلة منها بان تعترف باستقلال الحكومة العربية وتؤيده . وبعد شهرين عندما دخل الفرنسيون دمشق وطردوا فيصلاً منها اصاب الحكومة البريطانية بعض القلق ولكنها ما لبثت أن عادت الى هدوئها ووجدت لنفسها مخلصاً في الرأي القائل بانها لا يمكن ان تفكر في محاربة فرنسة من أجل سورية ، وهو الواقع .

اما في نظر قادة العرب فان هذه الصفقة الجديرة بالاستهزاء كانت تنطوي على اشد الامور ضرراً ألا وهو تقسيم سورية وتمهيد السبيل لتجزئتها تجزئة اعظم . لقد اشرنا في اول هذا الباب الى ان اقامة الحواجز بين الاجزاء المرتبطة بروابط

(١) انظر الفصل الحادي عشر من الباب الرابع عشر اعلاه .

اجتماعية واقتصادية لابد له من ان يؤدي الى تفكك اقتصاديات البلاد بصورة عامة والى تأخير نموها ولكن الحدود التي وضعت في ديسمبر عام ١٩٢٠ كتتمة طبيعية لمقررات سان ريمو عملت اكثر من ذلك بكثير : انها بالاضافة الى ذلك قد نصبت حاجزاً جديداً وهائلاً في وجه المرامي الثقافية والسياسية للحركة العربية فكانت بالنتيجة اشد شؤماً من كل الاعمال التي قام بها الترك في سبيل اقامة نظام المركزية ، وقد دلت الوقائع التي وقعت فيما بعد على ان هذه المخاوف كانت في محلها . وبعد ان احتلت فرنسة دمشق في يولية عام ١٩٢٠ توسعت المنطقة البريطانية حتى ضمت البلاد الواقعة الى شرق نهر الاردن واما الحدود التي عينت موقتاً في شهر ديسمبر من تلك السنة فقد وسعت فيما بعد حتى اصبحت تمتد على طول المسافة من البحر الابيض المتوسط الى بادية الشام فالعراق (١) مبتدئة من نقطة اتفق عليها بين عكا وصور وسائرة باتجاه تقريبي نحو الشرق مجتازة الارياف الى ماوراء المناطق المأهولة . ولا نبالغ اذا قلنا ان هذا الخط يخالف جميع القوانين المعروفة والناظمة لتعيين الحدود بين الاجناس والبلدان ، وذلك في سيره المقرر كخط يقسم البلاد الى منطقتين فرنسية وبريطانية وقد وقف منذ اقراره سداً منيعاً في وجه التجارة وغيرها من اسباب الوصل وشلها فكان حائطاً مصطنعاً قامت كل واحدة من الدولتين المعظمتين على جانبيه بنشر لغتها ونقدها وتأسيس نظامين مختلفين اختلافاً كلياً في الادارة والتعليم والتنظيم والتوجيه الاقتصادي .

ان الضرر الناجم عن التقسيم سيتضح كلما تعمقنا في بحثنا ، ولكن كل ماتجب ملاحظته هنا هو انه حين اقر في سان ريمو دون اي التفات لرغبات الشعوب

(١) انظر المصوّر رقم (٥) .

ذات الملاوة وحاجاتها اثار في اذهان الزعماء نقمة اكبر من التي اثارها توجيه الانتدابات نفسه لانهم كانوا على حق حين عدوا التقسيم تدبيراً رجعياً لافائدة منه وهو لايخالف الوعود التي قطعت فحسب بل أيضاً يخالف ابسط قواعد الشرف في معاملة الشعوب الضعيفة وهي من المبادئ نفسها التي وضع الانتداب في الاصل لتحقيقها فانكشفت لأعين الزعماء العرب ، ولا سيما اولئك الذين كانوا يدعون بحرارة الى اقامة الصداقة بين بريطانية والعرب ، اهداف الدولتين الخفية عارية خسيسةً . فكانت خيبة الأمل تامة ولكن رافقها الشعور باحتقار دول الغرب والاستياء الشديد الذي مالبث ان تحول الى يأس اعرب عن نفسه بالاضطرابات العنيفة التي وقعت حالا. قد يجد العالم المدقق التفاسير لنواحي تلك الاضطرابات المختلفة ولكنها في الاساس وليدة الشعور المستفز والاشمئزاز النفسي الذي أثارته مقررات سان ريمو فقد انتظر العرب ثمانية عشر شهراً منذ عقد الهدنة وهم في حالة معلقة ووجلة كما كانوا في شك من محاولات الحلفاء التملق لهم ولكنهم اطاعوا فيصلا الذي حثهم على التريث حتى يصدر مؤتمر الصلح حكمه النهائي فلما صدر وقد تضمن فرض العبودية عليهم لا لجرم اقترفوه بل بسبب التفاوت الكبير بين قوة أوربة وضعفهم ثاروا من أعماق يأسهم وراحوا يصارعون قوى الحلفاء المتفوقة صراعاً هائجاً مخيفاً فكانت اخطر ثورة ، كما رأينا ، هي ثورة العراق التي نشبت بعد مضي اسابيع قليلة على اعلان مقررات سان ريمو .

— ٣ —

اذا عددنا ثورة العراق حركة موجهة ضد تحكم الدول الحليفة استطعنا القول بانها قد حققت هدفها فوراً ، وبالرغم من أن العراق قضى مدة اثنتي عشرة سنة بعد

ذلك قبل الغاء الانتداب والاعتراف رسمياً في جنيف أنه مستقل وذو سيادة ، الا ان البذرة بذرت في عام ١٩٢٠ عندما قررت الحكومة البريطانية تبديل سياستها او على الاقل خططها بعد أن كبدتها الثورة المصاريف الهائلة . لقد قيل للناس بان السياسة الجديدة إن هي الا تتمة للسياسة القديمة وهذا مايحدث عادة عندما تخضع دولة كبيرة لاساليب العنف التي يجابهها بها شعب تابع لها كما أن الحكومة البريطانية اخذت تؤكد بانها كانت دوماً عازمة على اقامة حكومة عربية في العراق وتركيز علاقاتها معها بمعاهدة تحالف . كان هذا التعديل في ظاهره تبديلاً في الاسلوب أي أن صفة الانتداب بقيت ولكنها أصبحت خاضعة في تنظيمها لا لمشيئة بريطانية وحدها بل لمعاهدة بين الطرفين ولكنه كان في حقيقته تبديلاً اساسياً لانه بعث من جديد تلك الفكرة المنبوذة فكرة تحقيق رغبات المحكومين وقد ترتب عليه ان قبول العراق كان شرطاً لازماً لاي تسوية وان على بريطانية العظمى في المستقبل ان تسعى الى تحقيق غاياتها عن طريق المفاوضة بدلاً من فرض رغباتها كما فعلت في سان ريمو . وقد دلت الثورة العراقيـة على أن الوعي القومي اصبح قوة عند العرب بالرغم من مظاهر التفرقة والتحزب البادية عليهم كما دلت على أن السياسة القائمة على الضغط سياسة مكلفة على كل حال وقد تكون عقيمة وان المصالح البريطانية يمكن أن تؤمن بشكل مثمر عن طريق اتفاق الطرفين . وقد اظهرت فرنسة (١) مؤخراً مايدل على أنها تعلمت هذا الدرس وان كانت بريطانية ماتزال في حاجة الى تعلمه في فلسطين .

وضعت الخطوط العامة للسياسة الجديدة في مؤتمر القاهرة (٢) الذي عقد في

(١) كتب المؤلف ذلك في عهد التجربة الاولى للحكم الوطني في سورية على أثر عقد المعاهدة السورية الفرنسية عام ١٩٣٦ التي لم تبرمها فرنسة .

(٢) انظر الفصل الثالث عشر من الباب الرابع عشر أعلاه .

ربيع عام ١٩٢٠ ولكن سبقته ظاهرة دلت على الاتجاه الجديد والنوايا الجديدة وذلك باقامة حكومة عربية موقتة في شهر نوفمبر المنقضي . ثم ذهب فيصل الى العراق في الصيف الذي تلاه كمرشح للعرش بعد أن مهد له السبيل أصدقاؤه البريطانيون وانصاره الكثيرون من العرب وبالرغم من وجود عدد من الاصوات المخالفة له الا انه فاز باكثرية كبيرة فنودي به ملكاً على العراق رسمياً يوم ٢٣ اغسطس عام ١٩٢١ .

بهذا الشكل بدأت ولاية فيصل التي دامت اثنتي عشرة سنة وانتهت بوفاته عام ١٩٣٣ فقاد العراق خلالها في جميع أدوار تكونه الدستوري وتحرره السياسي ولم يكد يتسع المهد لاكثر من ذلك . ان الدين الذي في عنق العراق لملكه الاول يكاد لايقدر بثمن اذان مواهبه وتجاربه قد اهلته ليقوم بدور حاسم في معالجة اشد القضايا صعوبة وقد اجمع العارفون على أن خلق دولة العراق الحديثة ما كان ليتم لولا تأثيره الذي كان عاملاً اساسياً في ذلك وهو لم يقصر جهوده على توجيه الامور وقيادتها بل لعب دوراً رئيسياً في اعمال الدولة المتنوعة والتي كان محوراً لها بحكم مركزه ومع ذلك فانه بالرغم من انهاكه بحل القضايا المستعجلة لم ينس قط الاهداف البعيدة للحركة العربية والدور الذي قد يلعبه العراق في تحقيقها كمثل تقتدي به الدول العربية الموضوعة تحت الانتداب وقد سبقها في سيرها جميعاً نحو الهدف المشترك .

تم تحرر العراق على أربع مراحل امتازت بعقد اربع معاهدات للتحالف مع بريطانية وذلك في اكتوبر عام ١٩٢٢ وينابر عام ١٩٢٦ وديسمبر عام ١٩٢٧ ويونيو عام ١٩٣٠ ولعل تعددها كان لا بد منه لانها تمثل الفارق في وجهة النظر بين العراقيين والبريطانيين حول اهداف المعاهدة كما تمثل المحاولات المبذولة للتوفيق

بين الطرفين . كان البريطانيون يريدون من المعاهدة ان تكون رداءً جديداً للانتداب وان تتضمن منح بريطانية حق ادارة شئون الدولة الفتية . أما زعماء العراق فكانوا يرون أنهم لا يستطيعون التنازل عن هذا الحق وغيره من الحقوق المتصلة باي نوع من انواع الانتداب ويرغبون في ان تكون المعاهدة تحالفاً بين شريكين منفصلين ارادا التعاقد بملء حريتهما في سبيل تأمين مصالحهما المشتركة . ومما زاد هذا الخلاف شدة الخلاف النفسي بين البريطانيين الذين يودون تفادي القتال والزعماء العراقيين الذين نفد صبرهم وقد استفزهم احساسهم بان الثقة باتت مفقودة بين الطرفين . فلئن كانوا سابقاً راغبين في الحصول على مساعدة بريطانية لبناء صرح الدولة الجديدة فقد زالت هذه الرغبة الان بفضل النظام الاداري الذي أقامه الزعيم (الكولونيل) ويلسون والذي امتد الى كل شيء وابتلع كل شيء وكان قادراً على كل شيء . فحل محل تلك الرغبة الاعتقاد بان كلمة الانتداب ما هي الا تسمية جديدة للاساليب القديمة في الاستغلال الاستعماري وان المساعدة الاجنبية كما يفهمها مؤتمر سان ريمو انما هي مرادفة للسيطرة الاجنبية ولهذا تشكلت جماعة من الزعماء ووراءها عدد كبير جداً من الانصار تقول بعدم امكان القبول باية معاهدة ما لم تعترف باستقلال العراق استقلالاً تاماً مطلقاً .

لقد ظهر أن التباين النفسي لا يقل في شدته عن التباين السياسي وكان لا يمكن ايجاد التقارب بين الطرفين الا بفضل شخصية الملك فيصل الذي كان عليه واجب مزدوج عند ادارته للمفاوضات التي انتهت على التتابع بعقد المعاهدات الاربع : فكان من جهة يعمل على اقناع البريطانيين بعدم الاصرار الى هذا الحد على الحصول

على الضمانات ، وكان من جهة ثانية يدعو شعبه الى النظر لمصالحه الحقيقية نظرة أوسع وان يكون أقرب الى الواقع حين يفكر في امكانياته المحدودة لحكم نفسه بنفسه وفي قيمة التعاون بين الانكليز والعرب .

على أن المعاهدة النهائية هي التي عقدت في بغداد بتاريخ ٣٠ يونيو عام ١٩٣٠ وابرمت في تاريخ متأخر من السنة ذاتها وقد قامت على أساس ان بريطانية تؤيد دخول العراق في عصبة الامم عام ١٩٣٢ كدولة مستقلة ذات سيادة وان توضع المعاهدة موضع التنفيذ فور قبول العراق في العصبة وقد نصت كذلك على تحالف بريطانية والعراق مدة خمس وعشرين سنة يقوم الطرفان خلالها بالتشاور التام لايجاد الانسجام في مصالحهما المشتركة في السياسة الخارجية كما نصت على أن الدفاع عن الدولة الجديدة والتبعات الاخرى التي كانت ملقاة حتى ذلك الوقت على عاتق بريطانية بنتيجة الانتداب قد اصبحت من صلاحيات ملك العراق ، وفرضت المعاهدة على الطرفين تقديم بعض المساعدات : اما مساعدة العراق لبريطانية فهي بالسماح لها باستعمال قواعد معينة للطيران وطرق المواصلات القائمة ، واما مساعدة بريطانية للعراق فهي بايفاد بعثة عسكرية لابداء الرأي في موضوع تأسيس الجيش الوطني ، ويعتبر الطرفان نفسيهما حليفين في حالة نشوب الحرب .

تعرضت المعاهدة في ظاهرها الى هجمات عدائية في البلدين . أما في انكلترة فكان موضع النقد بالدرجة الاولى انها لم تحو ضمانات كافية لصيانة المواصلات الامبراطورية وقد قاد هذه الحملة ، كما هو منتظر ، رجال السياسة الذين كانوا في الحكم عندما كان التفكير بايجاد ضمانات استراتيجية هو الموجه الاول لسياسة الحكومة البريطانية .

واما في العراق فكان الهجوم في الغالب مظهراً من مظاهر العداء القديم الناشيء عن عدم الثقة ببريطانيـة . ولكن الحكومـة واكثرية الرأي في البلدين كانا مؤيدين للمعاهدة فلما أعربت لجنة الانتدابات الدائمة في جنيف عن شكوكها في اهلية العراق لتحمل جميع تبعات الاستقلال توسطت بريطانية في الامر وكانت تأكيداتها العامل الوحيد الذي أدى الى سحب الاعتراض فساعد هذا الموقف على خلق الشعور الطيب في العلاقات بين العرب والانكليز كما أثار موجة من الرضى وعرفان الجميل اغرقت ما تبقى من آثار الألم المرير والضغائن . ولم يكن أثر تلك الموجة في نظر العرب قاصراً على العراق .

قبل العراق عضواً في عصبة الامم بتاريخ ٣ اكتوبر عام ١٩٣٢ وذلك بصورة رسمية في اجتماع الجمعية في جنيف وباجماع آراء الاعضاء الاثنين والخمسين الحاضرين فوضعت معاهدة عام ١٩٣٠ بين بريطـانية والعراق موضع التنفيذ في ذلك التـاريخ بصورة أوتوماتيكية وبهذا زال انتداب واحد من الثلاثة التي فرضهـا مؤتمر سـان ريمو على البلاد العربية .

— ٤ —

كان العراق يمارس الكثير من صلاحيات الحكم المستقل ، ومنها التمثيل السياسي في الخارج ، قبل انتسابه الى عصبة الامم وكانت بريطانية على أثر تنصيب فيصل قد خففت من شدة قبضتها على زمام الامور بتدرج سريع وقد ظهرت هذه الشدة في العراق بعد الحرب . وساير هذا التطور تأسيس الحكم الدستوري ونشوء الجيش الوطني والخدمة المدنية . لقد أوجدت المؤسسات البرلمانية منذ عام ١٩٢٤ ومعها الادارات الحكومية التي يرأسها وزراء عراقيون واخذت سلطات المندوب السامي البريطاني تتقلص بالتدريج بعد أن كانت مطلقة كما أخذت صلاحيات الموظفين

البريطانيين والدوائر العامة تخضع مع مرور الأيام الى سلطة الوزراء العراقيين بصورة متزايدة . اما العلاقات الخارجية فكانت بريطانية تمارسها بالفعل وان كان لملك العراق ممثلون في بعض البلدان الاجنبية وكان يستقبل بعض الممثلين الاجانب المعتمدين لدى بلاطه . وكان لا بد من الحصول رسمياً على موافقته وموافقة برلمانه لابرام جميع الاتفاقات المعقودة باسمه . أما جهاز الحكم الديمقراطي فكان موجوداً في العراق لدى دخوله العصبة ويعود الفضل في ذلك الى حد كبير لبريطانية العظمى.

كانت مساهمة بريطانية في بناء الحكم في العراق من أبرز الامثلة لسياسة الانشاء بعد الحرب وبينما يستطيع المرء توجيه أشنع التهم الى بريطانية لان الاسلوب الذي أتبعته في الاستيلاء على العراق بعد الحرب يحاكي أساليب القرصان ، يمكنه القول بلامبالغة إن دولة العراق الجديدة مدينة بحياتها الى حد بعيد لجهود الموظفين البريطانيين وتفانيهم وذلك لسببين : الاول ان الحكومة البريطانية عندما اكتشفت ان العراق في الواقع مبعث للتعب والقلق وليس جنة للمستعمر اخذت تظهر حرصها بصورة متزايدة على أن يكون الحكم الاستقلالي فيه ، والذي لا بد من قيامه عاجلا او آجلا ، حاوياً عناصر الاستقرار ؛ والثاني ان العراق لحسن حظه وبمحض الصدفة قد استفاد من خدمات جماعة من الموظفين البريطانيين النادرين في ما اتصفوا به من الكفاءة والاخلاص . هذان هما العاملان اللذان تضافرا على مساعدة العرب فى اقامة ادارة مستقرة في برهة قصيرة ومما يلفت النظر الى هذا العمل ان اقامة نظام اداري عادي في العراق يواجه دوماً صعوبات كبيرة سببها كثرة القبائل واختلاف المذاهب وقلة المواصلات بالنسبة الى مساحته .

يربو عدد سكان العراق على المليونين وكثرتهم الغالبة من المسلمين ويبلغ

مجموع الاقليات المسيحية المؤلفة من ست طوائف مختلفة ١٢٠,٠٠٠ وهناك جالية يهودية عددها ٨٠,٠٠٠ يقطن معظمهم بغداد على أن هناك خطاً طائفياً فاصلاً يقسم المسلمين أنفسهم الى فئتين متساويتين تقريباً في العدد : السنيون والشيعة. اما من الناحية العنصرية فان الكثرة الغالبة من السكان عرب ونسبتهم الى سائر الاقليات كنسبة الثلاثة الى الواحد واما الاقليات فتتألف بالدرجة الاولى من الاكراد الذين يبلغ مجموعهم ٥٠٠,٠٠٠ تقريباً ويقطنون جميعاً في القسم الشمالي من ولاية الموصل وهم سنيون . وأما الآشوريون الذين سمعنا عنهم الشيء الكثير مؤخراً فهم جماعة قائمة بذاتها من غير العرب وتقطن منطقة الموصل مثل الاكراد وكان عدد أفرادها ٣٥,٠٠٠ وهم من أتباع الكنيسة النسطورية . فنشأ عن وجود هذه الاقليات وغيرها وعن وجود عدد كبير من القبائل بعض المشاكل ذات الطابع السياسي والاداري التي عاقت العمل الانشائي وكادت تعطله .

قد تكون مسألة العشائر من أشد هذه المشاكل صعوبة ولئن كانت من المشاكل التي تعانيها الحكومات دوماً عند اقامة الحكم المنتظم الا ان بعض العوامل المحلية جعلتها في العراق اكثر تعقداً . ومن هذه العوامل الارض والماء والدين . كانت بعض المجموعات القبلية شيعية ولا سيما في الفرات الاوسط وكانت متضامنة مع علماء الشيعة في النجف وكربلاء اكثر من تضامنها مع حكومة بغداد التي يغلب عليها الطابع السني . وكثيراً ما كانت المنازعات تنشأ عن خلافات على الارض وعلى حقوق المياه بين هذه القبائل وبين موظفي الادارة في المركز ويزيد في خطورتها دسائس بعض رجال السياسة في بغداد وكره ابناء العشائر لموظفي الحكومة ولكل ما له علاقة بها حتى ادى الامر الى وقوع الاصطدام واللجوء الى

السلاح وكان هناك سبب آخر للقلاقل وهو فقدان الاستقرار في المنطقة الواقعة على الحدود الجنوبية الغربية حيث كانت قبائل العراق تتبادل الغزو والسلب والنهب مع القبائل التابعة لابن السعود.

وكانت مشكلة الاكراد عويصة كذلك. كان عددهم يساوي سدس مجموع السكان الذين لم يكن ليربطهم بهم شيء يذكر سوى رابطة الدين مع السنيين، وقد جعلهم تعلقهم الشديد بلغتهم وعاداتهم يتطلعون الى عودة الاتحاد مع اخوانهم المقيمين في تركية وفارس وهو أقرب للطبيعة من بقائهم أقلية في دولة عربية. وفي عام ١٩٢٦ عندما وافقت تركية أخيراً على ضم ولاية الموصل الى العراق كان من واجب حكومة بغداد أن تقنع الاكراد الذين اصبحوا رعايا عراقيين بالقبول بوضعهم الجديد عن رضى ولكن محاولتها جاءت في وقت ظهور الوعي القومي الناشيء بين الاكراد وبروز نفورهم الشديد والتقليدي من جميع أنواع العبودية في اجلى صوره.

أما الآشوريون فكان معظمهم من المهاجرين القادمين من جنوب شرق الانضول وقد فروا من وجه الترك خلال الحرب ولجأوا الى العراق حيث تبنتهم القيادة العسكرية البريطانية فالتحق بها عدد كبير منهم. لم يكن بينهم وبين سكان العراق من العرب وغير العرب اي صلة وقد تأكدت عزلتهم وانفصالهم بنتيجة انحيازهم منذ البداية الى جانب الدولة المحتلة بشكل ظاهر تماماً فكانت المعضلة التي خلقها فيما بعد وجودهم في العراق فريدة في بابها من وجوه عديدة ولكن الصعوبة الأساسية لم تنشأ عن كثرة عددهم أو عن فقرهم أو مطالبهم الخاصة بل كانت نتيجة للأثر النفسي الذي ولدته صلتهم بالدولة المنتدبة وهي صلة دامت مادام الانتداب فكانت حاجزاً جديداً بينهم وبين الشعب

الذي لجأوا اليه فكانوا كلما نما شعورهم بالعزلة تشوهت في نظرهم المقاييس ودفعتهم الى التعلق بالآمال الجسام والاعتماد على صفاتهم الحربية اعتماداً خطراً .

عالجت الحكومة العربية جميع هذه المشاكل فنجحت في حل بعضها وأخفقت في البعض الآخر . وكانت المشكلة التي أخفقت فيها اسوأ اخفاق هي مشكلة العشائر ويعود السبب في ذلك الى أن معظم رجال السياسة والموظفين كانوا من أهل المدن فكان ينقصهم الاطلاع الكافي على الحياة القبلية وفهم حاجاتها والاهتمام بتحسين حالها . كانت الشقة بين ابن المدينة وابن العشيرة ما تزال بعيدة ولم يكن في مقدور شخص غير الملك فيصل تقريبها ولكن نجاحه في هذا الامر كان جزئياً فانه بالرغم من المجهود الكبير الذي بذله لاقناع الشيوخ بفكرة التعاون مع الحكومة قد سمح لعواطفه كولد من أولاد ملك الحجاز بأن تتغلب على واجباته كملك على العراق وسخر العشائر في النزاع القائم مع ابن السعود فلم يشرع بالعمل على اخضاع العشائر بشكل جدي الا في عام ١٩٣٠ بعد أن وطد السلام بينه وبين ابن السعود وكان نجاحه آنئذٍ ظفراً شخصياً باهراً ولكنه توفي وهو بعد في منتصف الطريق فتجددت الاضطرابات في الفرات الأوسط بعد وفاته ونجحت حكومة العراق في اعادة السلام تابعت ذلك بالتدابير التي دلت على اهتمام اكبر بحاجة القبائل وبظلاماتها ولعل عطفها عليها كان أشد ولكن الوقت لم يحن بعد لتقرير ما اذا كانت قد وفقت الى ايجاد الانسجام الدائم أم لا .

كان نجاح الملك فيصل وحكومته في معالجة قضية الاقليات اكبر إذ أن زعماء العرب كانوا يفهمون هذه المشكلة فهماً عميقاً لانها متصلة بالمواضيع نفسها التي ناقشوا الترك فيها في السابق فكانت السياسة التي اتبعوها قائمة على الفهم والتسامح .

لقد اعترفوا باهمية القيم الثقافية والحرية الطائفية لانهم كانوا يتحسسون بها تحسساً عميقاً فكانوا كرماء وحكماء في ما منحوه من حقوق ونتج عن ذلك اقرار عدد من القوانين والتدابير الخاصة بالاتفاق مع كل طائفة من الاقليات وقد ثبت انها قابلة التطبيق بنجاح لدى الجميع باستثناء الآشوريين الذين ذهبت حكومة العراق في منحهم حقوقهم الى أبعد الحدود ولكن التفاهم معهم كان مستحيلاً بسبب المطاليب المفرطة التي تقدم بها بطريركهم ومعه فئة متطرفة من شيوخهم . لا نجد عذراً للاعمال الوحشية التي نزلت بالآشوريين بعد ثورتهم المسلحة في صيف عام ١٩٣٣ وإن المذبحة التي وقعت لتشكل لطخة مخزية في صفحات التاريخ العربي، وليس معنى هذا ان حكومة العراق لم تقم قبل ذلك ببذل كل ما في وسعها لتحقيق جميع رغبات الآشوريين المعقولة وان العروض التي تقدمت بها كانت منصفة وسخية الا أن عدم الوصول الى التفاهم كان ناشئاً بالدرجة الاولى عن تطرف الآشوريين وموقف بعض شيوخهم غير الحكيم . ويتحمل البريطانيون جزءاً من التبعة كذلك لسببين الاول ان شيوخ الآشوريين فسروا العطف الظاهر الذي أبدته السلطات العسكرية البريطانية في العراق وبعض الرؤساء الروحيين من الانكليكان في انكلترة بانه يعني درجة من المساعدة لم تكن مقصودة في الاصل ، والثاني ان الدولة المنتدبة لم تعر اذناً صاغية لنذير الخطر الذي ما انفك الموظفون البريطانيون في العراق يبعثون به الى وزارة المستعمرات في السنوات التي سبقت الثورة .

كان من حسن طالع العراق ان مصالح بريطانية كانت متفقة مع مصالحه في امور أساسية كثيرة تتضمن مسائل خارجية وداخلية فان رغبة بريطانية في الاستيلاء على منابع النفط في ولاية الموصل ادت الى ضم هذه المنطقة الى الدولة العربية بفضل المساعي الدبلوماسية البريطانية وحدها كما أدت الى قيام تعاون انكليزي

عراقي فعال لمعالجة المسألة الكردية . ومن ذلك أيضاً أن اهتمام بريطانية بحفظ السلام على الحدود العراقية جعلها تتخذ الخطوة الاولى نحو ايجاد الصلح الشخصي ما بين الملك فيصل والملك عبد العزيز آل السعود ثم اقامة العلائق الحسنة بين الحكومتين العراقية والعربية السعودية . كان البريطانيون يعطفون على الحكومة العربية ويتولون ارشادها في جميع الدوائر تقريباً وقد اقتدى الموظفون البريطانيون بحكومتهم فساعدوا على تشييد الاسس المتينة وكان عملهم في العراق على نقيض الادارة الفرنسية القائمة على الاوهام في سورية ولبنان والادارة البريطانية العقيمة والمسرفة في فلسطين وتستحق كل من بريطانية والعراق الثناء العاطر على العمل الذي تم في العراق بين عامي ١٩٢١ و ١٩٣٢ والذي كان بالرغم من نواقصه مثالاً للنتيجة التي يستطيع التعاون بين الانكليز والعرب الوصول اليها اذا قام على اسس صحيحة .

— ٥ —

لم يفز الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان بنتيجة كهذه تستحق الثناء فان القسم الاعظم من تاريخه هو سجل لنزاع ضائع ولا نبالغ اذا قلنا ان الضرر الذي أصاب المصالح الفرنسية والعربية باسم الانتداب كان أعظم من المنافع التي نشأت عنه عفواً وذلك بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٣٦ اي في السنوات التي مرت ما بين سان ريمو والمعاهدة الفرنسية السورية . ان السياسة الجديدة التي انطوت عليها معاهدة عام ١٩٣٦ ادت الى تغيير في اسس العلاقة بين فرنسة والعرب مما بعث الامل في تحسين الحالة في المستقبل . على أن قصة الانتداب قبل ذلك هي في الغالب قصة العراك بين المطامع الفرنسية وبين اماني العرب القومية وقد دام ست عشرة سنة واوقع بالطرفين ضرراً بالغاً .

كان السبب الخفي والاساسي لهذا الوضع فقدان الثقة بين الطرفين فكما ان

سمعة الاساليب الاستعمارية الفرنسية كانت سيئة في عرف الزعماء العرب كانت الحركة العربية في نظر الفرنسيين مصدر اضطراب وتهديد لمركزهم وكان موقف الاثنين قائماً على الشك والخوف . كان العرب يستنتجون الشيء الكثير من الانباء المنقولة — واحياناً مشوهة — عن الحكم الفرنسي في شمال افريقية ويعتقدون ان السيطرة الفرنسية قد تأتي بكل شيء خلا الحرية والمساواة كما ان ماعرفوه عن حركات الاوربيين السياسية في الشام قبل الحرب جعلهم يوقنون بان تأييد فرنسة للبعثات الكاثوليكية وميلها نحو الموارنة يخفيان وراءهما دافعاً آخر وانها على كل حال قد اذكت نار الخلاف المذهبي التي كانت نية الزعماء النصارى والمسلمين في الحركة العربية معقودة على اخمادها وكانوا يعتقدون كذلك ان عداء فرنسة للحركة اساسي اي انها تعارض في تحرر العرب السياسي ، على الاقل في البلاد الواقعة على البحر الابيض المتوسط . وقد قوى هذا الاعتقاد ما رأوه من مساع بذلتها فرنسة في سبيل حصر الثورة العربية في الجزيرة وما لمسوه من جهود جبارة بذلها كل من الحسين وفيصل ولورنس للقضاء على تلك المساعي . اما الفرنسيون فكانوا مدفوعين بعاملين رئيسيين : لقد كانوا يعلمون من جهة بان اقامة حكومة عربية في دمشق لابد من ان يكون له نتائج سياسية في سائر البلاد العربية حيث يغذي الوعي القومي بقوة دافعة فكانوا لهذا يخافون اثر ذلك في امبراطوريتهم في شمال افريقية ،ومن جهه ثانية كانوا يعدون الحركة العربية عقبة في طريق مطامعهم في سورية بسبب دعوتها الى الوحدة والاستقلال ولعلاقتها ببريطانية . لقد اتهموا العمال السياسيين البريطانيين المقيمين في دمشق بانهم يسعون سراً الى تقويض النفوذ الفرنسي في سورية واعتقدوا ان هناك سياسة غادرة هدفها افساد الامر على فرنسة في سورية وان فيصلاً قد اصبح آلة طيعة لتحقيقها كما امست الحركة العربية الحجاب الشفاف الذي تستتر وراءه .

هذه هي العقلية التي حملت الحكومة الفرنسية بعد أن استحصلت على الانتداب في سان ريمو على أن تقرر دخول دمشق وطرد فيصل واحتلال القسم الداخلي من البلاد وهي نفسها العقلية التي رسمت الخطة لادارة البلاد المنتدب عليها فلما شرعت في تطبيقها بالتدابير التي اتخذتها والأحكام التي أصدرتها تبين أن مخاوف العرب كانت في محلها.

— ٦ —

طلبت الحكومة الفرنسية في سان ريمو الانتداب على « سورية ولبنان » ونالته بهذا الشكل الذي اعطى كلاً من البلدين صفة مستقلة عن صاحبه لانها كانت تنوي اتباع سياستين مختلفتين فيهما. فقد كان لبنان معقل نفوذها في الشرق الادنى وكان يقطنه، ضمن الحدود التي عينها نظامه الأساسي الموضوع عام ١٨٦١،(١) اكثرية مسيحية تتألف من الموارنة وهم أقدم أصدقاء لفرنسة وبعض الطوائف الأخرى المتصلة برومة والتي تعد فرنسة حاميتها التقليدية. أما سورية فكان معظم سكانها من المسلمين ودمشق معقل الحركة العربية. فكانت السياسة الفرنسية ترمي الى تقوية لبنان واضعاف سورية فاتخذت سلسلة من الاجراءات الشديدة والدالة على تفكير ضيق وقد فعلت ذلك بقساوة ودون أن تلتفت الى الأثر الذي تتركه أعمالها في نفوس السكان.

كان أول هذه التدابير توسيع لبنان على حساب سورية ففي ٣١ اغسطس عام ١٩٢١ أصدر الجنرال غورو قراراً نص على ايجاد (دولة لبنان الكبير) وقد ادخل في حدودها بالاضافة الى سنجق لبنان القديم (٢) المقاطعات الواقعة

(١) انظر الفصل العاشر من الباب الثالث أعلاه.

(٢) انظر المصور رقم ٣.

مباشرة في شماله وشرقه وجنوبه بحيث الحقت فيه المدن الساحلية مثل طرابلس وبيروت وصيدا وصور ومدينة بعلبك الداخلية ومعها منحة ثمينة هي سهل البقاع الخصب فاصبحت الدولة الجديدة مساوية الى ضعفي السنجق القديم تقريباً في المساحة والسكان وقد أدخل هذا التوسع في حدودها عدداً كبيراً من المسلمين فتحولت الكثرة المسيحية الى عدد لا يكاد يشكل اكثرية تذكر كما اعطاها ثغري طرابلس وبيروت اللذين تمر منها كل تجارة سورية القادمة من البحر تقريباً . فاذا نظرنا الى توسع لبنان من هاتين الناحيتين جزمنا بانه من نتاج فكر ضيق : فان حرمان سورية من منافذها الطبيعية قد ولد حركة انضمام قوية لا بد من تلبية ندائها عاجلاً او آجلاً كما أن الحاق مقاطعات معظم سكانها من المسلمين قد عرض الاكثرية المسيحية الى التقلص مع مرور الزمان لتصبح أقلية وهذا في دولة انشئت عمداً لضمان بقاء اكثرية مسيحية فيها . على أن اسوأ نتائجه انه أوجد سبباً جديداً من أسباب الخلاف في بلاد تشكو كثرة الخلافات واذا أردنا أن ننظر الى هذا التدبير على ضوء الاثر الذي تركه في نفوس السكان والغضب الذي أثاره والمرارة التي ولدها والتنافر الذي بعثه من جديد بين الطوائف اصدرنا حكمنا على فرنسة باللوم الشديد لقيامها بعمل يلفت النظر باهماله القيم الخلقية اهمالا خبيثاً وبقيامه من اساسه على التفكير الضيق .

راح الفرنسيون يحطمون الوحدة التي نعمت بها البلاد تحت الحكم الفيصلي العربي وذلك بعد أن وسعوا معقل نفوذهم بالشكل الذي وصفناه وقد رسموا الخطة لتقسيمها الى عدد من الدول فكانت النتيجة اقامة ثلاث دول مستقل بعضها عن البعض الآخر تحكمها أربع حكومات (١) وهذا في بلاد لا يكاد عدد سكانها يتجاوز ٢٠٠٠٠٠٠ نسمة . وتم التقسيم كما يلي :

(١) انظر المصور رقم ٥ .

(١) حكومة اللاذقية وعاصمتها اللاذقية وتضم المنطقة الساحلية الواقعة بين لبنان الكبير وسنجق الاسكندرون .

(٢) دولة جبل الدروز وعاصمتها السويداء وتضم المنطقة الجبلية الواقعة بين دمشق وحدود شرق الاردن .

(٣) دولة سورية وعاصمتها دمشق وتضم ما تبقى من البلاد الواقعة تحت الانتداب .

(٤) سنجق الاسكندرون الذي يتمتع بادارة خاصة بالرغم من ارتباطه الاسمي بسورية .

ادعى الفرنسيون انهم عملوا ذلك تلبية لرغبات السكان اصحاب العلاقة المباشرة اي الدروز والعلويين (١) والعناصر التركية في سنجق الاسكندرون وان الاختلاف في الاديان والاجناس وفي درجة النمو السياسي قد ارغمهم على اتخاذ هذا التدبير المستمد من تفكير حكيم ومتسامح في مصالح الشعب السوري الحقيقية . على ان السبب الحقيقي هو عداء فرنسة للحركة العربية والدافع الحقيقي هو الرغبة في وضع العراقيل في طريقها . كان لهذا التدبير هدفان رئيسيان : الاول تشجيع نمو الاتجاهات الانفصالية والثاني تحويل سورية العربية الى دولة داخلية نصبوا بينها وبين البحر جداراً قوامه لبنان الكبير وحكومة اللاذقية وسنجق الاسكندرون يحكم كلاً منها حاكم فرنسي يتمتع بسلطات مطلقة . ان خلق عدد من الحكومات

(١) العلويون فرقة من فرق الشيعة في الاسلام وتعرف كذلك باسم النصيرية ويبلغ مجموع عدد أفرادها في سورية ١٥٠٠٠٠ نسمة تقريباً يقطنون جميعاً في المناطق الشمالية الواقعة على الساحل .

المحلية المنفصل بعضها عن البعض الآخر والتي هي آلات متعددة ومسخرة لتنفيذ ارادة الفرنسيين ماكان الا وسيلة لتشجيع التفكك والقضاء على الاتجاه القومي بين السكان واحلال الاتجاه الاقليمي محله وبذلك تعرقل فرنسة سير الحركة العربية نحو الوحدة .

لقد دلت الأساليب الادارية التي اتبعها موظفو الدولة المنتدبة على انهم يسيرون بالدافع نفسه اذ فرضوا على الوطنيين العرب نظاماً قائماً على رقابة الشرطة والأحكام العرفية ذكرهم بقسوة الاستبداد الحميدي وتحيزه وإن كان في بعض نواحيه يفوقه كثيراً . لقد كموا الصحافة الوطنية ومدوا الصحف المأجورة بالمال وعملوا على خنق كل محاولة ظاهرة للافصاح عن الشعور العربي ولم يعينوا في وظائف الادارات العامة وفي عضوية المجالس المحلية الا الأفراد الذين جربوهم فوثقوا من انقيادهم لهم كما سخروا نفوذهم الحكومي ليضمنوا انتخاب مرشحيهم في الانتخابات وراحوا يثيرون مخاوف النصارى والأقليات الأخرى لكي يوسعوا شقة الخلاف بينها وبين الأكثرية الاسلامية .

أما في الحقل الاقتصادي فان ضعف الفرنك بالنسبة للنقد المتداول في البلاد الموضوعة تحت الانتداب قد أضعف سياسة الدولة المنتدبة فاوجد الفرنسيون عملة جديدة لسورية ولبنان قائمة على أساس الفرنك ففرضوا على البلاد نظاماً نقدياً ضعيفاً وغير مستقر جر وراءه الخسائر والهبوط في القيم فقوبل هذا التدبير بالاستياء العام في لبنان كما في سورية وان كان في هذا التهجم شيء من الاجحاف بحق فرنسة لانه يتغاضى عن أمر هام وهو المصاعب النقدية التي كانت تجابه فرنسة في بلادها وانه لا ينتظر من الفرنسيين إلا ان يربطوا النقد المحلي بنقدهم ومع ذلك فقد خلقوا لانفسهم مطعناً بالاسلوب الذي اتبعوه في الاشراف على ادارة النقد الجديد إذ عهدوا

به إلى مصرف فرنسي بشروط فيها نفع لمساهميه الفرنسيين على حساب الاستقلال المالي لسورية ولبنان . وقد أبدت فرنسة تحيزاً تماثلاً في منح الحقوق والامتيازات الاقتصادية وكثيراً ما اساءت استعمال السلطة الحكومية لمنفعة الشركات الفرنسية أو اصحاب الامتياز من الفرنسيين . لقد منيت البلاد بالركود الاقتصادي وغيره من المصائب الاقتصادية ولكن يستحيل الجزم في ما اذا كان سببها يعود كله أو بعضه الى تلك السياسة أم الى عوامل اخرى ليس للفرنسيين الاثر الاول فيها ومهما يكن من امر فان اساليبهم المالية والاقتصادية مسئولة الى حد بعيد عن الاستياء الذي احدثوه بالرغم من وجود شيء من التحامل في التهم الموجهة اليهم .

كان تهديدهم لمركز اللغة العربية كلغة اولى في البلاد من اكبر اسباب الاستياء . فقد كانت تصفية النزاع على اللغة بين الترك والعرب من النعم التي اتت بها الثورة العربية لأن العامل الثقافي في الحركة العربية الذي قد يكون اعمق باعث لها وهو بكل تأكيد اشد القوى الانشائية فيها قد ثبت اقدامه بعد النصر باقامة العربية فوراً كأداة وحيدة للتعبير في الحياة القومية وبالانقلاب الكامل الذي تم في نظام التعليم فكانت المدارس والمحاكم هي الاماكن التي قوبل فيها التغيير برضى شعبي اكثر من غيرها . ولكن كان للانتداب الفرنسي بعض الاغراض كما كانت له سياسة خاصة فيما يتعلق باللغة والتعليم فاثار النزاع القديم من جديد وكان هدفه الاول المدارس والمحاكم نفسها مثل العهد التركي .

يعود اهتمام فرنسة بالتعليم في ديار الشام الى ايام البعثات الاولى وقد تحول الى أداة سياسية قبل الحرب بزمن طويل، على ان هذه السياسة لم تكن موجهة لمقاومة النفوذ العربي بعينه وان كان هدفها نشر النفوذ الفرنسي فكانت بطبيعتها متعارضة مع روح الحركة العربية لان غايتها نشر التعليم بلغة فرنسة وبروحها مما ادى الى

تجهيز قسم كبير من السكان النصارى ولا سيما في لبنان بآلة فكرية هي فرنسية أكثر منها عربية ، ولكن لا يوجد مايدل على ان تلك السياسة كانت في ذلك الوقت سائرة عن قصد بدافع مقاومة العرب او كرههم . أما بعد الحرب حين اصبحت الحركة العربية قوة سياسية واصبح الامر في بلاد الشام بيد فرنسة فقد امست تلك السياسة تناهض العرب عن عمد ، وبينما كانت سلطات الانتداب تروج في نشاطها التعليمي النفوذ الثقافي الفرنسي لذاته كانت في الوقت نفسه تهدف الى تقويض دعائم النفوذ الثقافي العربي .

كان من اجلى مظاهر هذه السياسة فرض تعليم اللغة الفرنسية في جميع المدارس الاميرية وفرض استعمالها في المحاكم على قدم المساواة مع العربية . ولئن كان لتدابير كهذه مايبررها في حد ذاتها فقد تطرف الفرنسيون في تطبيقها وهم غير مبالين مطلقاً بأثرها النفسي وحتى بضرورات التعليم والقضاء ولما كان الموظفون الموكل اليهم أمر تنفيذها بعيدين في الغالب عن فهم مايريده الجمهور وعاجزين عن افهامه مرامهم فقد وقعت اساءات كثيرة كانت في بعض الاحيان فاضحة ، وكثيراً ماضاعت حقوق وشوهت لا لسبب سوى ان القاضي الفرنسي الذي ينظر في الدعوى كان يجهل العربية ويعتمد مرغماً على التراجمة الذين لايعنيهم الامر في كثير أو قليل . وقام بعض الموظفين الفرنسيين ممن امتازوا على اقرانهم بشدة الاندفاع بتعليم صغار التلاميذ نشيد (المارسيلييز) قبل أن يتعلموا لسان قومهم . واتبعت أساليب أشد مكراً من هذه للوقوف في طريق الثقافة العربية وذلك بالاهمال المقصود للمدارس والمؤسسات التي تعتمد العربية وعدم وجود الوسائل لتهيئة المعلمين الذين تحتاجهم والاستعداد الظاهر لمساعدة المدارس التي تعتمد الفرنسية . وقد ألفوا الكتب المدرسية الخاصة بالتاريخ لجميع الصفوف وهي تنقص من شأن العرب واثرهم

في الشام وتثبت ان الروابط التي تربط الشام بباقي اجزاء العالم العربي خيالية .

وكانت اوهام الموظفين الفرنسيين مما زاد في شرور السياسة الفرنسية، ولئن كانت هناك امثلة بارزة دلت على ان تسليم اشخاص ، ثبت فيما بعد عدم نزاهتهم او عدم كفاءتهم ، لمراكز تنفيذية هامة تعود علته الى سوء الانتقاء ، إلا ان السبب الاساسي هو ان الادارة الفرنسية بصورة عامة لم تكن ذات خبرة في كثير من المسائل التي عرضت لها كما انها من الناحية النفسية لم تكن أهلاً للنهوض بها . فقد كانت الكثرة الغالبة من الموظفين الفرنسيين مؤلفة من افراد تولوا الادارة في شمال افريقية وغيرها من الممتلكات الفرنسية التي كان سكانها متأخرين عن أهل الشام من الناحيتين الثقافية والسياسية كما كانوا اسلس قياداً منهم فحاولوا معالجة القضايا التي تجابههم في البلاد المنتدبة بعقول اعتادت الاساليب الضعيفة المتبعة في المستعمرات الفرنسية لا فرق في ذلك بين موظفيهم المدنيين وبين ضباطهم العسكريين الكثيرين الذين عينوا في وظائف ادارية واذا وجد موظف لا يشك في كفاءته واستقامته فانه في الغالب بعيد عن فهم الامور وهو في كثير من الاحيان متعجرف وفظ . لقد كان الجزء الاكبر من الاستياء الذي شاع بين الناس من هـذه السياسة ناشئاً عما ظهر اثناء تطبيقها من حماقة وغباء .

كانت نتيجة ذلك كله أن بعض النعم التي لا تنكر والتي جاء بها الحكم الفرنسي في الحقلين المادي والمعنوي قد حجبتها أخطاؤه وإفراطه وأزالت مفعولها الظروف السيئة التي رافقت تنفيذه وهكذا فان النشاط الذي أوجده في التجارة والصناعة قد محا أثره الى حد بعيد ضعف الفرنك وعدم استقراره ولو لم يكن للأفراد الفرنسيين والشركات الفرنسية حظوة لا مبرر لها لوجد الناس سبيلاً الى الاعتراف بفضل فرنسة في تنمية موارد البلاد وتوسيع شبكة مواصلاتها . ان

قلة عدد الموظفين الفرنسيين الصالحين والتعديلات الكثيرة التي كانت تدخل على ادارة البلاد المنتدب عليها والمبالغة في الاكثار من المراجع لضمان اشراف فرنسة بشكل أدق وأقوى وما ينتج عن ذلك من تغيير في الاحوال العامة وعدم ضبطها — ان هذا كله قد طغى الى حد كبير على المحاولات الصادقة التي قام بها بعض المفوضين الساميين المتعاقبين لايجاد نظام اداري صالح. وأخيراً فان الاعمال الباهرة ذاتها التي قام بها الفرنسيون في التعليم والتي خلفت ذكراً خالداً للبعثات الفرنسية قد أصبحت في ذهن الجمهور متصلة عن حق بتلك الوسائل المختلفة الاخرى التي سخرتها فرنسة لتقوية نفوذها السياسي.

— ٧ —

يقع تاريخ الانتداب الفرنسي بطبيعته في ثلاثة أقسام: الاول من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٢٦ وهو على ما يظهر عهد عمى وحماقة وتبذير وفيه بذرت الدولة المنتدبة وموظفوها بذور الفتنة فحصدوا نتاجها بالثورة التي ختم بها العهد. والثاني من عام ١٩٢٦ الى عام ١٩٣٦ وهو عهد مفاوضة حاولت فيه فرنسة الوصول الى التفاهم مع الزعماء الوطنيين في سورية بعد أن تلقت درساً قاسياً بالخسائر التي أنزلتها بها الثورة وبالسمعة السيئة التي اكتسبها حكمها بنتيجتها، ولكنها أخفقت في محاولتها. والثالث من عام ١٩٣٦ حتى يومنا هذا (١) وهو العهد الذي تم فيه الاتفاق الصحيح فوضع حداً للانتداب وفتح عهداً جديداً في تاريخ العلاقات بين فرنسة والعرب.

قضت الضرورة بأن يكون العهد الاول عهد دكتاتورية عسكرية اذ تولى منصب المفوض السامي ثلاثة قواد فرنسيين على التعاقب وهم غورو وويغان وساراي

(١) عام ١٩٣٨

فاستندوا في ادارتهم الى الاحكام العرفية . كان الحكم الصالح والتبصر والدقة والاهتمام برغبات الجمهور ومطالبه من الامور المفقودة في هذا العهد اكثر من العهدين اللاحقين وقد امتاز عنهما كذلك بأن السياسة والاساليب التي شرحناها في الفصل السابق طبقت فيه على مقياس أوسع وبقي المفوض السامي متمتعاً بسلطات شديدة تمكنه من الاستهتار بالمبادىء الاساسية للحقوق العامة كيفما شاء في تصرفاته مع الزعماء الوطنيين حتى بعد الغاء الاحكام العرفية رسمياً عام ١٩٢٥ . لقد كان حائزاً على جميع صلاحيات الحاكم الفرد المطلق من سلطة تشريعية وتنفيذية غير مقيدة ونفوذ على السلطات القضائية وجيش كبير هو قائده الاعلى بحكم منصبه ، ولم يكن هناك فرق في استبداده بين دولة سورية ذات الحكومة العربية الصورية وبين الدول الثلاث الاخرى حيث لم يتستر الحكم الفرنسي المباشر وراء حجاب .

نشبت الثورة في يولية عام ١٩٢٥ وكان قد مضى على تعيين الجنرال ساراي ثمانية شهور فبدأت في جبل الدروز وكان ساراي هو الدافع الاول لها لأنه أذكى نار الفتنة بأساليبه العنيفة والمثيرة مع بعض الزعماء الدروز . أما بواعث الثورة العميقة فهي عوامل الاستياء الذي ولدته سياسة الفرنسيين وأساليبهم ولا سيما ما قام به حاكم جبل الدروز الذي دفعه تحمسه لاقامة ادارة صالحة الى فرض استبداده الفاضح على السكان ، وقد بدأت كانفجار ولده السخط الشديد ثم تحولت الى ثورة وطنية .

لم يكتب تاريخ الثورة السورية الكامل حتى الآن وان كانت الوقائع البارزة معروفة : وجه الفرنسيون أول حملة تأديبية على الثوار يوم ٢١ يولية فباءت بخيبة مريرة ولم ينج من جنودها إلا نفر قليل استطاعوا بشق الأنفس أن

يعودوا الى السويداء حيث ظلوا محاصرين مدة تنوف عن الشهرين وفي يوم ٢ أغسطس وجهوا حملة ثانية أقوى من الأولى ومؤلفة من أكثر من ٣٠٠٠٠ جندي فكان مصيرها كمصير صاحبتها إذ فقدت ثلث عددها وكمية من المدافع والعتاد. ثم سار الثوار على دمشق وبالرغم من أن هجومهم الأول على ضواحيها قد صد وتكبدوا بنتيجته خسائر كبيرة الا أنهم ظلوا مسيطرين على كل القرى المحيطة بها. واستطاع الفرنسيون في أواخر سبتمبر ان يفكوا حصار السويداء ولكنهم لم يستطيعوا المحافظة عليها فسحبوا حاميتها وفي الوقت نفسه انضم الى القوات الدرزية الكثيرون من الزعماء الوطنيين المقيمين في دمشق والمنفيين خارج البلاد فاتخذت الحركة شكل ثورة وطنية إن لم تتوسع لتصبح عامة فقد امتدت إلى ما وراء دمشق وشبت نارها في مناطق حمص وحماة وطرابلس حتى أن الثوار تمكنوا في إحدى هجماتهم من تهديد بيروت نفسها. وكانت الثورة وطنية بمعنى أن زعماء الحركة انضموا إلى أمراء الدروز وأعلنوا معهم أن هدفها بعد الآن تحقيق استقلال البلاد ووحدتها.

ارتكب الفرنسيون أعمالاً مشينة لا تغتفر أثناء محاولتهم قمع الثورة إذ أخذوا يصبون نيران مدافعهم على القرى دون إنذار وكثيراً ما أباحوا تلك القرى لجنودهم دون رادع، وجندوا عدداً من الأرمن والجراكسة وسمحوا لهم في وقت من الأوقات بأن يقتلوا وينهبوا ويحرقوا دون تمييز. وقد خربوا الأحياء الآهلة بالسكان في دمشق بقنابل طائراتهم ومدافعهم التي نصبوها على سطح القلعة القائمة في وسط المدينة وذلك مرتين مختلفتين على اثر نجاح مجموعات كبيرة من الثوار بالتسرب الى شوارع المدينة. ان هذا العمل الوحشي الذي

حدث للمرة الأولى في اكتوبر بدون انذار قد لاقى استياء شديداً في الدوائر الرسمية في فرنسة ادى الى استدعاء ساراي المسئول عن الضرب. وضربت دمشق للمرة الثانية بأمر من خلفه المسيو دو جوفنيل عضو مجلس الشيوخ ولكن بعد انذار السكان فوقعت اصابات كبيرة في الارواح تبلغ الآلاف كما حدث تخريب هائل في ابنية السكن والأبنية التجارية. قد يقال ان انهاك فرنسة في قمع ثورة عبد الكريم في الريف في ذلك الوقت جعلها في حرج شديد بالنسبة الى مواردها ولكن هذا الأمر مهما بلغ لا يبرر الاعمال الوحشية التي ارتكبت في سورية باسم فرنسة سواء اكان ذلك بأمر من الحكومة أم لا.

استمرت الثورة في نشاطها خلال الجزء الأكبر من عام ١٩٢٦ فلما أخذت السلطة الفرنسية تثبت اقدامها بفضل قوتها الغاشمة تشتتت قوى الثورة فتحولت الى حرب عصابات مبعثرة حتى انتهت في ربيع عام ١٩٢٧. لا يمكن حصر ما أحدثته الثورة من الخسائر الفادحة في الأرواح والأموال على وجه التأكيد ولكنه لا يشك في ان نتائجها كانت أشد على البلاد وعلى الدولة المنتدبة من نتائج ثورة العراق عام ١٩٢٠ وقد حملت الثورة الدولة المنتدبة في هذه المرة، كما حدث في العراق، على ان تذيع بأنها تنوي تعديل سياستها. قام دوجوفنيل خلال المدة القصيرة التي تولى فيها منصب المفوض السامي والتي لم تتجاوز الاشهر القليلة باعلان الجمهورية في لبنان والقول بأن السياسة الفرنسية تهدف الى عقد معاهدة تحالف مع سورية تحل محل الانتداب أسوة بما فعلته بريطانية في العراق، وحاول الدخول في مفاوضات مع الزعماء الوطنيين من العرب لتحقيق هذا الغرض ولكنها أدت على الفور الى عقدة لا يمكن حلها

فترك الامر الى خلفه ، لعله يستطيع تشييد بناء جديد على انقاض خرائب السنوات الست الاولى .

يبدأ عهد الانتداب الثاني بتعيين المسيو بونسو في اغسطس عام ١٩٢٦ وكان اول مفوض سام له خبرة في الادارة الملكية وقد بقي في منصبه سبع سنوات وهي مدة تفوق مدة اسلافه الاربعة كلهم . وتقدم بمحاولات صادقة لاصلاح النظم الادارية وللوصول الى التفاهم مع زعماء سورية ولكنه لاقى نجاحاً جزئياً لانه لم يستطع القضاء على استبداد الموظفين الفرنسيين الشديد والحد من اسرافهم ووقاحتهم بالرغم من نجاحه في القضاء على بعض المساوىء البارزة في الادارة . لقد نال ثقة الوطنيين بوقوفه على الحياد التام في أول انتخاب عام جرى في عهده ولكنه لم يستطع الوصول الى التفاهم معهم على المواضيع الاساسية المختلف عليها ولم ينجح حتى في تقريب وجهات النظر . كانت جهود سلفه المباشر ، الذي يظهر أنه كان صادق الرغبة في الوصول الى الاتفاق ، قد انتهت الى عقدة لا تحل وكان سبب الاختلاف الرئيسي عائداً لموضوعي الوحدة السورية وحدود لبنان الكبير الموسعة وبقائها أو عدمه فلما ترك بونسو منصبه بعد سبع سنوات قضاها في مفاوضات بطيئة ولكنها مجدة بقي هذان الموضوعان حيث تركها تماماً مما دل على أنه كان يمتاز على اسلافه باسلوبه ولباقته لا بأفق تفكيره لان آراءه التي ظهرت للعيان عند بحث دستور سورية ثم احكام المعاهدة المنوي عقدها بين فرنسة وسورية لم تكن لتختلف في قليل أو كثير عن الاتجاهات السائدة في وزارة الخارجية الفرنسية منذ أيام الانتداب الاولى .

اعلن المسيو بونسو الحكم الجمهوري في سورية في السنة الرابعة لعهده وكان قد عجز عن الوصول الى التفاهم مع الوطنيين حول بعض أحكام الدستور فابتكر حلاً

للمعضلة بان نشر الدستور بالشكل الذي اقروه تماماً مع اضافة مادة جديدة تعطل مفعول المواد الست المختلف عليها وعلل ذلك بان القصد ضمان حسن سير الامور في الفترة التي لابد من انقضائها قبل الدخول في المفاوضة لعقد معاهدة بين الطرفين واعلن رغبته في اجراء الانتخابات وفقاً للدستور الجديد في أقرب وقت لكي يتمكن من بدء المفاوضات لعقد المعاهدة مع حكومة تمثل البلاد ومشكلة تشكيلا صحيحاً وبذل ماله من تأثير على اثنين من الزعماء الوطنيين لحملهما على التعاون مع فرنسة. فاجريت الانتخابات ولكن بعد مرور ثمانية عشر شهراً اذ لم يكن المسيو بونسو بطيئاً بطبيعته وبارعاً في فن التملص فحسب بل كان أيضاً يداور ويحاول في سبيل الوصول الى مركز يمكنه من توجيه المعركة الانتخابية بعد ان أغرته الحوادث وحملته هو الآخر على استعمال سلطته فيها. وأخيراً وفي يونيو عام ١٩٣٢ تولت الحكم حكومة دستورية وعلى رأسها صنم كرئيس للجمهورية ومعها مجلس للنواب يمثل الشعب اسماً لا فعلاً.

لم يتقدم بونسو من الحكومة القائمة بمقترحات معينة في شكل مشروع معاهدة الا في عامه الاخير بعد ان اعلن انه سينسج المعاهدة السورية على منوال المعاهدة العراقية البريطانية المعقودة عام ١٩٣٠ ولكن المشروع الذي تقدم به كان اقل منها بكثير فبالرغم من وجود بعض المواد المأخوذة عنها بالحرف الواحد كان هناك اختلاف هام في امور جوهرية تتعلق بالسيادة والوحدة وحتى بالحكم الذاتي في داخل الدولة العربية المستقلة العتيدة الامر الذي حال دون قبول مشروعه فاستقال الزعيمان الوطنيان اللذان دفعهما حب الخدمة العامة الى الاشتراك في حكومة مكروهة معتمدين على نوايا المفوض السامي المعلنة فتعقدت الامور من جديد. ولما غادر المسيو بونسو

منصبه في صيف تلك السنة لم تكن المسألة السورية اقرب الى الحل من الوقت الذي شرع في محاولته حلها وكان الفارق الوحيد ان الزعماء الوطنيين العرب اكتسبوا مع الايام خبرة اطول في أساليب الانتداب الفرنسي فاصبحوا أصدق عزيمة من أي وقت آخر في السعي الى الحصول على حريتهم السياسية .

كانت الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت قد استعادت ثقتها السابقة بقدرتها على حكم البلاد بالقوة وذلك بسبب انقضاء مايثوف عن ستة اعوام على نهاية الثورة السورية فرأت ان يكون خلف بونسو رجلاً قوياً من النوع الذي لايتحمل مزاحاً فوقع اختيارها على المسيو دومارتيل الذي كان آنئذٍ سفيراً لفرنسة في طوكيو وهو من اقدر رجال الدبلوماسية الفرنسية . لم يضع المفوض السامي الجديد وقتاً وما كاد يستلم زمام منصبه في اكتوبر عام ١٩٣٣ حتى دعا رئيس الوزارة ، وهو من عمال الفرنسيين وليس له قيمة تذكر في نظر الشعب ،وطلب اليه ان يوافق فوراً على مشروع المعاهدة فنزل عند ارادته وعرضت المعاهدة بعد ايام على مجلس النواب لتصديقها فتبين ان الاكثرية الساحقة من النواب في جانب رفضها فقابل المسيو دومارتيل هذا الفشل بتدبير يتفق تماماً مع روح المهمة التي كلف بها والتي تقوم على القوة فعطل مجلس النواب لاجل غير مسمى وقصر عمل الحكومة على تنفيذ اوامره وحدها دون سواها ثم اخذ يصدر القرارات التي تمكنه من فرض ارادته بعد اعطائها شكلاً مشروعاً . وقد اعلن انه ينوي حصر اهتمامه بعد ذلك في تحسين حالة البلاد الاقتصادية وانه في اثناء انصرافه الى هذا الامر يرغب في ان يتوقف النشاط السياسي كله . وقرن القول بالفعل فراح يظهر اهتماماً حقيقياً بعدد من المشاريع الاقتصادية ويتعمد عدم الاكتراث بالاستياء الذي ولدته

سياسته العنيفة فلما ثارت النفوس المكبوتة الشعور فجأة بعد سنتين ليستيقظ من حلمه السار ليرى بانه كان يعيش في جنة مأفون من نسج خياله حين اعتقد ان قراراته تستطيع ان تخمد جذوة الشعور الهائج .

كان الانفجار وليد تدبير جديد من تدابير المسيو دومارتيل الدالة على رجولته ففي اوائل يناير عام ١٩٣٦ كانت الاجتماعات تعقد في كافة انحاء سورية لاحياء ذكرى زعيم وطني (١) يمجده الشعب وبينما كانت موجة من الشعور القوي والهيجان السياسي تجتاح البلاد هاجمت الشرطة فجأة مكاتب حزب الكتلة الوطنية استناداً الى إخبار تلقته فلم تعثر على أوراق تدين أحداً ولكن المكاتب أغلقت رغم ذلك واعتقل عدد من الزعماء وأبعدوا بتهم مختلفة وذلك كله دون اضاعة الوقت في محاكمتهم كما كان يحدث تماماً في الحكم الانتدابي المباشر . كان رد الفعل في هذه المرة آنياً فأغلقت المتاجر في دمشق احتجاجاً وأعقب ذلك توقف الأعمال التجارية في جميع أنحاء سورية يرافقه انتشار القلق والاضطراب فقابلت السلطة المنتدبة هذا الأمر بسلسلة من الاعتقالات الجديدة وبغيرها من التدابير الزجرية التي ان انتجت شيئاً فهو تقوية عزيمة الشعب فنشأ عن هذا حركة مقاومة سلبية لم تعرف سورية ولا البلاد العربية الاخرى مثيلاً لها في السابق وقد امتازت بأنها كانت عامة شاملة كما امتازت بالنظام والمثابرة — وهي صفات غير مألوفة في الخلق العربي . لقد شل الاضراب العام حياة البلاد ودام ستة أسابيع دون أن تظهر على الناس بادرة واحدة تدل على رغبتهم في انهائه ولكنهم فوجئوا بحدوث تبديل في سياسة الفرنسيين اذ أذاع المفوض السامي بياناً في ٢٥ فبراير فتح فيه الباب للدخول في مفاوضات على

(١) ابراهيم هنانو

الفور لعقد معاهدة وأعلن أنه مستعد لاصدار قرار بالعفو العام وباطلاق سراح المعتقلين السياسيين وأنه يدعو زعماء الكتلة الوطنية للمباحثة. وقد تلقى الناس هذه المفاجأة بترحيب عام وعقد الاجتماع المذكور فقدم فيه المسيو دومارتيل ضمانات تتعلق بأساس المفاوضات العتيدة ومداها وقنع بها الزعماء الوطنيون وقبلوا بسرور اقتراحه القاضي بتشكيل وفد يكونون هم اكثرية أعضائه ليذهب الى باريس ويتفاوض مع وزارة الخارجية مباشرة. وفي أول مارس أي فور الوصول الى التفاهم بين الطرفين أعلنت نهاية الاضراب وبدأ العهد الثالث في تاريخ الانتداب الفرنسي.

لم يكن هذا التغيير في اتجاه الفرنسيين منتظراً وقد أخذ البلاد على حين غرة وتبين فيما بعد أنه تغيير في الخطة لا في الأساس ولكن كتب له أن يؤدي الى اعادة النظر في سياسة الانتداب من أصلها بفعل الصدفة وبنتيجة الانتخابات النيابية. يعود الفضل الاول في اتفاق فرنسة وسورية، على مايظهر، الى المسيو دومارتيل لأنه حين قنع بعقم سياسة البطش التي اتبعها أعلن ميله الى تبديلها دالاً بذلك على حنكته وشجاعته ويظهر أنه شاهد النور فجأة وبوسيلة خفية فكانت هدايته عجيبة كهداية بولص الطرسوسي الذي Saul × كان مثله مغرماً بتهديد أهل دمشق بالويل والثبور وعظائم الامور. إن الاهانة الحمقاء التي وجهها الى الزعماء الوطنيين في بيان رسمي صادر عنه لم تمنعه من تقديم الترضية اللازمة بعد اسبوعين عندما أدرك خطأه فما كان من رئيس الكتلة الوطنية الا أن أجابه بما يتفق وكرم الخلق المتأصل في السيد[١] العربي وهكذا فتح عهد تفاهم وتعاون مازال قائماً حتى اليوم[٢] فتحسنت العلاقات بين

(١) Gentleman (٢) اي عام ١٩٣٨

فرنسة و العرب تحسناً جلياً ويعود الفضل الاول في ذلك الى عمل المسيو دومارتيل وما أوحاه من الشعور بالاحترام في نفوس ضحاياه السابقين .

وصل الوفد السوري الى باريس وشرع بالمفاوضة قبل نهاية مارس فاكتشف ان الشقة ما تزال بعيدة بين ما يفهمه السوريون من معنى المعاهدة وما يفهمه الفرنسيون فلما قدمت وزارة الخارجية مقترحاتها النهائية وجد السوريون انهم لا يستطيعون قبولها لأن ما طلبوه هو معاهدة مماثلة للمعاهدة البريطانية العراقية المعقودة عام ١٩٣٠ بكل ما حوته من احكام على ان تقوم على اساس الاعتراف بالوحدة السورية ولكن الحكومة الفرنسية لم تكن مستعدة لتلبية هذا الطلب وان اعترفت بعدالته. وفي هذه المرحلة الدقيقة حدثت الصدفة في صورة ظفر انتخابي للمسيو بلوم وحزبه ومجيئه للحكم خلفاً للمسيو دالادية فاستؤنفت المفاوضات على اساس اوسع وانتهت بعقد معاهدة تحالف بين سورية وفرنسة بتاريخ ٩ سبتمبر عام ١٩٣٦ . وبعد اسابيع قليلة شرع المسيو دو مارتيل في بيروت بمفاوضات مع وفد يمثل لبنان انتهت بعقد معاهدة مماثلة بين فرنسة ولبنان بتاريخ ١٣ نوفمبر .

اتخذت المعاهدة البريطانية العراقية نموذجاً للمعاهدتين اللتين كانتا شبيهتين بها شبهاً يكاد يكون تاماً كما كانتا متشابهتين فيما بينها : فقد حددتا فترة للانتقال مدتها ثلاث سنوات توضعان في نهايتها موضع التنفيذ ، وتؤديان الى زوال الانتداب فور قبول سورية ولبنان في عصبة الامم بين الدول المستقلة ذات السيادة ، ومدة المعاهدتين خمس وعشرون سنة قابلة للتمديد باتفاق الطرفين ، وقد اعترفت المعاهدة السورية بالوحدة السورية وكانت الالتزامات المفروضة على المتعاقدين هي نفس الالتزامات التي نصت عليها المعاهدة البريطانية العراقية . كانت ابرز الفوارق بين المعاهدة السورية والمعاهدة اللبنانية ان الفرنسيين احتفظوا لانفسهم في سورية بحق ابقاء حاميتين

عسكريتين الواحدة في جبل الدروز والثانية في منطقة اللاذقية لمدة خمس سنوات تبدأ من تاريخ وضع المعاهدة موضع التنفيذ كما نالوا حق استعمال قاعدتين جويتين في نقطتين معينتين داخل سورية طول مدة المعاهدة . اما في لبنان فقد احتفظوا بحق ابقاء قواتهم العسكرية من جميع الاسلحة طول مدة المعاهدة دون تحديد للمناطق التي ترابط فيها او للعدد الذي تتألف منه . وتعهدت فرنسة بترشيح الدولتين لعضوية عصبة الامم وضمان قبولها فيها خلال السنوات الثلاث الاولى التي تعقب تصديق المعاهدتين .

لم تأت المعاهدة السورية على ذكر حدود لبنان الكبير . لقد كان جزء كبير ومتنفذ من سكان لبنان يعارض في تعديل حدود عام ١٩٢٠ ولم تكن الحكومة الفرنسية ، وهي التي تعد لبنان معقلاً لسلطتها في شرق البحر الابيض المتوسط ، مستعدة لاهمال رأي هذا الجزء وعليه فان الوفد السوري قد اظهر حكمة وفهماً عملياً للامور باعراضه عن اثارة هذا الموضوع فتمسك بوجهة نظره القائلة بان توسيع لبنان مجحف بحق سورية وضار بلبنان ولكنه رأى ان هذا الادعاء اذا كان صادقاً فان تفاعل القوى الطبيعية سيؤدي الى ازالة الاجحاف مع مرور الايام باقامة الدليل على ان تلك الحدود مصطنعة وانه سيأتي اليوم الذي يطلب فيه اللبنانيون انفسهم تعديلها ان لم يطلبوا ازالتها تماماً . قد يتحقق هذا الامل وقد لا يتحقق ومهما يكن من امر فقد اظهر السوريون براعة سياسية بتركهم الموضوع للمستقبل واثبتوا ان سياسة الايجاب التي تحملوا في سبيلها الآلام مدة طويلة لم تكن مجرد أداة للتهييج السياسي بل انهم كانوا يطبقون ما يدعون اليه .

صدّق المجلسان السوري واللبناني المعاهدتين قبل نهاية العام فقامت الاضطرابات في لبنان عندما حاولت الحكومة كم أفواه المطالبين بتسوية مسألة

الحدود فوراً على أساس العودة الى الحدود السابقة لعام ١٩٢٠ وتوسعت هذه الاضطرابات فاتخذت شكلاً جدياً في بيروت وطرابلس ولكن الأمن عاد الى نصابه بمساعدة الجيش الفرنسي فاستطاعت الحكومة أن تؤمن تصديق المعاهدة دون أن تلقى معارضة في المجلس وبالرغم من المعارضة القائمة خارجه . أما في سورية فقد جرت الانتخابات العامة في نوفمبر وانتهت بنجاح تام للكتلة الوطنية فصدق مجلس النواب المنتخب بهذه الصورة المعاهدة بالاجماع . على انه بالرغم من انقضاء عامين على عقد المعاهدتين فانهما ما تزالان تنتظران ابرام الجانب الفرنسي لهما .

قوبل عقد المعاهدة السورية الفرنسية بالرضى العام والصادق لا في سورية وحدها بل ايضاً في البلاد العربية الاخرى . فاذا القينا نظرة الى الوراء جزمنا بكل تأكيد ، رغماً عن قرب عهدنا الذي لا يتجاوز السنتين ، ان المعاهدة تشكل نقطة التحول في تاريخ علاقة فرنسة بالعالم العربي التي بدأت منذ قرن . وقد يكتب للنية الحسنة والرغبة الصادقة في التعاون ، اللتين تسودان القائمين على الحركة العربية في الوقت الحاضر ، ان تصبحا عاملاً عظيم الأهمية لا في سورية نفسها فحسب بل أيضاً في شمال افريقية . لا نستطيع في هذا القرب أن نقرر ما إذا كان تبديل الفرنسيين لسياستهم ناشئاً عن تبدل أساسي في الفكرة (١) أم انه لا يعدو ان يكون خطوة سياسية في لعبة كبيرة رائعة ، فاذا كان يعني بالفعل انهم أدركوا أخيراً عقم سياسة البطش وانهم ينوون من الآن فصاعداً تأمين مصالحهم عن طريق التعاون الودي فلا يوجد ما يمنع نمو

(١) اثبتت الحوادث فيما بعد ان الفرنسيين لم يبدلوا سياستهم تبديلاً اساسياً الا بنتيجة عوامل مستقلة خارجة عن ارادتهم تماماً .

الصداقة بين فرنسة والعرب نمواً سريعاً وتحولها الى قوة نافعة . يبلغ ما كلفته المغامرة السورية لفرنسة حتى الآن عدة آلاف من الارواح واربعة عشر ملياراً (١) من الفرنكات انفقتها الخزانة الفرنسية وحدها لاغراض الانتداب العسكرية ولهذا فان تقرير الفرنسيين انهاء الانتداب لا يضع حداً لهذا التبذير الجنوني فحسب بل ايضاً يعطي الصداقة بين فرنسة والعرب اول فرصة لاظهار معدنها .

— ٨ —

يتناول بحثنا الاخير موضوع فلسطين التي تتمتع بأسوأ سمعة بين جميع تجارب الانتداب ، لأنه لاقى فيها أقل النجاح .

تجابه المؤرخ الذي يريد دراسة المشكلة الفلسطينية صعوبات من نوع خاص وأولها أن مواد البحث كثيرة جداً ومشتتة تشتتاً كبيراً ، ثم ان هذه المواد نفسها متضاربة ومتناقضة ، ومن جهة ثالثة فان الباحث عند التدقيق يجد قسما كبيراً منها مستنداً الى فرضيات باطلة أو أسس مشكوك فيها بعد أن يظن في أول بحثه أنها صالحة وتحوي في طياتها املاً كبيراً ، وأخيراً فان الغليان النفسي الذي ولدته قضية فلسطين قد عمل عمله في حجب الحقيقة عن الانظار فبدت الوقائع وهي محاطة بضباب من العواطف والخرافات والدعايات بلغ من الكثافة حداً أصبح يشكل معه جداراً حاجزاً يكاد لا يخترق .

لسنا ندعي بان بحثنا هذا قد تغلب على تلك الصعوبات ولكن دراستنا أشعرتنا

---

(١) ويساوي هذا المبلغ ١٢٠،٠٠٠،٠٠٠ من الجنيهات الاسترلينية على وجه التقريب اذا استندنا في تحويل المبلغ الى قيمة الفرنك الوسطية.

بشدة وطأتها فقنعنا بان أكبر عقبة في سبيل فهم حقيقة القضية الفلسطينية وبالتالي في سبيل ايجاد حل لها هي الغابة الكثيفة من الاساطير والدعايات المحيطة بها أكثر من التعقيد المتأصل فيها . وعلى هذا فان أمام الباحث مهمة شاقة وهي معالجة الاباطيل ، التي يخيل له عند أول نظرة أنها من الوقائع ، ثم تنحيتها عن المكان الرفيع الذي تحتله بدون حق وهذا بالاضافة الى مهمته الاعتيادية وهي معالجة الوقائع نفسها ، فواجبه يقضي عليه بفضح الاباطيل بدرجة ما يقضي عليه باثبات الحقائق . ومما يجعل هذا الواجب ملزماً أنه انما يبحث في مأساة حية تضحى فيها كل يوم أرواح الابرياء ويتحمل فيها الناس كل يوم العذاب والالم .

— ٩ —

لقد نشر الشيء الكثير عن تاريخ الانتداب البريطاني في فلسطين بالانكليزية وغيرها من اللغات الاوربية ولكن الواجب يقضي بالنظر الى هذه الكتابات بتحفظ لانها تحوي مقداراً كبيراً من الدعاية المكشوفة والمستترة ولأن عدم اتصالها بالمصادر العربية الضرورية يجعلها بعيدة عن الانصاف حتى عندما يكون المؤرخ نفسه محايداً أو عادلاً . وهذا هو السبب كذلك في تشويه المعلومات اليومية التي تذاع ، فان الدعاية الصهيونية ناشطة ومنظمة تنظيماً جيداً ومنتشرة وتنقاد اليها الصحافة العالمية الى حد بعيد — على الاقل في الديمقراطيات الغربية — كما أنها تسيطر على الكثير من الوسائل الموجودة لنشر الاخبار ولا سيما في بلاد الانكليزية . فاذا قارنا بين الدعاية الصهيونية والدعاية العربية وجدنا أن الثانية ما تزال ابتدائية وبعيدة عن النجاح بعداً شاسعاً لأن العرب غير حائزين على مثل الصفات التي تجعل الدعاية اليهودية ذات أثر بليغ كالمهارة واتقان لغات كثيرة والانتشار في كل

حقع والموارد المالية الكبيرة . وبنتيجة هذا كله فقد أصبح العالم خلال السنوات الماضية لا يكاد ينظر الى فلسطين الا بمنظار صهيوني كما تعود أن يتبنى حجج الصهيونية في نقاشه بصورة لا شعورية .

وتقوم المصادر الرسمية البريطانية بنشر كمية كبيرة اخرى من المعلومات وهي بدورها بعيدة كل البعد عن الانصاف الحقيقي الذي لا يمكنها تحقيقه ما دامت الحكومة البريطانية تمنع نشر بعض الوثائق الاساسية . ونتيجة تحفظها بهذا الشكل أن ما صدر عنها من تقارير وبيانات وتفاسير لسياستها قد أظهر القضية على غير حقيقتها والبسها رداء من الباطل . ويتضح الضرر الناجم عن هذا الكتمان بصورة خاصة في مناقشات البرلمان البريطاني حيث اعتاد بعض أعضاء مجلس اللوردات والعموم حتى السنوات الاخيرة أن يطالبوا الحكومة باظهار الحقيقة كاملة وذلك بنشر الوثائق المتعلقة بالتعهدات التي وقعتها خلال الحرب ولكن الحكومة لم تلب هذا الرجاء قط حتى مل الاعضاء من ترديده فاستمرت المناقشات وهي تجري على الدوام في غبش من الحقائق المحجوبة . وزاد القضية غموضاً ما بذله مؤيدو الصهيونية من جهود وما قاموا به من دعايات غايتها التأثير في أذهان الاعضاء . ثم إن وجود أعضاء يهود في المجلسين يضمن بحد ذاته حسن عرض القضية الصهيونية ويجعل المناقشات ذات طرف واحد لأن العرب غير ممثلين بهذا الشكل . ومن أبرز الامثلة على ذلك المناقشة التي جرت في مجلس العموم بتاريخ ٢٤ مارس عام ١٩٣٦ والتي تمثل في المحضر الرسمي المحفوظ معرضاً مدهشاً للنفوذ الصهيوني في البرلمان اذ تقدمت الحكومة باقتراح يرمي الى ازالة سبب من أسباب شكوى العرب وكانت الجمعية الصهيونية قد رفضته فرده المجلس بأكثرية ساحقة .

وهناك مصدر آخر للمعلومات ذات الطرف الواحد وهو محاضر جلسات لجنة الانتدابات الدائمة التي يجد الباحث فيها خلاصة كاملة وواضحة وضوحاً تاماً للمناقشات الجارية في جنيف حول التقارير السنوية للدولة المنتدبة . ومما يجده الباحث فيها أيضاً التفاوت العجيب في المعلومات وفي درجة الاهتمام بالقضية الصهيونية بالنسبة للقضية العربية فان اعضاء اللجنة يفيدون من وجود مكتب صهيوني في جنيف مجهز تجهيزاً كاملاً يزودهم طول السنة بالمعلومات بالشكل الذي يناسبهم وباللغة التي يفهمونها ولا يملك العرب اداة مماثلة ولا تلتفت اللجنة الى مصدر هام كالصحف العربية الصادرة في فلسطين والتي تحوي تعليقات قيمة على الاسلوب الذي يطبق به الانتداب وتأثيره في السكان العرب . ثم ان العرائض والمذكرات المحررة باللغة العربية ترفع الى جنيف مترجمة ، ويجب أن لا يفوتنا أن النص العربي الفصيح يحتاج الى أكثر من النقل المجرد لكي يقدم بشكل مقروء بالانكليزية أو الفرنسية وان عرب فلسطين عاجزون عجزاً فاضحاً عن عرض قضيتهم بلغة أجنبية وان محاولاتهم تأتي عادة بنتائج ممسوخة . والنتيجة الجلية لهذا كله ان المعلومات التي تصل الى اعضاء اللجنة ذات طرف واحد وان رقابتهم على سير الانتداب تظهر لدى قراءتها في المحاضر كأنها رقابة يقوم بها في غالب الاحيان دعاة الصهيونية أنفسهم .

إن فقدان المساواة بين الطرفين بهذا الشكل قد ولد أثراً بليغاً بمرور الايام من شأنه أن يعرقل المساعي المبذولة للوصول الى حل عادل كما أنه يسبغ على الخرافات والوقائع المشوهة التي تذيعها مراكز الدعاية رداء الحق ويصور الافكار الباطلة السائدة في جميع بلاد الغرب ولا سيما في انكلترة نفسها بصورة الحقيقة الملموسة . ولا ينتظر أن يقف الرأي العام في وجه هذا الاتجاه كرادع هام له فان محو هذه

الصور المشوهة من الاذهان أمر خطير ولا نخطيء اذا بالغنا في تأكيد قيمته العظيمة لان تلك الصور ما تزال تلعب دوراً خبيثاً في اخفاء عوامل القضية الاساسية لا عن أذهان عامة الناس لحسب بل أيضاً عن أذهان الكتاب والسياسيين والموظفين الذين يبدي الكثيرون منهم، حتى عند قيامهم بواجبهم الرسمي نحو فلسطين، جهلاً فظيعاً باصل الموضوع وحقيقته . لا يتسع المقام هنا للاتيان بامثلة كثيرة منقولة عن خطاب الوزراء وعن التقارير الرسمية والكتب البيض التي تدل على جهل عجيب بحقيقة تعهدات بريطانية العظمى ومداها وبالحقائق الأُخرى المتصلة بوضع فلسطين والتي تأتي في المقام الثاني ، ومن العبث أن نتوقع عودة ذوي العلاقة الى رشدهم ما لم تعلن هذه التعهدات للملأ بجلاء تام وما لم تنكشف الوقائع الهامة بحقيقتها الناصعة .

— ١٠ —

لعل أحسن طريقة لمعالجة الموضوع هي البدء باستعراض ما يعود لكل واحد من أصحاب العلاقة الثلاثة من حقوق ومطالب ودوافع كما كانت في نهاية الحرب .

تستمد حقوق العرب من امتلاكهم البلاد في الحاضر ومنذ أمد بعيد وتستند الى أقوى الاسس الانسانية فان صلتهم بفلسطين ترجع بدون انقطاع الى أقدم العصور التاريخية لان كلمة (عربي) لم تعد في الوقت الحاضر مقصورة على من أتوا من جزيرة العرب واحتلوا البلاد في القرن السابع بل تتعداه لتضم من سبقهم من السكان الذين تزاوجوا مع فاتحيهم واتقنوا لغتهم واكتسبوا عاداتهم واسلوب تفكيرهم فاستعربوا استعراباً دائماً . ان تقاليد السكان الحاليين متأصلة في محيطهم الجغرافي بدرجة تأصلها في ثقافتهم المكتسبة واذن فان الظن بانه من المستطاع حملهم

على الانتقال ولو الى محيط عربي آخر انما هو ضرب من المغالطة . وهم في ذلك يشبهون فلاحي مقاطعتي (كنت) او (يوركشير) الانكليزيتين اذا طلب منهم الانتقال الى (ارلندة) . قد يقال ان شرحنا هذا لا لزوم له لانه معلوم بالبديهة، على أن هذا الاعتراض قد يرد لو لم تقم اللجنة الملكية المكلفة بالتحقيق في فلسطين بتشييد بناء جديد من الآمال الكاذبة على اساس تلك المغالطة، وهذا يدعونا الى القول بان أي حل يرمي الى اخراج الفلاحين بالقوة من أراضيهم التي فيها وطنهم واشجارهم واماكنهم المقدسة ومقابرهم وجميع الذكريات والعواطف التي ترافق الحياة على الارض، لابد من أن يقاوم بالقوة .

وقد اكتسب العرب بالاضافة الى هذه الحقوق الطبيعية حقوقاً سياسية صريحة مستمدة من اتفاق الشريف حسين مع بريطانية ومن المساعدة التي قدموها لها في فلسطين وفي غيرها من ميادين القتال . ولا يمكن بعد الآن اثبات النظرية القائلة بان التعهدات البريطانية لا تتناول ذلك الجزء من فلسطين الواقع في غرب نهر الاردن لان النصوص التي اصبحت اليوم في متناول اليد تدل على ان مراسلات مكماهون قد اعطت الحسين وعداً عاماً باستقلالها كما ان الرسالة الشفوية التي حملها له القائد المرحوم هوغارث قد قطعت وعداً خاصاً بضمان الحرية السياسية والاقتصادية لسكانها العرب، وهناك كذلك التعهد الذي نص عليه التصريح الموجه الى السوريين السبعة . ان هذه التعهدات بمجموعها تشكل اعترافاً ملزماً بحقوق العرب السياسية ولكن هنا أيضاً غابت الحقيقة تحت اكوام من الكلام المكتوب والمنقول والمثير للنزاع بزكيه ما بذلته الهيئات الرسمية من مساع لاخفاء الحقائق . لقد بقيت مراسلات مكماهون محجوبة عن علم الجمهور في انكلترة وفي بلاد الغرب عامة بالرغم

من انتشارها في البلاد العربية ، واما رسالة هوغارث والتصريح الموجه الى السوريين السبعة فانهما ما يزالان مدفونين في (وايت هول) (١) في قعر بحر من النسيان ولم يأت تقرير اللجنة الملكية على ذكر أحدهما ومما لاشك فيه ان الحكومة البريطانية قد اتخذت خلال الاعوام الثمانية عشر الاخيرة قرارات خطيرة دون الاشارة الى مضمونها . وهذه ناحية جديرة بالتنبيه اليها لا لقيمتها التاريخية فحسب بل أيضاً لعلاقتها عملياً بحل القضية الفلسطينية اذ انه من العبث البحث عن حل يهمل معنى هذه التعهدات ومايعلق عليها العرب من أهمية ، فهم يتخذونها دليلاً على ان حقوقهم السياسية مشروعة .

ونقول بعبارة اخرى ان مطالب العرب تستند الى اساسين منفصلين وجليين : الاول الحقوق الطبيعية التي تخول شعباً مستقراً على الارض ومؤلفاً من اكثرية مزارعة حق المحافظة على تلك الارض التي ولد فيها ، والثاني الحقوق السياسية المكتسبة والتي نشأت عن زوال السيادة التركية وعن الدور الذي لعبه العرب في ازالتها وهي الحقوق التي تعهدت بريطانية في اتفاق ملزم بأن تعترف بها وتؤيدها .

وهكذا فان العرب في معارضتهم الانتداب البريطاني قد تحركوا بدافع المحافظة على انفسهم ودافع الرغبة في تقرير مصيرهم وليسوا متأثرين في موقفهم هذا بأي شعور بالكره نحو الجنس اليهودي . ان تاريخ العرب ليدهشنا بتحرره المستمر من حوادث الاضطهاد المقصود هو يرينا كيف قام اليهود بجزء من اعمالهم الباهرة في ظل السيطرة العربية وتحت رعاية الحكام العرب وعلى ضوء ارشادهم الواعي وهذا في القرون الوسطى كما في العصر الحديث ويعود الفضل الاول في ذلك الى

(١) مقر الحكومة البريطانية .

مايحويه الاسلام من توجيه نحو الحضارة والنور . وما زلنا نرى العرب ، حتى في ايامنا هذه وبالرغم من العداء الذي اثاره النزاع القائم في فلسطين ، يحسنون معاملة الاقليات اليهودية المقيمة في البلاد المجاورة لها كما تحسنها بريطانية او الولايات المتحدة وهم في بعض الاحوال اشد تسامحاً حتى من هاتين الدولتين . ولا يقف العرب من بريطانية موقف المعادي بل الامر على العكس فان عبارة (مناهض للانكليز) (١) قد انتشرت كثيراً وبها وصفت الحركات الثورية التي قام بها العرب حتى ادت الى نشوء خرافة تقول بان العرب معادون في الاصل لكل مايتصل بالانكليز ، والواقع انهم ليسوا (مناهضين للانكليز) الا بالمعنى السياسي لهذه العبارة التي زاد استعمالها عن الحد . ومعنى كلامنا ان العرب عازمون على مقاومة سياسة بريطانية الحاضرة في فلسطين بجميع الوسائل التي يملكونها .

أما حقوق اليهود فهي من نوع آخر . يعتقد الكثيرون من أهل الغرب ولاسيما في البلاد البروتستانتية ان الصهيونية تعرب اليوم عن تعلق اليهود القديم بالديار المقدسة وانها لهذا السبب تحقق نبؤات الكتاب المقدس ، وما هذا الاعتقاد الا صورة من الصور الكاذبة المنتشرة بين الناس . ان هناك بالفعل مدرسة من الصهيونيين (الروحانيين) يزكيها اشخاص من اكبر اليهود مكانة وغاياتها الاولى ثقافية كما انها تستقي افكارها بالدرجة الأولى من منابع الاحاسيس المثالية والدينية التي كانت وما زالت مصدر الالهام للعالم اليهودي في تعلقه بفلسطين(٢) ، ولكن اثر هؤلاء في السياسة الدولية قد اصبح لا يعتد به بالنسبة الى اثر غيرهم لان اصحاب السلطة الحقيقية هم دعاة الصهيونية (السياسية) وهي حركة قومية وليست حركة دينية وترمي الى اقامة

---

(١) Anti — Brtish

(٢) انظر الفصل الثامن من الباب الثالث عشر أعلاه .

دولة يهودية في فلسطين ذات سلطة زمنية مستندة الى الميزات التي ترافقها عادة من الحيازة والسيادة . ان حركة المقاومة العربية في فلسطين موجهة ضد هذه الفئة من الصهيونيين .

وأما الدوافع التي تحرك الصهيونية (١) فهي مستمدة من الشعور الانساني بالقلق على مركز اليهود المقلقل في بعض بلدان أوربة أي انها ظهرت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر كرد فعل لحركة (اللاسامية) وكان هدفها الصريح ايجاد علاج للحالة بخلق دولة وطنية لليهود يستطيعون الهجرة اليها ليقيموا بسلام وحرية وليتمتعوا بنعمة الحكم الذاتي . انه لعمر الحق دافع الانسانية والشهامة ولكن يشك في ما اذا كان العلاج المقترح صائباً فانه قائم على النظرية القائلة بأن يهود العالم ينتمون الى عنصر واحد وأنهم لذلك يستطيعون أن يكونوا أمة واحدة وقد حوت هذه الفكرة في نظر الكثيرين من اليهود المفكرين سيئة كبيرة بما انطوت عليه من تهديد للمراكز والحقوق التي حصل عليها اليهود في البلاد التي اختاروها لاقامتهم وهذا بالاضافة الى المساوئ المتأصلة في جميع الحركات القومية المستندة الى الفكرة العنصرية . على ان حجر الأساس في البرنامج الصهيوني هو نظرته الى فلسطين على انها المقر الوحيد الذي يمكن القبول به لتشييد الدولة اليهودية المقترحة ولم يكن هذا في الأصل قصد ثيودور هرتزل مؤسس الصهيونية ولكنه خذل أمام الأكثرية من العاملين الاول في سبيل الصهيونية وذلك عام ١٩٠٣ اذ رفضوا عرض الحكومة البريطانية فتح أبواب اوغاندة للاستعمار الصهيوني وصوتوا بجانب جعل الدولة اليهودية في فلسطين .

(١) اننا نقصد بعبارتي (الصهيونية) و (الصهيوني) الصهيونية (السياسية) ما لم نشر الى غير ذلك .

يستند الصهيونيون في دعواهم الى العلاقة التاريخيـة التي تربط اليهود بفلسطين والتي يقولون انها تمنحهم حق العودة الى وطنهم القديم . ان هذه العلاقة معروفة من الجميع معرفة وثيقة فلا تحتاج الى بحثها مجدداً هنا ولكن الأمر الذي يستلزم التأكيد بالنظر لما هو منتشر بين الناس من أفكار مغلوطة هو ان العلاقة التاريخية ليست مرادفة دوماً لحق التملك ولا سيما اذا كان موضوعها بلاداً مأهولة بسكان هم أنفسهم ذوو علاقة تاريخية بها كما أنهم بالاضافة متمتعون بالحقوق الطبيعية الناشئة عن الحيازة الفعلية . لقد ظل اليهود أقلية في فلسطين منذ عهد تشتتهم وانحصرت اقامتهم غالباً في مدنهم المقدسة دون أن يتمتعوا بأية حقوق مميزة تختلف عما كانت تمتع به الأقليات الأخرى أحياناً وكانوا في أكثر الأوقات أقلية ضئيلة جداً . ولم يكن عددهم ليتجاوز ٥٥٫٠٠٠ نسمة بعد الحرب أي أنهم كانوا يشكلون أقل من ٨ ٪ من مجموع السكان بينما كانت نسبة العرب ٩٠ ٪ بالمئة . لقد حافظ اليهود المقيمون خارج فلسطين على صلتهم بالأرض المقدسة عن بعد وذلك خلال القرون الثمانية عشر التي انقضت منذ عهد تشتتهم ولكنها كانت رغم هذا صلة حية ضربوا بها مثلاً للعقيدة والولاء وهو مثل مؤثر وباعث على الاعجاب . انها كانت صلة روحية دعمتها الآمال التي أحيتها المسيحية ولا علاقة لها مطلقاً بالأماني السياسية وهي من نوع الصلة التي تربط المسلمين أو الكاثوليك في العالم بمكة والمدينة أو بمدينة الفاتيكان كما أنها، مثلها، لا تهدف الى الحصول على السيادة أو على حق التملك أو على الأفضلية الاقتصادية أو غير ذلك من (الحقوق) التي كان الصهيونيون أول المطالبين بها باسمها.

ليست دعوى الصهيونيين منحصرة في تلك العلاقة التاريخية فهم يستندون كذلك الى المساعدة التي قدمها اليهود لقضية الحلفاء أثناء الحرب والى العهود

التي قطعت لهم لقاءها . لقد ثبت الآن ان لا أصل لبعض المساعدات التي أشيع أن اليهود قدموها كما أن بعضها الآخر لا يعدو أن يكون من الخدمات التي قدمها بعض اليهود بوصفهم من أهل البلاد التي استوطنوها . ومع ذلك فلا شك أن الحلفاء قد أفادوا بالفعل من خدمات جلى قام بها اليهود ولعلهم ما كانوا يقومون بها لو لم يلوح لهم بوعد بلفور العتيد كما أن الصهيونيين محقون في ادعائهم ان الحلفاء مدينون لهم . أما العهود فقد نص عليها وعد بلفور الذي يجب أن نذكر بانه لم يصدر إلا بعد الحصول على موافقة رئيس الولايات المتحدة وان الدول الحليفة أيدته فيما بعد (١) وعلى هذا فقد حظي الوعد بضمانة إضافية هي الاعتراف الدولي على نطاق واسع، ولئن لم يحقق الوعد أماني الصهيونية في اقامة دولة قومية يهودية فقد تعهد لهم بعطف انكلترة ومساعدتها في تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين . ثم انه يحد من آمال الصهيونية مرةً أخرى بنصه على أن تأسيس وطن قومي لليهود معلق على شرطين : ضمان الحقوق المدنية والدينية لسكان فلسطين غير اليهود وضمان الحقوق والمراكز السياسية التي يتمتع بها اليهود في البلاد الأخرى .

---

(١) إن تأييد ايطالية يدعو الى انتباه خاص بسبب ما نص عليه من إبدال عبارة (الحقوق المدنية والدينية) بعبارة (الحقوق القضائية والسياسية) في ذلك الجزء من وعد بلفور الذي أريد به أن يضمن حقوق الطوائف غير اليهودية في فلسطين . فيخيل لنا من هذا أن الحكومة الايطالية علمت أو خمنت أن العرب لن يتنازلوا عن حقوقهم السياسية . ومما يزيد في قيمة هذا التعديل أنه أدخل بناء على اقتراح سياسي يهودي هو البارون سونينو الذي كان وزيراً للخارجية الايطالية في ذلك التاريخ (مايس عام ١٩١٨) .

وعلى هذا فان مطالبة الصهيونيين بالحقوق السياسية والميزات الاقتصادية في فلسطين لا ترتكز على أساس متين حين تستند الى علاقة اليهود التاريخية بالأرض المقدسة ولكنها تجد لها مبرراً حين تستند الى وعد بلفور وذلك في حدود التحفظين المذكورين . على أن وعد بريطانية العظمى ليس في الأصل مشروعاً لسوء حظ الصهيونية وهذا منشأ المأساة في القضية الفلسطينية . وأما عدم شرعيته فهو ناشيء عن ان بريطانية كانت مرتبطة بتعهد سابق يلزمها بالاعتراف باستقلال العرب في فلسطين من جهة ومن جهة ثانية فان الوعد يشكل تعهداً لا تملك بريطانية حق الوفاء به دون موافقة العرب .

لقد ظهر في بداية الأمر أن موافقة العرب قد تمت بعد زيارة القائد هوغارث للملك حسين في يناير عام ١٩١٨ ولكن هذا الأمل زال تماماً حين أدرك العرب ان الضمانات التي حملها هوغارث لم تحترم وان هجرة اليهود الى فلسطين لم تكن ذات هدف انساني فقط بل ان من اهداف هذه الهجرة كما أثبتت تصريحات الصهيونيين وأعمالهم جعل اليهود أكثرية في البلاد ثم انشاء دولة يهودية فيها بنتيجة استفتاء تتغلب فيه أصوات تلك الأكثرية . كان العرب على حق في مخاوفهم هذه لأن الصهيونيين لم يتخلوا قط عن هدفهم الأسمى وهو إقامة دولة قومية يهودية ولأنهم إنما تظاهروا بقبول الوطن القومي كما نص عليه وعد بلفور ورضوا به لعدم تمكنهم من الحصول على أكثر منه فراحوا يعنون النفس باغراق الوطن القومي بعدد من المهاجرين اليهود حتى يبلغ الحد والقوة اللتين يمكن معهما تحويله إلى دولة يهودية وهذا بالجهد والضغط المتواصلين . ثم انهم لم يكتموا نواياهم هذه فقد قال الدكتور وايزمن صراحة أكثر من مرة بعد صدور وعد بلفور أن هدف الصهيونية هو جعل فلسطين « يهودية بدرجة ما هي أمريكة أمريكية وانكلترة انكليزية » .

لقد سبق أن حللنا بصورة مجملة الدوافع التي حملت الحكومة البريطانية على اصدار وعد بلفور (١) وبينا ان الدافع الأول هو الرغبة في احتلال فلسطين لأسباب استراتيجية ولهذا قطعت للصهيونيين هذه الوعود أملاً في تحقيق تلك الرغبة ومن المحتمل أنها كانت تتردد في قطعها لو أدركت الموقف على حقيقته ، ولقد طالما كان الجهل عاملاً كبيراً في احداث المشاكل الدولية كما أنه في بعض الأحيان مصدر لها . يتهم العرب الحكومة البريطانية بأنها كانت ، بما لها من قدرة وسلطان ، تغرر بهم كل الوقت عامدة متعمدة وهي تهمة مردودة لأنها تهمل عاملاً جديراً بالاهتمام وهو ان انتهاج سياسة ما يستند في كثير من الأحيان الى مقررات مرتجلة ومبنية على معلومات خاطئة ولا سيما في زمن الحرب وفي أمور قد تبدو ثانوية في نظر رئيس وزارة دولة معظمة منهمكة في الدفاع عن حياتها . وليس معنى هذا تبرئة حكومة المستر لويد جورج من اللوم اذ لا يمكن في حال من الأحوال التماس العذر له حين بعث برسالته التي حملها القائد هوغارث الى الملك حسين في يناير عام ١٩١٨ والتي تبحث في الضمانات المتصلة بوعد بلفور فهي لعمر الحق تنطوي على تغرير منقطع النظير . ولا عذر له كذلك في ارسال كتاب بتوقيع وزير خارجيته يوهم الحسين فيه بأن اتفاق سايكس بيكو لا وجود له وانه من صنع خيال الترك والبلشفيك . فاذا ما نزلت دولة عظيمة ، اكسبها الزمان بحق سمعة حسنة فاشتهرت بالعدل والانصاف والحكمة السياسية ، إذا ما نزلت تلك الدولة عن مستواها الخلقي ولجأت الى المخادعة الحميدية يحسن بالعرب أن يذكروا بان الحرب والاستقامة ضدان لا يجتمعان وأن يحاولوا فهم حقيقة الأمر الذي ترى

(١) راجع الفصل السابع من الباب الثالث عشر أعلاه .

فيه أعينهم خدعة مقصودة بدلاً من الاكتفاء بالتنديد به . لا شك ان الحكومة البريطانية — أو على الأقل بعض أعضائها — لم تدرك عند البحث في وعد بلفور قوة الحق الذي في يد العرب في فلسطين ولا مبلغ احتياج سكان ريفها الى الأرض القابلة للاستغلال لتأمين عيشهم وضمان نموهم الطبيعي كما أنها عدت هذه القضية من القضايا العديمة الأهمية أو على الاقل القابلة للتأجيل لأن افكارها القلقة كانت منحصرة في تسيير دفة الحرب وهي تجتاز أدق مراحلها في عامها الثالث، وفي الوقت نفسه استخف البعض الآخر من اعضاء الحكومة بدعوى الشريف حسين وكانوا على ثقة من انهم يستطيعون بسهولة وفي الوقت المناسب إسكات ذلك الشيخ المضحك المقيم في مكة — او « ذلك القرد العجوز » على حد تعبير السير مارك سايكس — ببعض الجمل اللبقة على أن تكون قوية كذلك ومرفقة بكيس أو كيسين من الذهب لاتمام الصفقة ، وقد نحوا هذا النحو لأنهم لم يدركوا حقيقة القوى العاملة وراء قيادة الحسين . فاذا أضفنا الى هـذا كثرة الدوائر ذات العلاقة بتكوين سياسة بريطانية العربية (وهي وزارة الخارجية ووزارة الهند ووزارة الحربية ووزارة البحرية والمكتب العربي في القاهرة والادارة الخارجية في دلهي) زال عجبنا حين نشاهد يد بريطانية اليمنى تجهل في بعض الأحيان ما تقوم به يسراها أو ما كانت على وشك القيـام به وكذلك اذا شاهدنا الحكومة البريطانية ترتكب أفدح الأخطاء .

على ان هناك مرحلة في سياسة بريطانية لا يمكن الدفاع عنها وهي المرحلة التي اعقبت الحرب عندما تبين انه لا يمكن التوفيق بين وعود بريطانية للعرب وللبهود، عندما تحقق أن هدف الصهيونيين ايجاد اكثرية لهم في فلسطين بغية إقامة دولة يهودية أداتها وعد بلفور وستارها الذي يخفيها الوطن القومي ، عندما ظهر ان

العرب عازمون على المحافظة على اكثريتهم العددية لكي يحافظوا على بقائهم في ارضهم، عندما لم يبق من شك في ان المشكلة من أساسها إنما هي ناشئة عن سعي شعب اجنبي طموح لانتزاع الأرض من يد مالكيها الدائمين والمستقرين عليها . لقد اثبت التاريخ ان نزاعاً كهذا لا يحل إلا بالدم اذا ترك لينمو ويتوسع ، واذا فرضنا ان الحكومة البريطانية رأت ان تصم اذنها عن سماع دروس التاريخ لسبب من الاسباب فقد كان أمامها دلائل كافية في فلسطين منذ فجر الانتداب تشير الى ماينتظرها من عواقب . ولم تكن هذه الدلائل مقتصرة على التنبيه الذي حواه تقرير لجنة كينغ كراين الحصيف وغيره من المصادر التي كان بعضها بريطانياً ، بل تعدته الى الفصول الافتتاحية من المأساة نفسها ، فقد رأت الحكومة البريطانية بأن الاستعمار الصهيوني يعني في الواقع محو القرى العربية وطرد فلاحيها ، وان الاموال التي اتى بها الصهيونيون والرخاء الذي ولدته — إذا فرضنا ان هناك رخاء حقاً — لاتعوض في نظر العرب ما فقده الفلاح من امور تشكل أعز واقدس ماعنده في محيطه القروي ، وان الفلاحين لا يقوون على مقاومة حركة انتزاع الملكية منهم وما يصاحبها من ضغط لا يلين مهما افرغ في قالب مشروع ، وان الشعور بالعجز أمام تقدم الاستعمار الصهيوني الذي لا يرحم قد أدى الى حدوث اضطرابات لايشك في انها غير مهيأة وقد قام بها شعب هو بطبيعته محب للسلام ويكرم الغريب وهي اضطرابات لا بد من أن تحدث خسائر لا يمكن تقديرها في الارواح والاموال اذا سمح لها بأن تستمر. لقد تعلمت الحكومة البريطانية من التجارب الفعلية بانها كانت تزرع اطناناً من الالغام المتفجرة بتلك السياسة التي راحت تحاول تطبيقها بالقوة الغاشمة وهذا بالرغم من لهجة التفاؤل البادية في بعض الخطب الوزارية والتقارير الرسمية .

ومع ذلك وبالرغم من أن الحكومة البريطانية رأت كل هذه الامور فقد

دلت كل الظواهر على انها ثابتة في موقفها وليس من السهل معرفة الدوافع الكامنة وراء هذا الموقف وهل السر هو ان التزاماتها للصهيونيين كانت أقوى مما تسمح بالتصريح به أو انها اكثر انقياداً لضغطهم أم انها تعتقد بان الدولة اليهودية اذا قامت في تلك الزاوية الهامة من العالم كانت حليفاً أقوى لبريطانية العظمى ويعتمد عليه اكثر من دولة عربية تقوم في البقعة نفسها أو انها تريد الاحتفاظ في فلسطين بسيطرتها التامة العسكرية والاقتصادية اقصى مدة ممكنة . ان الدلائل التي يمكن الحصول عليها لا تلقي الضوء الكافي على ما يمكن ان ينطوي عليه موقف الحكومة البريطانية من دوافع أعمق من هذه ولا يمكن تفسير هذا الموقف تفسيراً عقلياً حتى ولا نفسياً والتفسير الوحيد هو تاريخي بمقارنة فلسطين بايرلندة حيث ثابرت الحكومة بعناد مماثل على اتباع سياسة بغيضة وقد أغمضت عينيها — كما فعلت في فلسطين — لكيلا تقرأ الكتابات الماثلة أمامها على الجدران حتى اضاعت ايرلندة . ان الحكومة البريطانية اليوم ، بعد ان حولت فلسطين الى مجزرة بفضل اعمالها التي لا تحتاج الى نبي لمعرفة نتائجها ، لا تظهر ما يدل على انها تنوي الرجوع الى الصواب أي الى قواعد المنطق السليم والانصاف التي لها في انكلترة مكانة رفيعة .

— ١١ —

عينت لجنة ملكية للتحقيق في صيف عام ١٩٣٦ فبعثت الامل في انها ستبحث الموضوع من كل نواحيه وتكشف الحقائق ولكن الامل خاب لان تقريرها الذي نشر في يولية عام ١٩٣٧ وان انطوى من وجوه عديدة على ايضاح باهر ، الا أنه كان في الوقت نفسه عرضاً ناقصاً . فاذا نظرنا اليه على انه تلخيص رسمي وموثوق للموضوع وجدنا ان عجز اعضاء اللجنة عن المحافظة على درجة متساوية من الكمال عند بحثهم في اصول القضية قد انقص قيمته .

ان للتقرير بعض الميزات البارزة : فهو يحوي معلومات قيمة لم يسبق ظهورها في أي نشرة رسمية كما انه يخدم الحقيقة خدمة كبيرة بكشف النقاب عن بعض المغالطات التي كانت الحكومات البريطانية المتعاقبة تستند اليها في اعمالها وأقوالها منذ بداية الانتداب ، وبالرغم من ان الاعضاء بذلوا قصارى جهدهم لتجنب ما قد يزعج الاوساط الرسمية فان اللوم الذي وجهه تقريرهم الى الحكومة يشكل اتهاماً خطيراً وعادلاً ؛ ثم انه وصل في تحليله السياسة المتبعة حتى الآن في تنفيذ صك الانتداب الى درجة اتضح معها ان تلك السياسة كما جرى تحديدها غير قابلة للتطبيق وان الانتداب كما اثبتت نتائجه تجربة فاشلة . هاتان حقيقتان لا يمكن انكارهما ويعرفهما كل مراقب مستقل للحالة في فلسطين وإن ظل العالم الخارجي يجهلها لاختفائها وراء ضباب حاجب من الخرافة والدعاية ، هذه هي الأمور التي تجعل التقرير يخطو خطوة هامة الى الامام في طريق اعادة الحق الى نصابه فهو يكشف عدم صحة تلك التصريحات المتعددة التي تفوه بها رؤساء الوزارات والوزراء في مناسبات كثيرة بين عامي ١٩١٨ و ١٩٣٧ واكدوا فيها ان سياستهم في تأييد الوطن القومي اليهودي في فلسطين لا تتعارض مع العهود التي قطعوها للعرب .

على ان اعضاء اللجنة اضاعوا هذه الفرصة الفريدة من نواح اخرى فقد كان شأنهم شأن اعضاء لجنة الانتدابات الدائمة اذ سمحوا على ما يظهر للبراعة والاتقان اللذين اعتاد الصهيونيون عرض قضيتهم بهما ان يؤثرا في حكمهم ، وانهم اهملوا عن غير قصد واجبهم الذي يقضي عليهم كمحققين بان يكون بحثهم في مطالب العرب اقرب الى الدقة والكمال لأن العرب غير مجهزين بوسائل للعرض تضاهي وسائل الصهيونيين . على ان الذي يتضح من التقرير هو ان اعضاء اللجنة عملوا في الواقع عكس ذلك تماماً عند فحصهم شكاوى العرب السياسية والاقتصادية وعند درسهم التربة الاصلية التي نبتت فيها جذور هذه الشكاوى .

يعود بعض السبب في هذا النقص الى مقاطعة العرب للجنة ، تلك المقاطعة التي لم تنته الا قبل مغادرتها فلسطين ببضعة ايام بينما قضى اعضاؤها حتى ذلك الوقت سبعة اسابيع او ثمانية في سماع اقوال الشهود من البريطانيين واليهود فلما انتهت المقاطعة لم يكن في وسعهم تخصيص اكثر من خمسة ايام لسماع شهادات العرب ،ولا يجوز للعرب ان يلوموا غير انفسهم على ذلك ، ومع هذا فالحقيقة الثابتة هي ان اللجنة لم تستمع الا الى جزء من الحجج التي يمكن ايرادها من الجانب العربي . كان عدد الشهود العرب الذين مثلوا امامها حول اثنى عشر شاهداً ويقابل ذلك مايقارب المائة من الشهود البريطانيين واليهود وقد سمعت جزءاً هاماً من الشهادات بطريق الترجمة التي لم تكن صحيحة تماماً . وقد نتج عن عدم تمكن اعضاء اللجنة من تمديد اقامتهم في فلسطين انهم حرموا الوقت اللازم لتدقيق شهادات العرب بالصبر والاتقان اللذين عالجوا بهما الشهادات البريطانية واليهودية .

أما فيما يتعلق بالاصول التاريخية للقضية فلا يمكن تفسير النقص الظاهر في ابحاث اللجنة ، فانها في الوقت الذي تعالج مفصلاً الالتزامات الناشئة عن وعد بلفور تتعمد عدم الاحاطة بالعهود المقطوعة للعرب . من ذلك انها تأتي على ذكر بعض نصوص مراسلات مكماهون — ولم توردها كلها بحال من الاحوال — وتحللها ومع ذلك فانها لا تشير الى الوعد الذي قطع للحسين في يناير عام ١٩١٨ والخاص بعدى وعد بلفور كما انها لا تذكر البيان الموجه الى السوريين السبعة في يونيو عام ١٩١٨ ولكنها تحلل اتفاق فيصل وايزمن المحل الاول دون أن تشير الى التحفظات التي تمسك بها فيصل والتي تتعلق بحرية العرب السياسية والاقتصادية وقد عللت عدم تناولها الاصول التاريخية بشيء من التفصيل بالتعليل التالي :

« لقد رأينا أن التعليمات التي حددت مهمتنا لا ترغمنا على القيام

بحث مفصل وطويل في الوثائق التي كتبت قبل عشرين سنة والتي لا بد منها إذا اريد اعادة البحث في هذه القضية من أساسها . ونحن نعتقد اننا نحقق اغراض هذا التقرير اذا قلنا بأن الحكومة البريطانية لم تقبل قط بوجهة نظر العرب».

انه لعمر الحق تعليل مربك : فان اللجنة الملكية لم تعين إلا للتحقيق في الاضطرابات التي نشأت عن عدم قبول الحكومة البريطانية بوجهة نظر العرب قط . هذا من جهة ومن جهة ثانية فاننا نلمس تبايناً لا يمكن تفسيره بين الاستعداد الذي اظهرته اللجنة لبحث بعض الوثائق المكتوبة قبل عشرين سنة وبين اهمالها المقصود لباقي الوثائق التي لا تقل عن صاحباتها صلة بالموضوع ولا سيما أن اللجنة قالت ما يلي في فقرة آتية من التقرير :

« يحتم علينا الآن أن نبحث في ما ينطوي عليه وعد بلفور من معان . لقد سمح لنا باستعمال السجلات المتصلة بالموضوع ... » .

فلماذا يتعمد أعضاء اللجنة فحص السجلات المتعلقة بوعد بلفور بينما هم يعتقدون في الوقت ذاته أن فحص الوثائق المتعلقة بالوعود التي قدمت للعرب يخرج بهم عن التعليمات التي حددت مهمتهم ؟ إنه أمر غير واضح .

ليس هذا التفاوت ذا أهمية نظرية فحسب بل انه قد اضر بقيمة الدراسة التي قام بها الاعضاء وأفسد استنتاجاتهم الاساسية . إنهم لم يستكملوا جميع أسباب التحقيق فاخذوا بالحجة القائلة بان حقوق الصهيونيين والعرب في فلسطين متساوية وقنعوا بتبنيها وبهذا عملوا على ترجيح ادعاء باطل من الناحية التاريخية ووهمي من ناحية الحقوق الطبيعية ، ثم انهم بعد أن تبنوا هذا الادعاء وعدوه صحيحاً استندوا اليه في الحل الذي اقترحوه .

يستند الحل الذي اقترحته اللجنة الملكية الى الحجة القائلة بان حق العرب

واليهود في تملك فلسطين متساو وان البلاد ، إذن ، يجب أن تقسم بين الطرفين اما شكل التقسيم فقد اوضحه التقرير في مشروع التقسيم المدرج في نهايته . لقد أوصت اللجنة بان ينسلخ جزء من فلسطين يقع غرب نهر الاردن ويفوق كثيراً في مساحته منطقة استيطان اليهود الحاضرة لكي يشكل دولة يهودية ، وأن توضع المناطق المحيطة بالقدس وبيت لحم والناصرة تحت الانتداب البريطاني الدائم والغرض الظاهر من ذلك حماية الاماكن المقدسة الواقعة فيها ، وأن يضم الباقي الى شرق الاردن ليشكل دولة عربية ؛ على أن يتم الاعتراف بالدولتين العربية والصهيونية كوحدتين قوميتين تتمتعان بالسيادة والاستقلال وترشحان لعضوية عصبة الامم وترتبطان مع بريطانية العظمى بمعاهدتي تحالف تقومان مقام الانتداب الحالي . أما المنطقة البريطانية فيمنح من أجلها انتداب جديد .

إن الصفة البارزة لمشروع التقسيم هي أنه يعقد المشكلة التي يزعم حلها فهو يرمي الى تحويل الوطن القومي اليهودي المقترح الى دولة يهودية وتوسيع المساحة الحالية للاستعمار اليهودي بحيث تصبح أضعافاً مضاعفة عنها وتضم سكاناً مقيمين من العرب يبلغ عددهم ٣٠٠,٠٠٠ نسمة وتكون السلطة العليا فيها لليهود . وبعبارة اخرى فان هذا المشروع يجيب اعتراض العرب على وعد بلفور بأن يوصي باعطاء الصهيونيين اكثر بكثير مما تناوله ذلك الوعد بالفعل مهما اردنا التوسع في تفسير مداه ، كما أنه يجابه الصعوبات الناجمة عن اخراج العرب من اراضيهم بالايصاء باخراجهم على مقياس اوسع .

إن الحجج البينة التي اوردتها اللجنة في تأييد مشروعها لتدل على اهتمام اعضائها بايجاد حل من الحلول بدافع انساني فاذا استحقوا الثناء على ذلك فانهم لم يظهروا تبصراً بالامور أو تفكيراً عملياً يستحق الثناء مع انهم يدعون بان مشروعهم

يرمي إلى تحقيق ثلاثة امور : « يجب أن يكون قابلاً للتطبيق ، ويجب أن يكون متفقاً مع تعهداتنا ، ويجب أن ينصف العرب واليهود » . ومع ذلك فيمكن اقامة البرهان على أنه لم يحقق واحداً منها فهو غير قابل للتطبيق ولا يتفق مع تعهدات بريطانية ولا ينصف اليهود والعرب على السواء . وهناك ما يدل على احتمال كون اللجنة قد نظمت تقريرها على شيء من العجل لأن مشروع التقسيم يحوي علائم الارتجال السريع الذي يتنافى مع ما ينطوي عليه باقي التقرير من دلائل التفكير العميق . وان الاخطاء والمتناقضات التي يحويها المشروع لتقوي الاعتقاد بالنقص البادي في اعداده ، والشيء المحتمل هو أن اللجنة لم تقرر مسألة التقسيم نهائياً الا بعد أن سارت شوطاً بعيداً في كتابة التقرير وأنها لم تفعل ذلك الابعد ان اعتقدت على اثر سماع شهادات جديدة ان مشروعاً كهذا اذا تقدمت به قد يلاقي قبولاً حسناً عند بعض الزعماء العرب والصيونيين فيكتب له بالنتيجة أن يكون مقبولاً لدى عامة الناس . فاذا صح هذا الاستنتاج فانه يفسر امراً لا نجد له تفسيراً آخر الا وهو اعتقاد اللجنة بان مشروع التقسيم يبعث الامل في اقامة السلام في فلسطين .

يخيل لنا أن ضعف مشروع لجنة التحقيق ناشيء على الارجح عن خلطها بين ما ترغب الوصول اليه وبين ما هو عادل وقابل للتطبيق . إن الاضطهاد الشنيع الذي يجابه اليهود في أوربة الوسطى اليوم يجعل ايجاد مكان يلجأ اليه اكبر عدد منهم امراً مرغوباً فيه لا بل عاجلاً ويتحتم على اللجنة وعلى كل انسان واجب بذل منتهى الجهد في سبيل انقاذ اليهود وتخفيف آلامهم ، ومن دواعي فخر اللجنة الابدي أن تقريرها يدل على شعور اعضائها الاكيد بهذا الواجب ولكنها اساءت الى تقريرها بتنظيمها مشروعاً لا يمت الى العدالة بصلة كما أن تنفيذه مستحيل .

يقوم مشروع التقسيم على الاسس التالية : فهو يتوقع تخلي العرب طوعاً

أو كرهاً عن حقوقهم الطبيعية والسياسية في أي جزء من أجزاء فلسطين ، ويجعل من المحتمل اقامة الحدود دون الالتفات الى طبيعة البلاد أو الى العادات المتأصلة بين الناس في علاقاتهم ، ويرى أن ازدهار التجارة والادارة الصالحة ممكن في بلاد صغيرة لا تجاوز مساحتها مساحة مقاطعة ويلز بعد تقطيعها الى ست وحدات تقريباً مؤلفة من دول منفصلة ومقاطعات منعزلة وممرات ، وان شعباً مؤلفاً من ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ومستقراً على الارض ومتعلقاً تعلقاً شديداً بوطنه وثقافته يمكن أن يقبل بواحد من الحلين اللذين اقترحتهما اللجنة الملكية وهما اخلاء المنطقة بالقوة أو الخضوع الى سلطة دولة يهودية تقوم على رؤوسهم . إن المشروع ليتعارض مع الدروس التي القاها التاريخ ومع الضرورات الجغرافية والتفاعل الطبيعي للقوى الاقتصادية ونواميس السلوك الاعتيادية السائدة بين البشر كما أنه يأتي مجدداً بحلول شبيهة بأشد حلول معاهدة فرساي خزياً وخطراً وهو لا يعير التفاتاً كبيراً الى مبدأ رضاء الشعوب . ويظهر أن اللجنة حين أتت بمشروعها نسيت انه لم يعد من المعقول اخراج الفلاحين من أرضهم وفرض حكم اجنبي على شعب يكرهه الا باللجوء الى القوة بصورة مستمرة وان اللجوء الى القوة الغشمة لاخضاع شعب قد تنبه وعيه القومي لابد له من أن يؤدي الى القضاء على أهدافه نفسها إما عاجلاً أو آجلاً وإن نجح موقتاً لتحقيق غرضه الآني .

يمكننا ان نقدر الاعتراضات الموجهة الى المشروع من الناحيتين الخلقية والسياسية اذا عدنا الى ابحاثنا في الابواب السابقة ، اذ لا يمكن في حال من الاحوال ان نعد المشروع متفقاً مع العهود التي قطعتها بريطانية اذا نظرنا الى تلك العهود بمجموعها ودرسنا جميع الوثائق المتعلقة بالموضوع دراسة تامة ، ولم نتبع اسلوب اللجنة

الملكية حين فرزت المواضيع لتختار منها ماتشاء . وبالاضافة الى ذلك فلا مبرر للادعاء بان المشروع ينصف العرب واليهود على السواء ذلك الادعاء الذي ورد في نهاية التقرير مؤيداً بالبحث المستفيض والاصرار البليغ على لزوم التراضي مع أنه ادعاء لايستقيم امام الباحث المدقق الذي يجد انه ليس مبنياً على اساس متين بل يعتمد اللباقة اللفظية . فان المشروع في جوهره قد بالغ في منح اليهود اكثر مما يملكونه اوما وعدوا به كما بالغ في حرمان العرب مما يملكونه اوما وعدوا به. واما المطالبة بلزوم التراضي فهي تعني في الواقع مناشدة العرب بمغادرة البلاد لكي يفسحوا المجال لاقامة دولة يهودية . لقد كانت حجة اللجنة اقوى لو انها استندت الى الرغبة الاكيدة في ايجاد التراضي الصحيح اي طلب التضحية من الجهات الثلاث صاحبة العلاقة على قدم المساواة ولكن ماعملته اللجنة في الواقع هو مطالبة كل جهة بشيء يختلف عن الاخرى : فقد طالبت العرب بتضحية حقيقية ومادية وهي التنازل عن شيء يملكونه ويودون الاحتفاظ به ، وطالبت الصهيونيين بتضحية اسمية وهي الحصول على شيء لايملكونه ولكنهم راغبون في اخذه ، اما الدولة المنتدبة فلم تطالب باية تضحية وسبب ذلك ان المشروع وضع بقصد السماح لبريطانية بالاحتفاظ بمركزها الاستراتيجي والاقتصادي وتمكين الصهيونيين من ان يصبحوا الاسياد المطلقين لفلسطين الشمالية والغربية وان يتحقق هذان الهدفان على حساب العرب .

إن ما يعترض المشروع من عقبات كثيرة خلقية وسياسية وعملية لهائل حقاً ويجعله غير قابل للتطبيق بكل تأكيد ولا حاجة بنا الى التوسع في تحليله لانه لن يوضع موضع التنفيذ بتاتاً . ان جهود اللجنة الفنية التي عينت في ربيع عام ١٩٣٨ لدراسة طرق التنفيذ واساليبه لم تثمر بعد فقد قضت ثلاثة شهور في فلسطين والثورة

قائمة ضد التقسيم على قدم وساق وبالرغم من انها لم تستطع الاطلاع على وجهة نظر العرب لانهم قاطعوها فمن المحتمل ان تكون قد ادركت بأن رغبة الفلاحين العرب في عدم التخلي عن اراضيهم هي رغبة صادقة ومتأصلة في اعماق نفوسهم .

-١٢-

سادت عن فلسطين فكرة مشوهة انتشرت اكثر من غيرها ألا وهي ان المشكلة الفلسطينية ماهي الا نتيجة لشغب مرتب وقد نسب هذا الشغب الى مصادر مختلفة فيقال تارة إنه ناشئ عن دسائس طبقة (الافندية) وطوراً عن اطماع المفتي الاكبر السياسية وطوراً عن صنائع ايطالية وألمانية وأموالها وطوراً عن المؤامرات الشيوعية. ومن الافكار التي تعرض عادة — وأحياناً بإخلاص — ان المشكلة ما كانت لتحدث لولم يضلل الجمهور العربي بل ترك وشأنه ليجني الثمرات الكاملة من المنافع التي اتاه بها الانتداب . وليس من شك اليوم في ان رأياً كهذا إنما هو وليد عمى في البصيرة فإن بعض الاضطرابات التي وقعت في السابق قد عللت بالتعليل ذاته ، ولكن تبين فيما بعد من التحقيق الذي كانت تقوم به اللجان المعينة لهذا الغرض ان السبب الأساسي دوماً ناشئ عن تعلق العرب الوثيق بأرضهم وبتراثهم الفكري . وما ثورة اليوم إلا ثورة شنها القرويون ، وهذه الظاهرة أوسع اليوم منها في السابق ، وسبب الثورة المباشر هو مشروع التقسيم المقترح ولا سيما ذلك الجزء منه الذي يهدف إلى ترحيل عدد كبير من مزارعي العرب في المستقبل ليحل محلهم الرعايا المهاجرون للدولة اليهودية العتيدة . وليست الادمغة المفكرة في هذه الثورة من الزعماء الوطنيين لأن اكثرهم في المنفى بل ان قوادها رجال من الطبقات العاملة والمزارعة غامروا بارواحهم لاعتقادهم بان الثورة هي الوسيلة الوحيدة التي بقيت أمامهم للمحافظة على منازلهم وقراهم ، واذن فان القول

بانها من صنع جماعة من المشاغبين العرب والاجانب إنما هو وهم من الاوهام . قد ينجح التحريض السياسي إلى حد بعيد في تحريك نيران التذمر ولكنه لا يستطيع أن يبقي الثورة حية وقائمة شهراً بعد شهر في أحوال بلغت من العنف والشدة هذا المبلغ .

ليست الثورة بعيدة عن صنع الزعماء فحسب بل هي ، بشكل واضح جداً ، تحدٍ لسلطتهم وتجريم لاساليبهم. فان قواد الثورة ينسبون مصيبة المزارعين العرب في الوقت الحاضر الى اولئك المالكين الذين باعوا أراضيهم ويتهمون الزعماء بالاهمال الجاني لاخفاقهم في منع البيوع اذ لم يكن للفلاحين رأي في معظم تلك البيوع التي ادت الى اخراجهم من أراضيهم . يستطيع المالك الذي بيده سند التملك أن يتصرف بارضه كما يشاء ومن جملة الشروط التي ينص عليها عقد البيع وجوب تسليم الارض للشاري خالية من جميع المتصرفين واضعي اليد ومن حقوق التمتع . ان كثرة الثوار تتألف من الفلاحين أي الجماعات التي تتصل حياتها ووسائل عيشها بالارض ولكنها غير ذات علاقة بالتصرف بها . وإن غضب هؤلاء الثوار وعنفهم لموجهان ضد المالكين والسماسرة العرب الذين سهلوا البيوع بدرجة ماهوموجه ضدسياسة الدولة المنتدبةالتي تمت الصفقات تحت حمايتها . ولئن كان بين هؤلاء المالكين من اشتركوا في هيئات عربية وطنية فهذا مما يزيد في كره المزارعين الثوار لهم ويجعلهم أقل انقياداً لتأثير الزعماء السياسيين بصورة عامة .

ومن الأفكار المشوهة والخطيرة أيضاً ما يتعلق بالنتائج الاقتصادية لأعمال الصهيونيين . فان هناك اعتقاداً شائعاً بأن الشعب العربي قد أفاد فائدة كبرى من تلك الأعمال وقد حار الكثيرون من المفكرين حيرة صادقة في أمر هؤلاء العرب وما أبدوه من نكران للجميل ظاهر ومن عجز عنيد عن

فهم المنافع الجديدة التي تقدمها تلك الأعمال فيما إذا استمرت . ومما يزيد في هذه الحيرة رؤية الادارة البريطانية في فلسطين وما أنتجته من تقدم محسوس في حكم البلاد وفي الوضع المادي للسكان العرب .

إن لهذا الأمر تفسيرين : الأول ، إن صح القول بأن مشاريع اليهود ورؤوس أموالهم قد عملت إلى حد بعيد على نمو البلاد اقتصادياً واستغناء عدد من المالكين العرب وارتفاع أجور اليد العاملة عند العرب ، فمن الثابت أيضاً أن هذه الحالة قد خلقت احتياجات وأعباء جديدة . ان الادارات العامة التي خلقتها سياسة الانتداب – مثل التدابير الخاصة الناشئة عن مقتضيات الأمن العام وتعدد الدوائر بسبب فرض العبرية كلغة رسمية وتضخم باب الأجور في الموازنة في التعهدات العامة لا لسبب سوى الرغبة في إيجاد العمل للأيدي العاملة اليهودية – ان هذه الادارات قد قضت بايجاد عدد من الوظائف كبير جداً ومكاف بحيث لا يتناسب مع صغر حجم البلاد فأدت بالتالي إلى تخصيص جزء كبير من الموازنة العامة للانفاق غير المثمر . وأما إنشاء الصناعات اليهودية فقد أدى الى فرض رسوم كمركية مرتفعة لحمايتها وهذا بدوره أدى إلى ارتفاع في أسعار الحاجيات ولا سيما في الصناعات المحدثة أي التي تعتمد على مواد خام تستوردها من الخارج . ثم إن دخول عدد كبير من السكان إلى البلاد بسرعة قد ولد ارتفاعاً شاذاً في تكاليف الحياة في كل مكان أي في المدن كما في القرى . ليس لدينا أرقام نأخذها عن إحصاء موثوق ولهذا يصعب علينا أن نقارن بين المنافع الاقتصادية وما يقابلها من أعباء بغية تعيين المقدار الذي تمحوه الثانية من الأولى ومع ذلك فمن الحقائق التي لا يمكن انكارها ، وإن كان نصيبها الاهمال في الغالب ، ان الوضع الاقتصادي للسكان العرب عامة ولا سيما

للفلاحين منهم لا يكاد يختلف في قليل أو كثير عما كان عليه منذ أجيال وهذا بالرغم من الثروة التي جناها عدد من المالكين والوسطاء .

وأما التفسير الثاني فهو أن الحجة الاقتصادية لا تستقيم أمام الاعتبارات الخلقية والسياسية . فان القضية بالنسبة للعرب هي الآن قضية المحافظة على بقائهم ولم تكن هذه وجهتهم دوماً في السابق ففي أيام الانتداب الأولى كان المصدر الأول لتذمر العرب حرمانهم من الاستقلال وبالرغم من وجود بعض الدلائل المشيرة إلى تخوفهم من المستقبل وبالرغم من أن مخاوفهم كانت من جملة العوامل الباعثة على وقوع الاضطرابات الأولى إلا أن هذه المخاوف كانت متعلقة بأهداف الصهيونية البعيدة أكثر من تعلقها بنتائجها المادية لأن الاستعمار اليهودي لم يكن آنئذٍ قد تقدم تقدماً كبيراً. وبعد ذلك طرأ تحول كبير في أذهان العرب بسبب تدفق الهجرة اليهودية التي بدأت عام ١٩٣٢ بشكل لم يسبق له مثيل وما رافقها من توسع في الاستعمار اليهودي ، فانتجت في الظاهر رخاءً عاماً في البلاد كما سببت ازدياداً كبيراً في مخاوف العرب التي أصبح لها في هذه المرة أساس مادي ملموس . فان الهجرة اليهودية اذا استمرت بمعدل هجرة عام ١٩٣٥ فقد يصبح اليهود أكثرية بعد عشر سنين بينما كانوا يشكلون ٨ ./. من مجموع السكان في عام ١٩١٨ ، فلو فرضنا ان مشاريع اليهود ورؤوس اموالهم كانت تجلب المنافع الطائله دون أن يكون الى جانبها من المضار ما ينقص قيمتها فان هذه المخاوف تبقى العامل الاساسي المؤثر في موقف العرب ولا بد لها من أن تؤدي الى وقوع انفجار كالذي حدث عام ١٩٣٦. على ان موقف العرب اشتد نهائياً عام ١٩٣٧ حين ذاع أن اللجنة الملكية قد اقترحت التقسيم وان الحكومة البريطانية قد أخذت بجوهر هذا الاقتراح وهكذا انقلبت مخاوف

العرب من تجريدهم في النهاية من ارضهم فاصبحت يقيناً بفضل مشروع اللجنة الملكية وما اقترحت من ترحيل جزء كبير من السكان العرب عن بيوتهم وقراهم في المنطقة المخصصة لاقامة الدولة اليهودية العتيدة أو اخضاعهم لسلطتها ، فاصبحت القضية في نظر العرب قضية المحافظة على الحياة فكان طبيعياً اذن ان تختفي الاعتبارات الاقتصادية امام اعتبارات كهذه . ان اعمال العنف التي حدثت بعد نشر تقرير اللجنة الملكية قد دمرت الريف العربي بدرجة تدميرها ذلك الجزء الذي انتقل الى ايدي اليهود ومنذ ذلك الحين توسعت الاضطرابات فاصبحت ثورة يلعب الفلاحون والعمال الدور الاول فيها لأنهم حين يئسوا لجأوا الى العنف وهو الوسيلة الوحيدة التي يستطيعون بها مقاومة التقسيم .

— ١٣ —

لايؤمل ان يوجد للقضية الفلسطينية حل دائم مالم يزل الحيف تماماً . اما العنف ، سواء أكان مادياً ام معنوياً ، فلا يمكن ان يأتي بحل . وليس العنف محلاً للوم لذاته فحسب بل ايضاً لانه يحول بصورة متزايدة دون حصول التفاهم بين العرب والبريطانيين واليهود . على انه مما لاشك فيه ان لجوء العرب الى العنف قد ولد اهتماماً صادقاً بشكواهم وهي نتيجة لم يتوصلوا اليها بمحاولاتهم السلمية في القدس ولندن وجنيف خلال عشرين سنة ومع ذلك فان العنف يقضي على الاهداف التي يسعى الى تحقيقها وهو ان حقق بعض الظفر المباشر فهو في الغالب مصحوب بضرر ينقص قيمته . إن الارهاب الذي يسود فلسطين اليوم لايمكن ان يولد الا الضرر ولكن الطريقة الحكيمة التي يجب اتباعها لانهائه هي ازالة الاسباب التي خلقته . ان هناك حقيقة تجب مواجهتها الا وهي ان عنف العرب في فلسطين ماهو الا النتيجة التي لامفر منها للعنف المعنوي الذي جوبهوا به وانه لاينتظر ان يقف

عند حد ، مهما بالغت اساليب القمع في وحشيتها ، مالم يوضع حد للعنف المعنوي نفسه.

إن سبيل الحل واضح لعيون اولئك الذين ينظرون بعيداً الى الامام ويخترق بصرهم الدخان الحاجب الذي بعثته الخرافات والدعايات : إن هذا السبيل يقع في اتجاه التفكير العادي السليم وفي اتجاه العدالة . لايتسع المكان لشعب ثان في بلاد مأهولة ، وقد احس سكانها بالوعي القومي احساساً كاملاً ، وتعلقهم بمنازلهم وبريفهم تعلق لايمكن القضاء عليه . واما الدرس الذي القته المحاولات المبذولة حتى الآن لوضع اسس دولة يهودية في فلسطين فهو انها قلبت البلاد الى مجزرة لابسبب كره متأصل في نفوس العرب نحو اليهود او لفقدان العطف على مصيبتهم بل لانه لايمكن انشاء دولة يهودية في فلسطين الا بعد استعمال القوة لترحيل شعب مزارع قد اظهر استعداده للموت دفاعاً عن ارضه . واذا نظرنا الى القضية من هذه الجهة وحدها ولم نلتفت الى الاعتبارات السياسية ادركنا ان محاولة تحقيق الحلم الصهيوني لاشك صائرة الى فشل محتم . واول خطوة في طريق ايجاد الحل هي في مواجهة هذه الحقيقة بشكل موضوعي (١) وادراك مايبنى عليها .

إن انشاء دولة يهودية في فلسطين او انشاء وطن قومي لليهود على اساس السيادة المكانية لايمكن تحقيقه الا بعد ترحيل العرب بالقوة ، هذه هي الحقيقة وفور مواجهتها يتضح السبيل المؤدي الى الحل . ليس ايجاد الحل فوق طاقة رجال السياسة من بريطانيين ويهود وعرب ويخيل لنا ان ليس هناك سبب معقول يمنع اقامة دولة عربية مستقلة تضم عدداً من اليهود تستطيع البلاد تحمله دون ايقاع الضرر بحريتها السياسية والاقتصادية ويعيشون فيها بسلام وامان واحترام ويتمتعون بحقوق المواطنين كاملة . إنه من الطبيعي ان ترتبط دولة عربية كهذه مع بريطانية

---

(١) Objective

بمعاهدة تعقد بعد مفاوضات حرة وتنص على ضمانات لحفظ مصالح بريطانية الاستراتيجية والاقتصادية وتصون حرية الاماكن المقدسة عند كل الاديان وتحمي جميع الاقليات وتحفظ حقوقها وتمنح الطائفة اليهودية اوسع حرية لتحقيق اهدافها الروحية والفكرية .

إن حلاً يبتدع على هذه الاسس لهو حل عادل وقابل للتطبيق فانه يحمي حقوق العرب الطبيعية في فلسطين ويحقق امانيهم القومية المشروعة ، ويسمح لليهود بان يكون لهم وطن قومي بالمعنى الروحي والفكري تزدهر فيه القيم اليهودية ويجد فيه النبوغ اليهودي منتهى الحرية للبحث عن الوحي في البلاد التي كان متصلاً فيها قديماً ، ويؤمن مصالح بريطانية على اساس متين مبني على الرضى ، ويعيد فلسطين الى مكانها اللائق كرمز للسلام في قلب اليهودية والنصرانية والاسلام .

لانظن أن هناك حلاً آخر قابلاً للتطبيق اللهم إلا بازهاق عدد هائل ولا يمكن تقديره من ارواح العرب واليهود والبريطانيين . أما الملجأ الذي يأوي اليه اليهود المتألمون هرباً من اضطهادهم في أوربة فيجب أن يبحث عنه في غير فلسطين لأن حجمها الصغير يحول دون قبولها عدداً اضافياً من السكان ولأنها حتى الآن قد تحملت فوق طاقتها . لقد قامت بريطانية بالدور الأول في هذا العمل الخيري تجاه اليهود على حساب العرب فيترتب عليها الآن أن تلقي نظرة على امبراطوريتها الواسعة وما تحويه من موارد كبيرة فتطبق فيها ذلك الكرم الذي قامت حتى الآن بحثّ الغير عليه كما يترتب على البلاد الاخرى التى تفخر بانها متحضرة وذات اهداف إنسانية أن تعيد النظر في المقررات الهزيلة التي اتخذتها في مؤتمر افيان وترضى ببعض التضحيات التي قدمتها فلسطين العربية وهي صاغرة على مقياس تجاوزت فيه حدود طاقتها .

إن ما لقيه اليهود في المانية وغيرها من بلدان أوربة ليشكل عاراً على اصحابه وعلى المدنية الحديثة ، ولكن الاجيال القادمة لن تغفر لأي بلد تهربه من النهوض بقسطه من التضحية اللازمة لتخفيف مصاب اليهود وآلامهم . وأما إثقال كاهل فلسطين العربية بالحمل كله فهو تخل مشين عن الواجب المفروض على العالم المتمدين كله وهو بالاضافة الى ذلك عمل مشين من الناحية الخلقية اذ لا يوجد قانون من قوانين الاخلاق يبيح اضطهاد شعب سعياً وراء رفع الاضطهاد عن شعب آخر . إن طرد اليهود من ألمانية لا يجوز أن يعالج بطرد العرب من وطنهم كما أن تخفيف مصاب اليهود لا يجوز أن يتم بفرض مصاب مماثل على شعب بريء ومسالم .

لن يكون الاخذ بهذا الحل سهلاً فقد غذيت آمال اليهود حتى بلغت حداً لا بد له من أن يولد لديهم خيبة ومرارة شديدتين فيما إذا لم يتحقق الحلم الصهيوني بايجاد دولة يهودية في فلسطين . إن البراهين العديدة ، كروح التفاني في سبيل المجموع والقدرة على تحمل المشقات ومجابهة الاخطار في سبيل بناء الوطن القومي ، لتدل على تفاني قسم كبير من الشعب اليهودي في سبيل تحقيق غايات الصهيونية المثلى ولا شك أن في الصدمة التي تمنى بها آمال اليهود لقسوة جديدة لو كانت هناك واسطة لتحقيق تلك الآمال دون أن يكون نتيجة ذلك قسوة مماثلة نحو شعب آخر . ولكن منطق الوقائع لا يرحم : فهو يدل على أن فلسطين لا تتسع لشعب ثان إلا بترحيل الشعب المالك او إفنائه .

فهرس الكتاب

الباب الاول

الباب الثاني

الباب الثالث

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

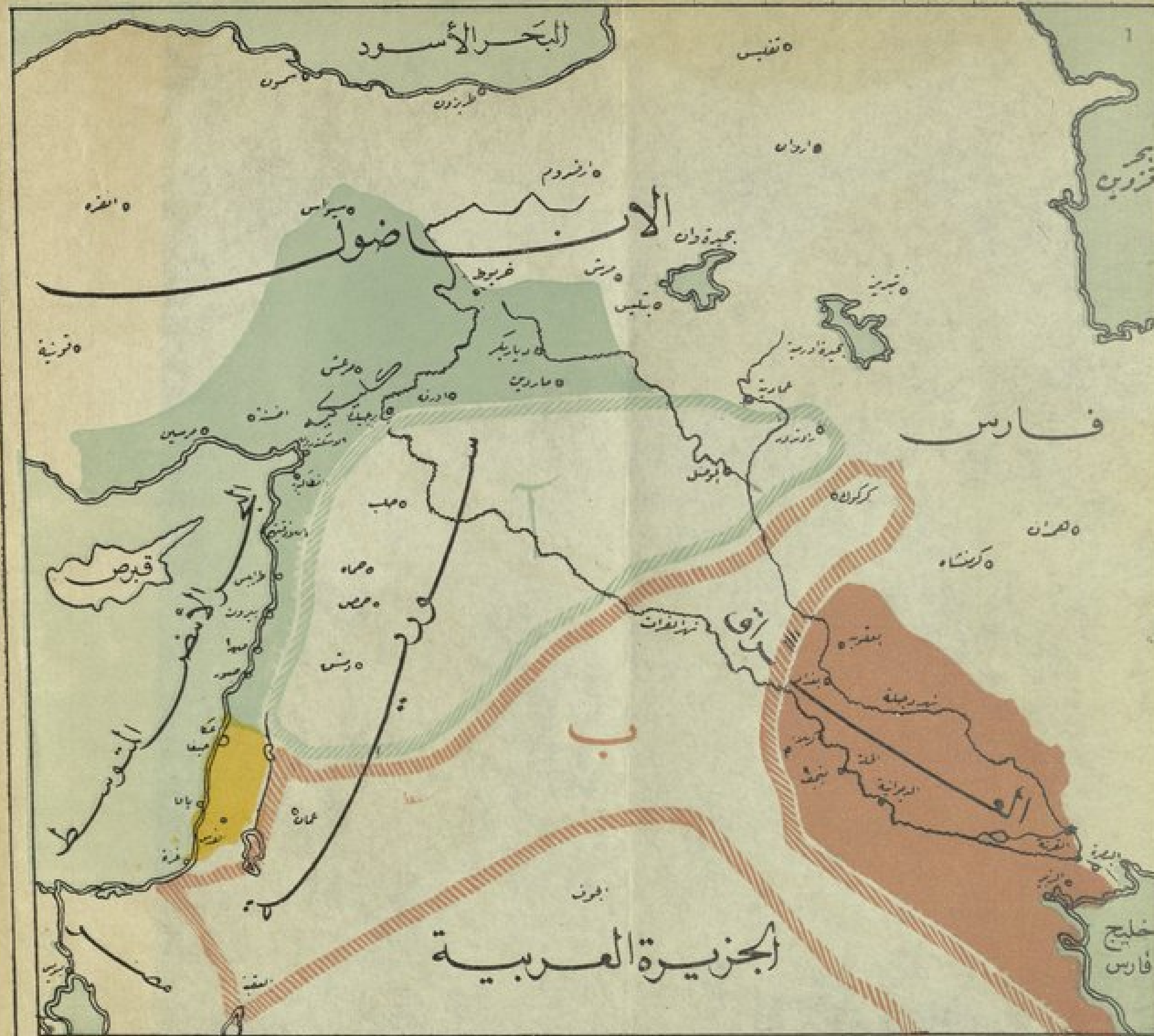
الباب السابع

الباب الثامن

الباب التاسع

الباب السادس عشر

٣٨٤ — العراق وسورية وفلسطين بعد الحرب



تقسيم بلاد الشام والعراق

كما نص عليه اتفاق عام ١٩١٦ "سايكس بيكو"

الرقم ٤

المصورات

جميع المصورات منقولة عن الأصل الانكليزي .
الغلاف من وضع ورسم الاستاذ سعيد تحسين .
كتابة الغلاف والمصورات للخطاط الاستاذ حلمي حباب .
الطبع في مطبعة الترقي — دمشق